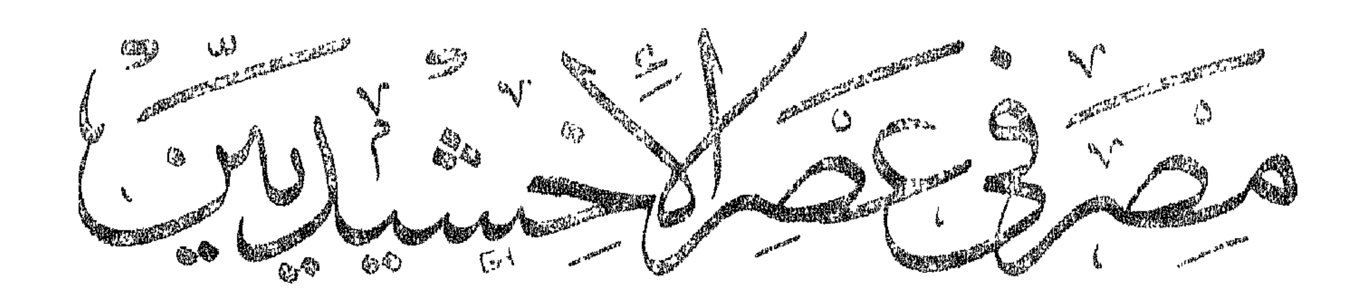


مصر في عصر الإخشيديين

تأليف

الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

المدرسة بمعهد التربية للمعلمات بجامعة ابراهيم باشا الكبير

دكتورة في الآداب بتقدير ممتاز ، وماجستير برتبة الشرف الأولى

وليسانس ممتازة من جامعة فؤاد الأول

ودبلوم بامتياز من معهد التربية للمعلمات

مطبعة جامعة فؤاد الأول

القاهرة — ١٩[illegible]٠

مصر في عصر الاخشيديين

مصر في عصر الاخشيديين

تأليف

الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

المدرسة بمعهد التربية للعلمات بجامعة ابراهيم باشا الكبير

دكتورة فى الآداب بتقدير ممتاز ، وماجستير برتبة الشرف الأولى

وليسانس ممتازة من جامعة فؤاد الأول

ودبلوم بامتياز من معهد التربية للمعلمات

مطبعة جامعة فؤاد الأول

القاهرة — ١٩٥٠

الفهـــــرس

تصدير

مقـــدمة

الباب الأول

مصر قبيل قيام الاخشيد

صحيفة

الباب الثانى

أسرة الاخشيد

الباب الثالث

علاقة الأمراء الاخشيديين بالدولة العباسية

الباب الرابع

الأمراء والبلاط

الباب الخامس

الادارة والموظفون

صحيفة

الباب السادس
القضاء والمظالم والحسبة

الباب السابع
دراسات فى المجتمع المصرى على عهد الاخشيديين

الباب الثامن
الآثار والفنون

صحيفة

الباب التاسع

الفقهاء والعلماء والأدباء

الباب العاشر

السياسة الداخلية

الباب الحادى عشر

العلاقات الخارجية والغزو الفاطمى

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

موضوع هذا الكتاب « مصر فى عصر الاخشيديين » ، أى تاريخ مصر الإسلامية فى فترة أربع وثلاثين سنة من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، أو على وجه التحديد بين عامى ٣٢٣ و ٣٥٨ هـ (٩٣٥ — ٩٦٩ م) .

وقد دفعنى إلى الكتابة فى تاريخ هذه الفترة رغبتى فى أن يستكمل المؤرخون المصريون المحدثون دراسة تاريخ مصر الإسلامية فى مراحله المختلفة . وقد قام أساتذة كلية الآداب فى جامعة فؤاد الأول وقام تلاميذهم من أبناء هذه الكلية بنصيبهم فى هذا الميدان ، فكتبوا فى تاريخ مصر فى عصور الطولونيين والفاطميين والمماليك . وأتيح لى شرف المساهمة فى هذا المضمار بالكتابة فى تاريخ مصر فى فجر الإسلام أى منذ الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية . ورأيت بعد ذلك أن عصر الاخشيديين لم يظفر حتى الآن بدراسة علمية مفصلة على الرغم مما له من شأن فى تاريخنا الإسلامى بوصفه — بعد العصر الطولونى — الفترة التى وضع فيها أساس استقلال مصر عن الخلافة ، والتى مهدت للفتح الفاطمى وقيام خلافة فى وادى النيل تناهض الخلافة العباسية وتجعل مصر قطب الرحى فى تاريخ الشرق الاسلامى .

وقد بدأت الكتاب ببحث مفصل فى تاريخ الفترة الواقعة بين سقوط بنى طولون وقيام الدولة الاخشيدية ، لأن تاريخ الاخشيديين لا يفهم حق الفهم قبل دراسة تلك الفترة التى مهدت لقيام محمد بن طغج الاخشيد والتى تربطها بتاريخ الاخشيديين أواصر وثيقة .

وحملت نفسى فى هذا الكتاب على الإيجاز فى عرض النظريات العامة والآراء الفقهية التى ترد فى كتب التاريخ ، ويمكن الافادة منها فى دراسة النظم الإسلامية بوجه عام . ورأيت أن ألتزم دراسة الاحداث التاريخية ونظم الحكم وأحوال المجتمع فى العصر الذى نحن بصدده وأن أطنب فى سرد القصص والحوادث التى تستنبط منها الحقائق التاريخية عن هذا العصر .

أما المصادر التى رجعت اليها فكثيرة ومتنوعة . ولكن بعضها يستحق أن أخصه ببعض الاشارة فى هذا التصدير . ولست أعرض هنا للمعاجم وكتب التراجم والموسوعات والمؤلفات الأساسية فى التاريخ والأدب وتقويم البلدان والفقه ، وما إلى ذلك ، مما لابد من الرجوع اليه لكل باحث فى التاريخ الإسلامى ، فسوف يأتى ذكرها جميعاً فى حواشى الكتاب وفى ثبت المراجع فى نهايته .

ومما يلاحظ فى مصادر التاريخ الإسلامى بوجه عام قلة الوثائق المحفوظة التى يمكن الاعتماد عليها والتى تعتبر عادة أهم المصادر لدراسة المجتمع . والواقع أن مثل تلك الوثائق الإدارية والقضائية والمكاتبات الخاصة تصور لنا حياة الشعوب تصويراً دقيقاً على نحو ما نرى فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . ولكن كثيراً من الوثائق المحفوظة فى تاريخ العصور الوسطى الأوربية مصدره الكنيسة والامارات الاقطاعية وهيئات المدن والصناع وما إلى ذلك من الهيئات التى كانت تعنى بالاحتفاظ بمثل هذه الوثائق التى تكسبها حقاً أو تثبت تقليداً . أما فى الإسلام فكان المرجع فى نظام المجتمع فيه إلى القرآن الكريم والسنة ، ولم تكن ثمة حاجة إلى مثل تلك الوثائق ؛ ولذلك كانت الوثائق التى وصلت الينا من تاريخ الإسلام فى العصور الوسطى وثائق حكومية وليس من بينها وثائق كثيرة لهيئات مختلفة من المجتمع يمكن أن نستنبط منها شيئاً كثيراً عن حياة الشعب ، فضلا عن أنها بوجه عام ليست من الكثرة بحيث نستطيع أن نستنبط منها أحكاماً عامة مطمئنين إلى أن مثل هذه الأحكام لا تكون خاصة بحالات استثنائية .

ومهما يكن من الأمر فقد أفدت في دراسة العصر الاخشيدى من بعض ما جاء في الأوراق البردية المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، والتى نشرها الأستاذ أدولف جرومان ، ومن بعض نصوص فى أوراق بردية لم ينشرها الأستاذ جرومان بعد ولكنه تفضل فأطلعني عليها . وأفدت أيضاً من نصوص أوراق بردية محفوظة فى مجموعة الأرشيدوق رينر بالمكتبة الأهلية فى ڤينا .

ورجعت إلى ما ألف من الكتب عن السكة الاسلامية لكشف المعروف من النقود الاخشيدية ومحاولة استنباط بعض الحقائق التاريخية من الأسماء والنصوص المنقوشة عليها .

وأفدت كثيراً من الحواشي والبيانات التى دونها ڤان برشم وڤييت فى الجزءين الخاصين بمصر من كتاب جامع الكتابات العربية (Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte) ، كما اعتمدت على بعض الكتابات الأثرية التى جمعها سوفاجيه وكومب وڤييت فى السجل التأريخى للكتابات العربية (Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe) .

أما ما كتب عن الأخشيديين فى المراجع التاريخية القديمة فنوعان : الأول ما كتبه المؤرخون المصريون فى العصور الوسطى الاسلامية ، وطبيعى أنهم يمثلون وجهة النظر المصرية وأن تاريخ مصر نفسه هو أساس ما كتبوه ، ولكنهم يعرضون لتاريخ الخلافة وسائر ديار الاسلام ولا سيما ما يتصل منه بتاريخ مصر ، والثانى ما جاء فى مؤلفات المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ الخلافة والامبراطورية الاسلامية بوجه عام ، وطبيعى أنهم يمثلون وجهة نظر الخلافة ، ولكنهم يعرضون أحيانا لتاريخ الاخشيديين ، ولا سيما ما يتصل بعلاقاتهم بسائر ديار الاسلام . ولاشك فى أن كلا النوعين يكمل أحدهما الآخر .

وممن يمثل النوع الأول الكندي وابن زولاق والمقريزى وأبو المحاسن والسيوطى . أما الكندى فقد عاصر الاخشيديين وتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، وسوف نفصل الكلام عليه فى الباب الذى سنعقده فى هذا الكتاب للحديث عن العلماء والأدباء . وكتابه

الأساسي الذى وصل إلينا هو كتاب الولاة وكتاب القضاة الذي نشره المستشرق الانجليزى رفن جست (Rhuvon Guest) سنة ١٩١٢ ، وقد تحدث الكندى في كتاب الولاة عن تاريخ مصر منذ فتحها العرب حتى وليها أبو القاسم أونوجور بن الاخشيد سنة ٣٣٥ ، فهو مرجع معاصر عظيم الشأن فى تاريخ الفترة التي سبقت قيام الدولة الاخشيدية وفى تاريخ الاخشيد نفسه . أما تاريخ خلفاء الاخشيد فان الكندى لم يعرض له . والمعروف أن ابن زولاق كتب ذيلا لكتاب الكندى أتم فيه تاريخ الدولة الاخشيدية ووصل إلى بداية الدولة الفاطمية فى مصر ، ولكن الراجح أن التذييل الذى نشر فى طبعة جست من كتاب الولاة ليس هو الذيل الذى كتبه ابن زولاق وإنما هو لمؤلف مجهول . وسوف نعرض لهذه المسألة عند ما نقف للموازنة بين بعض النصوص التاريخية بشأن التكييف القانونى لحكم كافور . وتحدث الكندى فى كتاب القضاة عمن ولى القضاء فى مصر من سنة ٢٣ هـ إلى سنة ٢٤٦ ولكن أحمد بن عبد الرحمن بن برد كتب ذيلا له انتهى به إلى سنة ٣٣٦ هـ ، وقد أفدت من هذا الذيل كما أفدت من الملحق الذى نشره جست واستوفى به أخبار القضاة الذين ولوا بمصر بين سنتى ٢٣٧ و ٤١٩ نقلا عن كتاب رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وكتاب النجوم الزاهرة بتلخيص أخبار قضاة مصر والقاهرة لجمال الدين يوسف بن شاهين سبط ابن حجر ، وكتاب تاريخ الاسلام للذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ .

ولكن أهم مرجع فى تاريخ الاخشيديين هو ابن زولاق لأنه كان معاصرا لهم وعنى بتاريخهم عناية خاصة فقد ولد سنة ٣٠٦ هـ وتوفى سنة ٣٨٧ وسوف نفصل الكلام عليه أيضا فى الفصل الذى نعقده فى هذا الكتاب للعلماء والأدباء فى العصر الاخشيدى والذى يعنينا هنا من آثاره العلمية كتابان : الأول سيرة الاخشيد والثانى أخبار سيبويه المصرى . أما كتاب سيرة الاخشيد فقد ذكره ياقوت فى ترجمته لابن زولاق فى معجم الأدباء (جـ ٧ ص ٢٢٥ وما بعدها) وذكره ابن سعيد فى كتاب المغرب (ص ٤ — ٥) والمقريزى فى الخطط (جـ ٢ ص ٢٥ وص ١٨١) . ولكن هذا الكتاب

لم يصل إلينا مستقلا قائما بذاته وإنما نقله ابن سعيد المؤرخ المغربي فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » والواقع أن سيرة الاخشيد لابن زولاق قوام جزء كبير من السفر الرابع من كتاب المغرب سماه ابن سعيد « كتاب العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج » ونقل فيه فضلا عن سيرة الاخشيد لابن زولاق أخبارا عن الاخشيديين من تاريخ الكامل لابن الأثير ومن تاريخ مصر للقرطى .

وقد نقل ابن سعيد عن الحسن بن زولاق أن الذى دعاه إلى كتابة سيرة الاخشيد أنه قرأ سيرة هذا الأمير بقلم محمد بن موسى بن المأمون الهاشمى وأتى على عيوبها . والظاهر أن الهاشمى كتبها للاخشيد فى آخر أيامه ليتقرب بها إليه ولكن الاخشيد أدرك أنها أقرب إلى الذم منها إلى المدح لأن المؤلف أطنب فى ذكر نفقاته واقتصاده وحامه ومحبته للسلم والصفح ولم يذكر « أبوته ولا موضعه ولا ولاياته ولا حروبه ولا سفراته ولا أفعاله مع أعدائه » . ولذا فقد منع الإخشيد الناس من نسخ هذه السيرة التى كتبها الهاشمى . وبعد وفاة الإخشيد طلب ابنه الأمير على ابن الإخشيد من ابن زولاق أن يكتب سيرة أبيه فكتب ابن زولاق الكتاب الذى نحن بصدده .

وقد أعجب به على بن الإخشيد ووالدته وأجزلا العطاء لابن زولاق وكانا يصلانه كل عام .

ولكن النسخة التى نقلها ابن سعيد من سيرة الاخشيد لابن زولاق ليست هى النسخة التى قدمت لعلى بن الإخشيد وإنما هى النسخة التى زاد فيها ابن زولاق « أشياء بعد وفاة على بن الاخشيد »[1] والراجح أن ابن زولاق تأثر فى بعض هذه الزيادات باتصاله بالفاطميين وعمله على التقرب إليهم ، والحق أن كلامه على ما حل بجثة الاخشيد وبعض إشارات أخرى فى كتابه لا ينتظر أن يتضمنها كتاب عن الاخشيد يقدم الى ابنه ويحوز رضاه . وفضلا عن هذا فان سيرة الاخشيد لابن زولاق — كما نقلها ابن سعيد — تبدو لنا مفككة الأطراف ضعيفة التأليف ، بل تبدو مجموعة من الجزازات غير المرتبة ، غنية بالبيانات والاخبار والحقائق التاريخية ولكن بغير ترتيب موضوعى أو تاريخى .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٥

أما « كتاب أخبار سيبويه المصرى » فقد جمع فيه ابن زولاق نوادر زميل له فى الدراسة وهو سيبويه الذى كان يعتبر من عقلاء المجانين وكانت له حوادث ونوادر طريفة مع الأمراء والعظماء والعلماء ، كما كانت له تعليقات على مايراه من أحداث أو يعلمه من أخبار . وطبيعى أن مثل هذا الكتاب يكشف ، بطريق غير مباشر عن كثير من النواحى الاجتماعية والعلمية والأدبية فى العصر الاخشيدى .

ومن المؤرخين المصريين الذين عرضوا لتاريخ الدولة الاخشيدية عز الملك المسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ . وكانت له مع الحاكم بأمر الله مجالس ومحاضرات . وأهم آثاره العلمية « كتاب أخبار مصر » تحدث فيه عن حكامها إلى سنة ٤١٤ هـ [١] . وفى مكتبة الاسكوريال أجزاء مخطوطة من هذا الكتاب . ولكن الذى يعنينا هنا أن المؤرخين المصريين بعد العصر الفاطمى — ولا سيما المقريزى وأبو المحاسن — كانوا يعتمدون على كتاب المسبحى وينقلون عنه .

وثمة مؤرخ مغربى هو ابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ ، وقد ولد فى غرناطه سنة ٦١٠ وتلقى العلم فى اشبيلية [٢] . ونستطيع أن نلحقه بالمؤرخين المصريين — فيما يخص الكتابة على الدول الطولونية والاخشيدية والفاطمية والأيوبية — لأنه وصل إلى مصر سنة ٦٣٩ وأقام فيها بضع سنوات واتصل ببعض أمرائها وساهم بالكتابة فى تاريخها . وقد مر بنا أنه نقل فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » سيرة الاخشيد التى كتبها ابن زولاق . ونضيف هنا أن السفر الرابع الذى نشره المستشرق تلكوست من هذا الكتاب يضم — عدا سيرة الاخشيد — نبذا عن الأدباء والعلماء وأعلام رجال الدولة فى مصر الاسلامية وقد نقلها ابن سعيد عن القرطى والمسبحى وغيرهما ، وقد أفدنا كثيرا من هذه المقتطفات فى دراسة رجال العلم والأدب والسياسة فى العصر الاخشيدى .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٥
(٢) ابن شاكر : فوات الوفيات ج ٢ ص ٨٩

ومن المراجع الثمينة فى تاريخ الدولة الاخشيدية ما كتبه جمال الدين على بن ظافر الازدى المصرى . وقد ولد هذا المؤرخ سنة ٥٦٧ واتصل بالأمراء الايوبيين وولى الوزارة لبعضهم ثم توفى سنة ٦٢٣ وأهم آثاره العلمية كتاب الدول المنقطعة [١]، ويضم تاريخ الدول الحمدانية والساجية [٢] والطولونية والاخشيدية والفاطمية وتاريخ الدولة العباسية إلى سنة ٦٢٢ هـ . ولا يزال هذا الكتاب مخطوطا فى مكتبة (Ghota) غوطا فى المانيا وفى المتحف البريطانى ، ولكن الجزء الخاص بالدولة الساجية فيه نشر فى مدينة بون على يد المستشرق فريتاج ، كما أن الجزء الخاص بالدولتين الطولونية والاخشيدية نشره المستشرق وستنفلد سنة ١٨٧٥ فى كتابه عن ولاة مصر [٣]. وقد نقل وستنفلد هذا الجزء من مخطوطة غوطا (رقم ٢٤٥) . واعتمدت فى هذا الكتاب على الجزء الذى نشره وستنفلد ورجعت إلى صفحاته المطبوعة ومع ذلك فلم يفتنى الرجوع إلى الصورة الشمسية المحفوظة فى دار الكتب المصرية لجزء من مخطوطة المتحف البريطانى يضم تاريخ الدولة الاخشيدية وتاريخ بعض الدول الاخرى فى كتاب ابن ظافر [٤] . وتبين لى أن هذه النسخة المحفوظة فى المتحف البريطانى تمتاز بزيادات يسيرة عما نشره وستنفلد ، ولسنا ندرى هل يرجع هذا إلى نقص فى مخطوطة غوطا أو إلى أن وستنفلد حذف فيما نشره جزءا من القسم الخاص بتاريخ الدولة الاخشيدية فى المخطوطة المذكورة . ومهما يكن من الامر فقد أفدت من تلك الزيادات وفصلت الكلام عليها فى موضعها من الكتاب .

أما تقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ فقد عرض لتاريخ الدولة الاخشيدية فى كتابين من كتبه : الأول « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » والثانى « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » . وقد نقل المقريزى فى الكتاب الأول

---

(١) المرجع نفسه ج ٢ ص ٥١

(٢) فى اذربيجان أنظر Zambaur : Manuel de Genéalogie p. 179

(٣) F. Wustenfeld. Die Statthalter von Agypten zur Zeit der Chalifen 111 pp. 58-62 & IV pp. 57-62.

(٤) دار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ . وفى مجموعة الصور الشمسية بجامعة الدول العربية صورة أخرى من هذه المخطوطة .

معظم تاريخ الفترة التى سبقت قيام الدولة الاخشيدية وتاريخ الدولة الاخشيدية نفسها عن كتاب الولاة للكندى[1]، وعن الذيل الذى كتبه ابن زولاق لهذا الكتاب . ونقل عن ابن زولاق ما كتبه عن أسرة الماذرائيين التى سيأتى الكلام على ما كان لها من شأن فى الحياة المصرية العامة من العصر الطولونى إلى نهاية العصر الاخشيدى . أما كتاب اتعاظ الحنفا فقد أفدت منه فى دراسة علاقة الاخشيديين بالفاطميين إلى أن تم للفاطميين الاستيلاء على مصر .

ومن المؤرخين المصريين الذين كتبوا فى تاريخ الاخشيديين أبو المحاسن بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٨٩ م) . وقد تقلد بعض المناصب الرفيعة فى الدولة على عهد السلطان المملوكي برقوق وابنه السلطان فرج ودرس على أعلام المؤرخين فى ذلك العصر ولا سيما المقريزى والعينى وابن حجر[2] . وأهم آثاره العلمية كتاب « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » ويشمل تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى سنة ٨٥٧ هـ . وعلى الرغم من أنه لا يعد أصيلا إلا فى كتابته عن عصر المماليك وأن ما كتبه عن العصور السابقة نقله عمن سبقوه من المؤرخين ، أقول إنى مع ذلك أفدت منه فى الكتابة عن الاخشيديين فائدة جلية .

ورجعت إلى كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ فأفدت منه كثيرا فى الكلام على الفقهاء والشعراء والعلماء والأدباء فى العصر الاخشيدى .

أما المؤرخون الذين كتبوا فى تاريخ الخلافة عامة فقد أفدت من بعضهم ولا سيما فى دراسة العلاقة بين الاخشيديين والخلافة . فرجعت الى الذيل الذى كتبه عريب ابن سعد على تاريخ الطبرى وانتهى فيه الى سنة ٣٦٥ هـ . كما رجعت الى كتاب مروج الذهب

---

(١) راجع عن العلاقة بين الكندى والمقريزى مقال الأستاذ فييت فى العدد الثانى عشر (١٩١٦ م) من مجلة المجمع العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale.

(٢) G. Wiet : L'Historien Abul-Mahasin (Bulletin de l'Institut d'Egypte T. XII) pp. 89-105.

ومعادن الجواهر وكتاب التنبيه والاشراف وكلاهما للمسعودي الذى عاصر صدر الدولة الاخشيدية وزار مصر عدة مرات وأقام بها فترة من الزمن قبل وفاته سنة ٣٤٦ ه.

وعرض مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١ ه) لتاريخ الدولة الاخشيدية فى بعض المواضع من كتاب « تجارب الأمم ».

أما هلال الصابي المتوفى سنة ٤٤٨ ه [١] فقد خلف لنا فى كتابه « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » بيانات دقيقة عن أخبار الوزراء وأعمالهم المالية والإدارية وعلاقاتهم بأنحاء الإمبراطورية الإسلامية . فأفدت كثيرا فى دراسة أسرة الماذرائيين وعلاقة مصر بالخلافة فى العصر الاخشيدى .

وكتب يحي بن سعيد الانطاكى المتوفى سنة ٤٥٨ ه ذيلا على تاريخ ابن البطريق وقد أفدت منه فى دراسة علاقة الاخشيديين بأهل الذمة فى مصر . أما ابن الأثير وأبو الفدا والذهبي فلا حاجة بنا إلى التعريف بهم ، وحسبنا أن نشير إلى ما أفدنا من تواريخهم فى علاقة الاخشيديين بالخلافة وبالحمدانيين .

* * *

وقد رجعت إلى عدد كبير من مؤلفات المحدثين من مصريين ومستشرقين وسوف يأتى ذكرها جميعاً فى ثبت المراجع فى نهاية الكتاب . ولكننا نشير هنا إلى كتاب « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » للاستاذ آدم متز لأنه رجع إلى مخطوطات فى دور الكتب الأوربية ، وأشرت إلى مانقله من بعض تلك المخطوطات التى لم أستطع الرجوع اليها .

ومن المراجع الحديثة التى أفدنا منها فائدة طيبة الرسالة التى كتبها عن الماذرائيين المستشرق الألمانى جوتشلك (Hans Gottschalk) سنة ١٩٣١ م . وقد عرض فيها

---

(١) راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٢ والأب لويس شيخو اليسوعى : هلال الصابى وتآليفه (فى مجلة المشرق ، السنة السادسة سنة ١٩٠٣) ص ٤٦٦ — ٤٧٥

لتاريخ هذه الأسرة ورجع إلى كثير من المصادر التاريخية القديمة ولا سيما قطعتين كبيرتين من كتاب المقفى للمقريزى وقطعة من تاريخ الإسلام للذهبي . وكلها عن تاريخ الماذرائيين. وذيّل جوتشلك رسالته بنشر هذه القطع الثلاث . وقد رجعنا إليها ووازنا بين ما جاء فيها وما نعرفه من النصوص التاريخية الأخرى ما

القاهرة أغسطس ١٩٥٠

سيدة اسماعيل كاشف

مقدّمة

تفكك الامبراطورية الاسلامية

وطد الأمويون أركان الأمبراطورية الاسلامية فعظمت واتسعت أرجاءها وامتدت من الهند وآسيا الوسطى شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن البحر الأسود والبحر المتوسط وجبال البرانس شمالا الى بحر العرب وصحارى السودان جنوبا [1] .

ولكن بنى أمية تركوا فيها رغم ذلك بذورا أدت الى التمزق والاضمحلال، فان التعصب للعرب ألب الموالى وحببهم فى كل خارج على سلطان بنى أمية ، وأذكى الأمويون نار النزاع بين القحطانيين والعدنانيين فظهر أثره فى كل قطر حل العرب به ، كما أن إمعانهم فى اضطهاد بنى هاشم ربط مصيرهم بمصير الموالى فتمهد الأمر للخلافة العباسية وانتقلت العاصمة من دمشق الى بغداد فكان هذا إيذانا ببدء عهد الانقسام والتفرق بين أنحاء تلك الامبراطورية ، لأن قيام العباسيين — كان ثورة من الفرس ضد أهل الشام — الذين قامت على اكتافهم الدولة الأموية . فعلا شأن الفرس وصارت لهم الكلمة الأولى فى الدولة وأمسك البرامكة بأزمة الأمور حتى نكبهم الرشيد . وقد ظهرت الشعوبية بصورة جلية وفرقت البيت الخليفى فانقسم على نفسه وقام النزاع بين الأمين والمأمون وكان له أثره في تمزيق الوحدة الاسلامية ، فاستقلت جهات من الامبراطورية فى عهد المأمون وأسس والى اليمن فى عهده أسرة بنى زياد التى ظلت تحكم البلاد حتى بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كما أن طاهر بن الحسين والى المأمون استقل بخراسان وأسس الدولة الطاهرية .

---

(١) أنظر المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٦٤ وابن حوقل : المسالك والممالك ص ١٠ — ١١ ، ومتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣ — ٤

وفضلا عن ذلك فان العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الامبراطورية الاسلامية أحست بكيانها وساعد على ذلك اتساع الامبراطورية وعجز الخلفاء عن السيطرة على أقطارها المترامية الأطراف .

وكان أول تمزق فى الامبراطورية ذيلا لسقوط بنى أمية ، فان عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام أفلح فى النجاة من التعذيب والاضطهاد اللذين حلا بأفراد الأسرة الأموية على يد العباسيين حين آلت اليهم مقاليد الحكم ويمم عبد الرحمن شطر مصر ثم افريقية ثم المغرب ، ولكن أنظاره اتجهت الى الأندلس واتخذها مسرحا لنشاطه السياسى ، وكان النزاع فى شبه جزيرة ايبريا قائما بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أى بين القيسيين واليمنيين ، ونجح عبد الرحمن فى التوفيق بين الفريقين حتى استقبلوه ونصبوه أميرا عليهم سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) فأسس امارة قرطبة ، وانفصلت اسبانيا عن الامبراطورية الاسلامية .

ولم تفلح الحكومة العباسية فى أن تعيد الأندلس الى حظيرة سلطانها وظلت أسرة عبد الرحمن الداخل واكتفى حكامها بلقب الامارة الى أن جاء عبد الرحمن الناصر فاتخذ لقب الخلافة سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) .

ولم تلبث افريقية أن نسجت على منوال الأندلس وكان عبد الرحمن بن حبيب والى افريقية قد ثار على الأمويين سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) وطرد أتباعهم من القيروان ولما انتقل الحكم الى بنى العباس ثبتوا عبد الرحمن فى ولاية افريقية ، ومع ذلك فانه أبى الاعتراف بسلطان الخليفة ولكنه فشل وفشلت حركته الاستقلالية . وكان البربر فى المغرب يقومون بالثورة بعد الأخرى وتأسست أسرات خارجية كبنى مدرار فى سجلماسة وبنى رستم فى جنوب تونس والجزائر كما قام بنو أدريس فى المغرب الأقصى .

وهكذا لم يبق للعباسيين فى نهاية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) من الإمبراطورية الإسلامية فى المغرب إلا افريقية (أو تونس الحالية) ، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بها إسمياً مدة قرن من الزمان إلا بوساطة أسرة الأغالبة التى ظلت تحكمها (مع سيادة إسمية للخليفة العباسى) من سنة ١٨٤ إلى سنة ٢٩٦ هـ (٨٠٠—٩٠٩ م) .

ثم ظهر فى الأفق السياسى عامل جديد ، فقد زاد عدد الجند الترك ونما نفوذهم منذ عهد هرون الرشيد ، وشطب المعتصم العرب من ديوان الجيش واستبدل بهم الترك وشيد لهم سامرا . واستفحل أمر أولئك الجند وأصبح فى يد زعمائهم مصير الخلفاء .

وكان من أثر ذلك كله أن ضعفت السلطة المركزية ضعفاً ملحوظاً وبدأت سنة جديدة فى حكم بعض الأقاليم الإسلامية إذ أصبح الخلفاء يقطعونها أولياء عهدهم ثم بعض قواد الجند . وكان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء على مقربة من بلاط الخليفة خشية أن تدبر الدسائس ضدهم أو أن يبعدوا عن مسرح الأحداث السياسية . وكان الخلفاء أنفسهم يرحبون ببقائهم فى العاصمة خشية أن يستقلوا بما يولونه من الأقاليم ، فكان الولاة لا يحكمون بأنفسهم بل يوفدون إلى الأقاليم نواباً عنهم ويتلقون منهم ما يتبقى من الضرائب بعد دفع نفقات الإدارة فيدفعون إلى بيت مال الخلافة جزءاً منه . وبدأ هذا النظام فى مصر منذ سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م)[١] وبقى إلى أن وفد أحمد بن طولون إليها نائباً عن واليها القائد التركى . واستغل ابن طولون ضعف حكومة العراق واشتغالها بثورة الزنج فى اقليم البصرة فأفلح فى الاستقلال عن الدولة العباسية وأسس فى مصر الدولة الطولونية التى حكمت من سنة ٢٥٤ إلى سنة ٢٩٢ هـ (٨٦٨ — ٩٠٥ م) .

على أن ما حدث بمصر قد حدث بغيرها من الأقطار الإسلامية المختلفة فإن أبا دلف والى همذان فى بداية القرن الثالث الهجرى استقل بها وخلفه أفراد أسرته بعد أن استولوا على أصفهان ونهاوند .

وقد أخطأ العباسيون كما أخطأ الأمويون من قبل فأمعنوا فى اضطهاد العلويين فانتشرت الدعوة لهم فى كافة الأقطار كما ظهرت الدعوة القرمطية فى البحرين والدعوة الاسماعيلية فى سلمية بالشام وفى المغرب ، كما أن بعض العلويين نجحوا سنة ٢٥٠ هـ فى الاستيلاء على الحكم فى طبرستان وبلاد الديلم وجيلان جنوبى بحر قزوين وقد ظلت

---

(١) أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٥

هذه الأسرة العلوية تسود تلك الأقاليم إلى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) . حين هزم السامانيون آخر ملوكها الحسن بن قاسم .

على أن الشيعة أحرزوا النجاح الأعظم فى بلاد المغرب فى القرن الثالث الهجرى حين خرج الدعاة الاسماعيليون إلى أرض كتامة يبشرون بمذهبهم ويدعون لخليفة من ولد على وانتهى الأمر بقيام الدولة الفاطمية بالمغرب على يد عبيد الله المهدى . على أن الفاطميين بعد أن تم لهم الأمر لم يكتفوا بالسلطان الدنيوى بل اتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان فى سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) وتبعهم عبد الرحمن الناصر فى الأندلس فتسمى بأمير المؤمنين سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) .

الباب الأول

مصر قبيل قيام الأخشيد

مصر قبيل قيام الاخشيد

(١)

زوال الدولة الطولونية وعودة مصر إلى الخلافة العباسية

عادت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية فى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) وذلك على أثر سقوط الدولة الطولونية على يد القائد العباسى محمد بن سليمان الكاتب . ولما دخل هذا القائد مدينة الفسطاط دعا على المنابر للخليفة المكتفى بالله[١] وكتب اليه يبشره بفتح مصر .

وأمر محمد بن سليمان باحراق القطائع فأحرقت وأطلق سراح المسجونين ونهب جنده مدينة الفسطاط واستباحوا النساء وأتوا من الفظائع والمنكرات ما تقشعر له الأبدان . بل إن قائدهم نفسه كان مضرب المثل فى أخذ المصريين بالشدة والقسوة وحسبنا ما كتبه أبو المحاسن بن تغرى بردى فى هذا الصدد . قال : « كان محمد بن سليمان هذا لا يسمى باسمه ولا بكنيته وما كان يدعى إلا بالأستاذ ، وكان حكمه فى أهل مصر يضرب أعناقهم ويقطع أيديهم وأرجلهم جوراً ، وتمزيق ظهورهم بالسياط وصلبهم على جذوع النخل ونحو ذلك من أصناف النكال ، ولا زال على ذلك حتى رحل عن مدينة مصر فى يوم الخميس مستهل شهر رجب من سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، واستصحب معه الأمير شيبان بن احمد بن طولون . . . . وبنى عمه وأولادهم وأعوانهم حتى إنه لم يدع من آل طولون أحداً ، والجميع فى الحديد إلى العراق وهم عشرون إنساناً ، ثم أخرج

---

(١) الولاة والقضاة ص ٢٤٧ ، وينص الكندى على أن محمد بن سليمان دعا لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده ، لأن الدعاء للخليفة على المنابر لم يبطل خلال الدولة الطولونية وإنما كان يدعى الأمير الطولونى معه . راجع عن العلاقة بين بنى طولون والخليفة العباسى : Zaky M. Hassan Les Tulunides pp. 155.

قوادهم إلى بغداد على أقبح وجه فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اللذ ثم سيق جماعة من أصحاب شيبان إلى محمد بن سليمان ممن كان أمنهم فذبحوا بين يديه »[١] .

وإذا جاز لنا ان نفسر هذا العنف بأنه من الظواهر التى تصحب فترات الانقلاب فيلوح أنه يشهد بأن المصريين كانوا لا يزالون يؤثرون حكم بنى طولون على حكم الولاة التابعين للدولة العباسية تماما والذين لم يكن لهم أى حظ من الاستقلال . والحق أن شعور المصريين هذا يمكن استنباطه من لهجة المؤرخين المصريين — ولا سيما أبو المحاسن[٢] — فى استهجان الفظائع التى ارتكبها « الاعراب الخراسانية من جنود محمد بن سليمان » . وبعد أن استقر محمد بن سليمان فى مدينة الفسطاط اتخذ بعض الاجراءات لتأمين البلاد وضمان سيادة الأمن فأمر باخراج الأعراب الذين قدموا معه وساعدوه على القضاء على الدولة الطولونية ، كما عمل على تفريق القواد الطولونيين الذين خرجوا على بنى طولون فى نهاية حكمهم فبعث بطغج بن جف والياً على قنسرين وأرسل معه طائفة من جند بنى طولون وعين بدر الحمامى والياً على دمشق[٣] واستطاع بذلك أن يكافئهما على معونته فى حملته على مصر ولكنه فى الوقت نفسه أبعدهما عن وادى النيل كما أبعد سائر قواد بنى طولون ومواليهم .

ثم خرج محمد بن سليمان من مصر فى بداية شهر رجب من سنة ٢٩٢ هـ (سنة ٩٠٥ م) وأخرج معه كل من بقى فيها من أتباع بنى طولون ومواليهم وكبار الموظفين فى دولتهم وسار إلي دمشق ثم حلب حيث وافاه رسول الخليفة يطالبه بتسليم ما كان معه من الأموال والخيل والمنسوجات النفيسة والذهب وغير ذلك مما حمله من مصر وقد قدر ما اضطر إلى تسليمه من الأموال بنحو مليونى دينار (نحو مليون جنيه)[٤]

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٣٩
(٢) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٣٩
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٨
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٦ — ١٤٧

ولسنا نظن أن فى هذا التقدير شيئاً كثيراً من المبالغة التى ألفناها عند المؤرخين فى العصور الوسطى .

وقد اختلف المؤرخون فى ولاية محمد بن سليمان على مصر فمنهم من لا يعده من الولاة بل يذكره بوصفه القائد الذى قضى على حكم بنى طولون وأعاد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية ، وأصحاب هذا الرأى يؤيدونه بأن الخليفة المكتفى بعثه لقتال الدولة الطولونية ولم يوله على مصر ولما بلغه فتحها ولى عليها عيسى النوشرى ، ولكن من المؤرخين من عده والياً عليها « بحكم الفترة القصيرة التى صرف فيها أمورها » [١] .

---

(١) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٤٤

(٢)

ثورة ابن الخليج

بعد أن انتقل الحكم فى مصر من الطولونيين إلى العباسيين على يد القائد محمد بن سليمان ورد كتاب الخليفة المكتفى بولاية أبى موسى عيسى بن محمد النوشرى عليها فأرسل اليها هذا الوالى نائبا عنه ، قدم اليها فى ١٤ من جمادى الأولى سنة ٢٩٢ هـ ثم وصل إليها عيسى النوشرى نفسه فى ٧ من جمادى الثانية من السنة نفسها [١] . ولسنا ندرى لماذا بادر هذا الوالى بارسال نائب من قبله مع أن محمد بن سليمان كان لا يزال يصرف الأمور فى البلاد بوصفه قائد الحملة العباسية . ولعله أراد بذلك أن يضع حدا لهذا الحكم العسكرى . ومع ذلك فالراجح أن محمد بن سليمان لم يفقد سلطانه حين قدم نائب النوشرى وإنما سلمه بعض الأعمال وبقى إلى أن وصل النوشرى نفسه فاستقبله وخلع عليه [٢] .

وقد كان النوشرى من القوادالذين أتوا إلى مصر مع محمد بن سليمان للقضاء على الدولة الطولونية ، وبعد أن تم زوال هذه الدولة خرج عيسى النوشرى نحو العراق ولكنه لم يكد يصل إلى دمشق حتى وافاه كتاب المكتفى بولايته على مصر فعاد اليها [٣] .

وقد قدم عيسى إلى مصر قبل خروج محمد بن سليمان منها وكانت مدة إقامة محمد بن سليمان فى مصر أربعة أشهر خرج بعدها إلى الشام مع جنده وبعض فلول الجيش الطولونى . وقد مر بنا أن رسولا من قبل الخليفة لقيه فى الشام برسالة من دار الخليفة ليسلم ماغنمه فى مصر من مال وخيل ومنسوجات نفيسة . وطبيعى أن هذا الحادث كان له أسوأ الأثر فى نفس القائد المنصور وعند حاشيته . وعلى كل حال فقد بادر

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥٨
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٥
(٣) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٤٥

بالانفصال عن ركبه ضابط من الجيش الطولونى اسمه ابن الخليج[١] . أو ابراهيم الخليجى[٢] أو محمد بن على الخليج[٣] أو محمد بن على الخلنجى[٤] . والتف حول هذا الضابط عدد كبير من الجند والضباط الذين كانوا فى خدمة بنى طولون قبل زوال دولتهم ، والذين كانوا لايزالون يذكرون عظمة هذه الدولة ويكرهون أن يغادروا مصر ويخشون ماكان ينتظرهم فى العراق . وكان ابن الخليج قبل سقوط الدولة الطولونية من صغار الضباط فى قسم من الجيش الطولونى كان يرأسه القائد صافى الرومى الأصل[٥] .

خرج ابن الخليج من ركب محمد بن سليمان وبايعه من التف حوله من الجند والضباط قائداً عليهم وعقدوا العزم على إحياء الدولة الطولونية وانضم إليهم أنصار جدد ويمم الجميع شطر مدينة الرملة فهزموا واليها ، وأمر ابن الخليج بالدعوة على منابرها فى يوم الجمعة للخليفة ومن بعده لابراهيم بن خمارويه بوصفه أميراً للبلاد ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائباً عن ابراهيم .

وهكذا نرى أنه أراد أن يبعث دولة الطولونيين وأن يحتفظ بالتبعية الإسمية للخلافة العباسية . ومع ذلك فان قيام ابن الخليج بمثل هذا العمل فى تلك الظروف كان معناه الخروج على الخليفة . ولسنا ندرى هل كان ابن الخليج مخلصا فى دعواه لبنى طولون أم كانت دعواه لابراهيم بن خمارويه (الذى كان حينئذ أسيراً فى بغداد) — ستارا لمطامعه الشخصية — ومهما يكن من الأمر فقد أعجب كثير بشجاعته وإقدامه فزاد عدد أنصاره ، ولما علم الوالى عيسى بن النوشرى بخروج ابن الخليج جهز جيشاً لمقابلته على حدود مصر الشرقية والتقى الجيشان عند غزة وكان النصر لابن الخليج فاتجه إلى العريش ثم إلى الفرما وتتابعت انتصاراته على فلول الجيش المنهزم ، فاضطر النوشرى إلى إعداد جيش آخر ضخم العدد والعدة ، وسار على رأس هذا الجيش إلى مدينة

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥٩
(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١١ ص ٣٩٢ ؛ وابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣١١
(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٧
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٧
(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٧

العباسة [١] لملاقاة ابن الخليج ، ولكنه هزم ولم يجد بدا من الجلاء عن الفسطاط ونزل بجيشه عند الجيزة .

ودخل ابن الخليج مدينة الفسطاط فأحسن الشعب استقباله ودعا له الإمام على المنبر بعد الخليفة وابراهيم بن خمارويه ، وعمل ابن الخليج على تهدئة الأمور والقضاء على الفوضى فى البلاد ، وأفلح في جمع الضرائب ، وفى دفع رواتب الموظفين والجند ، وما لبث أن استولى على الإسكندرية واستقر له الأمر فى العاصمة والدلتا ، ولكنه رأى أن عيسى النوشرى لا يزال واليا على مصر من قبل الخليفة ، وان يكن قد فر بفلول جيشه فى اتجاه الإسكندرية ، فبعث اليه جيشا بقيادة خفيف النوبى ، ثم تابع ابن الخليج إرسال الامداد إلى خفيف النوبى برا . كما أرسل اليه محمد بن لجور فى ست مراكب بالسلاح والرجال ، ويظهر أن الحرب كانت سجالا بين الجانبين ، جانب عيسى النوشرى ، وجانب خفيف النوبى وابن لجور ، ولم ينتصر فيها فريق على الآخر إذ عاد ابن لجور إلى الفسطاط ، وانصرف عيسى النوشرى إلى تروجه [٢] ، وهناك وقعت معركة بين جيشه وجيش خفيف النوبى هزم فيها خفيف وعاد بعدها إلى الفسطاط [٣] .

ولما علم الخليفة المكتفى ، بثورة ابن الخليج أرسل جيشا بقيادة أبو الأغر وكان فى الجيش الأمير أحمد بن كيغلغ وهزم ابن الخليج هذا الجيش شر هزيمة فى أوائل المحرم سنة ٢٩٣ هـ [٤] . وقد عظمت تلك الهزيمة على الخليفة . فأرسل جيشاً ثانيا

---

(١) العباسة بلدة صغيرة موقعها إلى الشمال الشرقى من مدينة بلبيس الحالية سميت باسم عباسة بنت أحمد بن طولون التى شيدت فيه قصراً نزلت به قطر الندى بنت خماروبه فى طريقها إلى العراق عند زواجها بالمعتضد . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، مادة العباسة .

(٢) تروجه : بالفتح ثم الضم وسكون الواو وجيم . هذه القرية درست مساكنها الآن ومحلها كوم تروجة بحوض تروجة بأراضى ناحية زاوية صقر بمركز أبى المطامير بمديرية البحيرة . أنظر : ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ١٢٢ و ص ٢٢٦ وياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٠ حاشية رقم (٣) وابن الجيعان : التحفة السنية ص ١٢٤

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥١

(٤) المرجع نفسه : ج ٣ ص ١٥٣

بقيادة فاتك المعتضدى ، كما أرسل جيشاً بحرياً بقيادة دميانة ، وقد التقى فاتك مع ابن الخليج بالقرب من النويرة [١] ، ويروى أن أربعة آلاف من جند ابن الخليج انضموا إلى جيش الخليفة . وعلى كل حال فقد اضطر ابن الخليج إلى التقهقر ، وتخلى عنه كثير من أتباعه فعاد إلى الفسطاط واختفى عند صديق له ، ولكن خانه هذا الصديق وكشف أمره فقبضوا عليه فى رجب سنة ٢٩٣ هـ بعد أن دام سلطانه نحو سبعة أشهر وعشرين يوما [٢] .

وأخذ ابن الخليج إلى بغداد ، ووقف بين يدى الخليفة العباسى فعنفه ، ثم طيف به وبأصحابه على ظهور الجمال فى بغداد ، ثم قتل شر قتلة [٣] .

ولا يمكننا أن نفسر نجاح ابن الخليج وتحديه للحكومة المركزية فى بغداد دون أن نأخذ بعين الإعتبار تحمس الشعب المصرى ضد تلك الحكومة التى قضت على دولة لها فى مصر طابع قومى ، وكانت الأموال المصرية تنفق على يدها فى مصر ولا تتسرب إلى بيت مال الخليفة وجيوب كبار الموظفين فى بغداد ، فضلا عن أن تخريب القطائع ترك ألما وحسرة فى نفوس المصريين .

على أن فشل ابن الخليج زاد فى سوء الحالة التى كانت سائدة فى مصر منذ سقوط بنى طولون ، ولاسيما أن النزاع بينه وبين عيسى النوشرى ألقى بالبلاد فى هوة من الفوضى وعدم الاستقرار . وفى ذلك يقول أبو المحاسن [٤] : « فانه — أى ابن الخليج — أراد أخذ ثأر بنى طولون والانتصار لهم غيرة على ما وقع من محمد بن سليمان الكاتب من إفساد الديار المصرية فوقع منه أيضاً أضعاف مافعله محمد بن سليمان الكاتب وكان حاله كقول القائل :

رام نفعا وضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا

(١) إحدى قرى بنى سويف .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٢ — ١٥٤ ، والكندى ، الولاة والقضاة ص ٢٦٢

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٣ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٤

(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٥

(٣)

الحلقة الاخيرة من الولاة العباسيين فى مصر

ذكرنا أن أول وال حكم مصر من قبل الخليفة بعد زوال الدولة الطولونية هو عيسى النوشرى . وفى ولايته حدثت ثورة ابن الخليج وقد أوجزنا الكلام عليها فى الصفحات السابقة . ونضيف هنا أن فى ولايته فى عهد الخليفة المكتفى ظهر أمر عبيد الله المهدى ، وكان أبو عبد الله الشيعى يدعو له فى المغرب ، وحاول الخليفة القبض عليه ولكنه هرب هو وابنه أبو القاسم نزار الذى ولى بعده وتلقب بالقائم .

وقد خرج عبيد الله المهدى من الشام مع ابنه ومعه خاصته ومواليه وعقد العزم على الاتجاه إلى بلاد المغرب . ولما وصل إلى مصر استتر بزى التجار . ووصلت إلى النوشرى كتب الخليفة بوصف المهدى والأمر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه . ويظهر أن بعض خاصة هذا الوالى كان متشيعا فأخبر المهدى بذلك وأشار عليه بالرحيل عن مصر فبادر المهدى بمغادرة البلاد . أما النوشرى فقد فرق الرسل فى طلبه وخرج بنفسه فلحق به وقبض عليه . ولكنه أطلق سراحه ، ويقال إنه رق لحاله وعطف عليه كما يقال أيضا ان النوشرى لاحظ من بعض أعماله أنه ليس شخصا مريبا وربما شجعه هذا على إطلاق سراحه . ولا نستطيع تعليل ذلك تماما ومن المحتمل أن مما دفع عيسى النوشرى إلى مخالفة أمر الخليفة رشوة نالها من المهدى الذى كان يحمل معه أموالا كثيرة[1] . ولعله تأثر أيضا بوساطة بعض خاصته الشيعيين ، وعلى كل حال فقد أصبح المهدى هذا أول الخلفاء الفاطميين وأسس الدولة الفاطمية التى كان مركزها فى البداية مدينة القيروان .

وعلى أثر تأسيس هذه الدولة الفاطمية فكر المهدى فى غزو مصر وأخذ يضع الخطط لذلك . وهذا طبيعى لدولة فتية تريد أن تنافس بغداد ، إذ أن بلاد المغرب فقيرة بالنسبة لمصر التى تتمتع بالثروة الطبيعية والرخاء فضلا عن موقعها الجغرافى الممتاز .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣

وعمل عبيد الله المهدى على القضاء على دولة الأغالبة التى كانت تعترض طريقه إلى وادى النيل . وتم له سنة ٢٩٦هـ (٩٠٦م) إيقاع الهزيمة بزيادة الله بن عبد الله ابن ابراهيم بن الأغلب أو زيادة الله الأصغر آخر أمراء تلك الدولة .

وفر زيادة الله إلى مصر ومعه جمع من أتباعه فنزل الجيزة فى شهر رمضان سنة ٢٩٦هـ ، ولم يحسن النوشرى الظن به فكانت بينه وبين جند هذا الوالى مناوشة عند الجيزة قبل أن يسمح له بالعبور ليلا إلى الفسطاط[١] .

وحدث فى ولاية النوشرى على مصر أن توفى الخليفة المكتفى بالله فى ذى القعدة سنة٢٩٥هـ ، وبويع جعفر بن أحمد المعتضد ولقب المقتدر بالله فأقر النوشرى على ولايتها .

ثم توفى عيسى النوشرى فى نهاية شعبان سنة ٢٩٧هـ (٩١٠م) وكانت ولايته على مصر زهاء خمس سنين وقام بالأمر من بعده ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى النوشرى إلى أن قدم الوالى الجديد أبو منصور تكين بن عبد الله من قبل المقتدر . عين فى شوال ووصل إلى الفسطاط فى بداية ذى الحجة . ووجه عنايته منذ البداية إلى دفع خطر الفاطميين فى المغرب فجهز جيشا عقد قيادته لأبى النمر[٢] أحمد بن صالح بعد أن ولاه على برقة[٣] . وسار هذا القائد على رأس جيشه إلى مقر عمله الجديد واستتب له الأمر فيه وحسنت سيرته ولكن حباسة بن يوسف الكتامى كان يقف له بالمرصاد

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٧ والمقريزى : الخطط ج ١ ص٣٢٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٩١

(٢) هكذا سمى فى الكندى (الولاة والقضاة ص ٢٦٨) أما فى ابن سعيد (المغرب ص٨) والمقريزى (الخطط ج ١ ص ٣٢٧) فقد سمى أبا يمن بينما سمى فى أبى المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٢) أبا اليمنى .

(٣) نص الكندى فى كتاب الولاة والقضاة ص ٢٦٨ على أن احمد بن صالح هذا كان من الأبناء ولسنا ندرى تماماً هل يقصد بذلك أنه كان من السلالة التى ولدت باليمن من الفرس المهاجرين اليها أو أنه كان من سلالة أوائل الداعين لنصرة الدولة العباسية أو أنه كان من سلالة سعد بن زيد مناة مع استثناء ولديه كعب وعمرو وهى السلالة التى كان يطلق عليها اسم الأبناء وتسكن سهل الدهناء الرملى . أنظر مقال « الأبناء » فى دائرة المعارف الاسلامية .

على رأس جيش بعث به صاحب توزر [١] فى افريقية لحساب المهدى . ولم يفلح حباسة فى القضاء على سلطان أحمد بن صالح فلجأ إلى الخدعة ولاسيما حين علم أن تكينا والى مصر عزم على عزل هذا القائد من ولايته ببرقة وعلى أن يعقد عليها لقائد اسمه خير المنصورى . وهكذا كتب حباسة إلى ابن صالح يسأله عما يحمله على حربه وهو معزول وبعث إليه بكتاب ورد عليه من مصر بأنباء هذا العزل . وعاد ابن صالح إلى مصر ومد حباسة سلطانه على برقة . ثم خرج إليها خير المنصورى من مصر ومعه عبد العزيز بن كايب الجرشى، والظاهر أن تكينا والى مصر أشرك عبد العزيز هذا فى حكم برقة مع خير المنصورى . ومهما يكن من الأمر فقد وقع بينهما من الخلاف والمنافسة والجفاء ما مكن حباسة من هزيمتهما والظفر بحكم برقة .

ولم يستطع تكين أن يعيد سلطان مصر إلى هذا الاقليم فبعث إلى صاحب افريقية بكتاب على لسان أمير المؤمنين المقتدر يدعوه فيه إلى الطاعة والتمسك بها [٢] وكان ذلك فى سنة ٣٠٠ هـ (٩١٣ م) . ومما يستحق الذكر أنه جمع وجوه أهل مصر وقرأ عليهم هذا الكتاب قبل إرساله [٣] . ولعلنا نستطيع أن نستنبط من هذا أن مبدأ الشورى كان يتبع فى كثير من الأحيان، وأن الوالى كان يجمع وجوه القوم ليعرض عليهم بعض الشئون الرئيسية فى البلاد .

وكانت هزيمة المصريين فى برقة أكبر حافز للفاطميين على الهجوم على مصر نفسها فوجه إليها المهدى جيشا من افريقية بقيادة ابنه أبى القاسم سنة ٣٠١ هـ وقيل ان سبب تحرك هذا الجيش أن القاسم بن المهدى بعث إلى بغداد بقصيدة يفخر فيها بأسرته وبما فتح من البلاد فأجابه أبو بكر الصولى بقصيدة على وزنها ورويها ومنها :

فلو كانت الدنيا مثالا لطائر لكان لكم منها بما حزتم الذنب

---

(١) توزر بالفتح ثم السكون وفتح الزاى وراء مدينة ببلاد الجريد فى إمارة تونس الحالية أنظر : أبو عبيد البكرى : المغرب ص ٤٨ — ٧٤ والمراكشى : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٨ ، وياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٨ — ٤٢٩

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٨

(٣) المرجع نفسه ص ٢٦٨ — ٢٦٩

فحرك همته هذا البيت ، وقال : « والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه — ان قدرت — وإلا أهلك دونه » [١] .

وسار أبو القاسم بجيشه من برقة الى الاسكندرية والفيوم ودان له جزء كبير من مصر فبعث اليه المقتدر بالله جيشا على رأسه مؤنس الخادم من اعلام القواد العباسيين وأفلح هذا الجيش فى صد الفاطميين وارغامهم على الجلاء عن مصر [٢] .

ولكن الفاطميين لم ييأسوا من فتح مصر نهائيا ، فلما كان العام التالى أى سنة ٣٠٢ هـ أرسل عبيد الله المهدى جيشا كبيرا بقيادة حباسة بلغ عدده فى رأى الكندى [٣] « مائة ألف أو زيادة عليها » وهو رقم مبالغ فيه . وإن دل هذا على شىء فانما يدل على أن عدد هذا الجيش زاد بكثير على الجيوش التى وجهها الفاطميون الى برقة ومصر قبل ذلك .

وعلى كل حال فالظاهر أن الفاطميين قدموا الى الاسكندرية هذه المرة بطريق البحر [٤] وسقط هذا الثغر فى يدهم دون كبير مقاومة [٥] ، ولكن قدمت الجيوش من المشرق مددا لتكين والتقت جيوشه بالفاطميين على مقربة من الجيزة وكان النصر حليف المصريين وفر حباسة بفلول جيشه الى المغرب فقتله المهدى .

ومما يستحق الذكر فى القتال الذى دار بين الجيشين أن أهل الفسطاط اشتركوا فيه مع الجيش اشتراكا ملحوظا وأبلوا فيه بلاء حسنا . وفى ذلك يقول الكندى [٦] : « وسار حباسة من الاسكندرية فعسكر بمشتول فنودى بالنفير فى الفسطاط يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخرة فلم يتخلف عن الخروج إلى الجيزة أحد من الخاصة والعامة ثم انصرفوا عشيا ولم يكن لقاء ، ثم نودي بالنفير من الغد يوم الأربعاء فخرج الناس أيضاً

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٩
(٢) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ٣٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٨
(٣) الولاة والقضاة ص ٢٦٩
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٠
(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٣
(٦) الولاة والقضاة ص ٢٧٠

ثم لم يكن لقاء ثم نودى يوم الخميس فخرج الناس خروجاً لم ير مثله قط فى الاجتماع والنشاط وحسن البصيرة وأتاهم حباسة فى جيشه يومئذ فيما بين الظهر والعصر فالتقوا وكثرت القتلى منهم وقتلت رجالة حباسة كلهم ثم من الله وله الحمد بهزيمتهم ومنح أهل مصر أكتافهم ومضوا على وجوههم هاربين ورأوا من اجتماع الناس ونصر الله ما لم يسمع بمثله » .

ونظم الشعراء المصريون القصائد فى وصف هذا القتال وفى رثاء من استشهدوا فيه من المصريين[1] . وتشير بعض الأبيات فى تلك القصائد إلى أن الفاطميين كان لهم دعاة وأعوان بين سكان مصر ، وأن هؤلاء الأعوان كانوا يكتبون إليهم ، ولعلهم كانوا ينقلون إليهم مواطن الضعف فى البلاد ويدعونهم إلى القدوم لفتحها ومن تلك الأبيات قول ابن مهران متحدثاً عن حباسة :

وأقبل جاهلا حتى تخطى ... وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه ... من اقباط بمصر وغير قبطى
وكل كاتبوه منافقونا ... وكل فى البلاد له موطى[2]

ولعل الإشارة إلى القبط فى هذه المناسبة تشهد بأن مصر كانت تمر حينئذ بفترة من فترات التعصب الدينى ، وبأن بعض القبط كانوا يعرفون عن الفاطميين من التسامح الدينى ما يبشر بتحسن أحوال أهل الذمة على يدهم .

ثم قدم إلى مصر القائد مؤنس الخادم على رأس جيش من العراق ، ولسنا نعرف تماما هل كان وصوله قبل هزيمة حباسة أو بعدها . فالكندى[3] ينص على أن مؤنسا الخادم أقبل من العراق فدخل مصر « يوم الإثنين للنصف من شهر رمضان ومعه جمع من الأمراء سار بهم ونزل الحمراء[4] ولقى الناس من جنده كل ما كرهوا » كما ينص

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٧٠ — ٢٧٣
(٢) المرجع نفسه ص ٢٧٢
(٣) الولاة والقضاة ص ٢٧٣
(٤) خطة من خطط الفسطاط : أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٤٥ وانظر خريطة خطط الفسطاط فى المرجع نفسه .

على أن معارك المصريين مع جيش حباسة كانت جمادى الآخرة[١] . أما ابن الأثير[٢] فيشير إلى أن الخليفة المقتدر « أرسل مؤنسا الخادم فى عسكر إلى مصر لمحاربة حباسة وأمده بالسلاح والمال فسار إليها فالتقى العسكران فى جمادى الأولى سنة ٣٠٢ فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين جمع كثير وجرح مثلهم ثم كان بينهم وقعة أخرى بنحوها ثم وقعة ثالثة ورابعة فانهزم فيها المغاربة أصحاب العلوى وقتلوا وأسروا فكان مبلغ القتلى سبعة آلاف مع الأسرى وهرب الباقون وكانت هذه الوقعه سلخ جمادى الآخرة وعادوا إلى المغرب فلما وصلوا إلى المغرب قتل المهدى حباسة » .

ونحا المقريزى[٣] نحو ابن الأثير فكتب أن مؤنسا الخادم التقى بحباسة فى جمادى الأولى (سنة ٣٠٢) وأن حباسة انهزم فى نهاية جمادى الآخرة . أما أبو المحاسن[٤] فيشير إلى أن مؤنسا الخادم وصل إلى مصر بعد أن انتهى تمكين من هزيمة حباسة . والملاحظ بوجه عام أن النصوص القديمة مضطربة فى هذا الصدد ، وحسبنا أن أبا المحاسن يذكر فى موضع أن جيش الفاطميين كان بقيادة حباسة[٥] ثم ينص فى موضع آخر[٦] على أن عبيد الله نفسه هو الذى قدم من المغرب إلى الإسكندرية ومعه حباسة « فجرت بينه وبين جيش الخليفة حروب قتل فيها حباسة وعاد مولاه عبيد الله إلى القيروان »[٧] .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٧٠

(٢) تاريخ الكامل ج ٨ ص ٣١

(٣) اتعاظ الحنفا ص ١٠٠

(٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٣

(٥) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٣

(٦) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٨٤

(٧) وفضلا عن ذلك فان ابن عذارى (البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ١٨٣) يروى أن القائم بن المهدى ولى على هذه الحملة عند وصولها إلى الفيوم قائدا جديداً هو ابن فريدون فنضب حباسة وهرب مع بعض خاصته ميمماً شطر المغرب وكتب القائم إلى أبيه المهدى بذلك ، واتجه حباسة إلى أخيه عروبة بن يوسف السكتامى وكان قد خرج على المهدى ونجح الأخير فى القبض على الأخوين وقتلهما ، راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٠

Wustenfeld : Die Statthalter von Agypten zur Zeit der Chalifen IV pp. 12-13.

ومهما يكن من الأمر فإن مؤنسا الخادم قرر عزل تكين عن ولاية مصر وأمره بالرحيل عنها فخرج فى السابع من ذى الحجة سنة ٣٠٢ هـ وكتب مؤنس إلى الخليفة بذلك[١] . ولسنا ندرى هل كان مؤنس مفوضاً من قبل الخليفة بإحداث مثل هذا التغيير فى ولاية مصر ، كما أننا لا نعرف سببه ، ولاسيما بعد انتصار تكين على جيش الفاطميين . ولكن الراجح عندنا أن كبار القواد كان لهم سلطان واسع وكان فى استطاعتهم عزل الولاة الذين يوفدون لنجدتهم . فضلا عن أن مؤنسا الخادم كان من أكبر قواد العباسيين ومن أخص المقربين إلى الخليفة المقتدر .

أقام مؤنس فى مصر يدبر أمورها إلى أن عين الخليفة المقتدر والياً جديداً يحل محل تكين . هو ذكا الأعور[٢] أو ذكا الرومى[٣] . ووصل هذا الوالى إلى مصر فى الثانى عشر من شهر صفر سنة ٣٠٢ هـ فخرج منها مؤنس الخادم بجميع جيشه فى الثامن من شهر ربيع الآخر .

وكان مؤنس الخادم أثناء إقامته فى مصر مطلق التصرف فى أمورها وكان يلقب بالأستاذ بل كان يدعى له على المنابر بعد الخليفة ، على نحو ما كان يحدث لبعض كبار الامراء الذين كانوا يقطعون مصر منذ بداية العصر العباسى الثانى[٤] .

ولما استقر الأمر لذكا الرومى عنى بالكشف عن عيون الفاطميين فى مصر ومن كانوا يكاتبونهم من سكانها فقبض على كثير منهم ، ومثل بآخرين بقطع أيديهم أو أرجلهم . وعنى كذلك بمدينة الاسكندرية فخرج إليها ونظر فى أمر تحصينها والدفاع عنها وولى عليها ابنه مظفر بن ذكا وبعث إليها بجمع من القواد مرة بعد أخرى . ولا عجب فقد دلت التجارب على سهولة غزوها وعلى نجاح الفاطميين فى الاستيلاء عليها . وكان ذكا يخشى أن يتجدد الغزو الفاطمى .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٣

(٢) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٧٤

(٣) يسميه لينپول باسمه اليونانى Ducas انظر Lane — Poole : A History of Egypt in the Middle Ages p. 80 .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٤ ، وجرومان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية ص ١٢ ، وسيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٥

وقد وقع ما كان يخشاه المصريون ، إذ جهز المهدي جيشا كثيفا عقد لواءه لابنه أبي القاسم سنة ٣٠٧ هـ ، ووصلت مقدمة هذا الجيش إلى الاسكندرية فى شهر صفر ، ثم وصل أبو القاسم بسائر الجيش وسقطت المدينة ونهبها الغزاة وحل الذعر بسكانها وانتشر خبر الغزو الفاطمى فى مصر فهرب كثير من أهلها إلى الشام فى البر والبحر ومات بعضهم فى الطريق .

أما الجيش الفاطمى فقد تقدم عدد كبير منه فاحتل الفيوم والاشمونين وجزءا كبيرا من الصعيد ، والظاهر أن قائده أبا القاسم كتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى الدخول فى طاعته فلم يلبوا دعوته [1] . ويبدو أن الذى أخر الفاطميين عن دخول الفسطاط وباء انتشر بين جنودهم فى مصر الوسطى [2] .

أما ذكا الرومى والى مصر فكان مقيما فى الفسطاط يعمل على الاستعداد لقتال الجيش الفاطمى ويسعى فى حشد جنده ولكن عددا كبيرا منهم كان يأبى الخروج للقتال ، واستطاع ذكا أن يخرج بجيشه الى الجيزة بعد جهد وكان صاحب الخراج حينئذ الحسن ابن أحمد المـاذرائى وقد قام بتوزيع العطاء على الجند فأرضاهم .

وجد ذكا فى التأهب للحرب وأمر ببناء حصن على الجسر الغربى بالجيزة وحفر خندقا يحيط بعسكره حتى لا يفجأه العدو . وما زال ذكا جادا فى أمر هذه الحرب حتى مرض وتوفى فى الجيزة فى ربيع الآخر سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) [3] .

وبعد وفاة ذكا عهد الخليفة المقتدر بولاية مصر الى تكين للمرة الثانية فقدم اليها فى شعبان سنة ٣٠٧ هـ . والراجح أن الخليفة اختاره لسابق خبرته بمحاربة الفاطميين وصدهم عن مصر . وكان المقتدر قد جهز جيشا لنجدة ذكا ووصل هذا الجيش الى الفسطاط قبل وصول تكين .

---

(١) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٥ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٣ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٨٧

(٢) Wustenfeld : op. cit. IV. pp. 14-15.

(٣) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٥ — ٢٧٦

ولما قدم تكين خرج بجيوشه المصرية والعراقية إلى الجيزة وعسكر بها ثم حفر خندقا حول جنده غير الخندق الذى كان قد حفره ذكا الأعور قبل وفاته ، والظاهر أن عودة تكين إلى مصر وثقة أهلها بقدرته على صد الجيش الفاطمى فضلا عن وصول المدد من العراق ، كل ذلك أعاد الهدوء إلى قلوب المصريين فرجع كثير ممن كانوا قد فروا إلى الشام والحجاز .

وأرسل المهدى إلى الاسكندرية نجدة لابنه القائم أسطولا قوامه ثمانون سفينة وعلى رأسه سليمان الخادم ويعقوب الكتامى ، وعلم الخليفة المقتدر بذلك فبعث إلى مصر بخمس وعشرين سفينة من طرسوس تحت إمرة ثمل الخادم [١] . والتقى الأسطولان عند رشيد فى شوال سنة ٣٠٧ هـ ، وكانت مراكب العباسيين غنية بالنفط وعدد القتال فكان النصر حليفهم فى هذه الموقعة ، وأحرقت معظم المراكب الفاطمية وقتل رجالها أو أسروا ودخل بعدها ثمل الخادم مدينة الفسطاط ومعه جمع كبيرمن الأسرى معظمهم من قبيلة كتامة . ثم أمر باطلاق الأسرى من أهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقلية ، أما أهل كتامة وزويلة فقد أذن للجند والرعية فى قتلهم بوصفهم أخطر العناصر فى جند الفاطميين . وقيل إن عدد القتلى بلغ سبعمائة قتيل . وطيف بسليمان ويعقوب قائدى الأسطول الفاطمى مقيدين ومعهم رؤساء المراكب ومات سليمان فى السجن ونقل يعقوب إلى بغداد ولكنه هرب منها وعاد إلى المغرب [٢] .

ولكن هزيمة الأسطول الفاطمى لم تقض على الحملة الفاطمية قضاء مبرما ، فقد كانت جيوش الفاطميين لاتزال تحتل الفيوم وجزءا من مصر الوسطى ، ومع ذلك فان الأوبئة ووفاة كثير من القواد وصعوبة التقدم ، كل ذلك عطلها عن العمل . وعندما تحركت لقتال تكين فى عسكره بالجيزة كان النصر حليف هذا الوالى العباسى ، ولكنه لم يكن نصراً حاسما . وعاد المغاربة إلى مصر الوسطى ورجع تكين بجيوشه إلى الفسطاط .

---

(١) الكندى : المرجع نفسه ص ٢٧٦ ، وسعيد بن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٨٠ ، وابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ٣٩ ، وابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣١٢ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٤

(٢) المقريزى : المرجع نفسه ص ١٠٤ و Wustenfeld : Die Stattalter IV. pp. 15-16.

وطبيعى أن الخليفة لم يرض عن فترة الركود بين الجيشين وعن عجز المصريين وإخفاقهم فى طرد الفاطميين فرأى أن يقوم بعمل حاسم فى هذا السبيل وبعث إلى مصر بمدد قوامه ثلاثة آلاف جندى على رأسهم مؤنس الخادم . ووصل هذا المدد إلى مصر فى شهر المحرم سنة ٣٠٨ هـ ولكن جهوده ذهبت سدى ، إذ أن مؤنسا الخادم اكتفى بارسال فريق من الجيش إلى الأشمونين . وكان على رأس هذا الفريق القائد ابراهيم بن كيغلغ ومات هذا القائد بالبهنسا وهزم المغاربة جنده وعاد الركود بين الجيشين ، إلى أن وصلت إلى مصر نجدة ثانية من العراق بقيادة جنى الخادم المعروف بالصفوانى . وسارت الجيوش العباسية كلها إلى الفيوم بقيادة مؤنس وتكين وجنى الخادم وأوقعت بالفاطميين عدة هزائم وفر القائم ابن المهدى بفلول جيشه إلى برقة .

ومما يشهد باضطراب الأحوال الداخلية بمصر فى تلك الفترة من تاريخها أن بعض وجوه القوم فى الفسطاط كانوا لا يزالون يكاتبون الفاطميين فى المغرب وأن تكين علم أثناء استعداده لقتال المغاربة أن ابن المدينى القاص وجماعة بمصر يدعون للمهدى ويتصلون به فقبض عليهم وقتلهم وسجن أتباعهم [١] . بل يظن أيضا أن صاحب الخراج فى مصر حينئذ وهو أبو زنبور الحسين بن أحمد المـاذرائى وابن أخيه محمد بن على بن أحمد المـاذرائى كاتبا المهدى ونقلا إليه أن مصر لم يكن فيها جنود يستطيعون الدفاع عنها ، وأن سقوطها فى يد الفاتحين أمر ميسور ، ووعداه أن يقدما له كل عون فى إخضاع سكانها إذا قدم بنفسه لفتحها [٢] . ولكننا لا نميل إلى تأييد هذا الظن لأن المـاذرائيين كانت لهم مكانة مرموقة فى الادارة ولم يكن لهم نفع فى تغيير الحكم فى البلاد . اللهم إلا إذا ذهبنا إلى أن أبا زنبور المـاذرائى وقريبه كانا يظنان أن مصر توشك أن تقع فى يد الفاطميين وأنهما أرادا أن يكون لهما من الأمر شىء تحت الحكم الفاطمى .

وقد كان لانتصار مؤنس الخادم وقع عظيم فى بغداد فخلع عليه الخليفة ولقبه بالمظفر [٣] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٧ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٩٦

(٢) Wüstenfeld : Die Statthalter IV. pp. 16-17

(٣) مما يستحق الذكر أن أبا المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠٣) لاحظ الشبه بين هذا اللقب والألقاب التى انتشرت فى عصر المماليك فكتب : « وهذا أول لقب سمعناه من ألقاب ملوك زماننا » .

ومهما يكن من الأمر فقد أصبحت مصر مرتعا للجيوش العديدة التي وفدت إليها من بغداد لقتال الفاطميين والدفاع عن مصر . وطبيعي أن أهل مصر كانوا يقاسون الأمرين من عسف الجند وما يقومون به من السلب والنهب . وقد أدى ذلك كله إلى اضطراب الأحوال المالية في البلاد ، فلا عجب إذا كتب محمد بن على الماذرائي العامل على الخراج ينبه الحكومة المركزية في بغداد إلى كثرة الجيوش في مصر وما تحتاج إليه من نفقات طائلة[1] .

وظل تكين في ولايته الثانية على مصر إلى أن عزله مؤنس الخادم في ربيع الأول سنة ٣٠٩ هـ وولى عليها أبا قابوس محمد بن حملك[2] . وسبب العزل غير واضح في المراجع التاريخية ، ولكننا نرجح أن مؤنسا كان يحقد على تكين لأن الأخير كان محبوبا من أهل مصر ، كما يشهد بذلك استنكارهم لعزله واستهانتهم بالوالي الجديد ، إلى حدٍ خشى معه مؤنس قيام فتنة في البلاد ، ولا سيما حين ألح عليه وجوه القوم في عودة تكين ونبهوه إلى عاقبة عزله . وكان القائد العباسي حكيما بعيد النظر فأعاد الوالي المعزول بعد ثلاثة أيام من عزله ولكنه فعل ذلك إلى أن يستعد لإخماد أي حركة قد يقوم بها أهل مصر أو جند تكين . فلما تم له ما أراد واتخذ للأمر عدته قرر مع مساعديه من القواد عزل تكين وإبعاده عن مصر . وهكذا عزل هذا الوالي للمرة الثالثة وخرج إلى الشام على رأس أربعة آلاف من الجند ، ولم تزد ولايته الأخيرة على أربعة أيام[3] .

وأقر الخليفة كبير قواده في عزل تكين وبعث إلى مصر بوالٍ جديد هو هلال ابن بدر كما استدعى مؤنساً إلى بغداد ، فخرج هذا القائد من مصر ومعه الجيوش العراقية التي وفدت اليها لصد الفاطميين .

ولم يكن هلال بن بدر موفقا في ولايته فزاد الاضطراب على يده وثار عليه فريق كبير من الجند وقامت بينه وبين أولئك الثوار حروب طويلة وعم الفساد في البلاد

---

(١) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص ٢٨

(٢) هو محمود بن حمل في خطط المقريزي ، ج ١ ص ٣٢٨ ومحمود بن جمل في النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ٣ ص ١٩٩

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٠٠

وكثر القتل والنهب وقطع الطريق ، فلم ير الخليفة المقتدر بدا من عزل هذا الوالى . وأرسل إلى مصر والياً جديداً ، هو أحمد بن كيغلغ[1] .

ولم يكن هذا الوالى غريبا عن مصر ، فقد سبق أن اشترك مع جند العراق فى صد الفاطميين عنها سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥م) . وقدم معه محمد بن الحسين الماذرائى عاملا على الخراج وكان أول ما عنيا بتنظيمه عطاء الجند . والظاهر أنهما لاحظا أن هذا العطاء أصبح ثقيلا على الميزانية فأسقطاه عن كثير من الجند المشاة السابقين وثار هؤلاء الجند ولم يستطع الوالى إخماد ثورتهم ففر إلى مدينة فاقوس وأراد محمد بن الحسين الماذرائى الخروج إلى بلاد الشام ولكن منعه الجند واضطروه إلى البقاء فى الفسطاط .

وظل ابن كيغلغ مختبئاً فى فاقوس وطغى الجند وزاد نفوذهم واضطرب حبل الأمن فى البلاد ولم تستطع الحكومة المركزية فى بغداد أن تقوم بعمل حاسم لتأديب الثوار بسبب ضعفها وحاجتها إلى جميع الجند للدفاع عن مصر فاكتفى الخليفة المقتدر بعزل ابن كيغلغ وأعاد إلى ولاية مصر عاملا خبيراً بشئونها محبوبا عند أهلها وجندها ، هو تكين الذى وليها ثلاث مرات قبل ذلك[2] .

ولم تكن مهمته هذه المرة سهلة ، لأن استبداد الجند بلغ حدا لم يمكن السكوت عليه إذ كان يهدد البلاد بأوخم العواقب فعمل تكين منذ ولايته سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤م) على كبح جماح أولئك الجند ، واضطر إلى تغيير كثير من معاونيه وإلى ترتيب الخطط المحكمة لكسر شوكة المشاغبين من رجال الجيش والادارة . ولما نجح فى ذلك كله أقدم على إسقاط العطاء عن هؤلاء المشاغبين وأمر بخروجهم من مصر ، وتم له ما أراد فحسنت حال البلاد .

ولما قتل الخليفة المقتدر فى شوال سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢م) وبويع بالخلافة أخوه القاهر أقر تكين على ولاية مصر وبعث إليه بالخلع علامة على رضائه

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٠٦ — ٢٠٧

عن إدارتها . ولكن تكين لم تطل ولايته بعد ذلك إذ مرض ووافته المنية فى ربيع الأول سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م) .

ولا ريب فى أن ولاية تكين الأخيرة على مصر كانت شوطاً بعيداً فى عودة الاستقرار إلى مصر ، فقد كان على حد قول أبى المحاسن[1] « أميراً عاقلا شجاعا عارفاً مدبراً ، ولى الأعمال الجليلة ، وطالت أيامه فى السعادة وكان عنده سياسة ودربة بالأمور ومعرفة بالحروب » .

وكادت وفاة تكين تقضى على الاستقرار الذى بلغته مصر فى ولايته الأخيرة ، وذلك بسبب النزاع فى حكم البلاد بعد وفاته . وبيان ذلك أن ابنه محمد بن تكين تسلم مقاليد الحكم من غير ولاية الخليفة بل باستخلاف أبيه . ولكن أبا بكر محمد ابن على المـاذرائى لم يرض عن ذلك . وحدث أن ثار الجند بسبب تأخر عطائهم واستطاع المـاذرائى أن يرغم محمد بن تكين على مغادرة البلاد والخروج إلى الشام . وكتب ابن تكين إلى الخليفة فى بغداد يطلب أن يولى على مصر وجاء جواب الخليفة القاهر بأن يكون الوالى محمد بن تكين وأن يقوم المـاذرائى بتدبير أمر البلاد ، ولعل المقصود بذلك تدبير الشئون المـالية ، ولكننا سوف نرى أن المـاذرائيين كانوا ينفذون من تدبير الشئون المـالية إلى السيطرة على معظم مرافق الادارة فى مصر . ومهما يكن من الأمر فان محمد بن على المـاذرائى استطاع أن يمنع ابن تكين من العودة إلى مصر[2] . وهنا ظهر محمد بن طغج على مسرح السياسة المصرية لأول مرة فقد أفلح فى تحقيق حلم قديم له وحصل من الخليفة على تقليد بولاية مصر . وسوف نعود إلى تفصيل الكلام على ذلك فى الصفحات التالية .

---

(١) المرجع نفسه ج ٣ ص ٢١١

(٢) راجع الروايات المختلفة فى الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨١ وابن سعيد : المغرب ص ١٠ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ و Wüstenfeld : Die Statthalter IV. pp. 20-21

(٤)

المـاذرائيون

كانت مقاليد الأمور بمصر فى الفترة الواقعة بين الدولتين الطولونية والاخشيدية فى أيدى ثلاث قوات : الولاة وقواد الجيش العراقى في مصر والمـاذرائيين . وقد مر بنا الكلام على الولاة وعرفنا أن أعظمهم مكانة وأكثرهم توفيقاً هو تكين ، كما عرفنا ما كان للقواد العباسيين فى مصر من نفوذ وسلطان حتى استطاعوا عزل الولاة قبل الرجوع إلى الخليفة . وكان أظهر أولئك القواد مؤنسا الخادم المظفر .

أما المـاذرائيون فأسرة فارسية الأصل[1] تنسب إلى ماذرايا أو مادرايا وهى قرية من أعمال البصرة وقيل من أعمال واسط[2] . ولكن هذه الأسرة لم تصل إلى الثروة والسلطان إلا بسبب نزوح كثير من أفرادها إلى مصر ، ولسنا نعرف تماماً متى كان خروج أول عضو منها إلى هذه البلاد ، والراجح أنه وفد إلى مصر فى حاشية والٍ من ولاتها لعله أحمد بن طولون . ولما لقى فيها الرخاء والنجاح استدعى إليه من العراق نفراً من أفراد أسرته ، وتبعهم آخرون وأتيح لبعض أعضاء هذه الأسرة ولاية طائفة من الوظائف الرئيسية فى مصر ، ولكنهم لم يقطعوا أسباب الصلة بمسقط رأسهم فى العراق .

---

(١) أنظر مقال الأستاذ جست فى A Volume of Oriental Studies Presented to Professor Browne pp. 171-172.

(٢) جاء اسمهم بالذال المعجمة فى بعض المراجع مثل الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٤ وياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٣٥٣ ، مادة ماذرايا ؛ وسماهم المقريزى الماردانيين (الخطط ج ١ ص ٣٣٢ و ج ٢ ص ١٥٥ ؛ وسماهم السمعانى المادرانيين (كتاب الأنساب ورقة ٤٩٩ ولعل النون تصحيف فى المخطوط) . راجع :

Becker: Beiträge p. 171; H. Gottschalk: Die Madaraijjun p. 20-22, Zaky M. Hassan: Les Tulunides: 284; Wüstenfeld: Statthalter IV, 2.

وأول من نقرأ عنه من المـاذرائيين فى إدارة مصر هو أحمد بن ابراهيم أو محمد بن احمد بن ابراهيم المـاذرائى الأطروش[1] الذى ولى خراج مصر سنة ٢٦٦هـ شركة مع على بن الحسين (أو الحسن أو أبو الحسن) بن شعيب المداينى . وقد ذكر المقريزى أن الذى ولاه هو الخليفة المعتمد[2] . وذكر البلوى[3] وابن سعيد[4] (عن ابن الداية) أن الذى ولاه هو احمد بن طولون نفسه . والراجح عندنا ما ذكره البلوى وابن سعيد لأن ابن طولون أشرف على مالية البلاد بعد تخلصه من ابن المدبر وأصبح منذ سـنة ٢٦٤ هـ فى عداء ظاهر مع الحـكومة المركزية فى بغداد واستقل عنهـا بإدارة مصر[5] . ومهما يكن من الأمر فإن شركة المـاذرائى مع على بن الحسين فى خراج مصر لم تدم طويلا لأن ابن طولون أمر بسجن على بن الحسين حتى مات ، وذلك بسبب كتاب وجهه إلى ابن المدبر — عدو ابن طولون — يشكو فيه من أعمال وظيفته[6] . وهكذا أصبح المـاذرائى وحده عاملا على خراج مصر .

وبدأ عميد المـاذرائيين فى مصر سياسة محكمة فى جذب أفراد أسرته ورفع شأنهم فى مناصب الدولة فكان ينيب عنه أحياناً أخاه أو ابنه على بن أحمد المـاذرائى واتخذه كاتباً له . وقد روت بعض المراجع قصة تبين كيف استطاع على هذا أن يثبت براءة عميد الأسرة من تهمة اختلاس مبلغ كبير من أموال الخراج فتنبه ابن طولون إلى حضور ذهنه وكفايته وذكائه ورفع مكانته فى إدارة مصر[7] . وفضلا عن ذلك فقد استطاع

---

(١) اختلفت المراجع العربية فى تسمية رأس هذه الأسرة فى مصر وقد ناقش المستشرق جو تشلك الروايات المختلفة فى رسالته عن الماذرائيين ص ٣٠ — ٣٣ ولم ينته إلى نتيجة يمكن الاطمئنان اليها .

(٢) راجع النص العربى المنقول عن كتاب المقفى للمقريزى ، فى رسالة جو تشلك عن المـاذرائيين ص ١١٩

(٣) سيرة أحمد بن طولون ص ١٦١ وص ١٧٨

(٤) Ibn Said, Vollers p. 67.

(٥) Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 63, 247.

(٦) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ١٨٧

(٧) البلوى : المرجع نفسه ص ١٦١ — ١٦٤ وانظر النص العربى المنقول عن المقفى للمقريزى فى رسالة جو تشلك عن المـاذرائيين ص ١١٩ — ١٢٠

عميد الماذرائيين أن يحمل ابن طولون على تعيين ماذرائى آخر — هو الحسين بن أحمد المعروف بأبى زنبور — فى عمل رئيسى بالشام [١] .

وأصبحت زعامة الماذرائيين منذ ولاية خمارويه لعلى بن أحمد الماذرائى ، فقد اختاره خمارويه وزيراً له [٢] أو كاتبا . وأغرى على الماذرائى خمارويه بالحسن بن المهاجر الذى كان عاملا على البريد ومستشارا لابن طولون ونقل اليه أن ابن المهاجر يعرف وحده مخبأ أموال كثيرة خلفها ابن طولون فلم يزل خمارويه بابن المهاجر حتى وصل إلى تلك الأموال . وقد كتب المقريزى [٣] أنها بلغت ألف دينار وأن خمارويه سلمها لعلى بن أحمد الماذرائى لينفق منها فى الصلات والنفقات التى كان يأمر بها ، ولكن الماذرائى كان ينفق على ذلك كله من فائض أموال الضياع والمرافق ، فظل المال الذى كشفه ابن المهاجر محفوظا عند على بن أحمد الماذرائى حتى أفاد منه ابنه أبو بكر محمد بن على لما صودرت أملاكه فى عصر الاخشيد . وعلى الرغم مما فى هذه القصة من المبالغة فإنها تشهد بأن على بن أحمد الماذرائى كان يشرف على ضياع الأمير وأمواله الخاصة وأنه كان موضع ثقته ، فعظم سلطانه فى إدارة البلاد حتى كتب عنه المقريزى أنه « كان يملك النظر فى جميع أمور مصر خلافة لأبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ووزارة » [٤] .

وفى سنة ٢٧٢ هـ استقدم على بن أحمد الماذرائى إلى مصر ولديه أبا بكر محمد ابن على وأبا الطيب أحمد بن على ، وأصبحت مصر منذ تلك السنة وطن الماذرائيين [٥] . واستخلف على بن أحمد الماذرائى ابنه أبا بكر محمد ، على الخراج ، ثم استخلفه على ديوان الرسائل [٦] .

---

(١) المقريزى : المقفى (فى المرجع السابق ص ١١٩) .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٨ ص ٦٥
(٣) الخطط ج ١ ص ٣٣٠ — ٣٣١
(٤) أنظر النص العربى المنقول عن المقفى فى رسالة جوتشلك عن الماذرائيين ص ١٢٠
(٥) المرجع نفسه ص ١٢٠
(٦) المرجع نفسه ص ١٢٠ وابن سعيد : المغرب ص ١٦٣

وكان على بن أحمد الماذرائى فى دمشق مع خمارويه عندما توفى هذا الأمير وعاد بعد ذلك إلى مصر وأصبح صاحب الأمر والنهى فيها طوال الفترة القصيرة التى حكم فيها أبو العساكر جيش بن خمارويه ، ولما ثار الجند على هذا الأمير عمل على الماذرائى على تهدئة الحال ولكنه أخفق وانتهى الأمر بقتله وقتل جيش بن خمارويه [١] . وكان على بن أحمد الماذرائى قد أودع عند القاضى محمد بن عبده وعند ابراهيم بن هروان العباسى مالا كثيرا تسلمه بعد وفاته ابنه أبو بكر محمد بن على [٢] .

ومهما يكن من الأمر فان إخفاق على بن أحمد الماذرائى لم يؤثر فى مركز أسرته وسلطانه إذ خلفه ابنه أبو بكر محمد بن على فى زعامة الأسرة واستوزره الأمير هارون ابن خمارويه وظل يدبر أمور الحكومة فى مصر إلى أن قدمت الحملة العراقية للقضاء على دولة بنى طولون فغادر مصر مع من غادرها من عمال الطولونيين فى صحبة محمد بن سليمان إلى بغداد . وأقام بعد ذلك فى العراق من سنة ٢٩٢ إلى سنة ٣٠١ هـ . فلما سار مؤنس الخادم من العراق بجنده لقتال الجيش الفاطمى بمصر سبقه اليها فوصل فى ربيع الأول سنة ٣٠٢ هـ . وكان الخراج حينئذ فى يد أخيه أبى الطيب أحمد ابن على . وتوفى أبو الطيب سنة ٣٠٣ هـ فخلفه أخوه محمد على الخراج وبقى فى هذه الوظيفة إلى آخر سنة ٣٠٤ هـ . وقد كتب المقريزى عن سلطان محمد الماذرائى وثروته الواسعة وأطنب فى الكلام على الأموال التى كان يحملها إلى الحجاز كلما توجه لأداء فريضة الحج [٣] وذكر أن تكين أمير مصر حينئذ كان يشيعه إذا خرج للحج ويتلقاه حين يرجع [٤] ، والواقع أن أبا بكر محمد بن على الماذرائى منح سلطانا واسعا فى مصر

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١١ ص ٢٨٣ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٩٣

(٢) ابن حجر فى ملحق أخبار القضاة بكتاب الولاة والقضاة للكندى ص ٥١٨

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٥ — ١٥٦

(٤) روى ابن سعيد (فى المغرب ص ٣٠) حادثاً وقع فى الحج بين محمد بن طغج وأبى بكر محمد الماذرائى كان سبباً فى الجفاء والوحشة بينهما منذ البداية . وخلاصته أن تكين عهد إلى محمد بن طغج وهو فى دمشق بقيادة قافلة الحج وكان فيها أحد خواص الخليفة ، هو أبو صالح مفلح المقتدرى . وأراد ابن طغج أن يكرم أبا صالح ، فلما كان الركب فى عرفات ورأى أن قبة محمد بن على الماذرائى أعلى قبة تقدم هو وغلمانه وضربوا وجه ناقة الماذرائى وقدموا قبة مفلح فكبر ذلك على الماذرائى وظل يحقد على ابن طغج .

منذ قدومه سنة ٣٠١ هـ . فقد ذكر عريب بن سعد فى صلة تاريخ الطبرى عند كلامه على سنة ٣٠١ هـ أن أبا بكر محمد المـاذرائى قلد فى هذه السنة أعمال مصر والإشراف على أعمال الشام وتدبير الجيوش [١] . كما ذكر الـكندى أن أبا بكر محمد بن على بن أحمد المـاذرائى وأبا على الحسين بن أحمد المـاذرائى [٢] قدما إلى مصر سنة ٣٠٢ هـ على تدبيرها [٣] . وأقر أبو بكر المـاذرائى أخاه أبا الطيب على الخراج وكان أبو بكر على حد قول ابن زولاق ، « أمير البلد فى الحقيقة » [٤] . ولـكن الظاهر أن سلطان مؤنس الخادم [٥] كان يحد من سلطانه فاضطر بعد وفاة أخيه إلى الاحتفاظ بالنظر فى الخراج سنة ٣٠٣ هـ ، ثم تركه عند نهاية سنة ٣٠٤ هـ كما مر بنا وظل يقيم فى مصر ولـكنه استدعى إلى دار الخلافة عدة مرات مع عمه أبى زنبور المـاذرائى وطولبا بأداء أموال كثيرة وصودر جزء كبير من أملاكهما كما صودرت أملاك بعض أقاربهما [٦] .

وبعد أن ظل أبو بكر المـاذرائى بعيدا عن الوظائف أربعة عشر عاما عين عاملا على خراج مصر فى جمادى الأولى سنة ٣١٨ هـ [٧] ولـكن حدث فى السنة التالية أن استطاع محمد بن جعفر القرطى أن يحصل فى بغداد على تلك الوظيفة . ولعل الحـكومة المركزية

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٢ ص ٢٣

(٢) أشرنا اليه من قبل وسوف يأتى الكلام عليه .

(٣) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٩

(٤) ملحق أخبار القضاة فى الـكندى : الولاة والقضاة ص ٥٢٧

(٥) مما يستحق الذكر أن ابن سعيد (المغرب ص ١٦٣) والمقريزى (المقفى فى رسالة جوتشلك عن المـاذرائيين ص ١٢١) يذكران أن أبا بكر المـاذرائى قدم مع مؤنس الخادم من العراق ولـكن الحقيقة أنه سبقه فوصلها فى ربيع الأول سنة ٣٠٢ هـ كما تذكر هذه المراجع وغيرها ، بينما وصل مؤنس فى منتصف رمضان من السنة نفسها . ولعل المقصود أن المـاذرائى قدم إلى مصر فى المناسبة التى قدم فيها مؤنس وهى صد الفاطميين ، وكان المقريزى أدق فى كتابه الخطط (ج ٢ ص ١٥٥) فـكتب أن المـاذرائى قدم إلى مصر « صحبة العساكر لقتال حباسة » ولم يحدد أن قدومه كان مع مؤنس الخادم .

(٦) عريب بن سعيد : صلة تاريخ الطبرى (فى تاريخ الأمم والملوك ج ١٢ ص ٣٤ — ٣٥)

(٧) المرجع نفسه ج ١٢ ص ٧٧

كانت غير مطمئنة إلى المـاذرائى حتى إنها كتبت إلى تكين فى مصر تطلب إليه أن يبقى المـاذرائى إلى أن يصل القرطى وأرسلت قائدا للقبض عليه وأراد المـاذرائى الخروج من مصر فلم يأذن له تكين إلا بعد أن أهدى إليه وإلى زوجته جواهر قيمتها عشرون ألف دينار (نحو عشرة آلاف جنيه مصرى) ، وتوفى القرطى فى الطريق ورجع المـاذرائى إلى مصر « أعز ما كان » [١] .

ولمـا توفى تكين فى السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٢١ هـ أصبح الأمر كله فى مصر بيد أبى بكر محمد بن على المـاذرائى [٢] ، ولـكنه لم يرض عن استخلاف تكين ابنه محمد بن تكين . وكانت الحالة فى مصر مضطربة إلى حد كبير كما تشهد بذلك قصة خلاصتها أن المـاذرائى خاف أن يحضر جنازة تكين (ولعله كان يخشى أن يعتدى عليه فيها أو لعله كان ذا صلة بموت تكين) ولـكن صديقا له أقنعه بالحضور ولمـا كانت الصلاة على الميت حدث أن قرأ الإمام (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) [٣] فقطع أبو بكر المـاذرائى الصلاة وبادر بالانصراف [٤] .

وثار الجند فى مصر على أبى بكر المـاذرائى مطالبين بعطائهم وأحرقوا دوره ودور أهله ودور كثير من أتباعه وقبضوا على بعض الموظفين من قبله فلم ير بداً من الاختفاء وخرج محمد بن تكين إلى الشام ومعه تابوت أبيه ، وكتب من الشام إلى بغداد يطلب أن تقره الحكومة المركزية فى ولاية مصر ، وكتب المـاذرائى إلى بغداد أيضا ولـكنه كتب « يلتمس أميرا » [٥] ولم يطلب الامارة لنفسه . والظاهر أنه كان يكره تولية محمد بن تكين ولـكنه وسائر أفراد أسرته كانوا يؤثرون أن يحكموا مصر فعلا لا اسما

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٩

(٢) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨١ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٨ و Wüstenfeld : Statthalter IV. p. 21.

(٣) قرآن كريم : سورة القصص ، آية ٢٠

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٣ — ١٦٤ والنص العربى المنقول عن كتاب المقفى للمقريزى فى رسالة جوتشالك عن الماذرائيين ص ١٢٢

(٥) النص العربى المنقول عن المقفى فى المرجع السابق ص ١٢٢

وأن يكونوا مع الولاة بمثابة « أمير الأمراء » مع الخليفة فى بغداد . ومهما يكن من الأمر فقد تسلم ابن تكين ردا من بغداد بتوليته على مصر كما تسلم الماذرائى فى الوقت نفسه ردا « بتفويض أمر مصر ورد تدبيرها إليه وأن يولى من يختاره » وقد حمل إليه هذا الرد أحمد بن كيغلغ ، ويخيل إلينا من هذين الردين ومن سلطان الماذرائيين بوجه عام أن الحكومة المركزية كانت تحرص على أن تتعدد السلطات فى مصر وعلى ألا تتركز فى يد الوالى حتى تأمن بذلك أى نزعة استقلالية تكرر ما حدث فى العصر الطولونى .

وخرج الماذرائى من مخبئه واستعاد مركزه فى ادارة مصر وأراد محمد بن تكين أن يدخل مصر مزودا بالتقليد الذى جاءه بولاية مصر ولكن الماذرائى لم يعترف به وجمع جيشا من الجنود المغاربة ونجح فى منعه من دخول البلاد وبقيت مصر بغير وال فيها الى أن ورد من بغداد أمر بتولية محمد بن طغج وكان فى دمشق حينئذ . وظل اسمه يذكر على المنابر فى مصر بعد اسم الخليفة نحو اثنين وثلاثين يوما أى من ٧ من رمضان الى ٩ من شوال سنة ٣٢١ هـ [(١)] .

ثم جاء كتاب من بغداد بتولية أحمد بن كيغلغ ، ولسنا ندرى سبب هذا التغيير السريع ولكنه يشهد على كل حال بعدم استقرار الأمور فى مصر وفى الحكومة المركزية ببغداد .

وثار الجند مرة ثانية على أبى بكر الماذرائى يطلبون رواتبهم وأحرقوا دوره ودور أهله وقامت فتن ومعارك بين طوائف الجند ولا سيما بين المغاربة والمصريين ، وما كاد السلام يعود بين تلك الطوائف المختلفة حتى ظهر محمد بن تكين قادما من فلسطين فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ وأعلن أنه ولى على مصر من قبل الخليفة . ولكن أبا بكر الماذرائى لم يعترف بولايته بينما تعصب له جماعة من المصريين

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨١ — ٢٨٢ وابن سعيد : المغرب ص ١٦٢ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٨ والمقريزى : المقفى (فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٢ و Wüstenfeld : Statthalter IV p. 57.

ودعى له بالامارة على المنابر وقام القتال بين أنصار ابن كيغلغ وأنصار ابن تكين وانتهى الأمر بهزيمة ابن تكين وفراره من الفسطاط بعد أن دام حكمه فيها مائة واثنى عشر يوما . وانصرف ابن كيغلغ الى اصلاح أمور البلاد ولكن جاءه الخبر بخلع الخليفة القاهر بالله وتولية الراضى بالله وعاد محمد بن تكين الى مصر مظهرا أن الخليفة الجديد ولاه إياها . وقامت الحروب ثانية بينه وبين ابن كيغلغ وكان النصر للأخير ووقع ابن تكين فى الأسر ونفى الى الصعيد . واستقر الحكم لابن كيغلغ ولكن تدبير الأمور ظل بيد الماذرائى وأولاده ولم يكن لابن كيغلغ معهم أمر ولا نهى [1] .

ولا عجب فقد سار الخليفة الجديد على سنة خلفه فى التفريق بين السلطات الحاكمة فى مصر فكتب الى الماذرائى يقر احمد بن كيغلغ فى ولاية مصر وينهى اليه فى الوقت نفسه « أن الأمر يصير اليك فتقلد من شئت وتصرف من شئت » [2] .

ثم وقعت فى بغداد أحداث كان لها أثر خطير الشأن فى حكم مصر فقد عين الخليفة الراضى بالله الفضل بن جعفر بن الفرات وزيرا لكشف أمور مصر ومنحه سلطات مطلقة . وكان بنو الفرات يكرهون الماذرائيين ويحسدونهم ، فلم يكن غريبا أن يعمل الفضل على القضاء على سلطان الماذرائيين فى مصر وزاد الخطر على هؤلاء حين تصاهر محمد بن طغج الاخشيد مع الوزير الفضل بن جعفر بأن زوج الاخشيد ابنته من ابنه جعفر بن الفضل . واستعمل الفضل السلطة المطلقة التى منحها فى تدبير أمور مصر فعين محمد بن طغج واليا عليها .

وسوف نعود فى الباب القادم الى الكلام على المراحل التى مر بها استيلاء ابن طغج على الحكم فى مصر .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٢) المرجع نفسه ص ١١

(٣) المرجع نفسه ص ١١

بقى علينا أن نتحدث عن علم آخر من أسرة الماذرائيين . هو أبو على الحسين ابن أحمد الماذرائى المعروف بأبى زنبور [١] . ولسنا نعرف عن نشأته إلا أنه كان كاتبا للوالى فى اقليم من أعمال البصرة براتب شهرى قدره عشرون دينارا [٢] . والراجح أنه قدم الى مصر مع عميد الأسرة ثم عين فى وظيفة رئيسية فى الشام من قبل أحمد بن طولون . وعاد الى مصر بعد ذلك وظل مقيما بها الى أن أوفد مرة ثانية الى الشام سنة ٢٨٣ وسنة ٢٨٤ هـ مع بدر القائد الطولونى على رأس جيش ليصلحا الحال فيها وليستخلفا على دمشق طغج بن جف من قبل هارون بن خمارويه وليستخلفا غيره على سائر الأقاليم الشامية [٣] . والراجح أنه بعد عودته الى الفسطاط كان يتركها ويقيم أحيانا فى دمشق كما تشهد بذلك قصة زواج ابنته بابن القاضى أبى زرعه محمد بن عثمان وهى القصة التى نقلها ابن حجر عن ابن زولاق وأطنب عندها فى الكلام على عظمة الحفل الذى أقيم فى تلك المناسبة [٤] .

ثم كان للحسين الماذرائى شأن كبير فى سقوط الدولة الطولونية ونجاح الجيش العباسى الذى كان يقوده محمد بن سليمان ، إذ انضم الماذرائى سنة ٢٩١ هـ إلى محمد بن سليمان ومعه بدر الحمامى والى مصر من قبل هارون بن خمارويه . وهكذا خان الماذرائى قضية الطولونيين واستطاع بذلك أن يثبت صلاحيته للعمل مع النظام الجديد فى مصر وأن يضمن بقاء نفوذ أسرته . ولم تكن الحكومة المركزية لتكره الإفادة من خبرته بالشئون المالية المصرية فلا غرو إذا عينته عاملا على الخراج فى مصر بعد أن أبعدت عنها سائر أفراد أسرته المخلصين لبنى طولون ، والواقع أن انتقال الحسين

(١) أبو بكر محمد بن يحيى الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى بالله من كتاب الأوراق ، نشر هيورث دن ص ٢٣٧ — ٢٣٨ والكندى : الولاة والقضاة (الملحق ص ٥٢١) وياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٣٥٣ (مادة ماذرايا) والمقريزى : النص العربى المطبوع من كتاب المقفى فى رسالة جوتشلك ص ١١٩ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢١٥ — ٢١٦

(٢) هلال الصابىء : تاريخ الوزراء ص ٢٢

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٠١ وابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٧ ص ١٧٤ وابن خلدون : كتاب العبر ج ٤ ص ٣٠٩

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٢١ — ٥٢٢

المـاذرائى إلى جانب الحكومة المركزية أكسبه رضا الدوائر الرسمية فى بغداد بسبب ما كان له من شأن فى القضاء على الطولونيين . وحسبنا أن نقرأ القصيدة التى رواها الكندى للشاعر الحبيشى فى بيان فضل هذا المـاذرائى فى سقوط بنى طولون[١] .

وهكذا حل الحسين المـاذرائى محل ابن أخيه أبى الطيب أحمد بن على فى إدارة الشئون المـالية فى مصر وضم إليه الخليفة المكتفى النظر فى أموال بنى طولون وضياعهم[٢] . ثم كانت ثورة ابن الخليج التى مر بنا الكلام عليها وظل الحسين المـاذرائى مخلصا للحكومة المركزية . وكان قد أعد نحو تسعمائة ألف دينار عبأها فى الصناديق لتحمل إلى الخليفة فى بغداد فلما أحس هو والوالى عيسى النوشرى بانتصار ابن الخليج وقرب استيلائه على العاصمة وزعا تلك النقود وحمل الحسين بن المـاذرائى سجلات الخراج والدواوين حتى يصعب على ابن الخليج جمع الخراج وإدارة الشئون المـالية[٣] . وفر الوالى والمـاذرائى إلى الإسكندرية لتنظيم المقاومة والاستعداد لقتال ابن الخليج . ولما تم لهما دخول الفسطاط ثانية سنة ٢٩٣ هـ عاد أبوزنبور المـاذرائى إلى ولاية الخراج .

ولكننا نلاحظ أن أبا زنبور المـاذرائى وأخاه أبا اسحق ابراهيم بن أحمد[٤] يرد ذكرهما كثيراً فى تاريخ الأحداث التى وقعت فى بغداد منذ تولية الخليفة المقتدر بالله سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) . والواقع أن تاريخ المـاذرائيين مرتبط بالتنافس بين الوزيرين العباسيين على بن عيسى وعلى بن محمد بن موسى بن الفرات فإن الأول كان صديقاً للمـاذرائيين

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥١ ، وهلال الصابىء : تاريخ الوزراء ص ٩٢

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥٨ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤١ — ١٤٥

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٩ — ١٥٠

(٤) كتب ابن عساكر (فى التاريخ الكبير ج ٢ ص ١٦٧) أن هذا الماذرائى كان من كتاب خمارويه وكان معه بدمشق حين قتل فخرج من دمشق الى بغداد فى أحد عشر يوما وأخبر المعتضد بقتل خمارويه وتوفى سنة ٣١٣ هـ .

بينما كان الثاني من أعدائهم الألداء [١] . وقد اشترك على بن عيسى وابراهيم بن أحمد المـاذرائى فى الثورة التى أدت إلى خلع المقتدر و بيعة ابن المعتز ، ولمـا أخفقت هذه الثورة وولى المقتدر على بن الفرات الوزارة أطلق جماعة ممن كانوا قد بايعوا المعتز ومنهم ابراهيم بن أحمد المـاذرائى [٢] ولـكنه عزل أبا زنبور المـاذرائى عن خراج مصر وولى عليه أحمد بن محمد بن بسطام فى ربيع الأول سنة ٢٩٦ . وظل الأخير فى هذا المنصب إلى أن توفى فى العام التالى وخلفه ابنه أبو القاسم على بن أحمد بن بسطام [٣] ، ثم عزل على بن أحمد هذا وعادت ولاية الخراج إلى أبى الطيب أحمد المـاذرائى سنة ٣٠٠ هـ واستعاد المـاذرائيون قسطاً وافراً من سلطانهم فى بغداد ومصر حين آلت الوزارة فى الدولة العباسية إلى على بن عيسى سنة ٣٠١ هـ فقلد أبا بكر محمد بن على الاشراف على الخراج والإدارة فى مصر وقلد أبا زنبور المـاذرائى الاشراف على الخراج فى الشام ، وهكذا أصبحت الشئون المـالية فى مصر والشام فى يد هذه الأسرة وكان الاتصال بين أفرادها قويا والتعاون موفوراً .

ولـكن عودة ابن الفرات إلى الوزارة بعد سقوط على بن عيسى سنة ٣٠٤ هـ أدت إلى الحد من سلطان المـاذرائيين وإلى مصادرة بعض أملاكهم [٤] . ثم عزل ابن الفرات ورد اليهم بعض ما صودر من أملاكهم وأعيد اليهم الإشراف على مصر والشام بعد أن اعترف ابن الفرات بصحة ما قرره أبو زنبور من أنه سلمه أثناء وزارته الثانية ستماية ألف دينار . وكان ذلك فى مجلس بقصر الخليفة للمناظرة بين الوزير المعزول ابن الفرات والوزير الجديد حامد بن العباس ومعه أبو زنبور ليسمع الأول التهم التى يوجهها اليه الثانى وليرد عليها إذا استطاع . ومما يلفت النظر ممـا دار فى هذه المناظرة أقوال ابن الفرات بشأن ثروة المـاذرائيين والأراضى الواسعة التى يملـكونها فى مصر والشام [٥] .

---

(١) الراجح أنه كان ينسب إلى الماذرائيين مساعدة خصومه ومدهم بالأموال .
(٢) عريب : صلة تاريخ الطبرى (فى تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ١٦) .
(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٦١ و H. Gottschalk: Die Madaraijjun pp. 54-55.
(٤) عريب : المرجع السابق ج ١٢ ص ٣٤
(٥) المرجع نفسه ج ١٢ ص ٣٩ ؛ ومسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٦١ ، وهلال الصابى : تاريخ الوزراء ص ٩٢ — ٩٤

وقد اتفق أبو زنبور مع الحكومة قبل عودته إلى مصر (فى نهاية سنة ٣٠٦ هـ) على أن يقدم إلى خزانتها كل عام مليون دينار من خراج مصر والشام بعد أن يقوم بنفقات الجيش والإدارة . والواقع أنه لم يبر بهذا الوعد بسبب هجوم الجيوش المغربية وما تطلبه صدها من نفقات ثم بسبب اقامة جموع غفيرة من الجند العباسيين فى مصر بعد ذلك للدفاع عنها وصد الفاطميين إذا عادوا إلى الهجوم .

وحدث أن مؤنسا الخادم عزل أبا زنبور عن خراج مصر وولى محمد بن جعفر القرطى [1] . ولكن الخليفة المقتدر رد إلى الماذرائيين هذا العمل [2] .

والواقع أن أبا زنبور كان قد أفلح فى كسب محبة مؤنس منذ قدومه من العراق وذلك بفضل إقباله على إكرامه وبذل النفقات فى سبيله وسبيل جنده [3] .

ولما عاد ابن الفرات إلى الوزارة فى بغداد سنة ٣١١ هـ استدعى أبا زنبور إلى بغداد وصادر جزءاً كبيراً من أموال سائر أفراد أسرته [4] ، ثم انتهت وزارة ابن الفرات وعين على بن عيسى لكشف مصر «والتفتيش» على شئونها [5] فكان يزورها من حين إلى آخر ليطلع على إدارة شئونها المالية . وقد خلف لنا هلال الصابى [6] نصاً تاريخياً يحدثنا عن حادث وقع فى إحدى هذه الزيارات الكشفية التى كان يقوم بها ابن عيسى . وبالنظر إلى أهمية هذا النص وإلى ما يستنبط منه عن الشئون الإدارية والمالية فى الخلافة حينئذ فاننا نفضل أن ننقله هنا ، فهو وثيقة عظيمة الشأن :

---

(١) هذه هى المرة الأولى التى قلد فيها القرطى خراج مصر . والمعروف أنه ولى ثانية ، حين كان أبو بكر الماذرائى عاملا على الخراج ، ولكنه لم يصل إلى مصر إذ توفى فى الطريق كما ذكرنا من قبل (ص ٤٢) .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٨

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١ — ٣٣٢

(٤) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ٤٨ ومسكويه ، كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ١١٤

(٥) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ٥٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢١٣ .

(٦) تاريخ الوزراء : ص ٣١٩ — ٣٢١

« وحدث أبو محمد الحسن بن محمد الصلحى قال : حدثنى أبو الحسن بن ظفر الكرخى بمصر قال : كنت أكتب لأبى على الحسين بن أحمد المـاذرائى ووافى أبو الحسن على بن عيسى من مكة فى أيام وزارة أبى القسم عبد الله بن محمد بن خاقان للاشراف على مصر والشام فدخل إلى مصر وتحته حمار وعليه طيلسان . وكان المتولى للمعونة[1] تكين فتلقاه وترجل له وعظمت هيبته فى النفوس جداً وجلس ونظر . ثم ركب فى بعض الأيام متفرجاً وعاد فحين دخل من باب الدهليز ونحن مجتمعون فى داره لانتظاره صاح : اللصوص ! ففزعنا كلنا خوفاً من أن يكون قد وقف لنا على خيانة . فلمـا استقر فى مجلسه قال : يا معاشر الناس اجتزت الساعة على جسر قارون (وهو بزند من البزندات وتسمى البزندات بمصر جسوراً) فقدرت النفقة عليه عشرة دنانير ووجدت العمال يحتسبون عنه على السلطان ستين ألف دينار فى كل سنة . وكرر ذلك وأكثر التعجب منه والقول فيه . وكان أبو على (المـاذرائى) حاضراً فلم يجبه عن كلامه . فقال : الشأن أنى أقول ما أقوله فلا تجيبنى عنه يا أبا على ؟ فنهض وانصرف . واغتاظ أبو الحسن على بن عيسى من ذلك وأطبق دواته وقال لعن الله أمر السلطان إذا انتهى إلى هذا الحد . وقام ودخل ، فانصرف النـاس ومضيت إلى أبى على قلقا بمـا شاهدته وسمعته ، ووجدته قد أنفذ خادما إلى على بن عيسى يستأذنه فى حضوره عنده على خلوة . فأذن له ومضى وأطال فجلست أنتظره . فلمـا عاد سألته عمـا جرى فقال : دخلت إليه وقلت له : لم أترك جوابك سوء أدب عليك ولا استهانة بقولك وإنمـا كرهت أن أعترف بحضرة الناس فألزم نفسى ما لا يلزمها أو أجيبك بمـا حضرت الآن لذكره فيكون ما عليك فيه أكثر ممـا علىّ فيه فامتنعت إكراما لك وصيانة . ثم قلت له : كم جارى[2] ؟ فقال : ثلاثة آلاف دينار فى الشهر[3] . فقلت : يمكننى وأنا عامل مصر أن أكون

(١) المتولى على المعونة أو صاحب المعونة هو الوالى أو صاحب الشرطة . راجع Wiet : Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, T. 11. pp. 30, 54, 231 وما يشير إليه من مراجع . وانظر الأب أنستاس الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص ٥٥

(٢) أى راتبى : أنظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes 1. p.190.

(٣) قد يبدو هذا الراتب كبيراً ولكن الظاهر أنه يشمل رواتب الموظفين الذين يعينهم المـاذرائى لخدمته ومن نسميهم اليوم موظفى مكتبه .

بغير كتاب ولا عمال ولا كُراع[1] ولا جمال ولا إعطاء ولا أفضال ؟ قال : لا ، قلت أفلا تعلم أن لى حرما وأولاداً وأقارب وأهلا أحتاج لهم إلى مؤونة ؟ قال : بلى ، قلت : فأخلو من أن يرد علىّ زوار بكتبك وكتب أمثالك من الرؤساء فتقتضى المروءة أن أبرهم وأصلهم ؟ قال . بلى لعمرى ، قلت فهذا الجبار الذى أجاوره[2] وفائق خادمه له ثمانون مرقدا وهو متسلط على الأمر كله يمكننى أن أقيمه على الطاعة وأمنعه ادخال اليد فى الضياع إلا بمؤونة أتكلفها له وأولاده وخدمه وكتابه حتى يستقيم ما بينى وبينه ؟ قال : هذا ما لا بد منه . قلت : فالخليفة والسيدة والخالة والقهرمانة ومؤنس ونصر الحاجب وكتابهم وأسبابهم[3] يجوز أن لا أهاديهم فى كل سنة ؟ قال : هذا رسم لا يمكن الاخلال به . قلت : فالوزارة إذا تقلد الواحد منهم هل يدخل داره شيء قبل ما يحمله خليفتى إليه ؟ وإذا نكب فهل يؤدى من مال مصادرته[4] شيئا قبل ما يستدعيه منى ؟ وهذا أنت أيدك الله (وأنت أعف الوزراء ومن لا يعرف له نظير) ألم أحمل إليك فى وقت كذا وكذا وفى وقت كذا وكذا وأُجْر على عيالك فى مدة كذا وكذا ؟ فقال : أنا والله شاكر لذاك . فقلت : ما ذكرت هذا اعتدادا عليك وإنما ذكرته لتعلم أنه يلزمنى لغيرك مثله وأكثر منه . وهذا حق بيت المال فى ضياعك بمصر والشام وهو بضعة عشر ألف دينار فى السنة أديت منها درهما واحداً ؟ فقال : ما أدرى . فقلت : هذا مال عظيم ولست أبرح أو أعلم أنه قد حصل لك أو كان أصحابك خانوك فيه[5] حتى أرتجعه منهم للسلطان ؟ فأعاد الشكر . فقلت : يا سيدى فمصادرتى فى كل وقت تزيد على ألف ألف دينار هل من الثلاثة الآلاف الدينار الجاري تكون ؟ فقال : دع هذا

---

(١) الكراع الخيل والبغال والحمير .

(٢) يقصد الوالى .

(٣) أقاربهم وأتباعهم .

(٤) هو المال الذى يلزم بدفعه وفاء لما ينسب إليه من اختلاس أو عقاباً على ما يوجه إليه من تهم . أنظر Dozy : op. cit. I. p. 822.

(٥) أى حتى أعلم هل أدى اليك أو أوهمك أتباعك أنهم دفعوه عنك لبيت المال .

يا أبا على فان كبار الرجال يغضى لهم السلطان عن كثير الأموال . وما سمعناه بعد ذلك أعاد فى شىء من أمور أعمالنا قولا » .

وهكذا يتبين لنا من هذا النص كيف كان كبار المشرفين على الادارة المالية يختلسون أموال الدولة بما يقدمون من بيانات خاطئة لوجوه الصرف حتى تتهيأ لهم الأموال الطائلة يدفعون قسطاً كبيراً منها فى رشوة الوزراء ورجال البلاط وسائر كبار الموظفين .

وتوفى أبو زنبور بمصر سنة ٣١٧ هـ[1] بعد أن أفلح فى مد نفوذ الماذرائيين حتى أصبحت مصر والشام فى يدهم من الناحيتين المالية والاقتصادية وامتد نفوذهم إلى العراق فكان لهم فى بغداد شأن عظيم . وحسبنا شاهدا على الثروة العظيمة التى جمعها الماذرائيون ما نقرأه من بيانات فى بعض المراجع التاريخية فقد أشار الوزير على بن محمد بن الفرات عند مناظرته الوزير حامد بن العباس ، إلى أن أبا زنبور الماذرائى وابن أخيه محمد بن على كانا يملكان فى مصر مائة فرسخ[2] مربع من الضياع[3] . وروى أبو بكر محمد الماذرائى أن محمد بن طغج الأخشيد صادر من بضائعه ما يساوى أكثر من ثمانين وبية من الدنانير[4] . وروى المقريزى أن صدقات أبى بكر الماذرائى بلغت مرة فى سنة واحدة نيفا وستين ألف دينار وأنه ملك بمصر من الضياع الكبيرة ما لم يملكه قبله أحد فبلغ إيراد ضياعه أربعمائة ألف دينار فى كل سنة سوى الخراج[5] .

ولا ريب فى أن أهم الوسائل التى جمع بها الماذرائيون هذه الثروة الطائلة ضمانهم خراج مصر والشام فى بعض السنين أى تعهدهم بدفع مبلغ معين إلى خزانة الحكومة

---

(١) عريب : صلة تاريخ الطبرى (جزء ١٢ من تاريخ الطبرى) ص ٧٥

(٢) الفرسخ نحو خمسة كيلو مترات وسبعمائة واثنين وستين متراً أو ثلاثة أميال .

(٣) هلال الصابىء : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٩٣ — ٩٤

(٤) المقريزى : المقفى ص١٢٦ (من النص العربى المنشور فى رسالة جوتشلك عن الماذرائيين) .

(٥) المرجع نفسه ص ١٢٧

المركزية فى بغداد ، على أن يأخذوا على عاتقهم جباية الخراج فى هذين الاقليمين [١] .
وطبيعى أنهم كانوا يجمعون من المال أكثر مما يدفعون إلى بيت المال . كما كانوا يحتجون فى بعض الأحيان بكثرة نفقات الجند فلا يدفعون إلى بغداد ما تعهدوا بدفعه .
ومما يؤيد تأخرهم فى الدفع ما تحدث به المقتدر بالله إلى مؤنس الخادم ، حين أراد إبعاده عن بغداد بتدبير ابن الفرات فى سنة ٣١١ هـ ، فقد ختم هذا الحديث بقوله :
« والوجه أن تخرج إلى الرقة وتتوسط فى عملك وتنفذ عمالك فى اقتضاء الأموال وتستخرج ما يجب على الماذرائيين من الأموال العظيمة التى يذلوا بها خطوطهم وتهابك عمال المعاون بمصر والشام فيستقيم أمر الملك » [٢] .

---

(١) مثال ذلك ما قرره ابن الفرات فى المناظرة التى أشرنا إليها ، فقد أشار إلى أنه « آخذ خط الحسين بن احمد الماذرائى بحضرة أمير المؤمنين بألف ألف دينار عن مصر والشام خالصاً للحمل بعد النفقات ومال الجند فى تلك الأعمال . أنظر هلال الصابىء : المرجع السابق ص ٢٩٠

أنظر أيضاً مسكويه : الجزء الخامس من كتاب تجارب الأمم ص ١٠٦

(٢) مسكويه : المرجع نفسه ص ١١٦

الباب الثانى

أسرة الاخشيد

أسرة الاخشيد

(١)

حكمت الدولة الاخشيدية مصر نحو ٣٤ سنة . ومؤسسها هو محمد بن طغج الاخشيد ، وقد خلفه فى حكم مصر ابناه أبو القاسم أونوجور ثم أبو الحسن على بن الاخشيد . وكان القائم بأمر مصر والمدبر الحقيقى لهـا فى عهد كل من هذين الابنين هو العبد الحبشى أبو المسك كافور ، الذى كان أبوهما قد اشتراه ثم أخذ يرتقى فى مناصب الدولة حتى أصبح قائدا فى الجيش ومربيا لهما ، وصارت له الوصاية عليهما مدة توليهما إمارة مصر ، ثم أصبح بعد وفاتهما الحاكم الفعلى والاسمى فيها . وبعد وفاة كافور ولى حكم مصر أبو الفوارس أحمد بن على حفيد الاخشيد . وكان صبيا فى الحادية عشرة من عمره ولم يطل حكمه فى البلاد ، إذ كانت مصر فى ذلك الحين يهددها القرامطة فى الشرق والفاطميون فى الغرب والنوبيون فى الجنوب ، كما كانت تنتابها كوارث اقتصادية ويفتك بها القحط والوباء فاضطرب الأمن فيها . وكانت كل هذه الظروف بالاضافة إلى ضعف الجيش المصرى وعجز خلافة بغداد ممـا شجع الفاطميين على غزو مصر بقيادة جوهر الصقلى .

(٢)

تنسب الدولة الاخشيدية إلى الاخشيد وهو اللقب الذى منحه الخليفة العباسى الراضى بالله لمحمد بن طغج فى سـنة ٣٢٦ هـ (٩٣٧ / ٩٣٨ م) على رأى[١] أو فى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) على رأى آخر[٢] . وقد روى ابن سعيد نقلا

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٣

(٢) ابن خلـكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤

عن الحسن بن زولاق أن محمد بن طغج كتب إلى الراضي بالله يسأله أن يلقب بالاخشيد وقال في كتابه : « وقد كنى أمير المؤمنين جماعة ولقبهم، فليبشرني بما سألت » فاستفسر الراضي من حاجبه ذكا عن معنى « الاخشيد » ولم يعرف الحاجب هذا المعنى ، فسأل وقيل له ان هذا اللفظ معناه « عبد » ولكن لقب به ملك الملوك . ويبدو أن المعنى الأصلي لهذا اللفظ جعل الراضي لا يرى بأسا في منح طغج هذا اللقب ، فقال : « لا نبخل عليه بهذا ، اكتبوا له بذلك »[1] .

وقيل أن لفظ « الاخشيد »[2] معناه بلغة إقليم فرغانة « ملك الملوك » وانه كان لقب ملوكهم كما كان قيصر لقب ملوك الروم وكسرى لقب ملوك العجم وفرعون لقب ملوك مصر القدماء[3] .

وكانت فرغانة ، مثل سائر أقاليم ما وراء النهر ، يسيطر عليها كبار الملاك والفرسان . وكان أمير تلك البلاد أكبر الملاك والفرسان فيها . وكان يسمى « دهقان » وابنه كان يدعى بلقب « اخشيد » .

ومؤسس الدولة الاخشيدية هو أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن بلتكين ابن فوري بن خاقان[4] . وتذكر بعض المراجع التاريخية القديمة أنه من أولاد ملوك فرغانة[5] . وكتب المستشرق الفرنسي هوار (Huart) أن محمد بن طغج لقب بالاخشيد لأن أباه من نسل أمراء فرغانة الذين كان لهم هذا اللقب الايراني الأصل (من Khchaêta بمعنى الذكي أو النابه le brillant)[6] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٣ — ٢٤

(٢) ورد هذا اللفظ بالدال المهملة في معظم المراجع التاريخية كالكندي وابن الأثير وابن سعيد والمقريزي ولكن ضبطه ابن خلكان وأبو المحاسن بالذال المعجمة .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٣٧

(٤) ابن سعيد : المغرب ص٥ . وفي ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص٥٣) محمد بن طغج ابن جف بن بلتكين بن فوران بن فوري بن خاقان . وقد أضاف المرجمان بعد خاقان أنه « صاحب سرير الذهب » وسرير الذهب اقليم من أقاليم بحر الخزر ، أنظر ياقوت : معجم البلدان مادة « سرير » والمسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٤١

(٥) ابن سعيد وابن خلكان : المرجعان السابقان..

(٦) Huart : Histoire des Arabes : T. I. p. 320.

ولكن هذه النسبة إلى ملوك فرغانة ليست ثابتة كل الثبوت . وهى ، إن دلت على شيء فانما تدل على نسبة الاخشيد إلى اقليم فرغانة . ولعله عندما وصل إلى منصب الولاية أراد أن يصل نسبه ببيت الامارة فى موطنة إعلاءً لشأن أسرته . ولسنا أول من شك فى تلك النسبة . فقد كتب القلقشندى فى كلامة على ملوك فرغانة . « وكان كل منهم يلقب الاخشيد ولذلك لقب الراضى بالله العباسى محمد بن طغج صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية بالاخشيد لأنه كان فرغانياً »[١] .

وكان جف جد الاخشيد من بين نفر من فرسان فرغانة وشجعانها ، قدموا أو جيء بهم إلى الخليفة العباس المعتصم بالله فعنى بهم أشد العناية وعول على أن يتخذهم عوناً له وأقطعهم قطائع فى مدينة سامرا . وظلت قطائع جف تنسب إليه حتى زمن ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) .

ولما توفى المعتصم انتقل جف إلى خدمة ابنه الواثق . ولما مات الواثق سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٧م) صحب جف أخاه المتوكل وظل فى بطانته إلى أن توفى فى بغداد فى الليلة التى قتل فيها المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م)[٢] .

أما طغج[٣] بن جف فقد التحق بعد وفاة أبيه بخدمة أحمد بن طولون[٤] بعد أن اتصل بلؤلؤ الذى كان من اتباع هذا الأمير . والظاهر أنه انضم بعد ذلك إلى اسحق ابن كنداج والى الموصل وعدو ابن طولون ، ثم كان الصلح بين خمارويه بن أحمد بن طولون واسحق بن كنداج فعاد طغج بن جف إلى العمل لبنى طولون وعينه خمارويه واليا على دمشق وطبرية[٥] .

وحدث فى سنة ٢٨١هـ أن أرسل خمارويه . عامله طغج بن جف لغزو البيزنطيين ، فسار طغج من طرسوس على رأس جيش كبير وتقدم فى آسيا الصغرى حتى بلغ طرابزون

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٨٤
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٣ — ٥٤ وابن سعيد : المغرب ص ٥
(٣) تذكر بعض المراجع القديمة مثل ابن سعيد وابن خلكان أن طغج معناها عبد الرحمن .
(٤) كتب ابن سعيد (المغرب ص ٥) أن ابن طولون « قلده مصر » ولعله يقصد أنه قلده عملا رئيسياً فى إدارتها .
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤

وهزم الروم فى عدة وقائع وعاد إلى دمشق بعد بضعة شهور محملا بالغنائم [١] . ويبدو أن خمارويه غضب على طغج بعد هذه الحملة لأنه كان قد طلب منه أن يقبض على راغب [٢] والى طرسوس وأن يقتله ولكن الترحيب الذى لقيه طغج من هذا الوالى حببه إلى نفسه وجعله يصغى إلى رجاء بعض أهل طرسوس فى الابقاء عليه ، فاشتركا فى غزو الروم وعاد طغج يتلمس المعاذير عند خمارويه لامتناعه عن القبض على راغب . وعزم خمارويه على الفتك بطغج ، غير أنه قتل قبل تحقيق نيته [٣] .

ويروى أن طغج بن جف كان معه فى القصر ليلة قتله وأنه طارد الخدم الذين اشتركوا فى ذبحه فقبض عليهم وأمر بذبحهم وصلبهم [٤] . وظل طغج واليا على دمشق وطبرية فى عهد جيش بن خمارويه . ثم ثار القواد على جيش وقتلوه وولوا أخاه هارون بن خمارويه سنة ٢٨٣ ، وكان طغج من الساخطين على جيش فشق عليه عصا الطاعة فى دمشق . وكان بين القواد الثائرين أخ لطغج هو القائد بدر بن جف [٥] .

ولما تولى هارون بن خمارويه كان طغج يحكم الشام مستقلا عن مصر الى حد كبير فخرج اليه بدر الحمامى قائد الجيش المصرى ومعه الحسين بن احمد الماذرائى وأعادا الشام الى حظيرة الدولة الطولونية بعد أن نجحا فى الوصول الى تسوية سلمية مع طغج ابن جف وأقراه فى حكم دمشق من قبل هارون بن خمارويه [٦] .

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٧ ص ١٦٧ وأبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٦٠ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٨٦

والملاحظ أن المسعودى أشار إلى هذا الغزو فى مروج الذهب وسمى قائده « طغج ابن سنبيب » (ج ٨ ص ١٤٦) . وفى طبعة المطبعة البهية سنة ١٣٥٦ « طغج بن شيث » (ج ٢ ص ٤٧١) .

(٢) اقرأ عن هذا الوالى وعلاقته بالطولونيين والعباسيين Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 122, 140. 141. والمصادر العربية المذكورة فى هذا المرجع . أنظر أيضا ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٥٢

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٦

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٠

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٧٠

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٠١

وبينما كان طغج يحكم الشام لهارون تقدمت جموع القرامطة بعد أن طاردتهم جيوش الخلافة العباسية فى العراق [1] فعاثت فى الشام فسادا وقتلت كثيرا من سكانها سنة ٢٨٩ هـ واتصل الأمر بطغج ولم يقدر خطورته ، وظنهم من بعض الأعراب فخرج لقتالهم بغير أهبة ولا عدة « ومعه البزاة والصقورة كأنه خارج للصيد » على حد تعبير أبى المحاسن [2] ، وكان النصر للقرامطة وعاد طغج إلى دمشق منهزما بعد أن قتل عدد كبير من جنده .

وفى السنة التالية أرسل طغج بن جف جيشا آخر لقتال القرامطة ولكنه هزم شر هزيمة ، كما قدم من مصر جيش لقتالهم بقيادة بدر الحمامى ولكنه لم يكن أحسن حظا . وتشجع القرامطة فأقبلوا على حصار دمشق وأشرف أهل هذه المدينة على الهلاك . وكان المكتفى بالله الخليفة العباسى الجديد يراقب هذا النضال بين القرامطة والطولونيين ، ولا ريب فى أنه أراد أن يضرب ضربة حاسمة ليتخلص من الفريقين فبعث إلى الشام بجيش كامل العدة على رأسه القائد محمد بن سليمان . وعلم القرامطة بقدوم هذا الجيش فبادروا بترك دمشق بعد أن دفع لهم أهلها مبلغا كبيرا من المال ثم انسحبوا إلى حمص وأدركهم الجيش العباسى وهزمهم على مقربة من حماه سنة ٢٩١ هـ [3] .

وكان طغج بن جف من القواد الطولونيين الذين لم يرضوا عن قتل هارون بن خمارويه ولم يعترفوا بخلفه شيبان بن أحمد بن طولون . وقد قرر هؤلاء القواد أن يتصلوا بالجيش العراقى الذى كان يقوده محمد بن سليمان والذى سار إلى مصر للقضاء على حكم بنى طولون بعد أن أفلح فى هزيمة القرامطة . وتم انضمامهم إلى هذا الجيش عند مدينة العباسة وكانوا ومن معهم من الجند عونا له فى فتح مصر .

---

(١) اقرأ عن القرامطة مقال الأستاذ ماسنيون Massignon فى دائرة المعارف الاسلامية والفصل الذى كتبه عنهم فى A Volume of Oriental Studies Presented to Professor Browne pp. 329-338. والطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١١ ص ٣٣٧ وما بعدها .
ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٧ ص ١٧٥ وما بعدها .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٠٤ وابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٧ ص ١٨٢

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١١ ص ٣٧٧ — ٣٩١

ويبدو أن محمد بن سليمان أراد أن يفيد من خبرة طغج بن جف أو أراد أن يتخلص من وجوده فى مصر فبعث به واليا على قنسرين وضم اليه جمعا من جند ابن طولون [١] ولكنه لم يبق طويلا فى هذا المنصب ، فان محمد بن سليمان عندما غادر مصر ، صحب معه الى بغداد طغج بن جف وولده وأخاه [٢]. وكان وزير المكتفى بالله ، الخليفة العباسى حينئذ ، هو العباس بن الحسن . ولم يكن محمود السيرة ، بل كان عاكفا على لذاته ومعروفا بالمكر والدهاء [٣]. وقام الخلاف بين هذا الوزير وطغج بن جف . وكتب ابن زولاق فى تفسير هذا الخلاف أن الوزير كان يريد من طغج اذا لقيه فى موكبه أن يترجل له وأن طغج لم يكن ليقبل ذلك فما زال الوزير بالخليفة المكتفى يوغر صدره على طغج ويحذره من اخلاصه لبنى طولون حتى أمر الخليفة بسجنه فحبس ومعه ابناه محمد وعبيد الله [٤] . وظل طغج محبوسا الى أن توفى سنة ٢٩٤ هـ وأطلق ولداه ولزما خدمة الوزير العباس بن الحسن الى أن عمل الحسين بن حمدان على القضاء عليه ، فاشتركا فى قتله أخذا بثأرهما . ثم هرب عبيد الله بن طغج الى شيراز فخدم أميرها وخرج محمد بن طغج الى الشام . واستطاع عبيد الله العودة الى بغداد فى أيام المقتدر بالله والظاهر أنه وفق فيها الى منصب رئيسى [٥] .

وكان طغج مشهورا بحبه للتطيب حتى بولغ فى ذلك فقيل انه كانت له خزانة طيب تحمل فى سفره على نيف وخمسين جملا وأنه كان اذا تطيب لم يخف على أكثر أهل دمشق بخوره [٦] .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٨

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص ١٤٦

(٣) ابن الطقطقى : الفخرى ص ١٩٢

(٤) جاء فى ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤ أن الذى حبس مع طغج هو ابنه محمد وحده .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٧

(٦) المصدر نفسه ص ٥

وكان لطغج سبعة أبناء ذكر منهم ابن سعيد خمسة : هم أبو بكر محمد وأبو الحسين عبيد الله وأبو المظفر الحسن وأبو نصر الحسين وأبو القاسم على [(١)] .

وكان أكبر هؤلاء الأخوة أبا بكر محمد بن طغج . وقد ولد بمدينة بغداد في منتصف شهر رجب سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢ م) [(٢)] . ولسنا نعرف شيئا عن نشأته ، ولكننا نلقاه لأول مرة عند ما كان أبوه واليا على دمشق وطبرية فانه كان يستخلفه في الحكم على هذه المدينة الأخيرة .

ولما خرج محمد بن طغج الى الشام ، بعد قتل الوزير العباس بن الحسن ، اتصل بأبى العباس أحمد بن بسطام الذى كان عاملا على الخراج فيها . وكان يخدمه فى شئون الصيد على وجه خاص فكان يحمل له الجوارح حتى عرف باسم بازيار ابن بسطام [(٣)] . ولما تقلد ابن بسطام خراج مصر سنة ٢٩٦ هـ صحبه محمد بن طغج اليها . ثم توفى ابن بسطام فى العام التالى وخلفه على خراج مصر ابنه أبو القاسم على بن أحمد بن بسطام . وظل ابن طغج فى خدمته فترة من الزمن [(٤)] . وعزل على بن بسطام سنة ٣٠٠ هـ . أما ابن طغج فقد اتصل بتكين والى مصر وعندما قدم الجيش الفاطمى لغزو مصر بقيادة حباسة سنة ٣٠٢ هـ أبلى محمد بن طغج بلاء حسنا مع تكين فى قتال هذا الجيش وتوثقت صلته به حتى أصبح منه « بمثابة الولد » [(٥)] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٥

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥

(٣) البازيار أو البازدار هو الذى يحمل على يده الطيور الجوارح المعدة للصيد ، أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩ و

L. Mercier : La Chasse et les Sports chez les Arabes. P. 81 et suiv. figs 4 et 5.

Zaky M. Hassen : Hunting as Practised in Arab Countries of the Middle Ages pl. 3 & 9.

E, Pauty : Bois Sculptés d'Eglises Coptes pl. 2 & 3.

(٤) مما يلفت النظر أن ابن خلكان لايعرف شيئاً عن اتصال محمد بن طغج بأسرة ابن بسطام وأنه يشير إلى الفترة الواقعة بين خروجه من بغداد واتصاله بتكين بقوله « وهرب أبو بكر إلى الشام وأقام متغرباً فى البادية سنة ثم اتصل بأبى منصور تكين » (وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤) .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٧

ولما نحى تكين عن ولاية مصر وخرج الى الشام صحبه ابن طغج ثم تقلد تكين ولاية دمشق فأناب عنه محمد بن طغج فى عمان وجبل السراه [١] . ويروى أن حادثا وقع لابن طغج أثناء نيابته عن تكين فى عمان وأدى الى شهرته ولفت نظر البلاط الخليفى اليه . وبيان ذلك أن ابن طغج عرف سنة ٣٠٦ هـ أن اعرابا من لخم وجذام كمنوا لركب الحجاج المارين بالشام ، وكان من بينهم نفر من وجوه أهل العراق وجارية لأم الخليفة المقتدر . فخرج محمد ومعه أخوه على بن طغج على رأس جمع من الجند وهزم قطاع الطرق شر هزيمة فشكره الحجاج وأطنبوا فى الحديث عن شجاعته فى بغداد وقدر له الخليفة العباسى هذا العمل حق قدره [٢] « فأنفذ اليه خلعا وزاد فى رزقه » [٣] .

ويبدو أن تكين ولاه بعد ذلك على الإسكندرية [٤] ، وأنه ظل مقيما بها إلى أن غزا الفاطميون مصر مرة ثانية بقيادة القائم فى سنة ٣٠٧ هـ فأبلى فى قتالهم بلاء حسنا . ولا ريب أنه عمل منذ ذلك الوقت على توثيق علاقته بكبار رجال الحكم فاتصل بأبى بكر محمد بن على المادرائى وبأبى زنبور الحسين بن أحمد المادرائى . ويبدو أنه عرف عن كثب الضياع والأموال الطائلة التى جمعها المادرائيون فأفاد من ذلك فى مصادرة قسط كبير منها بعد أن آلت اليه مقاليد الحكم فى مصر [٥] . كما اتصل محمد بن طغج بالقائد العباسى مؤنس الخادم الذى قدم من العراق سنة ٣٠٨ هـ على رأس جيش عباسى لطرد الفاطميين من الاراضى المصرية .

---

(١) السراه : جبل يصل ما بين أقصى اليمن والشام (أنظر ياقوت : معجم البلدان ، مادة السراه ج ٥ ص ٥٩ — ٦١) .

(٢) نلاحظ أن المؤرخين المسلمين يقبلون على رواية مثل هذه القصص فيما ينسجون حول سير عظماء الرجال فتصبح وكأنها « كليشيهات » لا نعرف نصيبها من الصحة . ومثال ذلك مايروونه عن ابن طولون فى رحلته من طرسوس إلى سامرا إذ يزعمون أنه كان فى قافلة تشتمل على متاع للخليفة المستعين وأن الأعراب سطوا عليها فحاربهم ابن طولون وأنقذ القافلة وحفظ متاع الخليفة فأجازه ووصله بالعطايا .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤

(٤) لا نعرف مؤرخاً أشار إلى ذلك سوى ابن سعيد فى المغرب ص٧ ، نقلا عن ابن زولاق .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٨

وتقلد محمد بن طغج حكم الحوفين الشرقى والغربى من قبل تكين ، وحدث أثناء ولايته هذه أن استولى على دار القاضى أبى عبيد الله على بن الحسين بن حرب بن عيسى المعروف بابن حربويه والذى قدم إلى مصر سنة ٢٩٣ وعزل عن قضائها سنة ٣١١ فعاد إلى بغداد حيث توفى سنة ٣١٩ هـ .

وتوفى بالاسكندرية سنة ٣١٦ هـ حاكمها أبو اليمن أحمد بن صالح ، ويبدو مما كتبه ابن سعيد أن محمد بن طغج استولى على تركته وأن تكين لم يرض عن ذلك فكان هذا بداية الخلاف بين الرجلين [(١)] .

وحدث أن عين مؤنس الخادم محمد بن جعفر القرطى على الحسبة ثم على الخراج فى مصر وصرف بذلك الماذرائيين فما لبث هؤلاء أن اتهموه باختلاس الأموال من خراج البلاد فعزله المقتدر وبادر القرطى بالاختفاء عند محمد بن طغج الذى كان صديقاً له منذ قدومه إلى مصر [(٢)] . وأفلح ابن طغج فى تدبير خطة لاخراج القرطى من مصر وإنقاذه من الوقوع فى يد الماذرائيين الذين كانوا يجدون فى البحث عنه . وحفظ القرطى لابن طغج هذا الصنيع واستطاع أن يحصل له على تقليد من بغداد بولاية الرملة سنة ٣١٦ . والغريب أن محمد بن طغج لم يخرج من مصر إلى عمله الجديد علانية وإنما احتال للهرب منها . وعند ما غادر مقر إقامته بادر الجند بابلاغ تكين أنه هرب . ولسنا نعرف حقيقة الحال فى هذا كله ولا ندرى كيف لا يستطيع موظف عينه الخليفة حاكما على إقليم من أقاليم الخلافة أن يخرج إلى مقر ولايته ، ولكن هذا مثال من أمثلة الفوضى التى كانت تسود البلاد فى ذلك الوقت . ولعل محمد بن طغج خشى أن يغضب تكين ولى نعمته لأنه لم ينل هذا المنصب بوساطته فيعمل على منعه من مغادرة مصر أو يعتقله بأى تهمة من التهم . والراجح أن الرجلين كانت بينهما أمور لا نعرفها على وجه التحقيق وأن ابن طغج كان ينتظر أن ينقلب عليه تكين من حين إلى آخر .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٨

(٢) أنظر أيضاً Gottschalk: Die Madaraijjun p. 90.

ومهما يكن من الأمر فان ابن طغج عند ما بلغه وحده نبأ تقليده ولاية الرملة طلب إلى محمد بن تكين أن يستأذن له ولنفسه فى أن يخرجا معا للصيد فى إقليم الحوف ثم أفلح ، قبل بداية الصيد ، فى إبعاد محمد بن تكين لاخضاع نفر من قطاع الطرق فى صحراء الحوف ، وبادر بأخذ ثلاثمائة دينار من مبلغ من المال كان قد أودعه عند أمه ثم غادر مصر هاربا إلى الشام سنة ٣١٦هـ ، أما أمه وسائر أفراد أسرته المقيمين بمصر فقد اضطروا إلى الاختفاء[١] .

وقلق تكين لهرب محمد بن طغج وبعث إليه فى دمشق كتاباً يستعطفه فيه ويعتب عليه ومن عبارات هذا الكتاب ، « لو أعلمتنى لأعنتك وعضدتك » ومنها : (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ولبثتَ فينا من عُمُرِكَ سِنِين وفَعلتَ فَعلَتَك التى فعلْتَ)[٢] . وجاء فى رد ابن طغج على هذا الكتاب « فهمت كتاب الأمير أطال الله بقاه وما تلاه من القرآن والجواب ما أجاب به موسى الذى هو خير من الأمير ومنى (فَفَرَرْتُ منكم لما خِفْتُكم)[٣] .

ولما علم الراشدى أمير الرملة بتقليد محمد بن طغج وبقدومه إليها بادر بالهرب وترك داره وأمتعته فوقعت كلها فى يد ابن طغج .

تسلم ابن طغج من الخليفة المقتدر كتابا يثبته فيه على ولاية الرملة وعوض الراشدى عنها بولاية دمشق . والظاهر أن ابن طغج سعى فى تحسين مركزه وأن صديقه القرطى ساعده فى بغداد فجاءه فى سنة ٣١٩ تقليد من الخليفة بولاية دمشق[٤] ، وصرف عنها الراشدى وردت إليه ولاية الرملة . وكان لابن طغج أصدقاء كثيرون فى دمشق وكان محبوبا عند أهلها فرحبوا بتوليته « ودخلها أحسن دخول »[٥] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٩

(٢) قرآن كريم : سورة الشعراء ، الآيات ١٨ — ١٩

(٣) إشارة إلى ما جاء على لسان موسى فى القرآن الكريم ، سورة الشعراء ، آية ٢١ « ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » .

(٤) وفى سنة ٣١٨ هـ عند ابن خلكان وأبى الفدا .

(٥) عريب : صلة تاريخ الطبرى (فى الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٢ ص ٨٢) .

واستطاع ابن طغج الاخشيد أن يوطد لنفسه فى دمشق ، ويلوح أن قائداً من أتباع مؤنس المظفر ، اسمه بشرى الخادم ، انتهز فرصة الفوضى التى كانت تسود بغداد فى ذلك الوقت بسبب الخلاف بين مؤنس والخليفة المقتدر[١] ، فأراد أن يفتح بحد السيف إقليما ينصب نفسه حاكما عليه ويمّم شطر دمشق ، ولما قرب منها فاوضه الاخشيد وتم بينهما الصلح واجتمعا . ولكن ما لبث بشرى الخادم أن عقد العزم على القتال والتقى أتباعه بجنود الاخشيد وكان النصر للأخيرين وهزم بشرى وجىء به أسيرا إلى الإخشيد فأقام أياماً ثم أصبح ميتا . وقيل ان الإخشيد سقاه سماً[٢] .

ومهما يكن من الأمر فقد أتيح للاخشيد أن ينظم لنفسه جيشا ضم إليه طائفة كبيرة من الجند الذين كانوا تابعين لتكين وللراشدى ولبشرى الخادم . كما اجتمع حوله اخوته عبيد الله والحسن والحسين وعلى بنو طغج . وولد له بدمشق فى ذى الحجة سنة ٣١٩ ﻫ ابنه أبو القاسم أونوجور .

والظاهر أن الاخشيد سار منذ بداية حكمه فى دمشق على السنة التى سنعرفها عنه بمصر فى جمع المال بمختلف الطرق والوسائل ، وعلى رأسها مصادرة الأموال عند من يعرف عنهم الثراء والغنى . ومن ذلك ما يروى من أنه خرج يوما للصيد فى ظاهر دمشق فرأى حماما فأطلق إليه طائر الصيد فأمسكه فاذا مع الحمام كتاب من أحد أتباع الراشدى إلى رجل من أهل دمشق يذكر فيه أن ما بقى عند هذا الدمشقى ثمانون ألف دينار . ورجع الاخشيد إلى داره واستدعى الرجل وطالبه بالمال وأخذه منه[٣] .

ومن ضروب القصص التى ينسجها الكتاب حول سيرة أعلام الرجال ما يروى من أن الاخشيد كان يجلس فى دمشق ذات يوم فرأى طائرا يقال له السدلى ، وزعم الناس أن من دار هذا الطائر على رأسه ثلاث مرات وتمنى على الله شيئا بلغه ،

---

(١) المرجع نفسه ج ١٢ ص ٧٦ — ٩٤

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٨

(٣) المرجع نفسه ص ١٠

فلما رأى الأخشيد هذا الطائر وقد دوّم على رأسه ثلاث دورات تمنى إمارة مصر فبلغه الله ذلك[1].

وهكذا نرى أننا لا نعرف شيئا كثيرا عن أسرة الأخشيد ولا عن البيئة التى نشأ فيها، ولا عن نوع التربية التى تلقاها فى صباه. وحسبنا أنه كان من أولئك الجند الترك الذين حفل بذكرهم تاريخ الدولة العباسية منذ عصر المعتصم والذين استطاع نفر منهم أن يشق لنفسه الطريق وأن يتحكم فى مصير الأقاليم الاسلامية، وأن يظهر إلى أى حد يمكن الحاكم قوى بشخصيته وعبقريته أن يفيد من الجيوش المؤلفة من العناصر المختلفة الجنس وأن يصل إلى السلطان السياسى والحربى فى امبراطورية اسلامية اتسعت أرجاؤها حتى أصبح من العسير على الخلفاء الضعفاء أن يحتفظوا بنفوذهم فيها[2].

(١) وازن بين هذه القصة (ابن سعيد: المغرب ص ١٠) وقصة الكرة التى كان يقال ان من تقع فى كمه يملك مصر فوقعت فى كم عمرو بن العاص حين زار الاسكندرية فى الجاهلية. أنظر ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها (طبعة تورى) ص ٥٣

(٢) انظر فى سلطان الجند الترك المراجع التى جاء ذكرها فى مقال الدكتور زكى محمد حسن بعنوان «دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى» (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، المجلد ١٢، مايو سنة ١٩٥٠ ص ١٨٤ — ١٨٥).

الباب الثالث

علاقة الأمراء الأخشيديين بالدولة العباسية

علاقة الأمراء الأخشيديين بالدولة العباسية

(١)

تولية محمد بن طغج الاخشيد

ذكرنا فى الباب الأول أن محمد بن طغج ولى مصر للمرة الأولى نحو ثلاثين يوما وذلك بعد وفاة تكين . والواقع أنه كان يطمع فى حكم مصر قبل وفاة هذا الوالى [١] ، ولكنه انتظر إلى أن خلا مكانه واضطربت الأمور فى مصر فبعث من دمشق بكاتبه على بن كلا إلى الخليفة العباسى يلتمس تعيينه واليا على مصر . ورفض الخليفة القاهر محتجا بأنه قد ولى عليها محمد بن تكين .

وزعم ابن زولاق أن على بن كلا ، كاتب الاخشيد بادر برشوة كاتب من كتاب القاهر بالله بعد أن خلع هذا الخليفة ، واشترى ابن كلا من هذا الكاتب بعشرة آلاف درهم تقليدا مزورا على القاهر بولاية مصر للاخشيد ثم أرسل هذا التقليد إلى سيده فى دمشق [٢] . ولكن هذا الزعم بعيد عن الحقيقة التاريخية لأن خلع الخليفة القاهر حدث فى جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ (ابريل سنة ٩٣٤ م) بينما كانت تولية ابن طغج الأولى على مصر فى شعبان سنة ٣٢١ هـ وورد الكتاب بولايته عليها فى السابع من شهر رمضان فى السنة نفسها [٣] . والراجح اذن أن الخليفة القاهر عاد ، على الرغم من رفضه الأول ، فعين الاخشيد واليا على مصر .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٤٤ وانظر أيضاً المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٨١

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٠

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٢ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٨ ، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ و Wüstenfeld : Statthalter IV .p. 22 .

ولكن اضطراب الأمور فى مصر وفى مقر الخلافة نفسه لم يترك للاستقرار سبيلا ، إذ لم يُدع للاخشيد على منابر مصر إلا نحو اثنين وثلاثين يوما ، ورد بعدها كتاب من الخليفة القاهر بولاية احمد بن كيغلغ على البلاد المرة الثانية . وكان ذلك فى شوال سنة ٣٢١ هـ .

وقامت الفتن بين الجند ثم أقبل محمد بن تكين من فلسطين زاعما أن الخليفة الجديد الراضى بالله محمد بن المقتدر قد ولاه على مصر ، وانقسم الجند طائفتين : طائفة تنصر ابن تكين وطائفة تنصر ابن كيغلغ . وانتهى الأمر بهزيمة ابن تكين فى مكان اسمه الطواحين بين فاقوس وبلبيس ، فأسر ونفى فى أخميم . وكاد الأمر يستقر لابن كيغلغ ، ولكن ما لبث الخليفة العباسى أن قلد محمد بن طغج ولاية مصر للمرة الثانية [1] .

ويذكر ابن زولاق [2] أن الفضل فى تولية محمد بن طغج مصر فى هذه المرة يرجع إلى المصاهرة بينه وبين الفضل بن جعفر . إذ أن الخليفة الراضى ندب الفضل بن جعفر لتفقد أحوال مصر والشام فاشترط الفضل على الخليفة وعلى وزيره محمد بن أبى على بن مقله أن يكون تفويضه كاملا ، وأن يكون الأمر كله اليه «لأن الشاهد يري مالايرى الغائب» فأجيب إلى طلبه . وحدث بعد ذلك أن زوج محمد بن طغج ابنته من جعفر بن الفضل ابن جعفر ثم كتب الفضل كتابا بتقليد ابن طغج أمور مصر استنادا إلى شرطه الذى قال فيه إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب .

وكما أثار ابن زولاق الشك فى صحة التقليد الذى حصل عليه محمد بن طغج فى ولايته الأولى ، فانه يضيف أن التقليد الخليفى الذي ادعاه لنفسه فى ولايته الثانية كان مزوراً أيضاً ، ويروى أن الراضى كان قد قلد محمد بن تكين أمور مصر وأن رسوله حمل التقليد إلى دمشق فأخذه محمد بن طغج ومحا كلمة « تكين » وكتب مكانها « طغج » فحصل بذلك على عهدين . العهد الذى كتبه له الفضل بن جعفر ، والعهد الذى كتبه الخليفة لمحمد بن تكين .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٥ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١١

ويذكر هذا المؤرخ نفسه أن الراضى كتب إلى محمد بن على المـاذرائى كتابا يقر فيه احمد بن كيغلغ على ولاية البلاد ويفوض المـاذرائى فى أمورها تفويضاً كاملا [١] .

وصفوة القول أن ابن زولاق حرص على أن يفهم القارئ أن تولية ابن طغج فى المرتين لم تكن قانونية أو شرعية . ولـكننا لا نجد هذا عند أعلام المؤرخين الآخرين كالـكندى ، وابن خلـكان ، والمقريزى ، وأبى المحاسن . والراجح أن ذلك الحرص عند ابن زولاق يرجع إلى أنه غير فى نسخة كتابه عن الأخشيد بعد أن اتصل بالفاطميين وشملوه برعايتهم وأن المخطوط الذى وصل الينا من هذا الـكتاب صورة لما فيه بعد التعديل [٢] .

ومهما يكن من الأمر فإن الاخشيد أراد بعد تعيينه واليا على مصر المرة الثانية أن يدخلها صلحا فكتب إلى محمدبن على المـاذرائى يطلب إليه أن يتركه يدخل مصر بجيشه على أن يظل للمـاذرائى إشرافه على الإدارة فى البلاد ، ولـكن المـاذرائى كان يعرف أنه لن يكون له مع الاخشيد ماكان مع سائر الولاة من الأمر والنهى فلم يجب طلبه واضطره إلى ركوب ما كان يكره من جمع الجيوش والاستيلاء على حكم مصر عنوة . ويروون فى هذا الصدد أن الاخشيد كان يدعو على المـاذرائى ويقول « هو أحوجنى إلى جمع العساكر وقد كتبت إليه غيرة مرة : دعنى أدخل فى غلمانى ومن معى وأنت المدبر لأمرى وأمرهم ، فما وجدت فيه حيلة ، وأرسل إلىّ : ما بينى وبينك إلا السيف ، قد رد إلىّ السلطان [٣] أمر البلد وجعل إلى تقليد من شئت . فأهلكنى وأهلك نفسه وأحوجنى إلى هذا » [٤] .

---

(١) نص هذا التفويض « أن الأمر يصير إليك فتقلد من شئت وتصرف من شئت » أنظر ابن سعيد : المغرب ص ١١

(٢) أنظر ماكتبناه عن ابن زولاق فى حديثنا عن مراجع هذا الـكتاب ص ٤ — ٦

(٣) من النادر أن يشار إلى الخليفة العباسى بلقب السلطان . راجع عن هذا اللقب مقال الأستاذ كرامرز فى مادة « سلطان » من دائرة المعارف الاسلامية وهو مقال طيب على الرغم مما فيه من أخطاء مثل وصف الموفق بالخلافة ، وانظر متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٨ ؛ وراجع أيضاً Van Berchem: Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte I pp. 299, 300, 727.

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٨

وعين الفضل بن جعفر أحمد بن نصر عاملا على خراج مصر ، كما قلد بعض أتباعه وظائف أخرى فى إدارتها ، ولكنهم لم يستطيعوا دخولها ، إذ أرسل أحمد بن كيغلغ إلى العريش من يمنعهم من التقدم فلم يجدوا بدا من الرجوع إلى الشام .

ورأى الاخشيد أنه لن يستطيع دخول مصر إلا بالقوة فجمع جنوده وضم إليهم من استطاع ضمهم من القواد والجند الذين وفدوا عليه من أنحاء الشام والعراق والبادية وزاد عدد هذا الجيش حتى كان صعبا على الأخشيد تموينه . وقبل أن يسير الاخشيد على رأس جيشه إلى مصر اجتمع طويلا بالفضل بن جعفر وتشاورا فى الأمور وتدبير الخطط . والظاهر أن الاخشيد كان يشعر بجواسيس الماذرائيين من حوله فأحاط هذا الاجتماع بسياج من الكتمان[١] .

أما فى مصر فقد كان أحمد بن كيغلغ لا يرى بدا من تسليم البلاد للاخشيد ، ولكن الماذرائى أبى عليه ذلك ، فاستعد الجميع للقتال وبعث الماذرائى وابن كيغلغ جيشا إلى حدود مصر الشمالية الشرقية ليمنع ابن طغج من دخول الفرما . وقرأ الماذرائى على أهل مصر كتاب الراضى الذى يفوض إليه تدبير مصر ويقر ابن كيغلغ على ولايتها ثم أوفد الرسل من قبله ، ومعهم صورة هذا الكتاب إلى محمد بن طغج الاخشيد فقابلوه عند وصوله إلى الفرما . ولما قرأ الاخشيد صورة كتاب الراضى طلب من رسل الماذرائى أن يحملوها إلى الوزير الفضل بن جعفر وكان ينزل حينئذ فى مدينة الرملة . ولما وصل الرسل إلى هذه المدينة قبض عليهم الفضل وظلوا فى أسره[٢] . وتقدم ابن طغج بجيوشه وخرج أحمد بن كيغلغ على رأس جنده ومعه المغاربة بقيادة زعيمهم حبشى وقيل ان عدد هذه الجيوش بلغ ثلاثين ألف جندى وانها كانت تسد المنطقه الواقعة عند الحدود الشرقية المصرية بين جبال سينا والبحر المتوسط .

وأرسل محمد بن طغج قسما من جيشه فى أسطول بقيادة صاعد بن كلملم . وأفلح هذا الأسطول فى الاستيلاء على دمياط وتنيس ثم سارت مراكبه فى النيل ولقيت

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١١ — ١٢

(٢) المرجع نفسه ص ١٢

مراكب الماذرائى وابن كيغلغ بقيادة على بن بدر على مقربة من سمنود . وكان النصر لأسطول ابن طغج فى شعبان سنة ٣٢٣ ﻫ ووصلت سفنه إلى جزيرة الروضة وأقامت بها أياما ثم انسحبت منها إلى الدلتا فأمر الماذرائى بشحن الجزيرة بالسلاح والرجال استعداداً للدفاع عن الفسطاط . وما لبثت مراكب ابن طغج أن عادت فى العشرين من شهر رمضان وأسرت من فى الجزيرة من رجال واستولت على ما جمع فيها من أسلحة وعتاد ، ولكنها لم تستطع أن تدخل الفسطاط لأن الماذرائى صف جنده ومراكبه للدفاع عنها [(١)] .

أما ابن طغج نفسه فقد سار على رأس جيشه فى الأرض المصرية والظاهر أن مقدمة هذا الجيش التحمت مع جنود ابن كيغلغ والماذرائى فى معركة خسرها المصريون [(٢)] . ثم نزل ابن طغج منية الأصبغ [(٣)] وبعث إلى ابن كيغلغ بكتاب جاء فيه : « هذا كتاب الراضى بتقليدى . فان سلمت وإلا انصرفت بعد أن آخذ خطك وأشهد عليك بمنعك اياى وأسير إلى حضرة السلطان » [(٤)] . وكان ابن كيغلغ لا يكره التسليم لأن شجاعة ابن طغج وتفوق جيوشه ونجاح خططه وانضمام كثير من المصريين إلى جانبه كل ذلك أرغمه على احترامه والاعتراف بقوته . وفضلا عن ذلك فان ابن كيغلغ كان قد سئم استبداد الماذرائيين بتدبير الأمور فى مصر « وأنه ليس له معهم أمر ولا نهى » . لهذا كله أقبل على تسليم البلاد لابن طغج ، بل اعتذر إليه بأن زمام الحوادث كان قد أفلت من يده وأن جند مصر قاوموه بغير ارادته [(٥)] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٥ — ٢٨٦ وابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٤٤ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩

(٣) شمالى القاهرة وموقعها الحالى قريب من ضاحية الدمرداش . أنظر ابن دقاق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ٦٥ وعلى مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ج ١٦ ص ٥٨

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٤٤

وقد جاء فى بعض المراجع التاريخية أن ابن كيغلغ عند تسليمه الى ابن طغج « أخذ بيد الحسين بن محمد المـاذرائى فسلمه اليه »[١] . ولسنا نظن أن المقصود بذلك أنه سلمه اليه رهينة وضمانا[٢] ، وانمـا نرجح أن الحسين المـاذرائى أظهر أنه يشاطر ابن كيغلغ رأيه فى التسليم لابن طغج بينما كان أبوه محمد بن على المـاذرائى القوة الدافعة فى مقاومة ابن طغج حتى اضطر الى الاختفاء بعد تسليم ابن كيغلغ وظل مختفيا فترة من الزمن . وليس هذا الانقسام غريبا على المـاذرائيين ، فقد كانوا يضمنون به وجود أفراد منهم يتعاونون مع مختلف الحـكام .

ودخل محمد بن طغج بجيشه مدينة الفسطاط فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان سنة ٣٢٣ هـ (أغسطس سنة ٩٣٥ م) وأشرف الجند منها على شاطئ النيل فقدم اليهم زملاؤهم الذين كانوا يقيمون فى الجزيرة بعد الاستيلاء عليها . وطبيعى أن جنود ابن طغج عملوا على نهب الفسطاط . وقيل إنهم ظلوا يفعلون ذلك يومين ثم كفوا عن فعله بعد أن نودى فى المدينة من قبل القائد أن من نهب يقتل[٣] .

ثم بدأت أحوال المدينة فى الهدوء واطمأن السكان الذين كانوا قد طلبوا الأمان من ابن طغج فعادوا الى دورهم بعد أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم . ودخل ابن طغج دار الامارة دخول الظافرين .

وغادر الفسطاط حبشي بن أحمد قائد الجند المغاربة فى مصر وعلى بن بدر قائد اسطول ابن كيغلغ وغيرهما من القواد الذين قاوموا ابن طغج . وذلك أنهم كرهوا المقام مع ابن طغج فهربوا الى الشرقية أولا ثم عادوا فيمموا شطر الفيوم[٤] . ولسنا ندرى سبب عدولهم عن الهرب بطريق الحدود الشرقية ، ولـكننا نرجح أنهم لم يطمئنوا الى امكان النجاة من أعوان ابن طغج فى هذا الجزء من البلاد ففضلوا الاتجاه الى اقليم الفيوم

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٢) H. Gottschalk: Die Madaraijjun p. I05.

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٤) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٦

الذى لم يكن سلطان ابن طغج قد امتد اليه بعد . والمحتمل أنه كانت لهم بهذا الاقليم صلات يمكنهم الافادة منها وأنهم كانوا يريدون الانتفاع بطبيعته الجغرافية فى أى مقاومة يضطرون اليها . والواقع أن محمد بن طغج أراد أن يقضى على حركتهم فى مهدها فأرسل اليهم قائده صاعد بن كلم على رأس جند فى عدة مراكب حربية ولم تستطع هذه المراكب أن تسير فى الترعة الموصلة الى الفيوم وتمكن الاعداء من أسر ابن كلم وقتله والاستيلاء على مراكبه .

وأبحر أولئك الثوار فى المراكب التى وقعت فى يدهم ووصلوا إلى الجزيرة وأحرقوا ما كان فيها من سفن لابن طغج ثم واصلوا السير إلى الاسكندرية حيث لحقوا بحبشى وجنوده المغاربة . وعزم الجميع على الذهاب إلى برقة وكتبوا إلى القائم بأمر الله الفاطمى يهونون عليه فتح مصر ويسألونه أن يبعث إليهم جيشاً يتعاونون معه فى الاستيلاء عليها[1] .

وطبيعى أن محمد بن طغج كان يوجس خيفة من شر هؤلاء الخارجين على ولايته ، فأرسل لقتالهم جيشاً بقيادة أخيه عبيد الله بن طغج ولكنهم غادروا الأراضى المصرية إلى رمادة بين الاسكندرية وبرقة . ومرض حبشى وتوفى فى رمادة فى صفر سنة ٣٢٤هـ[2] .

ثم أرسل الفاطميون جيشاً لغزو مصر وأفلح ابن طغج فى صد هذا الجيش كما سنرى فى الباب الذى سنعقده للكلام على السياسة الخارجية .

وهكذا خلصت مصر لابن طغج ، وكان ذلك بجهوده الشخصية ، لأن تقليد الخليفة بالولاية لم يعد يكفى فى ذلك الوقت لتثبيت الوالى بل كان لا بد للوالى من فرض نفسه والتغلب على عدة عقبات . واستطاع ابن طغج أن يتغلب بمهارته السياسية وبقواته البرية والبحرية على الصعاب التى واجهته عند قدومه إلى مصر فانتصر على ابن كيغلغ ومحمد بن على المـاذرائى وهزم الثائرين عليه من القواد والجند وصد جيش الفاطميين .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ وابن سعيد : المغرب ص ١٣

(٢) كتب ابن سعيد (المغرب ص ١٣) أن حبشياً « مات حسرة على ما خلفه بمصر » ولا ريب أن هذا يشهد بما كان للجند المغاربة وزعيمهم حبشى من سلطان قبيل قدوم ابن طغج إلى مصر .

(٢)

تثبيت ابن طغج واتساع سلطانه

يبدو أن الحكومة المركزية فى بغداد كانت ترقب جهود ابن طغج لتثبيت قدمه فى مصر وأن الوزير الفضل بن جعفر كان ينتظر أن تكلل هذه الجهود بالنجاح ليستطيع أن ينتقم من الماذرائيين أعداء أسرته الألداء .

فما كادت الأحوال فى مصر تؤذن بالاستقرار حتى قدم إليها الفضل بن جعفر ومعه خلع لمحمد بن طغج من قبل الخليفة الراضى بالله[١] ، ومن المحتمل أن هذه الخلع كانت ترمز إلى تثبيته فى ولاية مصر[٢] .

ولما دخل الفضل بن جعفر مصر استقبله ابن طغج خارج الحاضرة وزينت لها الفسطاط واشترك أهلها فى استقبالها والحفاوة بهما اشتراكا شعبياً[٣] . ونزل الاخشيد دار الامارة وسار الفضل بن جعفر إلى دار ابن الجصاص[٤] وعمل هذا الوزير على أن يكشف المكان الذى كان محمد بن على الماذرائى مختفياً فيه . والظاهر أن ابن طغج كان يعرفه[٥] ، ولكنه — لأمر ما — لم يرد أن يكون البادئ بالكشف عنه ، وآثر أن يترك البدء بمثل هذه الأعمال للوزير العراقى نفسه . واستطاع الوزير أن يعرف أن الماذرائى مقيم فى بيت كان يملكه اسحق بن نصير العبادى كاتب خمارويه[٦]

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ وابن سعيد : المغرب ص ١٤

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٤

(٤) هو الحسين بن عبد الله الجوهرى ، كان تاجراً يبيع الجوهر واتصل بأمراء الدولة الطولونية واختاره خمارويه لمرافقة قطر الندى إلى زوجها الخليفة المعتضد ويقال انها أودعت عنده أموالا وجواهر كثيرة ثم ماتت فاستولى على هذه الودائع فلا عجب إذا أصبح من أصحاب الملايين كما نقول اليوم . أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٢ و ٨٠ و ١٨٥ و ٢١٨

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٦

(٦) لعله اسحق بن نصير النصرانى أحد كبار المتقبلين الذين ذكرهم أبو المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٠) .

فذهب إليه مع ابن طغج ولما تأكد من وجوده عاد الفضل بن جعفر إلى مقره وانتظر ابن طغج إلى أن أتى بالماذرائى وقاده إلى مجلس الوزير . ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا سياسة ابن طغج فى التقرب إلى الوزير وإظهار آيات الاجلال له بوصفه صاحب الاشراف العام على أمور مصر وممثل الحكومة المركزية فيها .

وطلب الوزير من الماذرائى مالا لإعداد موكب الحج ، ورد الماذرائى بأنه لا يستطيع أن يقدم إلا خمسة عشر ألف دينار[1] ، فسأله الوزير متهكما هل استطاع بمثل هذا المبلغ أن يعد العدة لقتال ابن طغج ومقاومة تقليد الخليفة بتعيينه . ثم أمر بحبسه . وفكر الاخشيد فى وسيلة جديدة يستطاع بها إرغام الماذرائى على دفع أقصى ما يمكنه دفعه من الأموال بغير أن يتعرض للاساءة منه أو من الوزير نفسه . ولا عجب فقد كان يعرف بخبرته أن الوزارة والولاية لا تدومان وأن الماذرائيين يعودون إلى الارتفاع بعد كل نكبة تحل بهم[2] .

واهتدى الاخشيد إلى شخص كان يظنه عدواً لدوداً للماذرائى لا يقف عند حد فى الانتقام منه . وهو محمد بن تكين الذي كان الماذرائى قد وقف حجر عثرة فى سبيل ولايته كما مر بنا . واستدعى الأخشيد ابن تكين من منفاه في الصعيد وعرض عليه أن يفوض اليه أمر الماذرائى ينتقم منه ويطالبه بما شاء ، ولكن ابن تكين أبى أن يكون آلة في يد غيره ففشلت هذه الخطة . وأراد الوزير أن يلجأ إلى الوسيلة المعروفة مع كبار الموظفين فى العصر العباسى ويسمونها المناظرة[3] . وقوامها أن يتولى بعض خصوم الوزراء أو الموظفين المعزولين مساجلتهم بالحجج فى مجلس يعقد لهذا الغرض لاثبات مايوجه اليهم من تهم واختلاسات وارغامهم على أن يدفعوا لبيت المال ما أخذوه

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦ ؛ أما ابن سعيد : المغرب ص ١٤ فقد كتب خمسة آلاف دينار .

(٢) نلاحظ فى هذه المناسبة ما يرويه المقريزى (المرجع نفسه) عن صيام أبى بكر الماذرائى بعد هذه المقابلة وعن امتناع ابن الفرات من الأكل إجلالا له وقوله : « لا آكل أبداً أو يأكل أبو بكر » .

(٣) Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes 11 p. 685.

من أموال الدولة [١] . ولم يجد ابن الفرات أحدا فى مصر يقبل مناظرة المـاذرائى إلا الحسين بن على الرقى الذى كان قد تعرض للحبس والنفى ، فى ولاية تكين بتحريض المـاذرائى ، لتقصيره فى دفع الخراج عن ضياع واسعة وتطلعه إلى القيام بعمل رئيسى فى جباية الخراج بمصر [٢] .

وبدأ الحسين بن على الرقى باهانة المـاذرائى وتحقيره فأمر باحضاره « فى جبة صوف مكشوف الرأس حافيا » ولمـا رآه المـاذرائى أدرك سوء العاقبة على يديه فاحتال فى الكتابة إلى ابن طغج يشكو اليه ما يحاوله الرقى من « التشفى » فيه ويرجوه انقاذه ويعرض عليه « هدية » قدرها خمسون ألف دينار مودعة عند فقيه اسمه ابن الطحاوى [٣] . فأمر ابن طغج بإحضار المـاذرائى واتفق مع الفضل بن جعفر على أن يعامل معاملة كريمة وأن يحاسب محاسبة دقيقة ليدفع ما فى ذمته لبيت المـال .

وتم لابن الفرات ما أراد من المـاذرائى فصادر كل ضياعه بالشام ومعظم ضياعه فى مصر ، وكان إيراد الأخيرة نحو أربعمائة ألف دينار فى السنة ، وصودرت أموال أولاده وحشيته . وأفاد ابن الفرات بخبرة ابن طغج ومعرفته التامة بأموال المـاذرائيين وضياعهم . وكتب ابن طغج إلى الخليفة الراضى يخبره بمـا عمله هو والفضل بن جعفر مع المـاذرائى فورد رسول الراضى إلى الاخشيد بالخلع والهدايا [٤] .

(١) هلال الصابى : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٣٦ و٥٧ و٧٧ و٩٠ و٢١٣ و٢٣٦ و٢٤٤ و٢٤٥ و٢٦٢ و٢٨٩

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٥

(٣) روى ابن سعيد (فى المرجع نفسه) أن الاخشيد استولى على هذا المال وأرسل بعد ذلك إلى المـاذرائى يذكره بأنه الملوم لأنه لم يقبل أى عرض من عروض السلام التى عرضها عليه قبل أن يفضى إلى فتح مصر وأنه أرسل إليه بعد دخوله مصر يطلب عوناً مالياً فلم يرسل إليه إلا عشرة آلاف دينار فرد المـاذرائى بأنه أرسل إلى الاخشيد مائة ألف دينار وإلى كاتبه ابن كلا عشرة آلاف . وتبين أن هذا الكاتب قدم إلى الاخشيد عشرة آلاف واحتفظ بمـائة الألف . ولما علم الاخشيد بذلك واجه كاتبه فادعى أنه إنمـا احتفظ بها ليقدمها إلى الأمير عند الحاجة خوفاً من أن يبادر بانفاقها . أنظر أيضاً المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٧

وأقام ابن الفرات فى مصر إلى جمادى الأولى سنة ٣٢٤ هـ يبحث شئونها المالية ويكشف ضياعها ولاسيما ضياع الماذرائيين ، ثم خرج إلى الشام وأخرج معه محمد بن على الماذرائى مقبوضا عليه .

ويعتبر خروجه إيذانا ببدء عهد جديد فى حكم الاخشيد . فقد « كانت ولاية مصر على قسمين : والى الحرب والصلاة وآخر للخراج وتدبير الأموال » ولما كان الفضل ابن جعفر فى مصر كان تدبير الأموال والخراج له وتدبير الحرب والرجال للاخشيد . ثم غادر الفضل مصر « فجمع الاخشيد الولايتين كما عمل أحمد بن طولون »[(١)] .

والراجح أن نجاح الاخشيد فى التغلب على الصعاب التى لقيها بمصر حمل الحكومة المركزية على تأكيد ولايته لها . فإننا نعلم أنه دخلها سنة ٣٢٣ هـ ولكننا نرى فى بعض المراجع التاريخية القديمة أن الخليفة قلده أياها سنة ٣٢٤ هـ . ففى إبن الأثير أن الراضى قلد محمد بن طغج أعمال مصر مضافا إلى ما بيده من الشام وعزل أحمد بن كيغلغ عن مصر[(٢)] سنة ٣٢٤هـ وكذلك يروى أبو الفدا[(٣)] وابن خلدون أيضا »[(٤)] .

على أن الأحداث الرئيسية فى علاقة ابن طغج الاخشيد بالحكومة المركزية فى بغداد قوامها النزاع بينه وبين ابن رائق . ولسنا نستطيع أن نفهم هذا النزاع حق الفهم إلا إذا تذكرنا فى البداية ما كان يسود مقر الخلافة من منافسات ومؤامرات للاستئثار بالنفوذ والاستيلاء على منصب أمير الأمراء[(٥)] . وحسبنا دليلا على ما أصبح لهذا المنصب من عظم الشأن والسلطان أن الخليفة الراضى حين عين محمد بن رائق أمير واسط فى منصب أمير الأمراء ببغداد سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) قلده إمارة الجيش وولاه

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٥
(٢) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ١١٤
(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٨٩
(٤) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٤٠٩
(٥) راجع ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ٣٥ — ١٤٦ و Defrémery : Mémoire Relatif aux Emirs al Omera و Muir : The Caliphate. Its Rise Decline and Fall p. 568.

خراج جميع البلاد الإسلامية التابعة للخلافة كما أمر أن يخطب له على المنابر فى أنحاء العالم الاسلامى « وبطلت الدواوين من ذلك الوقت وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من الأمور إنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها وكذلك كل من تولى امرة الأمراء بعده ، وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون »[1] .

وكان اقليم الأهواز حينئذ فى يد أبى عبد الله البريدى يصرف أموره كيف شاء ولا يحمل إلى بغداد من خراجه شيئا . واستفحلت قوة البريدى وامتد سلطانه فرأى ابن رائق أنه لا بد من قتاله واستعان على ذلك بالقائد التركى بجكم الديلمى كما حالف البريدى عماد الدولة ابن بويه فسير الأخير أخاه مع البريدى وهزما بجكم ووطدا سلطانهما فى منطقة الأهواز ، ولكن دب بينهما الشقاق . وقامت المنافسة من ناحية أخرى بين بجكم وابن رائق وتفاوض الأخير مع البريدى ووعده بولاية واسط بعد سقوط بجكم . ولما تم النصر لهذا القائد الأخير أصبح أميرا للأمراء سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٨ م) واضطر ابن رائق إلى الانزواء .

وحدث بعد ذلك أن خرج بجكم مع الخليفة لقتال الحمدانيين فظهر ابن رائق فى بغداد ثم وعد بالانسحاب إذا منح ولاية حران والرها وقنسرين مع المناطق العليا لنهر الفرات والحصون الواقعة على الحدود ، فأجيب إلى طلبه وما لبث أن طمح فى سنة ٣٢٨ هـ إلى ملك الشام[2] .

واتسع سلطان ابن رائق فى الأقاليم المتاخمة لولاية الشام فبدأ فى تهديد الاخشيد ومطالبته بمال كأنه جزية على الممتلكات الاخشيدية فى الشام . وقلق ابن طغج أشد القلق من هذه الحالة ثم أشار عليه بعض معاونيه بأن يسترضى ابن رائق بالأموال ليكف شره عنه وذلك استنادا الى ما أمر الله رسوله من أن يعطى المؤلفة قلوبهم

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ١١٢

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣١٣

ويجعل لهم سهما فى الصدقات حتى يكفوا أذاهم . ولما اقتنع الاخشيد بأصالة هذا الرأى أرسل الى ابن رائق الحسن بن طاهر بن يحيى العلوى [١] ليعمل على استرضائه [٢] .

ولكن المطالبة بالأموال لم تكن إلا حجة أراد ابن رائق أن يتذرع بها للاستيلاء على الشام من يد الاخشيد . فلما دفع الأخير الأموال المطلوبة لم ير ابن رائق بدا من أن يكشف عن نواياه الحقيقية . وهكذا خرج الى الشام على رأس جيش كبير . ولما بلغ الرقة بعث الاخشيد جيشا بقيادة عمران بن فارس لقتاله [٣] ، ولكن ابن رائق استطاع الاستيلاء على دمشق بعد أن هزم فيها عبيد الله بن طغج [٤] وواليها بدر بن عبد الله الاخشيدى [٥] ، كما استولى على حمص وحلب وغيرها من المدن والثغور ثم سار حتى دخل مدينة الرملة فى أواخر ذى الحجة سنة ٣٢٧ ﻫ أو فى أوائل سنة ٣٢٨ ﻫ .

وكانت العلاقة طيبة فى تلك السنة بين ابن طغج والحكومة المركزية فى بغداد ، ولا سيما منذ وافق الخليفة على منحه لقب إخشيد سنة ٣٢٦ أو سنة ٣٢٧ ﻫ [٦] ، كما مر بنا فى الصفحات السابقة . وأحس ابن طغج بخطر ابن رائق وعظم الجهود اللازمة لصده ووصل إلى سمعه ما كان يقال من أن الخليفة قلد ابن رائق ولاية الشام فرأى أن يلجأ إلى الخليفة ليستطلع جلية الأمر . وكتب إلى ممثله فى بغداد يطلب إليه أن يرفع إلى الخليفة أخبار ابن رائق ومطامعه فى الشام وأن الاخشيد عمل على استرضائه ولم يفلح وأنه على استعداد للتسليم إليه إذا صح أن الخليفة قد قلده ولاية الشام ، كما أنه أيضا

---

(١) الحسن بن طاهر ، من الأمراء الأشراف من بنى الحسن بن على بن أبى طالب ، رحل من الحجاز إلى الاخشيد فمنحه هذا إقطاعاً واسعاً واتخذه صديقاً ومستشاراً . أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩٨

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٩

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥

(٥) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ١٢٨ وابن خلدون : تاريخ العبر ج ٣ ص ٤٠٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٧٥

(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٢٣ وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤

راغب فى قتاله وصده عن الشام ومصر إذا كان الخليفة يأمره (أى ابن طغج) بالقتال. ودخل ممثل الاخشيد فى بغداد على الخليفة ونقل إليه رسالته وكان بين يديه بحكم أمير الأمراء. ولم يجب الخليفة بشىء ولعل أمير الأمراء كان لسان حاله حين قال: «من ضرب بالسيف وهزم صاحبه فالعمل له»[١]. وليس الأمر غريبا من الحكومة المركزية، فما نظن أنها كانت تستطيع أن تتخذ قرارا تلزم أحد الفريقين باتباعه، فضلا عن أنها لم تكن لتكره أن تتركهما للقتال فقد يؤدى إلى ضعفهما والتخلص منهما معا. ومهما يكن من الأمر فإن الاخشيد، حين علم بموقف الخليفة وأمير الأمراء ثارت ثائرته وانتابته النوبات العصبية التى كان يتعرض لها بين حين وآخر، وقيل انه عزم على حذف الدعاء للخليفة العباسى في خطبة الجمعة وأن يُدعى فى مصر للخليفة الفاطمى، ولكن بعض أصحابه صرفوه عن هذه الفكرة وزينوا له أنها لا تفيد إلا خصمه ابن رائق وأنها قد تحمل الخليفة العباسى على تقليده مصر إذا لم يكن قد فعل وعلى الاقبال على مساعدته ضد الاخشيد[٢].

وهكذا لم ير الإخشيد بداً من اعداد العدة لقتال ابن رائق[٣]، كما بعث بأسطوله إلى السواحل الشامية[٤]. ثم استخلف الاخشيد على مصر أخاه الحسن[٥] وخرج على رأس جنده فى بداية سنة ٣٢٨ هـ. وسار حتى نزل مدينة الفرما وتقدمت طلائع محمد بن رائق وكانت بين الفريقين مناوشة ثم سعى في الصلح بينهما الحسن بن طاهر بن يحيي العلوى. وبعث الاخشيد بكاتبه على بن محمد بن كلا إلى الرملة للمفاوضة فى الشروط. وتم الصلح

---

(١) ابن سعيد: المغرب ص ٢٦

(٢) انفرد ابن سعيد (المغرب ص ٢٦ — ٢٧) بالاشارة إلى هذه الرغبة فى الخروج على الخلافة العباسية والخضوع للفاطميين ولكن سائر المؤرخين المصريين كالكندى والمقريزى وأبى المحاسن لم يذكروا عنها شيئاً. والراجح عندنا أن الاخشيد ربما فكر فى مثل هذا ولكنه لم يتجاوز به حد التفكير بعد أن رأى أن استبدال سيد بسيد لا يغير الحالة ولا يوطد استقلاله. وازن بين رأينا هذا وما كتبه الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن فى «تاريخ الاسلام السياسى» ج ٣ ص ١٥٣ وفى «الفاطميون فى مصر» ص ٩٠ — ٩٢

(٣) الكندى: الولاة والقضاة ص ٢٨٩ وابن سعيد: المغرب ص ٢٥

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢

(٥) ابن سعيد: المغرب ص ٢٥

على أن تكون طبرية وما فى شمالها من الأرض لمحمد بن رائق . وعاد الاخشيد بعد ذلك إلى مصر فى جمادى الأولى سنة ٣٢٨ هـ .

وما لبث ابن رائق أن نكث العهد وسار بجيشه من دمشق فى شعبان من السنة نفسها ووصل إلى الرملة فى طريقه إلى مصر وكتب الاخشيد إليه لعله يصل معه إلى تفاهم يحقن الدماء ، غير أن هذه المحاولات السلمية لم تنجح فخرج الاخشيد على رأس جيشه إلى الرملة والتقى الجيشان عند العريش فى شهر رمضان ووقعت معركة عظيمة انهزم فيها جيش الاخشيد فى البداية . والغريب أن ابن زولاق نص فى هذه المناسبة على أن الاخشيد أعد مراكبه فى البحر ليهرب فيها إلى بلاد المغرب أو بيزنطة إذا حلت الهزيمة بجيشه [١] . ومهما يكن من الأمر فإن هزيمة الاخشيد فى هذه المعركة لم تكن حاسمة ، بل دارت الدائرة وحشد الاخشيد جموعه وأفلح فى مباغتة ابن رائق وانتصر عليه انتصارا كبيرا . فانسحب ابن رائق إلى دمشق وأرسل الاخشيد لمطاردته جيشا بقيادة أخيه أبى نصر الحسين بن طغج ، ولكن ابن رائق باغت هذا الجيش وقتل قائده وأسر بعض مساعديه وسار بهم إلى دمشق. ثم رأى أن يعمل لمصالحة الاخشيد فحنط جثة أخيه القائد القتيل وأرسلها فى تابوت إلى الاخشيد مع ابنه مزاحم بن محمد بن رائق معتذرا عن قتل القائد عارضا أن يفديه بابنه مزاحم. فأكبر الاخشيد هذا العرض وأكرم الابن ورده مكرما إلى أبيه وأفلحت الوساطة فى الصلح بين الفريقين على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالى الرملة وعلى أن يدفع الاخشيد اليه جزية سنوية قدرها مائة واربعون الف دينار [٢] . وكان من مظاهر هذا الصلح أن تصاهر الفريقان فزوج الاخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٨

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٨٩ — ٢٩٠ وابن سعيد : المغرب ص ٢٨ — ٢٩ وابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ١٢٨ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ وابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٤٠٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ — ٢٥٣

وهكذا نرى أن الاخشيد كان عليه أن يفرض نفسه على الولاية التى تقلد حكمها وأن يتغلب على الثوار والمعارضين والغزاة وأن يلجأ الى الوسائل السلمية حين يستطيع وإلى القتال حين لا تنفع الوسائل السلمية. أما الحكومة المركزية فى بغداد فقد سادت فيها الفوضى وكان موقفها من ذلك كله موقف المتفرج ، وذلك حين لا تتدخل من وراء ستار لتزيد الطين بلة وتضيف سببا جديدا للخلاف والقتال بين الولاة الطامعين فى الاستقلال .

ولا ريب فى أن الخلافة العباسية كانت مرغمة على تثبيت الولاة المنتصرين ولا سيما فى مصر [(1)] . فضلا عن أنها كانت ترتاح الى بقاء هذه البلاد فى يد حاكم قوى يستطيع صد الفاطميين عنها ويحمى الخلافة من شرهم . وقديما كان لمثل هذا الاعتبار أثره فى قيام الأغالبة حين أقطعهم الرشيد افريقية لتكون ولايتهم حاجزا يحمى مصر والشرق الاسلامى من الادارسة وغيرهم من الخارجين على الدولة العباسية [(2)] .

وبعد عودة محمد بن طغج من الشام على أثر عقد صلحه الثانى مع ابن رائق ، وردت الأخبار فى شعبان سنة ٣٢٩ ﻫ بوفاة الخليفة الراضى وبيعة أخيه المتقى بالله ووصل كتاب الخليفة الجديد فى شوال باقرار الاخشيد على مصر [(3)] . والواقع أن اعتراف الخليفة كان لا يزال له شأنه عند العامة والخاصة ، إذ أنه بالرغم من ضعف الخليفة فى بغداد إلا أن سيادة الخليفة على الممالك الاسلامية ظلت ماثلة فى الأذهان ولم يفقد معنى الخلافة ما كان له من القوة والسلطان حتى ان بنى أمية فى الأندلس كانوا يقنعون بتسمية أنفسهم « بنى الخلائف » ولم يتخذوا لقب « خليفة » أو « أمير المؤمنين » ثم جاء الفاطميون فكانوا أول من خرج على هذه القاعدة فلم يكتفوا بأن يكونوا أمراء ذوى سلطان دنيوى فقط بل أرادوا أن يكونوا الخلفاء الحقيقيين للنبى عليه الصلاة والسلام فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان فى سنة ٢٩٧ ﻫ (٩٠٩ م) [(4)] .

---

(1) Marcel : Egypte depuis la conquête des Arabes p. 92.

(2) M. Vonderheyden: La Berberie Orientale sous la Dynastie des Benoûl—Arlab pp. 5-8.

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٠ — ٢٩١

(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢ — ٣ نقلا عن ابن الجزار المؤرخ المغربى المتوفى سنة ٣٩٥ ﻫ (١٠٠٤ م) (وكتاب ابن الجزار موجود فى الجزء الرابع من كتاب العيون والحدائق : مخطوط برلين رقم ٩٤٩١) .

ومهما يكن من الأمر فانه لما بويع المتقى بالخلافة فى ربيع الأول سنة ٣٢٩ كان السلطان فى بغداد لأمير الأمراء بجكم ولم يكن للخليفة ولا لوزير الخليفة شيء . وقد تجدد النزاع بين بجكم والبريدى واستعان بجكم على حربه بقائد من كبار قواده اسمه توزون ، وبعد أن انتصر توزون على البريدى، اغتيل بجكم على يد رجل من الأكراد فى سنة ٣٢٩ ﻫ .

ثم نشب الخلاف بين الترك والديلم فى بغداد ورجحت كفة الديلم وعين قائدهم كورتكين أميرا للأمراء ولجأ الخليفة الى ابن رائق للتخلص من كورتكين . فخرج ابن رائق من دمشق فى رمضان سنة ٣٢٩ ﻫ (٩٤١ م) وهزم كورتكين ودخل بغداد ومنحه الخليفة لقب أمير الأمراء للمرة الثانية . ولكن البريدى احتل اقليم واسط وخرج ابن رائق لقتاله وعقد بينهما صلح على أن يدفع البريدى جزية سنوية نظير حكمه واسط . وسرعان ما تخلى الترك عن ابن رائق وشبت الفتن فى بغداد بسبب القحط والغلاء فأرسل البريدى جيشا الى الحاضرة واضطر الخليفة المتقى وابن رائق الى الخروج الى الموصل حيث كان ناصر الدولة بن حمدان . وكان الخليفة يود أن يعينه ناصر الدولة على البريديين ولكن ناصر الدولة اغتال ابن رائق ليحل محله فى منصب أمير الأمراء . ولم ير الخليفة بدا من منحه هذا اللقب سنة ٣٣٠ ﻫ ، كما خلع على أخيه ابى الحسن على ولقبه سيف الدولة . وسار ناصر الدولة الى بغداد فهرب منها البريدى وظل ناصر الدولة أميرا للأمراء نحو ثلاثة عشر شهرا ثم قاومه الترك فاضطر الى الرحيل عنها واختار الخليفة القائد توزون أميرا للأمراء فدخل الحاضرة فى رمضان سنة ٣٣١ ﻫ .

بيد أن العلاقة بين توزون والخليفة ما لبثت أن ساءت إلى حد اضطر معه الخليفة إلى الاستنجاد بالاخشيد والكتابة اليه بأنه سائر للقائه، وخرج الخليفة إلى الرقة مع وزيره ابن مقلة . أما الاخشيد فقد استخلف أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج على مصر وسار الى الشام فى شهر رجب سنة ٣٣٢ ﻫ ووصل الى دمشق ثم سار ومعه أتباعه حتى وافى الخليفة المتقى بالرقة . ولكنه لم يستطع دخولها خوفا من سيف الدولة على بن حمدان [1] .

(١) الذهبي : تاريخ الاسلام ص ٥٩ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٠٤

والظاهر أن الخليفة المتقى رأى من بنى حمدان الملل والضجر منه فعمل على الصلح مع توزون [١] ، ولكنه كتب فى الوقت نفسه الى الاخشيد يستحثه على أن يعبر نهر الفرات ليلقاه فى الرقة . وخشى الاخشيد أن يحدث له ما حدث لابن رائق حين عبر الفرات وقتله الحمدانيون . فاضطر الخليفة الى عبور الفرات واجتمع بالاخشيد وخلع عليه فى بداية سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) وبالغ الاخشيد فى اظهار امارات الخضوع والاجلال للخليفة ، كما قدم اليه والى وزيره وحاشيته الهدايا النفيسة من المال والجواهر والمنسوجات النفيسة والطيب والدواب [٢] . ويبدو أن الخليفة سر باخلاص الاخشيد وهداياه فقال له : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك اونوجور » [٣] فزاد الاخشيد الهدايا الى الخليفة اعترافا بفضله عليه وعلى ابنه .

وهكذا حصل الاخشيد على تقليد جديد من الخليفة بولاية مصر وحق توريث اماراتها لأبنائه من بعده ، وان كان هذا الحق قد حدد بفترة ثلاثين سنة . والواقع أن هذا التقليد من قبل الخليفة لم يكن له شأن عملى كبير وإنما كان إقرارا للواقع وإعطاء لامتياز لم يكن الخليفة ليستطيع أن يمنعه . إذ أن الاخشيد كان قد أخذ البيعة لابنه من كبار القواد قبل لقاء الخليفة ، وذلك أنه عمل فى سنة ٣٣١ على أن يعترف ذوو الرأى فى مصر من أهل البلاد والقواد والجند بابنه اونوجور خليفة له [٤] . ومهما يكن من الأمر فان الاخشيد علم بيأس الخليفة وعزمه على العودة الى توزون عدوه اللدود ، فعرض عليه أن يسير معه الى مصر والشام ليكون الاخشيد ورجاله فى خدمته ، فرفض الخليفة هذه الدعوة . وعاد الاخشيد فطلب من الخليفة أن يقيم فى الرقة على أن يمده بالمال والرجال للدفاع عن سلطان الخلافة فرفض المتقى ذلك أيضا . وقيل

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٤١٨
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٨ ص ٣٤٨ — ٣٥٠
(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠
(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ وأبو المحاسن : ج ٣ ص ٢٥٤

ان ابن طغج عرض على الوزير ابن مقلة أن يسير الى مصر فرفض الوزير ذلك مراعاة للخليفة [١] .

ولسنا ندرى لماذا استنجد الخليفة بالاخشيد ثم رفض أن يصحبه الى مقر ولايته . والراجح عندنا أن الخليفة كان قد فقد ثقته فى القواد والزعماء وأصبح لا ينتظر أن يكرمه الاخشيد طويلا ففضل ألا يبعد عن حاضرة ملكه وأن يعمل على الصلح مع توزون أمير الأمراء .

ولو أتيح للاخشيد أن ينجح فى جذب الخليفة الى مصر لتغير الى حد ما مستقبل الخلافة ومستقبل وادى النيل . والواقع أن الاخشيد لم يكن أول وال عباسى فكر فى مثل هذا المشروع فاننا نذكر كيف دعا ابن طولون من قبله الخليفة المعتمد الى الالتجاء الى مصر هربا من استبداد أخيه الموفق الذى كان له الأمر والنهى فى شئون الجيش والحكومة، وكاد المعتمد يحقق حلم ابن طولون لولا أن قبض عليه عيون أخيه الموفق وأرجعوه الى حاضرته شبه سجين . وهكذا أخفق ابن طولون والاخشيد فى جعل مصر مركز الخلافة العباسية ولم يتم ذلك إلا على يد الظاهر بيبرس فى القرن السابع الهجرى (١٣م) [٢] .

وروى ابن زولاق فى مناسبة هذا اللقاء بين الخليفة والاخشيد أن الأخير سره ما لقيه من اكرام المتقى وحسن رعايته له وحدثته نفسه أن فى الاستطاعة أن يصحبه إلى بغداد وأن ينال منصب أمير الأمراء فعرض على الخليفة « أن يسير بين يديه ويخدمه إلى بغداد » ولكن أحد أصحاب الاخشيد رأى ما فى هذا المشروع من خطر عليه وعلى امارته فى مصر والشام وخشى عاقبة التنافس بين الاخشيد والترك فى بغداد فأنذر الأمير بما فى المشروع من أخطار ، واقتنع الاخشيد بصواب هذا الرأى فدبر مع

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢ وابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٨ — ١٤٩ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٥ والسيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٥٩ والمكين : تاريخ المسلمين ص ٢١٢ و Wüstenfeld : Statthalter IV. p. 33

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠٩ وما بعدها ، ومحمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس ص ٦٢ — ٧٣ ، وحسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ١٢٦ — ١٣٠ ومحمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر ص ٧٥ — ٨١ وزكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ١٨ — ٢٠ و Arnold : The Caliphate pp. 89-98

صاحبه خطة يبرر بها أمام الخليفة لزوم عودته إلى مصر . ذلك أن صاحبه استدعى رجلا من المغاربة له أخ بالمغرب واستكتبه كتابا إليه من أخيه يقول فيه : « لما اتصل بأمير المؤمنين القائم بأمر الله مسير الاخشيد إلى المتقى بالعراق جهز العساكر فى البر والبحر إلى مصر واغتنم خلوها » ثم « فرك الكتاب ودعكه ليصير كأنه قديم » وحمل الكتاب إلى الاخشيد فطلب أن يكتم أمره عن جنوده لئلا تضعف روحهم المعنوية . وذهب به إلى المتقى وعرض عليه أنه كان يريد البقاء فى خدمته ولكنه يخشى خطر الفاطميين على مصر فلم يتردد المتقى فى حثه على المبادرة بالرجوع إلى مقر ولايته لصد خطر الفواطم عنها[١] .

والغريب فى هذه القصة التى انفرد بروايتها ابن زولاق عن طموح الاخشيد إلى منصب أمير الأمراء أنها لا تتفق مع ما نعرفه عن ابن طغج من بعد النظر وحسن تقدير الأمور . فاننا لا نستطيع إذا سلمنا بصحتها أن نفسر رغبته فى هذا المنصب مع علمه بالدسائس والمنافسات والصعاب التى تحيط به ومع حرصه على ولاية مصر وعلى أن يرثها ابنه من بعده .

ومهما يكن من الأمر فقد عاد الاخشيد الى مصر فى جمادى الأولى سنة ٣٣٣ هـ[٢] وسار المتقى الى بغداد فخرج توزون أمير الأمراء للقائه وكحله فأذهب عينيه ونادى بعبد الله ابن المكتفى خليفة وسمى المستكفى بالله[٣] .

ولما ولى المستكفى الخلافة فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) أقر الاخشيد على ولاية مصر والشام وقام الاخشيد بالدعوة له على المنابر فى أنحاء ولايته[٤] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠ — ٤١

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٧٢ — ٧٥ وابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٩ وحسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٥٣

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢

وقد نقل المستشرق متز عن الجزء الرابع من كتاب « العيون والحدائق فى أخبار الحقائق »[١] أن الخليفة المستكفى كتب الى الاخشيد يعرض عليه امارة بغداد بعد موت توزون ويضمن له القيام بالأمر ولكن الاخشيد رفض هذا المنصب[٢] .

ثم عزل المستكفى وبويع المطيع لله سنة ٣٣٤ ﻫ وظلت العلاقة بين الخلافة والاخشيد على حالها ، إذ بادر المطيع باقرار الاخشيد على ولايته وأمر الاخشيد بالدعوة المطيع على المنابر .

والواقع أن علاقة الاخشيد بالحكومة المركزية لم يطرأ عليها أى تغيير منذ عزل المتقى ، فقد شغل الاخشيد بنزاعه مع سيف الدولة الحمدانى على حكم الشام . ووقفت الحكومة المركزية موقف المتفرج فلم يكن لها فى هذا الخلاف رأى تبديه أو ارادة تمليها . ولا عجب فان الاخشيد كان قد احتل الشام بعد قتل ابن رائق ودخل دمشق فى شوال سنة ٣٣٠ ﻫ واستقر حكمه فى الشام بحد السيف[٣] . فكان نزاعه مع سيف الدولة على حكمها أمرا لا تستطيع الخلافة الضعيفة فى بغداد أن تتدخل فيه ، وسوف نعرض لهذا النزاع عند الكلام على العلاقات الخارجية .

ولاريب فى أن قتل ابن رائق واستقرار الحكم فى الشام للاخشيد ونجاحه فى تدعيم حكمه فى مصر كل ذلك يعتبر حدا فاصلا فى علاقته بالخلافة فقد ، أصبح من القوة بحيث استطاع فى آخر ذى القعدة سنة ٣٣١ ﻫ (٩٤٢ م) أن يأخذ البيعة من قواده لابنه أبى القاسم أونوجور من بعده[٤] . وكان ذلك قبل لقاء الخليفة والاخشيد فى الرقة وما أشرنا اليه فى الصفحات السابقة من اعلان الخليفة تقليد الاخشيد حكم مصر ثلاثين سنة

---

(١) مخطوط برلين رقم ٩٤٩١ ورقة ٢٢٧ ب .

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٥٢ ، والملاحظ أن الحاشية التى فيها مصدر هذه القصة لم تثبت فى الترجمة العربية لكتاب متز ولكنها موجودة فى النسخة الألمانية (ص ٢٦ حاشية ٧) .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩١ — ٢٩٢ ، وابن سعيد : المغرب ص ٢٩

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ ، وحسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ١٥٤

والاذن باستخلاف اونوجور . وقد نص ابن زولاق على ما يرجح وجود نظام لولاية العرش وضعه الاخشيد قبل لقاء الخليفة ، فقال : « كان يدعى للمتقى ثم للاخشيد ثم لاونورجور ثم لأبى المظفر الحسن بن طغج »[١] .

وتشهد السكة المضروبة على عهد الاخشيد بتطور العلاقة بينه وبين الخلافة فالدنانير المضروبة باسم الراضى من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٢٨[٢] ، وبعض الدنانير المضروبة باسم المتقى فى سنة ٣٢٩[٣] تشهد بأن الاخشيد كان لا يزال يدين بالطاعة المطلقة للخليفة العباسى حتى كان اسم الخليفة وحده هو الذى ينقش على السكة . أما منذ سنة ٣٢٩ هـ فان الاخشيد كان ينقش اسمه مع اسم الخليفة على السكة ، كما يظهر من دنانير ضربت سنة ٣٢٩ وسنة ٣٣١ وسنة ٣٣٢ وسنة ٣٣٣[٤] (انظر اللوحة رقم ١) .

أما امتداد سلطان الاخشيد إلى الحجاز واليمن فأمر غير واضح إذ أن الاخشيد أشار إلى أنه حاكم تلك البلاد فى كتابه إلى إمبراطور الدولة البيزنطية سنة ٣٢٥ هـ[٥] كما أن ابن سعيد نقل عن كتاب ابن القرطى فى تاريخ مصر أن محمد بن طغج «ما زالت همته تعلو وسعادته تعينه إلى أن ملك مصر والشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن ولذلك يقول شاعره سعيد بن فاخر المعروف بقاضى البقر فى قصيدة يمدحه بها :

يا ملك الشام ومصرٍ إلى ... أقصى ثُغور الروم والشامِ
واليمن الأَبْعد لا زلت ... رفيعا قادراً حامِ[٦]

وذكر ابن ظافر الأزدى المصرى فى تاريخه أن الخليفة المتقى عقد للاخشيد على مصر والشام والحرمين[٧] . كما ذكر أبو المحاسن أن الخليفة جمع لعلى بن الاخشيد

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠

(٢) S ; Lane-Poole : Catalogue of the Collection of Arabic. Coins. Nos 694-699 p. 98.

(٣) Ibid.. No. 725 p. 102.

(٤) Lane-Poole : op. cit., Nos. 933. 943 p : 143. H. Lavoix : Catalogue des monnaies musulmanes. Nos. 48-50 pp. 21-23.

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٢٠

(٦) المرجع نفسه ص ٤٤

(٧) Wüstenfeld : Statthalter IV. pp. 32. 58 & Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages p. 84.

ما كان لأبيه وأخيه من أعمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين [١] .
وتحدث الكندى عن ملك كافور مصر والحرمين [٢] .

والرأى عندنا أن تقليد الاخشيد الحجاز أو مكة والمدينة وتقليده اليمن أمر صورى ورمزى . فلسنا نعتقد أن سلطان الاخشيد استقر فى تلك الأقاليم ، فقد كان حكمها فى يد أسرات محلية ربما خضع أمراؤها خضوعا اسميا للخلفاء العباسيين أو لمن يقلدهم أولئك الخلفاء حكم تلك البلاد [٣] ، ولكن تصريف الأمور فيها ظل بيد الأمراء أنفسهم [٤] ومنح الخليفة التقليد على الحرمين واليمن لا يقطع بانتقال أى سلطان فعلى الى الوالى صاحب التقليد ، ولكنه يشهد ، على كل حال ، بضعف الخلافة ونزولها عن قسط من نفوذها السياسى للأقوياء من الولاة . وقد ظلت العلاقة بين مصر والحجاز فى العصور التالية غير واضحة المعالم مما حمل شهاب الدين بن العمرى على أن يكتب عند الكلام على الأعمال فى الدولة المملوكية : « وبهذا تم ذكر النطاق بمصر والشامات وما معها من جميع الممالك الاسلامية إلا الحجاز وهو قطعة من جزيرة العرب وليس أمره بمضبوط ولا بحفظ الثقة منوط » [٥] .

وتقليد الخليفة ولاية الحرمين للاخشيد أمر يشهد بالسلطان الواسع الذى ناله ابن طغج ، لأن هذه الولاية كان لها فى القرن الرابع الهجرى شأن كبير « فقد ظهر من خلال النزاع حول امتلاك مكة والمدينة نظرية جديدة هى أن أمير المؤمنين الحقيقى هو من كان مالكا للحرمين » [٦] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٦
(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٧
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٥ — ٢٦٩
(٤) Snouk : Mekka 1 pp. 57 et suiv. Van Berchem : Corpus, Egypte 1. pp. 413-419.
(٥) شهاب الدين بن العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٤
(٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٥ عن المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٢

وكان الاخشيد مقصد كثير من عظماء بغـداد [١] . فكان يكرم وفادتهم ويحسن استقبالهم ليكونوا رسل سـلام بينه وبين الخليفة . ولا عجب فان الخلافة كانت لا تزال تحتفظ بقسط وافر من سلطانها الروحى ولم يكن يناهضها إلا الزعماء ذوو النفوذ الشخصى العظيم . وكان القوم يولون وجوههم شطر الخليفة إذا ذهب أولئك الزعماء أو ضعف شأنهم . وحسبنا أن نذكر هنا أن الاخشيد أصيب فترة من الزمن بمرض عصبى كان يعاوده من حين إلى آخر وعمل هو وبعض حاشيته على كتم أمره، ولـكنه كشف وبادر بعض أتباع الاخشيد وغيرهم بالـكتابة إلى العراق يطلبون أن يعهد اليهم بولاية مصر [٢] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٩

(٢) المرجع نفسه ص ١٦ — ١٧

(٣)

خلفاء الاخشيد وعلاقة مصر بالخلافة فى عهدهم

توفى محمد بن طغج الاخشيد بدمشق فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) وكان قد عقد قبل وفاته لولده أونوجور من بعده . ويقال انه عقد لولديه من بعده : أونوجور وعلى ، وقرر أن تكون الوصاية عليهما لغلامه كافور [١] . والراجح أن أونوجور كان يقيم فى مصر نائبا عن أبيه فى حكمها عندما توفى الاخشيد فى دمشق [٢] .

والملاحظ أن الاخشيد استخلف على مصر قبل سفره ابنه أبا القاسم أونوجور كما استخلف له عمه أبا المظفر الحسن بن طغج [٣] . ويبدو لنا أن الاخشيد كان يثق بأخيه الحسن ويسلم بضرورة التعاون بينهما فى حياته ، ولكنه كان يخشى إذا جعله بعد ولده أونوجور فى ولاية الحكم أن يستأثر بالسلطان وأن ينحى عنه أولاد الاخشيد . ولعل ذلك هو السبب فى أنه رتب أن يدبر أمورهما من بعده غلامه كافور دون عمهما الحسن . وكان كافور — كما سنرى فى الباب القادم — قد ارتقى فى حاشية الإخشيد حتى أصبح مربيا لولديه وموضع الثقة عنده . وكان أونوجور هو الوارث الطبيعى لحكم مصر بعد أبيه ، ولاسيما منذ أصدر الخليفة المتقى سنة ٣٣٣ هـ تصريحه الذى قال فيه للاخشيد : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أونوجور » [٤] . ومع ذلك كله فان المناداة به فى مصر لم تحدث إلا بعد تردد ومحاولات لتنحيته عن الحكم .

وبيان ذلك أن كافورا شغل بضبط الأمور فى الشام وإقرار الأمن بعد وفاة سيده فوصل نبأ الوفاة قبل قدوم كافور إلى مصر . وركب أبو المظفر الحسن بن طغج إلى دار

---

(١) ابن ظافر الأزدى فى Wüstenfeld : Statthalter IV p. 58.

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٢

(٣) المرجع نفسه ص ٤٢ ، ولكن أبا المحاسن يذهب إلى أن أونوجور كان فى دمشق حين مات أبوه . أنظر النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٥ و ٢٩١

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠

الإمارة ؛ وتبعه اليها الوزير أبو بكر محمد بن على بن مقاتل وخرج اليها أبو القاسم أونوجور وأقبل الناس لتعزيتهما وانصرف الجميع دون أن يقرر شيء فى ولاية العرش . ثم اجتمع أونوجور والحسن بن طغج وعلى بن مقاتل فى اليوم التالى وحضر وجوه الناس من الأمراء والقواد والوزراء والكتاب والأشراف والقضاة والشهود ، وأرسلوا إلى أبى بكر محمد ابن على الماذرائى لاستطلاع رأيه فى الحكم فاعترض الماذرائى على عرض هذا الموضوع على بساط البحث وقال : إن الاخشيد عقد لابنه أونوجور قبل وفاته وان الخليفة المتقى أذن للاخشيد بذلك . ولما اعترض القوم بأن أونوجور لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره رد الماذرائى بأن صغر السن لا يجوز أن يكون سببا فى تنحيته عن الحكم وأن هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ولى حكم مصر وهو أصغر سنا من أونوجور. وأضاف الماذرائى أن اضطراب الأحوال فى الشام ينذر بسوء العاقبة إذا ضيع القوم الوقت فى البحث والاختلاف ، وبذلك تم الأمر لأونوجور وأخفق عمه الحسن بن طغج فى تحقيق مطامعه [1] .

ومما يشهد بأن التنافس كان شديدا على ولاية الحكم بعد وفاة الاخشيد الأبيات التى نظمها أحمد بن طباطبا نقيب الطالبيين فى مصر على ذلك العهد . فقد نقل ابن سعيد عن القرطى أن ابن طباطبا كان « ممن حضر العقد لأبى القاسم أونوجور بن الاخشيد بالفسطاط وأنه قال فى ذلك اليوم وقد طمع فى الأمر أبو المظفر بن طغج وغيره وتشعبت الأهواء :

مَاتَ اخشيدُنَا فها نحنُ فى — أمرٍ مريجٍ وكل كفٍّ تُمدّ
كلكم طالبٌ بجدٍّ وحرْص — إنما الشأنُ أن يُوافق جدّ
يا ولاةَ الأمورِ ان لم تُنيبوا — لانتظام فقد تناثر عقْدٌ [2]

وكان طبيعيا أن ينوب الماذرائى عن أونوجور فى تدبير الأمور . والحق أن نفوذه زاد كثيرا بسبب موقفه من تولية أونوجور ، وقد حفظت له والدة الأمير هذا الجميل فأطلقت يده فى أمور الدولة .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٥ والمقريزى : المقفى ص ١٢٤ فى رسالة جوتشلك .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٥٠

ولسنا نحتاج الى التعليق على هذا الموقف لأن الواضح أن الماذرائى كان يفضل تولية أونوجور ليزيد سلطانه وسلطان الماذرائيين من أفراد أسرته ، ويبدو أن هذا لم يكن أمرا مضمونا اذا آل الحكم الى الحسن بن طغج .

وكتب الماذرائى الى كافور ينهى اليه ماتم من تولية أونوجور وحمد له كافور هذا الحزم فى تصريف الأمور [1] .

وتم ما يشبه الاحتفال بتولية أونوجور حين خرج فى موكب عظيم سار فيه عمه الحسن بن طغج وأبو بكر الماذرائى وقصد الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) فأدى صلاة الجمعة فى ١٣ من المحرم سنة ٣٣٥ ودعى له على المنابر .

وما لبث كافور أن عاد الى مصر على رأس الجيش الذى كان قد سافر الى الشام مع الاخشيد . وكان وصوله الى الفسطاط فى شهر صفر سنة ٣٣٥ هـ . وورد كتاب من الخليفة المطيع لله الى الأمير أبى القاسم أونوجور يقره فيه على ولاية مصر والشام وما كان لأبيه من الولاية [2] . وقرئ هذا الكتاب يوم الجمعة أول ربيع الآخر على منبر الجامع العتيق [3] .

وقد ذكر أبو المحاسن أن كافورا خرج من مصر بابنى الاخشيد وتوجه بهما الى الخليفة المطيع لله وأصلح أمرها معه والتزم كافور للخليفة بأمر الديار المصرية ثم عاد بهما الى مصر [4] . ولكننا لم نجد فى سائر المراجع القديمة ما يؤيد سفر الأميرين مع كافور للقاء الخليفة .

ثم أصبحت مقاليد الأمور فى بغداد بيد بنى بويه وأضحى معز الدولة صاحب الأمر والنهى فى الدولة العباسية . فلا عجب اذا سعى اليه الولاة والأمراء ومنهم أونوجور ابن الاخشيد . وقد كتب أبو المحاسن أن أونوجور أرسل طائفة من الهدايا الى معز

(١) المقريزى : المقفى ص ١٢٤ فى رسالة جوتشلك .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩١
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٤
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١ — ٢

الدولة سنة ٣٣٨ وسأله أن يكون أخوه مشاركا له فى إمرة مصر وأن يخلفه بعد وفاته فأجابه معز الدولة الى ذلك [١] . وهكذا نال أونوجور موافقة الحكومة المركزية على استخلاف أخيه ، ولكن الذى يبدو غريبا فى طلب أونوجور هو أن يكون أخوه مشاركا له فى إمرة مصر . فلسنا نفهم المقصود بذلك — هل يراد بالمشاركة أن يتولى على بعد وفاة أونوجور أو كان أونوجور يريد أن يشاركه أخوه فى القبض على أزمة الأمور فى مصرحتى يمكنه التخلص من وصاية كافور . ولكن التفسير الأول هو الراجح عندنا .

أما سلطان مصر على الحجاز بعد وفاة الأخشيد فقد ظل سلطانا إسمياً يقف عند ذكر اسم الأمير الاخشيدى فى الخطبة في بعض السنين ولا يكاد يصل إلى ذلك فى سنين أخرى . وحسبنا ما ذكره القلقشندى[٢] عن إخفاق المحاولة التى قام بها أمير الركب المصرى للخطبة لابن الاخشيد على المنابر فى مكة سنة ٣٤٢

بل نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك لنستنبط أن اقرار معز الدولة ولاية ابن الاخشيد سنة ٣٣٨ لم تكن عن طيب خاطر ، ولكنه كان مضطرا إلى قبول ما لا يستطيع رفضه أو تغييره لبعد الشقة بين العراق ومصر ولاشتغاله بتذليل العقبات التى كانت تعترضه لتوطيد سلطانه والقضاء على البقية الباقية من سلطان الخليفة . ولما استتب الأمر ظهر فتور فى العلاقة بينه وبين الدولة الاخشيدية . وظهر هذا الفتور فى حرصه على حذف اسم الأمير الاخشيدى من الخطبة على منابر الحجاز . وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك حين ذكر فى حوادث سنة ٣٤٢ هـ أن قتالا وقع بين أتباع معز الدولة وعساكر المصريين من أصحاب ابن طغج وكان الظفر لأنصار معز الدولة فخطب له بمكة[٣] . ولكن قضية الاخشيد لم تكن خاسرة فى الحجاز كل هذه السنين فكان يدعى للأمير الاخشيدى بعد الخليفة أحيانا ، كما كان يدعى له بعد معز الدولة وأفراد أسرته أحيانا

(١) المرجع نفسه ج ٣ ص ٢٩٨
(٢) صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٨
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٢

أخرى . من ذلك ما أشار إليه ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٤٣ حين ذكر أن حربا وقعت بمكة بين أصحاب معز الدولة وأصحاب ابن طغج من المصريين وأن الغلبة كانت لأصحاب معز الدولة فخطب بمكة والحجاز لركن الدولة ومعز الدولة وولده عز الدولة بختيار وبعدهم لابن طغج[١] .

واستطاع كافور طوال حكم أونوجور أن يكون الحاكم الحقيقى للبلاد كما سنرى فى الباب القادم . ولما توفى أونوجور فى ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ (ديسمبر سنة ٩٦٠م) نودى بأخيه على بن الاخشيد أميراً على مصر وذلك باتفاق كافور وقواد الجند ورجال أبيه الاخشيد[٢] ، وكان يبلغ من العمر حينذاك ثلاثا وعشرين سنة[٣] ، وقد أقره الخليفة المطيع على ولاية مصر والشام والحرمين .

وسوف نرى أن الأمور كانت على عهده بيد كافور كما كانت الحال فى عهد أخيه ، والظاهر أن كافوراً كان المسئول عن إدارة البلاد وضمان خراجها أمام الحكومة المركزية[٤] .

ثم توفى على بن الاخشيد فى المحرم سنة ٣٥٥هـ وظلت مصر بعد وفاته أياما بغير أمير فلم يذكر فى الخطبة إلا اسم الخليفة المطيع . وكان كافور يدبر أمور مصر والشام . وما لبث — بعد نحو أسبوعين من وفاة على بن الاخشيد — أن أعلن ورود كتاب من الخليفة المطيع بتقليده مصر ، فدعى له على المنابر[٥] . وقد يمكن الشك فى أن الكتاب الذى أقره فيه الخليفة على ولاية مصر والشام والثغور والحرمين وصل الى مصر فى الوقت الذى أعلن فيه خبر وصوله ، أى بعد وفاة على بن الاخشيد بأسبوعين ، ولا سيما اذا تذكرنا أن تقليد الخليفة لأونوجور وصل الى مصر بعد وفاة الاخشيد بنحو ثلاثة أشهر ، ولكن الذى لا شك فيه أن الخليفة ان لم يكن قد عقد له على ولاية مصر فقد سكت على اغتصابه

(١) المرجع نفسه ج ٨ ص ١٨٤
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٦
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٦ وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ وأبو المحاسن ج ٣ ص ٣٢٥ — ٣٢٦
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١
(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٠ وج ٢ ص ٢٧

الحكم ، وهكذا يتبين أن الخلافة لم يكن لها الرأى الأعلى فى حكم مصر حينذاك بل كانت لا تملك إلا اقرار الأمر الواقع .

ولم يكن كافور صاحب حق شرعى فى ولاية مصر . فإنه ليس من أسرة الاخشيد ، ومع ذلك فان الخلافة لم تحتج على اغتصابه الحكم ، ولاسيما أنها اعتادت أن ترى فى يده تدبير الأمور فى مصر . ولا ريب فى أن « التكييف القانونى » لهذه الفترة التى استقل فيها كافور بحكم مصر ، مسألة تستحق النظر . وإذا استعرضنا أقوال أعلام المؤرخين فى هذا الصدد تبين لنا أن ولايته الشرعية أمر غير مقطوع به .

أما الكندي وهو أقدم المراجع التى عاصرت الدولة الأخشيدية إلى نهايتها فانه لم يصل فى كتابه الولاة إلى وفاة على بن الاخشيد . وان تكن المخطوطة التى طبع منها الأستاذ جست كتاب الولاة قد جاء فيها الكلام على أونوجور وعلى بن الأخشيد وكافور وأحمد بن على الاخشيد فان هذا الكلام تسبقه عبارة فى الهامش قبل الكلام على أونوجور ، ونصها « إلى هنا انتهى ما كتبه أبو عمر (الكندى) واخترمته المنية قبل إكماله . قال ذلك ابن زولاق فى أول كتابه أخبار قضاة مصر . وما بعد ذلك ليس من كلام أبى عمر » [1] .

والمرجع الثانى المعاصر لنهاية الاخشيديين هو ابن زولاق . والمعروف أنه كتب ذيلا لكتاب الولاة للكندى . ولكن هذا الذيل ليس هو التذييل المضاف إلى المخطوطة التى طبعها جست . ويرجح الأستاذ جست نفسه هذا الرأى [2] .

ونحن نجزم بصحته ونضيف إلى القرائن التى ذكرها جست أن المقريزى [3] نقل عبارة طويلة عن ابن زولاق من كتاب « تتمة كتاب أمراء مصر للكندى » وأن هذه العبارة ليست فى التذييل المضاف إلى المخطوطة التى طبعها جست . ومهما يكن من الأمر فان هذا التذييل الذى لا نعرف تاريخه تماما لم يشر صراحة إلى تولية كافور ،

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٣ ، ابن سعيد : المغرب ص ٥

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، المقدمة الانجليزية للاستاذ جست ص ١٢ و ٤٦

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٥ ، الأسطر ١٦ — ١٩

وإنما جاء فيه « واستبد كافور بالأمر بعد موت على بن الاخشيد ودعى باسمه على المنابر في المحرم سنة ٣٥٥ ووردت رسل المطيع وخلعه وهداياه »[١] .

وكتب ابن زولاق سيرة الاخشيد ونقلها ابن سعيد فى كتابه العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج (الجزء الرابع من كتاب المغرب) . ولم تعرض هذه السيرة لما بعد تولية أونوجور .

أما ما جاء فى كتاب ابن سعيد عن حكم كافور فقد نقله عن القرطى الذى كتب فى عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . ونص ما جاء فى هذا الكتاب عن الفترة التى نحن بصددها « قال القرطى لما مات على بن الاخشيد كان ابنه أحمد صغيراً فاستبد بالسلطان كافور الخادم ولم يظهر لأحمد رسم ولا اسم إلى أن مات كافور سنة ٣٥٧ فأظهر عقد الأمر لأحمد بن على بن الاخشيد »[٢] وليس فى ذلك أى إشارة إلى تقليد من الخليفة .

أما جمال الدين بن ظافر الأزدى المتوفى سنة ٦٢٣ هـ فقد كتب عن الدولة الاخشيدية النبذة التى نقلها وستنفلد فى كتابه الألمانى عن ولاة مصر .

ومما جاء فى هذه النبذة قصة استيلاء كافور على السلطان بعد وفاة على بن الاخشيد وقد نقلها ابن ظافر عن الفرغانى المؤرخ الذى عاصر الاخشيديين ولم تصل إلينا كتبه . قال ابن ظافر « ولما توفى على بن الاخشيد استشار كافور فيما يصنع . قال الفرغانى المؤرخ : لما توفى على استدعانى كافور وقال لى : ان لك علينا حرمة وبيننا معرفة وأنت مسكون إلى نصيحتك ومشهور عندنا بصحة عقيدتك فما ترى أن أصنع فقلت له : أيها الأستاذ ان للمرحوم عندك صنائع وأياد تقتضى أن تنظر لعقبه والرأى عندى أن تنصب أحمد بن الأمير على مكان أبيه وتدبر أنت الدولة كما كنت فقال : كيف يمكننى نصب صغير ؟ فقلت : قد كان المرحوم عقد العهد لولده على ولم يكن له من السن ما لأحمد .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٧

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٦

فقال لى : تنظر فى ذلك . وانصرفت عنه فبلغنى أنه قال بعدى : أبو محمد ممن لا يشك فى ولائه ولـكنه يميل إلى الفرغانية . ثم لم يقبل ما أشار إليه الفرغانى بل وثب على الرياسة وانتزى وانتمى إليها واعتدى وأنزل اسم مواليه عن المنابر وأقام كذلك إلى أن توفى يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٧ »[١] وليس فى هذا النص أى إشارة إلى تقليد من الخليفة .

والمقريزى أول المؤرخين المصريين الذين يشيرون إلى تقليد الخليفة ، غير أنه يفعل ذلك فى صيغة غريبة فيقول ان كافورا « أخرج كتابا من الخليفة المطيع بتقليده بعد على بن الاخشيد[٢] »

أما أبو المحاسن فقد لخص الأمر بقوله : « ثم مات على أيضا سنة ٣٥٥ واستقل كافور بالأمر وخطب له »[٣] . وكتب السيوطى « فمـات أونوجور وقام بعده أخوه على فاستمر إلى أن مات سنة خمس وخمسين فاستقرت المملـكة باسم كافور يدعى له على المنابر بالبلاد المصرية والشامية والحجاز »[٤] .

ومن الطريف أن من بين المؤرخين المصريين من لا يحفـل بولاية أونوجور وأخيه على ومنهم ابن أياس فانه يقول : « ولمـا مات الأمير أبو بكر تولى من بعده خادمه أبو المسك كافور الاخشيدى »[٥] .

أما مؤرخو الخلافة عامة فعلى رأسهم ابن الأثير . وقد أشار فى حوادث سنة ٣٤٩ إلى مصر فقال : « وفيها فى آخرها مات أنوجور بن الاخشيد صاحب مصر وتقلد أخوه على مكانه »[٦] . ولـكنه لم يشر بعد ذلك إلى موت على وتولية كافور وإن يكن قد سمى كافورا « صاحب مصر » عندما تحدث عن الغزو الفاطمى . وقد نسج على منوال ابن الأثير سائر المؤرخين الذين كتبوا فى تاريخ الخلافة عامة .

(١) جمال الدين بن ظافر الأزدى فى Wüstenfeld : Die Statthalter p. 59.
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٣
(٦) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٢

وكتب ابن خلكان [١] : « إلى أن توفى على . . . ثم استقل كافور بالمملكة من هذا التاريخ وأشير عليه باقامة الدعوة لولد أبى الحسن على بن الاخشيد فاحتج بصغر سنه وركب بالمطارد [٢] وأظهر خلعا جاءته من العراق وكتابا بتكنيته » .

وأشار أبو الفدا [٣] إلى موت على بن الاخشيد وتولية كافور بقوله : « فتوفى على بن الاخشيد المذكور وهو صغير فى سنة ٣٥٥ فاستقل كافور بالمملكة من هذا التاريخ » .

وهكذا يبدو لنا أن كافورا لم يسمح بذكر اسم أحمد بن على بن الاخشيد فى الخطبة وأنه استقل بمصر ولكنه كان يشعر بأنه غريب عن أسرة الاخشيد . ولعله كان يشعر بما نكاد نصل إليه من النصوص وهو أنه وسط بين الأمير والوصى على العرش . فهو مستقل بحكم البلاد ، ولكنه غريب عن شعبها وأسرتها الحاكمة . وهو مطلق التصرف فى أمورها ، ولكن ذلك ليس جديدا عليه فقد كان له هذا السلطان منذ وفاة الاخشيد . وهو أمير على البلاد ، ولكنه يؤثر الاحتفاظ بلقب « الاستاذ » حتى لا يصدم أهل الرأى فى البلد باغتصاب الألقاب إلى جانب اغتصابه السلطان . وليس ببعيد أنه كان لا يعترض على ذكر اسم احمد بن على بن الاخشيد ، متى بلغ سن الرشد وطالب بعرش أبيه وجده .

وبعد وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ اجتمع كبار القواد والموظفين وأولو الأمر فى مصر وعقدوا الولاية لأحمد بن على الأخشيد وكان صبيا فى الحادية عشرة من عمره [٤] ولم يخرج على هذا الاجماع سوى الحسن بن عبيد الله بن طغج الذى أخذ البيعة لنفسه واستولى على ما كان لكافور من أموال فى الرملة [٥] .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥

(٢) المطارد جمع مطرد . وهى ضرب من الأعلام والبنود . أنظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes 11. p. 34.

(٣) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١١٣

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٩

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٧

ودعى لاحمد بن على الاخشيد على منابر مصر والشام والحرمين ثم من بعده للحسن ابن عبيد الله بن طغج إما بوصفه وصيا عليه أو بوصفه خليفة له [١] . ثم قدم الحسن بن عبيد الله منهزما من القرامطة فى الشام وتولى بنفسه تدبير الأمور فى مصر نحو ثلاثة أشهر .

ولسنا نعرف تماما هل جاء من الخليفة تقليد لأحمد بن على الاخشيد على ولاية مصر والشام والحرمين أو سبق الغزو الفاطمى ورود هذا الاعتراف من الحكومة المركزية أو النظر فيه . فالواقع أن المراجع التاريخية لا تشير الى هذا الاعتراف بشىء . ومهما يكن من الأمر فان دخول جوهر الصقلى مصر فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع حداً لسلطان الدولة الاخشيدية ولسلطان الخلافة على مصر .

(١) أبو المحاسن ، المرجع السابق والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٠

(٤)

العلاقة المالية بين مصر والخلافة فى العصر الاخشيدى

كانت الحكومة المركزية فى بغداد تتبع فى ضرائب مصر والشام على عهد الاخشيد بين نظام التضمين أو الالتزام . ولم يكن هذا النظام جديدا على مصر الاسلامية ، فقد عرفته منذ بداية العصر العباسى حين « بعث أبو جعفر (المنصور) الى نوفل بن الفرات [١] أن اعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر ، فان ضمنه فأشهد عليه وإن أبى فاعمل على الخراج . فعرض عليه ذلك فأبى » [٢] وإذا كان ابن الأشعث قد رفض أن يلتزم بدفع مبلغ معين على خراج مصر كله فما ذلك إلا لخشيته أن يعجز عن الوفاء بهذا المبلغ لاضطراب الحالة الاقتصادية فى البلاد وصعوبة جمع الضرائب فيها وحاجة الوالى إلى كثير من المال للانفاق على الادارة والجند [٣] .

وكان الولاة العباسيون فى مصر أو عمال الخراج فيها يتعهدون كتابة بدفع مبالغ معينة الى بيت مال الخلافة العباسية ولكنهم كانوا فى كثير من الأحيان لا يدفعون كل ما تعهدوا بدفعه وذلك بحجة الانفاق على الجند الذين كانت الحكومة المركزية ترسلهم الى مصر لقمع الثورات واقرار الأمن [٤] .

وكان الماذرائيون فى عصر الولاة العباسيين بين الدولتين الطولونية والاخشيدية يلتزمون خراج مصر والشام . ويبدو أنهم كانوا يدفعون سنويا مبالغ تختلف بحسب

---

(١) لما عزل موسى بن كعب عن ولاية مصر ، صلاتها وخراجها ، استخلف على الخراج نوفل بن الفرات هذا . ثم قدم إلى مصر سنة ١٤١ ﻫ الوالى الجديد محمد بن الأشعث على الصلاة والخراج أيضا ولكن الخليفة المنصور رأى أن يعفيه من ولاية الخراج إذا لم يقبل ضمانه .

(٢) الولاة والقضاة ص ١٠٩ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٤٦

(٣) وازن Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 243-244.

(٤) المرجع نفسه ص ٢٤٤

السنين وتتراوح بين مليون وسبعمائة ألف دينار بعد النفقة على الجيش وما تحتاجه الإدارة [١] .

والمعروف أن الخلافة العباسية كان لها بيت المال العام وبيت مال الخاصة وأن الأول كانت تؤخذ منه العطايا ونفقات دار الخلافة [٢] ، أما الثانى فكان الخليفة ينفق منه على موسم الحج وعلى الغزوات إلى حدود الدولة البيزنطية وعلى فداء أسرى المسلمين وعلى القيام بنفقات الرسل الواردين [٣] . وكانت الضرائب التى تجمع من مصر والشام يسير بعضها إلى بيت المال العام ، كأموال الخراج العام ، كما كان بعضها الآخر يؤول إلى بيت مال الخاصة كجزية أهل الذمة [٤] .

وظهر على مسرح السياسة العباسية فى مصر قبيل قيام الاخشيد عامل جديد ، هو الفضل بن جعفر بن الفرات . وكان الفضل وزيراً للمقتدر ثم اختفى بعد مقتل هذا الخليفة . ولكنه عاد إلى السياسة وآثر البعد عن الخلافة فى وظيفة يستطيع أن يظهر فيها مهارته واستقلاله ، فكلف سنة ٣٢٢هـ (٩٣٤م) بالتفتيش على مصر والشام وجباية ضرائبها . وظل يقوم بذلك حتى توفى واستطاع التوفيق بين سلطان الخلافة وميول الاخشيد إلى الاستقلال . وكان له مطلق التصرف ولا سيما فيما يتعلق بجباية الضرائب فى مصر [٥]

وقد مر بنا أن قسطا كبيرا من الفضل فى تولية ابن طغج لمصر يرجع إلى الفضل ابن الفرات هذا ، وعرفنا أنه قدم إلى مصر سنة ٣٢٤هـ (٩٣٦م) يحمل إلى محمد بن طغج تقليد الولاية من الخليفة الراضى [٦] .

---

(١) هلال الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٩٠ ومسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ١٠٦ — ١٠٨ وج ٥ ص ١١٤ — ١١٦

(٢) هلال الصابئ : المرجع السابق ص ١٠ وما يليها

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢

(٤) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٠٤ نقلا عن ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الأمم ص ١٩٦ ب (وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية ببرلين) .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١١ و ص ١٥ — ١٨ و ١٦٢ — ١٦٤

(٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ، ابن سعيد : المغرب ص ٣٤ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩

وفى هذه السنة كتب الاخشيد إلى الخليفة الراضى يخبره بما ادخره من المال هو والفضل بن جعفر فجاء رسول الراضى إلى مصر بالخلع والطوق والسوارين [١]. ونحن نعلم أن الاخشيد كان قد زوج ابنته لجعفر بن الفضل ، ويظهر أن العلاقة الوطيدة استمرت بين الرجلين ويشهد بذلك ما ذكره ابن زولاق [٢] من أن محمد بن طغج كان يخرج بنفسه على رأس علية القوم فى مصر لوداع هذا الوزير إذا ما غادر البلاد أو لاستقباله اذا ماعاد إليها .

وفى بداية سنة ٣٢٦ هـ أرسل الخليفة الراضى إلى الفضل بن جعفر يستدعيه لتولى مهام الوزارة فى بغداد وسار ابن طغج لتوديعه هو ووجوه أهل مصر . ولم يكد الفضل يصل إلى الرقة حتى لقيته خلع الوزارة ودخل بغداد وأخذ يعمل على تدبير الأمور فيها . ولكن التوفيق لم يكن حليفه فى هذا العمل الذى كانت تحف به الدسائس فاستأذن الخليفة فى العودة إلى مصر والشام للاشراف على مواردها كما كان من قبل . وأذن له الخليفة بذلك ، فسار الفضل إلى مصر ولكن المنية عاجلته فتوفى بالرملة فى ٨ من جمادى الأولى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) [٣] .

ومما يؤسف له أشد الأسف أن المراجع التاريخية لم تذكر شيئا عن المال الذى كانت مصر ترسله إلى الحكومة المركزية فى العراق طوال العصر الاخشيدى . والراجح عندنا أن هذا المال لم يكن معينا ولم يرسل بانتظام وإنما كان قدره وموعد ارساله يتوقفان على الحالة الاقتصادية والحربية فى مصر .

وقد ذكر ابن سعيد والمقريزى أن خراج مصر بلغ فى أيام الاخشيد ألفى ألف دينار فضلاً عن ايراد ضياعه الخاصة [٤] . ونقل ابن اياس عن ابن وصيف شاه أن خراج مصر أيام هذا الأمير بلغ ألف ألف دينار [٥] . ووصلت الينا بيانات أخرى عن مالية البلاد

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٧

(٢) المرجع نفسه ص ١٦ و ١٨

(٣) المرجع نفسه ص ٢٤ ، ومما يستحق الذكر أن فى دار الآثار العربية بالقاهرة وفى متحف بناكى بأثينا وفى مجموعة تانو بالقاهرة قطع نسيج باسم هذا الوزير ، راجع Combe. Sauvaget et Wiet : Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. IV. pp. 46-18 .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٣٦ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩

(٥) ابن إياس : نشق الأزهار فى عجائب الأمصار ص ٣٧

فى العصر الاخشيدى . ولكننا لا نعرف النسبة التى كانت تدفع إلى بيت مال الخلافة من هذا الخراج .

بيد أننا نعرف وجوها أخرى كان الاخشيديون ينفقون فيها الأموال مشاركة للحكومة المركزية وتعاونا معها أو ابتغاء مرضاة رجالها . ومن ذلك أن الاخشيديين اشتركوا مع الحكومة المركزية فى دفع النفقات اللازمة لفداء الأسرى المسلمين ، وأول فداء اشترك فيه محمد بن طغج كان سنة ٣٢٦ هـ وقام به ابن ورقاء الشيبانى من قبل الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات المشرف على شئون مصر المالية فى ذلك الوقت . واشترك فى هذا الفداء بشرى الثملى أمير الثغور الشامية . ويقال ان عدد المسلمين الذين شملهم هذا الفداء ستة آلاف .

وبدأ محمد بن طغج فداءً آخر تم فى سنة ٣٣٥ هـ [١] ، ولكنه مرض وتوفى قبل إتمامه فدفع كافور الاخشيدى ثلاثين ألف دينار من مال الفداء إلى رسول ملك الروم ومعه أمير الثغور ثم كاتب الأخير سيف الدولة بن حمدان ليأخذ على عاتقه اتمام هذا الفداء ففعل [٢] .

وحدث فداء ثالث فى عصر الدولة الاخشيدية اشترك فيه أبو بكر محمد بن على الماذرائى وأشار المقريزى إلى ذلك بقوله : « وخرج (الماذرائى) فى سنة ٣٤٣ إلى ثغر الاسكندرية بسبب الفداء فى جمع كبير ومعه من الذهب والورق والثياب والطيب والأطعمة ما يجل وصفه وخرج معه عدة من الاشراف والعلماء والوجوه . وكان ينادى بالمسلم ويحضره اليه ويسأله عن بلده ثم يكسوه ويطعمه بمفرده ويطيبه ويدفع إليه نفقة ثم يودعه وينصرف ، فلم يزل على هذا حتى فرغ الفدا فكان فداءً مذكورا لم يقع بعده فداء مثله [٣] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٨ و ٢٣ والكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٨

(٢) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٦٣ — ١٦٥ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩٢

(٣) المقريزى : المقفى ص ١٢٦ — ١٢٧ (فى رسالة جوتشلك عن الماذرائيين) .

وكان للأمراء الاخشيديين ممثلون فى بغداد يسهرون على شئونهم ويراقبون مايجرى فى دار الخلافة ويعملون على أن يستميلوا إلى الاخشيديين من يستطيعون التأثير عليه بمختلف الوسائل من أولى الأمر. فكان أبو الحسين بن العجمى يمثل محمد بن طغج فى بغداد وينوب عنه. ومن مظاهر نشاطه أن الوزير العباسى أبا على محمد بن مقله احتاج بعد صرفه عن الوزارة إلى بعض المال فكلم أبا الحسين بن العجمى كي ينقل ذلك إلى الاخشيد، وأعطاه أبو الحسين ألف دينار كانت معه وكتب إلى الاخشيد يخبره بحاجة ابن مقلة فأرسل الاخشيد ثلاثين ألف دينار أخذ منها ابن مقلة ثمانية وعشرين ألفا وترك ألفين لأبى الحسين بن العجمى نائب الاخشيد، وبعث ابن مقلة بكتاب شكر إلى الاخشيد [١].

وطبيعى جدا أن يكون للاخشيد وكيل فى بغداد، وقد سبقه إلى ذلك أحمد بن طولون فكان له وكلاء فى سامرا وكانوا يقدمون مثل هذه المساعدة المالية لنفر من كبار رجال الدولة [٢]. والواقع أن الاخشيد كان يتشبه بابن طولون وكان يقصده — كما مر بنا — أمراء بغداد وقوادها وكتابها وأبناء وزرائها وكان ينفق عليهم بسخاء [٣].

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢

(٢) Ibn Said—Vollers : Fragmente aus dem Mughrib pp. 27-29, Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 104-105.

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٣٩

الباب الرابع

الأمراء والبلاط

الأمراء والبلاط

(١)

محمد بن طغج الاخشيد

عرفنا أن محمد بن طغج الاخشيد ولد ببغداد سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢ م) وتوفى بالشام سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) . وذكرنا أننا لا نعرف عن نشأته شيئا يستحق الذكر . وسواء أكان الاخشيد من بيت ملك أو إمارة أم كان من الجند الذين ابتسم لهم الحظ فلا شك فى أنه استطاع بما تهيأ له من صفات الزعامة والعبقرية أن يؤسس لنفسه ملكا فى مصر . وإذا كان هذا الملك لم يعمر طويلا فذلك لأن قيامه لم يكن صدى لحركة فى الرأى العام أو خلاف فى العقيدة الدينية أو المبادىء الاجتماعية السائدة فى الدولة العباسية ، وإنما كان بفضل الجهود الشخصية التى بذلها الاخشيد وشق بها طريقه فى الفوضى التى كانت تسود الامبراطورية الاسلامية على عهده .

وتذكر بعض المراجع التاريخية القديمة أن الاخشيد كان أزرق العينين عظيم البطن[١] وأن شعر مقدم رأسه كان منحسراً[٢] وأنه كان شديد البطش ذا قوة مفرطة حتى لا يكاد يجر قوسه غيره[٣] . وكانت له هيبة عظيمة فى قلوب الرعية .

ولكن الاخشيد على الرغم من فرط قوته كان معتل الصحة يعاوده مرض الصرع وتنتابه السوداء فيلجئه ذلك إلى الراحة وطلب العلاج أياما[٤] . ولعل اعتلال صحته

---

(١) « أزرق بطينا » ابن سعيد : المغرب ص ٣٩

(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٨

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٥٥ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٦

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥ و ٢٧

وضعف أعصابه هما اللذان كانا يحملانه على الحرص على الهدوء والبعد عن كل جلبة أو ضوضاء ، كما كانا يبعثان فيه ثورات شديدة من الغضب إذا حدث ما يعكر عليه صفو الهدوء أو يخرج عن حدود الوقار والاتزان . ومما يروى في هذا الصدد أن القاضى الشافعى أبا بكر بن الحداد والقاضى المالكى أبا الذكر محمد والقاضى عبد الله بن وليد تنازعوا يوما فى مجلس الاخشيد وحدث بينهم لغط كثير فلما انصرفوا قال الاخشيد « يجرى هذا فى مجلسى ! كدت والله أن آمر بأخذ عمائمهم[١] » .

ويروى بعض المؤرخين أن الاخشيد « كان ملكا حازما كثير التيقظ فى حروبه ومصالح دولته حسن التدبير »[٢] وأنه كان شجاعا مقداما عارفا بالحروب[٣] . ويروى آخرون « أنه كان جبانا وكان له ثمانية آلاف مملوك يحرسه فى كل ليلة ألفان منهم ويوكل بجانب خيمته الخدم إذا سافر ثم لا يثق حتى يمضى إلى خيم الفراشين فينام فيها »[٤] وحدث ذات مرة أن شاور الاخشيد محمد بن عبد الرحمن الروذبارى[٥] فى شأن ابن رائق ثم خالف رأيه فقال له الروذبارى : « فيك أيها الاخشيد خلتان مذمومتان البخل والجبن ، وما يتم لك معهما شىء إلا بالاقبال »[٦] .

والواقع أننا لا نستطيع أن نطمئن إلى وصف الاخشيد بالشجاعة الزائدة أو الجبن المذموم . فقد كان بعيد النظر حسن السياسة يصطنع اللين عند اللزوم ويدارى أعداءه إذا لم يستطع التغلب عليهم ويتألف قلوبهم إذا انتصر عليهم انتصاراً غير حاسم وخشى أن يستعيدوا قوتهم ويصبحوا خطراً عليه . وحسبنا دليلا على ذلك ما وقع بينه وبين ابن رائق وسيف الدولة والفاطميين وبعض الوزراء العباسيين ، فضلا عن موقفه

---

(١) المرجع نفسه ص ٣١ ، وازن الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٦

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٦

(٤) المرجع نفسه وابن خلكان ، المرجع السابق .

(٥) كان ينوب عن الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات فى أعماله بمصر أنظر ابن سعيد : المغرب ص ٢٤

(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥

من بعض الذين كانوا يحقدون عليه أو يكرهونه كابن تكين والماذرائى [1] . أما بخل الاخشيد فقد اشتهر وكان موضع الحديث والنقد عند معاصريه ، وقد أشار ابن زولاق إلى ذلك فى فاتحة كتابه عن ابن طغج حين ذكر أنه قرأ سيرة الاخشيد التى كتبها محمد بن موسى بن المأمون الهاشمى لهذا الأمير فى آخر أيامه فوجد أنها أقرب إلى الذم منها إلى المدح « لأنه ذكر نفقاته واقتصاده وأخلاقه ومحبته للعلم والمكافأة وقال فى أوله : ذكر ما فى كتاب الله من الدلالة على فضل الاخشيد . قال الله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) [2] ، فنشر فى الناس بخل الاخشيد ، ثم انتزع آيات من القرآن فى الحلم والصفح والعفو ثم قال وهذه صفاته فوصفه بالجبن والهلع ، فهذا جميع معنى الكتاب » [3] .

والحق أن الاخشيد كان جشعاً محباً للمال إلى أبعد الحدود . وتروى المراجع التاريخية فى هذا الصدد قصصاً مختلفة . ومن بعضها ما رواه أبو القاسم سعيد بن فاخر المعروف بقاضى البقر ، وكان من شعراء خمارويه وقارب التسعين ، وكان يبيت عند الاخشيد يحادثه ويسامره وكان مليح الحديث محباً للتندر ببخل الإخشيد وإمساكه والتهكم بالموازنة بينه وبين البرامكة [4] .

ومما يروى عن جشع الاخشيد وحبه للمال أنه لما عاد إلى مصر بعد فراغه من قتال ابن رائق دعاه محمد بن على الماذرائى مع حاشيته ورؤساء جنده إلى مأدبة كبيرة أقامها تكريماً لهم وجمع لها المغنين والمغنيات وأحضر لها ما لذ وطاب من الطعام والشراب فضلا عن العطر والطيب ونصب فيها بين يدى الاخشيد التماثيل من الكافور والعنبر ، فأظهر الاخشيد سروره بهذا كله وأراد الماذرائى أن يزيد الحفلة بهاء فحمل إلى الاخشيد صينيتين كبيرتين إحداها مملوءة بالدنانير والأخرى بالدراهم لينثر هذا المال

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢
(٢) قرآن كريم ، سورة الفرقان آية ٦٧
(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤
(٤) المرجع نفسه ص ٣٣ — ٣٤

بين الحاضرين ، ولكن الأخشيد أخذ صينية الدنانير واكتفى بنثر الدراهم . ولما انصرف أرسل الماذرائى خلفه كل ما كان فى الحفلة من فرش وآنية ، وحمل هذا كله على فرسين بسرج ولجام من ذهب [١] .

ومن القصص التي تروى للدلالة على جشع الاخشيد أن صدقة بن الحسن رئيس دار الضرب حضر مرة إلى مجلس هذا الأمير ومعه دنانير وسبيكة وأحضر السباكين ليقوموا عيار الدنانير بحضرة الاخشيد وأوقدوا النار وجاء صدقة بن الحسن بخمسين ديناراً لتسبك بحضرة الأمير فأخذ منها الاخشيد أربعين ديناراً وسبكت الدنانير العشرة الباقية واعتدل العيار وانصرف رئيس دار الضرب واضطر إلى تعويض أصحاب الدنانير التي أخذها الاخشيد [٢] .

وروى مزاحم بن محمد بن رائق أنه دخل على الاخشيد ذات يوم لابسا فروا ثميناً فأعجب الاخشيد بالفرو وقال انه لم ير مثله قط وكان مزاحم يحب هذا الفرو فضلا عن أنه كان زوج ابنة الاخشيد فلم تسمح نفسه بأن ينزعه لتقديمه الى الأمير . ولكنه لما انصرف من مجلس الاخشيد اعترضه فاتك مولى الأمير ومعه نفر من رجاله وأوهموه أن الاخشيد يريد أن يخلع عليه واقتضى ذلك أن يخلع الفرو فطووه ومضوا به وظل مزاحم ينتظر خلع الأمير فقيل له أنه قد نام وأن من الخير أن يعود اليه فى المساء فطالبهم بالفرو فأنكروا أنهم أخذوه . ولما عاد مزاحم ودخل الأمير وجد عليه الفرو وضحك الاخشيد وقال : « كيف رأيت ؟ ما أصفق وجهك ، ولكنك ابن أبيك ؟ وكم عرضت لك وأنت لا تستحى فلم تفعل حتى أخذناه بلا شكر ولا منة [٣] » .

وكانت الهدايا تأتي الى الاخشيد فى الأعياد والمناسبات المختلفة وقد عرف عنه أنه كأبيه طغج يحب الطيب ولا سيما العنبر فكان الناس يقبلون على تقديم هداياهم اليه من العنبر ، ولكن جشع الأخشيد وحبه للمال أهداه إلى طريقة للافادة من ذلك فكان

---

(١) ابن سعيد المغرب ص ٢٩
(٢) المرجع نفسه ص ٣١
(٣) المرجع نفسه ص ٣٤

إذا جاءت مواسم الاهداء يبيع الى التجار مافى خزانته من العنبر فيشتريه الذين يهدونه اليه ، وهكذا كان الاخشيد يكرر هذا العمل ويجمع فى كل مرة مبالغ وافرة من المال [١] .

ومن مظاهر جشع الاخشيد ما استنه من مصادرة الاموال الطائلة من كبار الموظفين والاثرياء . وسوف نعود الى تفصيل الكلام على سياسته فى الاقبال على اغتصاب الاموال . وحسبنا أن نشير الآن الى ما عرف عن هذا الامير من الحياء واللين فى كل هذه المصادرة ، فإنه كان يحرص على ألا يُعذب أحد ممن يأمر بمصادرة أموالهم ويوصى بألا يضيق على أحد أو يساء إليه بسببها . كما كان يتجنب أن يلقى أحدا منهم إلا بعد تمام المصادرة . وكثيراً ما كان يصطفيهم بعد ذلك ويقربهم إليه [٢] .

وكان الاخشيد تقيا ، ومن نوادره فى هذا الصدد أنه أفطر ليلة تسع وعشرين من رمضان فى سنة من السنين « ولحقه كسل عن حضور الختم فقالت له جاريته : تأخر وأنا أعتق عنك غدا عشرة رقاب ، فقال أعشرة رقاب ، ويحك لعله يكون فى هذه الليلة رجل صالح له عند الله منزلة فيقول فى دعائه اللهم اغفر لجماعتنا ، فعسى أن أدخل بهم » [٣] ثم ركب إلى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم .

ويروى أن الاخشيد كان يسير فى أحد شوارع الرملة فصاحت به امرأة من فوق سطح : قف على بوقوفك بين يدى الله ، فرفع وجهه ونزل عن دابته واستدعى المرأة وسألها عن خطبها فاشتكت من أن ابنها الفتى قد أخذوه منها فأمر الأمير باحضاره وأعطى المرأة صرة فيها مائة دينار وقال « خذى ابنك وهذه الصرة فعسى الله أن يرحم ذل موقفى بين يديه » [٤] .

ومما يروى عن تقوى الاخشيد أن رجلا من أهل العراق صعد فوق زمزم وصاح « معاشر الناس ، أنا رجل غريب ورأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٥ — ٣٦
(٢) المرجع نفسه ص ٣٧
(٣) المرجع نفسه ص ٣٩
(٤) المرجع نفسه .

وهو يقول لى سر إلى مصر والق محمد بن طغج وقل له عنى يطلق محمد بن على المـاذرائى ، فقد أضر بولدى » . وسافر الرجل مع القافلة إلى مصر وبلغ الاخشيد خبره فاستدعاه وسأله عما رآه ثم سأله عما أنفق فى مسيره إلى مصر فقال مائة دينار . فقال الاخشيد : هذه مائة دينار من عندى وعد إلى مكة ونم فى الموضع الذى رأيت فيه رسول الله (صلعم) فاذا رأيته فقل لرسول الله أنك بلغتنى رسالته وأنى أجبت بأن لى على المـاذرائى كذا وكذا من الأموال وسوف أطلق سراحه إذا دفعها لى. فقال العراقى : ليس فى ذكر رسول الله (صلعم) هزل . وأنا أخرج إلى المدينة وأنفق من مالى وأسير إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأقف بين يديه يقظان بغير منام وأقول له يا رسول الله أديت رسالتك إلى محمد بن طغج فقال لى كذا وكذا . وقام الرجل لينصرف فأمسكه الاخشيد ، والظاهر أنه سر من إجابته واقتنع بأنه ليس نصابا وليس من أنصار المـاذرائيين فقال له : إنمـا ظننا بك ظنا والآن فمـا تبرح حتى أطلقه ، وأمر الاخشيد باطلاق المـاذرائى »[١] .

وكان الاخشيد يحب الصالحين ويركب اليهم ويتقبل دعاءهم ويتبرك بحديثهم . ومن الأولياء الصالحين الذين اتصل بهم رجل فى القرافة عرف باسم ابن المسيب وآخر اسمه أبو سليمان بن يونس[٢] .

وكان الاخشيد لا يتأخر عن صلاة الجمعة فى الجامع العتيق فى رجب وشعبان ورمضان كما اعتاد أن يركب ليلة الختم إلى الجامع ليحضر الختم والدعاء[٣] . وكان يحب قراءة القرآن ويبكى عند سماعها[٤] .

والراجح أن الدوافع الدينية هى التى دفعت الاخشيد إلى أن يأمر فى وقت من الأوقات بهدم المواخير ودور القمار والقبض على من فيها من المقامرين . ويروى فى هذه المناسبة أن جماعة منهم أخذوا فأدخلوا على الاخشيد وعرضوا عليه فرأى بينهم شيخا وقورا

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٥
(٢) المرجع نفسه ص ٣٤ — ٣٥
(٣) المرجع نفسه ص ٣٥
(٤) المرجع نفسه ٣٧

فسأل : هل هذا الشيخ مقامر ؟ فقيل له انه المطمع « وهو سبب عمارة دار القمار وذلك أن الواحد إذا قمر مامعه قال له فالعب على ردائك فلعلك تغلب فاذا ذهب قال له العب على قميصك حتى تغلب » وهكذا كان يحثه على المقامرة بكل شيء حتي يبلغ إلى نعليه بل إلى الاقتراض له . وكان لهذا الشيخ أجر يأخذه كل يوم من صاحب دار القمار . فضحك الاخشيد وقال ياشيخ تب إلى الله وحده من هذا فتاب وأمر له الاخشيد بثوب ورداء وألف درهم وراتب شهرى قدره عشرة دنانير ، وانصرف الشيخ شاكرا فقال الاخشيد ردوه وخذوا ما أعطيناه وابطحوه فضربه مائة عصا ثم قال : خلوه أين هذا من تطميعك[١] ؟ !

والواقع أن الاخشيد كان يجمع بين الاضداد فى صفاته فكان فى بعض الأحيان مكياڤيليا لا يقف عند شيء في سبيل الوصول إلى أهدافه ، ومما يشهد بذلك ما وقع له أثناء نيابته عن أبيه فى حكم طبرية . فقد كان فى هذه المدينة حينذاك رجل من علية القوم بنسبه وثروته : هو أبو الطيب العلوى محمد بن حمزة بن عبيد الله بن العباس بن الحسن ، وكان الجميع يبجلونه ويلتفون حوله . فكتب الاخشيد إلى أبيه طغج يذكر له أنه ليس له أمر ولا نهى مع أبي الطيب العلوى فكتب اليه أبوه « أعز نفسك » فانقض محمد بن طغج على أبي الطيب ذات ليلة وهو فى بستان له فقتله[٢] .

ولكن الاخشيد كان يعرف فى كثير من الأحيان كيف يلين أو يصطنع اللين حتى لا يكسر أو يتعرض سلطانه وهيبته لامتحان قد لا يكون النجاح حليفه فيه . ومما يروى فى هذا الصدد أن الاخشيد كان يطلب سهل بن محمد الكاتب البغدادى لمحاسبته على أمور نسبت اليه ، فاختفى سهل وكشف الاخشيد أنه عند أبى ابراهيم الرسى العلوى فأرسل اليه فخرج الرسى وطرد رسل الأمير فنقلوا اليه ما حدث ، فأرسل قائدا من قواده على رأس مائة فارس وأمره بأن يكسر دار أبي ابراهيم الرسى وأن يقبض على سهل الكاتب. واعتصم الرسى فى بيته ولبس الدرع وتقلد السيف ونادى بالقائد الاخشيدى متحديا .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٠

(٢) المرجع نفسه ص ٦

« تقدم ! فوالله لا طمعت فى الدخول أو أقتل ! » وعلم الاخشيد بذلك فسحب قائده وجنوده ثم استدعى أبا ابراهيم الرسى فلما دخل عليه قال الاخشيد : يا أبا ابراهيم الحرب ؟ قال : نعم ، فقال الاخشيد فبحقى عليك هل سهل بن محمد عندك ؟ قال : نعم . فقال الاخشيد : فهو آمن وهذا خاتمى وأمانى والساعة ازدادت رغبتى فيك ياشريف . قم واحضر سهلا آمنا [١] .

« وكان رسم الاخشيد ألا يتعرض للحرم » [٢] فكان يتعفف عن اضطهاد النساء أو اتخاذهن وسيلة للانتقام من رجالهن أو سبيلا للوصول الى الأموال التى يريد مصادرتها ، وكان يرفض أى عرض من أعوانه فيه خروج على هذا المبدأ النبيل .

ويبدو أن هذه المتناقضات فى أخلاق الاخشيد ، وان بخله وحبه للمال وما سنراه من اضطراب الحالة الاقتصادية على عهده واهمال كثير من المرافق العامة ، كل ذلك أدى إلى أن الاخشيد لم يكن محبوبا من الرعية . ومن صدى هذا البعد عن قلوب الشعب تلك الاسطورة التى نقلها ابو الفدا ، وخلاصتها أن الاخشيد قبل سفره فى آخر رحلة له إلى الشام وجد بداره رقعة مكتوبا عليها « قدرتم فأسأتم ، وملكتم فبخلتم ، ووسع عليكم فضيقتم ، وأدرت لكم الأرزاق فقنطتم أرزاق العباد . واغتررتم بصفو أيامكم ولم تفكروا فى عواقبكم . واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات ، وتهاونتم بسهام الاسحار وهن صائبات ، ولا سيما إن خرجت من قلوب قرحتموها ، وأكباد أجعتموها ، وأجساد أعريتموها ، ولو تأملتم فى هذا حق التأمل لا نتبهتم . أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل ، ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقى ؟ فكفى بصحبة ملك يكون فى زوال ملكه فرح للعالم . ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم أحد ويبقى المنتظر به ، افعلوا ما شئتم فإنا صابرون وجوروا فإنا بالله مستجيرون ، وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فإنا بالله واثقون ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » [٣] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٧

(٢) المرجع نفسه ص ١٥

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٠٠ — ١٠١

وكان الاخشيد شديد الاعجاب بابن طولون حريصا على التشبه به فى بلاطه ومواكبه وكان الناس يقرنون اسمه باسم هذا الأمير ، بل ان بعض شيوخ المنجمين فى مصر قال ان الاخشيد دخل إلى مصر بالطالع الذي دخل به احمد بن طولون واتفقا فى اليوم وهو يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان [١] .

ومن الأمور التى كان الاخشيد يقلد فيها ابن طولون أنه كان اذا ذهب الى صلاة الجمعة فى الجامع العتيق أبعد الناس عن المقصورة [٢] . وكانت أكثر صلاة الاخشيد فى جامع ابن طولون إلا فى شهور رجب وشعبان ورمضان . كما كان يتشبه فى مواكبه ورسوم بلاطه بابن طولون ومن أمثلة ذلك التأهب للعرض ليلة عيد الفطر . وقد كتب ابن سعيد فى وصف هذا العرض والاعداد له نصا ننقله هنا لما فيه من مصطلحات تستحق التفسير . قال ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق : « ولما كان آخر شهر رمضان ركب الأخشيد بعد عتمة [٣] فحضر ختم الجامع وصلى وأوتر وهو فى وجوه عبيده فى دراعة [٤] بياض وبين يديه خمسمائة غلام بالدبابيس [٥] والمستوفيات [٦] وبين يديه الشمع والمشاعل ، وقيل كان بين يديه مائة فراش بمائة شمعة . ثم أصبح الناس للعرض وجلس فى المنظرة التى على باب دار الامارة ومرت

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٢) المرجع نفسه ص ٣١ . راجع عن المقصورة ونشأتها ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٦٨ — ٦٩ و Creswell: Early Muslim Architecture vol. 1 p. 33.

(٣) العتمة الثلث الأول من الليل أو ظلمة الليل مطلقا .

(٤) الدراعة جبة مشقوقة المقدم . أنظر فى شرحها حاشية الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى السلوك للمقريزى ج ١ ص ٤٥٢

وراجع Dozy: Dictionnaire des Noms des Vêtements pp. 171-181.

(٥) الدبوس عصا من خشب أو حديد فى رأسها كالكرة ، أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٥

(٦) الراجح أنها ضرب من العصى الخشبية السميكة .

العساكر فلما انفض العساكر ركب غلمانه فى أحسن زى بالتجافيف [1] والجواشن [2] الى العشاء » .

وكان الاخشيد يخرج لصلاة الجمعة فى موكب كبير يصطف الشعب على الجانبين لمشاهدته . وكان فريق من أهل مصر يكره هذه المواكب أو يكره أن ينصرف الناس عن أعمالهم لمشاهدتها [3] . وقلد الاخشيد أحمد بن طولون فأمر باقامة حلبة سباق الخيل منذ سنة ٣٢٤ هـ [4] .

ويبدو أن الاخشيد شعر بعد وفاة الوزير الفضل بن جعفر ومقتل ابن رائق بأن سلطانه قد توطدت دعائمه فاطمأن باله وزاد ميله الى التشبه بابن طولون وابنه خمارويه وأمر بأن تكون فى بلاطه رسوم وتقاليد وقواعد للبروتوكول ، وأن تكون له امتيازات لايشاركه فيها أحد من كبار رجال دولته . ومن ذلك أن يكون لسرج فرسه حلية دقيقة وزخارف خاصة لايشاركه فيها أحد وألا يلبس أحد سواه جبة من الديباج المحلى بخيوط الفضة وألا يكون فى عسكره الخاص أى شيخ وأن يصبغ الشيوخ من جنده وحاشيته لحاهم [5] .

ومن الطريف ما رواه الحسن بن جابر كاتب عبيد الله بن طغج عما وقع فى هذا الصدد بين سيده عبيد الله بن طغج وأخيه الاخشيد . قال الحسن بن جابر : « كتب صاحبى عبيد الله الى اخيه الاخشيد من الرملة يستأذنه فى المسير اليه لزيارته شوقا اليه فأذن له . فلما قرب دعانى الاخشيد فقال لى : قد قرب أخى أبو الحسين وأنت

---

(١) جمع تجفاف وهى آلة للحرب يلبسها الفارس ويتقى بها كأنها درع ، وترادف كلمة البركستوان أو البركصطوان التى استعملت عند المماليك . راجع زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين ص ٥٦ ، وأساس البلاغة للزمخشرى مادة «جفف» والمعرب للجواليقى ص ٩١ و Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes, t. I p. 200 و Wiet : Notes d'Epigraphie Syro-Musulmane (dans Syria t. 7) p. 172.

(٢) الجواشن الدروع .

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٨

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٨

(٥) المرجع نفسه ص ٣٠

عازم على الخروج للقائه فماذا أنت فاعل ؟ « اكسر عزمه وقل له انك ليس تلقى محمد بن طغج انما تلقى أحمد بن طولون » ، وبالله ان لم يترجل لى لأضربن عنقك ! فسرت فلقيته بفاقوس ، فقلت له : الاخشيد خارج يتلقاك فعلى أى شيء عزمت ؟ قال عبيد الله بن طغج : على أى شيء ؟ قلت تترجل له . قال ما يسومني أخى هذا . فأخبرته بحديث الاخشيد معى وبأنه هددنى بضرب العنق ان لم يترجل له . فوعد عبيد الله بأن يترجل لأخيه وفعل ذلك عندما أقبل الاخشيد على رأس حرسه الخاص فأمره الاخشيد بالركوب وزاد فى اكرامه [1].

وقرب الاخشيد اليه نفراً من الطولونيين وأتباعهم فكانوا يؤاكلونه ويسامرونه ومنهم عدنان بن أحمد بن طولون [2] وابن أخيه قيس بن العباس بن أحمد بن طولون وسعيد الشاعر المعروف بقاضى البقر [3]. كما كان من أقرب المقربين اليه الشريفان عبد الله بن طباطبا [4] والحسن بن طاهر بن يحيي وكانا من نقباء العلويين فى مصر .

وكان للاخشيد عدد كبير من المماليك والغلمان والأتباع. وقد وصل الينا من اسماء رؤسائهم بدر الكبير وشادن الصقلبي ومنجح الصقلبي وكافور الأسود وفاتك الرومى وبشرى وغيرهم [5].

وكان بلاط الاخشيد مجمعاً للعلماء والأدباء ، يصلهم بعطاياه ويشملهم برعايته ويستمع إلى أحاديثهم [6].

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٨

(٢) كان من العلماء المشتغلين بالحديث وتوفى سنة ٣٢٥ هـ أنظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٦١

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٦

(٤) راجع حاشيتى الأستاذ تلكوست فى صفحتى ٦٧ و ٨٧ من النص الألمانى فى طبعته للمغرب لابن سعيد وانظر ما أشار اليه فيهما من المراجع العربية .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٦

(٦) ذيل كتاب أخبار سيبويه المصرى بتراجم كتبها الناشران ومنها ترجمة للاخشيد (ص٦٧) وقد نسبا فيها للاخشيد بيتين من الشعر . ولكن الصحيح أن هذين البيتين من شعر أحمد ابن كيغلغ وقد نسبهما اليه ابن خلكان فى ترجمة ابن طغج (ج ٢ ص ٥٧) .

وكان قصر الاخشيد غنياً بالجوارى ويظهر أن بعضهن كن يشتركن أحياناً فى الشئون العامة . ومن ذلك أن سماية القهرمانة تولت فض النزاع بين قاضى مصر عبد الله بن أحمد بن شعيب المعروف بابن وليد وسليمان بن رستم مقدم الشهود [(١)] .

وكان للاخشيد طبيب خاص ، هو أبو الفرج الباسى ، وكان موضع ثقته ولم تكن مهمته علاج الأمير فحسب ولكنه كان يشرف على طعامه إشرافاً دقيقاً فيقدم إليه من ألوان الطعام ما يوافق على تقديمه ويرد ما يرى رده [(٢)] .

ومن مظاهر الثروة والترف فى بلاط الاخشيد ما جمعه من الخيل الجميلة المدربة والجوارح المهيأة للصيد من مختلف الأنواع « مما لم يكن بين يدى خليفة قط » [(٣)] .

*
* *

توفى الاخشيد بدمشق فى ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ كما مر بنا فى الباب السابق ، وكان قد حكم مصر والشام نحو إحدى عشرة سنة وبلغ من العمر ستة وستين عاماً . ويبدو أنه قضى السنة الأخيرة من حكمه فى الشام يدبر أمورها بعد أن استقر السلام بينه وبين سيف الدولة [(٤)] .

ولما مات الاخشيد قامت الفتنة فى دمشق ونهب العامة خزائن الأمير ولكن الظاهر أن قسطاً وافراً من الأموال التى كان يحملها لم تصل إلى أيدى العامة لأن الاخشيد كان يوصى بألا توضع هذه الأموال فى صناديق ينشدها الثوار واللصوص بل فى أكياس مع الأمتعة لا ينتبه إليها أحد . فلما قامت الفتنة أمر كافور بالقاء هذه الأكياس فى بركة من الماء وظلت فيها حتى سكنت الفتنة [(٥)] .

وإذا صح ما كتبه ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق فان هذه الفتنة التى اندلعت نارها بعد وفاة الاخشيد شغلت رجاله عن دفنه ثلاثة أيام . قال ابن سعيد : «فلما سكنت الفتنة

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٨
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٦
(٣) المرجع نفسه ص ٤٣
(٤) المرجع نفسه .
(٥) المرجع نفسه ص ٤٤

بعد ثلاث وجد الاخشيد قد انتفخ وأكل الفأر أطراف أصابعه وأكل الذر عينيه[١] فغسل صبا[٢] وطلب له كافور فلم يوجد إلا من السوق مغشوشاً ، وطلب له بغل يحمل تابوته فلم يوجد إلا جمل أعور فحمله عليه الخازن وسار به إلى بيت المقدس . وحدثنى محمد بن المنهال . قال : لقيت تابوت الاخشيد بنواحى طبرية على جمل أعور والذين معه من السودان يتأذون بريحه وإذا نزلوا بعدوا منه إلى أن وصلوا به إلى بيت المقدس ودفن هناك[٣] .

والواقع أن سائر المؤرخين لا يذكرون إلا وفاته فى دمشق ونقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث دفن[٤] ، ولكن ابن زولاق انفرد بذكر ما حل بجثمانه وما كان فى دفنه من مظاهر لا تليق بأمير كبير مثله خلف ملكا وأولاداً وقواداً وعبيداً ظلوا مخلصين له إلى النهاية . ولعل هذا كله يدعونا إلى أن نأخذ بشىء كثير من التحفظ والحذر ما رواه ابن زولاق فى هذا الصدد . ولو أنه قال ان جثمان الاخشيد نقل سراً إلى بيت المقدس حيث ووری التراب لأمكن تعليل ذلك بالفتن التى قامت فى دمشق بعد موته وبثورة الشعب واشتغاله بالنهب والسلب قبل أن تقبض الحكومة على ناصية الأمور . ولكن ليس من السهل أن نوفق بين بقاء جثمان الاخشيد إلى أن سكنت الفتنة وعجز كافور وأعوانه — بعد أن استقرت الأمور — عن حماية هذا الجثمان أو نقله بما يليق بالاخشيد من تكريم وما يتفق وجلال الموت . وليس بمستبعد أن تكون رواية ابن زولاق من الزيادات أو التعديلات التى طرأت على المخطوطة الأولى من كتابه بعد أن دخل الفاطميون مصر واتصل بهم هذا المؤرخ وعمل على التقرب اليهم .

*
* *

---

(١) الذر صغار النمل .

(٢) لعله يقصد بصب الماء دون أن يمس جسده .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٤

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٦ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧

وقد استطاع الاخشيد أن يجمع من مصادرة أموال الوزراء والأعيان وكبار الموظفين وبغير ذلك من الطرق مبالغ طائلة يمكن أن نتصور مقاديرها مما يذكره المؤرخون عما خلفه هذا الأمير . فقد كتب ابن زولاق أن مما خلفه الاخشيد سبع مطامير [١] فى كل مطمورة منها مليون دينار ، كما خلف من الجواهر ما قيمته مائتا الف دينار ، ومن العنبر ثمانمائة رطل ، ومن العبيد ثلاثة آلاف ما بين روم ومولدين وسود ، وخلف من الخيل لركابه ألفاً ومائتى فرس سوى دواب غلمانه ، وخلف من البغال ثلاثة آلاف ، ومن النوق ثلاثة آلاف ، ومن المراكب مائة مركب سوى العشاريات [٢] . وكان كل مركب منها يقدر بثلاثة آلاف دينار [٣] . والراجح أن فى حديث ابن زولاق شيئاً من المبالغة ولكنه يدل على ما وصل إليه الاخشيد من ثروة وترف .

---

(١) المطمورة : الحفيرة فى الأرض تخبأ فيها الأشياء أو الاناء تخزن فيه النقود . أنظر
Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes.

(٢) العشارى نوع من المراكب كان يسمى فى عصر المماليك الحراقة والظاهر من استثنائه فى هذا النص أنه كان للملاحة النيلية أو كان صغير الحجم ، انظر وصفها فى رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر ص ٥٤ (فصل فيما شاهد فيها من غرائب الأبنية والسفن) وراجع القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٧ ، ومادة « سفينة » فى ملحق دائرة المعارف الاسلامية و
Aly Mohamed Fahmy: Muslim Sea—Power in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century pp. 150-152.

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٤

(٢)

كافور وأولاد الاخشيد والأمراء الاخشيديون

عرفنا أن الاخشيد عقد قبل وفاته لولده أونوجور [١] من بعده . وكان أونوجور أكبر أولاده . ولد بدمشق فى ٩ من ذى الحجة سنة ٣١٩ هـ (ديسمبر سنة ٩٣١ م) فكان لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره عند ما ولى الحكم . وقد مر بنا فى الباب السابق بيان المشاورات التى انتهت بتوليته .

ولسنا نعرف شيئا يستحق الذكر عن صفاته فقد كان الأمر على عهده بيد كافور إذ « غلب كافور على الأمر وبقى الاسم والدست لأبى القاسم (أونوجور) » [٢] ولم يتح كافور لأبى القاسم أى فرصة ليظهر مزاياه أو عيوبه فى الحكم . وزاد نفوذه حتى أصبح يدعى له على المنابر كلها منذ سنة ٣٤٠ هـ [٣] . وكان على أونوجور أن يكتفى بانفاق « المخصصات » التى حددها له كافور وقدرها أربعمائة ألف دينار فى العام [٤] وأن يترك تدبير الأمور لكافور وأعوانه .

وظل الحال كذلك إلى سنة ٣٤٣ هـ حين شعر أونوجور بأنه جاوز سن الرشد وبأن من حقه أن يقبض على أزمة الحكم وزين له بعض المتصلين به أن يتنكر لكافور وقالوا له : « قد احتوى كافور على الأموال وانفرد بتدبير الجيوش وأخذ أملاك أبيك وأنت معه مقهور » [٥] فبدأ أونوجور فى إظهار سخطه على سير الأمور وظهر الجفاء بينه وبين كافور وترك الحاضرة وانصرف إلى الصيد واللهو فى الأقاليم ، ولكن يبدو أنه كان يدبر الخروج إلى الرملة والاستعداد لمناوأة كافور وصرفه عن تدبير الأمور .

---

(١) كتبت فى بعض المراجع القديمة أنوجور وفى مراجع أخرى أونجور وقيل إن معناها « محمود » ، أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٤) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٢٩ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩١

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩٢

وانقسم الجند إلى طائفتين : الكافورية وينصرون كافورا والاخشيدية وينصرون أونوجور .

ولكن والدة أونوجور كانت لا تثق باستطاعته التغلب على كافور وكانت تخشى عليه من بطشه فكتبت إلى ابنها تخوفه من عاقبة الفتنة وأعلمت كافوراً بأن ابنها ينوي الرحيل عن مصر فكتب كافور إلى أونوجور وصالحه ودام الأمر في شئون الدولة على حاله وظل كافور يدبر أمورها لأونوجور إلى أن توفي الأخير في ذي القعدة سنة ٣٤٩ ونقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث دفن إلى جوار أبيه . ويقال إنه لم يمت ميتة طبيعية بل دس كافور له السم فمات [1] . بعد أن ولي حكم مصر نحو أربع عشرة سنة .

ولما مات أونوجور وخلفه في حكم مصر أخوه علي بن الاخشيد زاد نفوذ كافور وظل الأمير الجديد ينفق المخصصات التي كانت لأخيه من قبل وقدرها أربعمائة ألف دينار في السنة ولا أمر له في شئون الحكم على الرغم من أنه كان عند ولايته الحكم في الثالثة والعشرين من عمره [2] . بل ان كافوراً لم يكن يتركه يظهر للشعب أو يجتمع بغير ندمائه إلا معه . ويروى أن علي بن الاخشيد انصرف إلى اللهو والشراب فترة من الزمن ثم تاب عن شرب النبيذ ولزم الصلاة وقراءة القرآن [3] .

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٢) في مجموعة الأرشيدوق رينر في فينا وثيقة من ورق البردي ورد ذكرها في دليل هذه المجموعة [illegible] وتتضمن كتاباً من الأمير أبي الحسن عزيز الحضرة الاخشيدية إلى أشخاص ذكرت أسماؤهم بتسجيل ثلاث ساقيات سنة ٣٣٩ هـ ويشير الدليل إلى أن أبا الحسن هذا هو أبو الحسن علي بن الاخشيد . وقد تفضل الأستاذ جرومان فأطلعني على صورة هذه الوثيقة وملاحظاته عليها . ويبدو أنه يوافق على نسبتها إلى علي بن الاخشيد ويذهب إلى أنه كان رئيس الخاصة للأمير الاخشيدي . ولكنا لا نميل إلى الأخذ بهذا الرأي لأن علي بن الاخشيد كان سنة ٣٣٩ في الثالثة عشرة من عمره وليس من المحتمل أنه كان يشغل منصباً كمنصب رئيس الخاصة . والراجح عندنا أن المقصود أمير آخر من أمراء الأسرة الاخشيدية . ومما يلفت النظر لقب « عزيز » بمعنى أمير أو رئيس ، ومما يذكر لقب « عزيز مصر » الذي أطلق على محمد علي الكبير . ولكنه لقب قديم للرياسة وعظم السلطان . أنظر ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩ و ٣٢ ، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم (سورة يوسف) بمعنى الملك أو الأمير .

(٣) جمال الدين ابن ظافر الازدي في Wüstenfeld : Statthalter IV p. 63

ويبدو أن هذا الأمير حاول سنة ٣٥١ هـ أن ينحى كافورا عن تدبير أمور الدولة فلم يفلح لضعف شخصيته وقلة أنصاره بعد أن قويت شوكة كافور وأصبح صاحب الأمر والنهى فى كل شيء. وكان من أثر هذه المحاولة أن فسدت العلاقة بينه وبين كافور. واستطاع كافور أن يمنع الناس من الاجتماع بابن الاخشيد. ومات الأخير فى شهر المحرم من سنة ٣٥٥ وقيل ان كافورا دس له السم كما فعل مع أخيه من قبل. ثم حمل جثمانه إلى بيت المقدس فدفن إلى جوار أبيه وأخيه [١].

أما الأستاذ [٢] أبو المسك [٣] كافور الاخشيدى فيسمى أحيانا اللابى نسبة إلى إقليم اللاب من بلاد النوبة، ويتبين ذلك فى قول المتنبي من قصيدة فى هجائه :

كَأَنَّ الأَسوَدَ اللابِيَّ فِيهِم   غُرابٌ حَولَهُ رَخَمٌ وَبُومُ [٤]

ويسميه ياقوت فى معجم البلدان (مادة بُسْت) الليثى الصورى ولكننا لا نعرف سبب هاتين النسبتين.

وكان كافور عبدا أسود بصاصا [٥] خصيا قبيح الشكل بطينا ثقيل البدن قبيح القدمين مثقوب الشفة السفلى. ولسنا ندرى فى أى سنة ولد، ولكن الراجح أن مولده كان فى الحبشة أو النوبة بين عامى ٢٩٢ و ٣٠٨ هـ (٩٠٥ و ٩٢٠ م) اذ اختلفت الروايات فى تحديده اختلافا كبيرا [٦].

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٦ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ وج ٢ ص ٢٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٥ — ٣٢٦

(٢) كان لقب الأستاذ فى بعض الأحيان لقباً للوزراء فكان ابن العميد يلقب به (أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٧) وكان كافور يلقب به قبل توليته امارة مصر والراجح أنه أصبح لقباً له منذ عهد إليه الاخشيد بتربية ولديه.

(٣) كنية كناه بها الخليفة ؛ المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٤) الرخم طائر يشبه النسر. أنظر ديوان المتنبي ص ٤٢٩

(٥) بصاص وصف من بص إذا برق ولمع وتلألأ.

(٦) نقل ابن خلكان (وفيات الاعيان ج ١ ص ٥٤٧) عن الفرغانى أن كافورا مات سنة ٣٥٧ هـ فى الخامسة والستين من عمره فيكون مولده نحو سنة ٢٩٢ هـ وذكر ابن ظافر الازدى Wüstenfeld : Statthalter IV. p, 59. أن كافورا جلب إلى مصر سنة ٣٢٢ وعمره =

ولا ريب فى أن ارتفاعه من عبد حقير لا شأن له إلى منصب الامارة فى مصر ثم اتصال المتنبي به ومدحه ثم هجاءه بغرر قصائده ، كل ذلك أثار إعجاب المؤرخين المسلمين حتى عدوه من « أعاجيب الدنيا وسيرته من أغرب السير »[١] وحفزهم إلى أن ينسجوا حول نشأته قصصا مختلفة لسنا نعرف نصيبها من الصحة ولا سيما أن بعضها يذكر « بالأكليشيهات » التاريخية التى رواها المؤرخون العرب عن كثير من أبطال التاريخ الاسلامى . ومهما يكن من الأمر فالراجح أن كافورا جلب إلى مصر مع عبيد آخرين من مواطنيه فبيع لتاجر من تجار الزيت[٢] ، وقيل لرجل من أصحاب الضياع فى مصر اسمه محمد بن هاشم . وبيع بعد ذلك لرجل يدعى محمود بن وهب بن عباس الكاتب[٣] ، ثم اشتراه منه محمد بن طغج الاخشيد بثمانية عشر دينارا فرباه وأعتقه . وفى رواية أخرى أن ابن عباس الكاتب أرسل كافورا ذات يوم إلى محمد بن طغج بهدية ، وكان ابن طغج حينئذ أحد قواد تكين أمير مصر ، فتوسم فى كافور الذكاء وأخذه ورد الهدية إلى صاحبها[٤] .

ويروون أن كافورا مر بعد جلبه إلى مصر على منجم ذات يوم فرأى له طالعه ونظر له فى نجومه وقال له : « أنت تصير إلى رجل جليل القدر وتبلغ معه مبلغا عظيما » فدفع له كافور درهمين ولم يكن معه سواهما . فرمى بهما إليه وقال : « أبشرك بهذه البشارة وتعطيني درهمين » ثم قال له : « وأزيدك . أنت تملك هذه البلد وأكثر منه فاذكرني[٥] » . وقيل إن كافورا بعد أن بلغ مرتبة الملك رأى هذا المنجم فى المنام وهو يقول له : « لم نفترق على هذا » فسأل عنه كافور وعرف أنه مات منذ سنين وأن له بنتين إحداها

= أربع عشرة سنة فيكون مولده نحو سنة ٣٠٨ هـ وكتب المقريزي (الخطط ج ٢ ص ٢٦) أن كافورا جلب إلى مصر سنة ٣١٠ هـ وعمره عشر سنين وأنه مات سنة ٣٥٧ وعمره ستون فيكون مولده نحو سنة ٢٩٧ ، أنظر أيضاً ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ١٩٩

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٦

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٦

(٤) ابن خلكان والمقريزى وأبو المحاسن ، المراجع السابقة وابن سعيد : المغرب ص ٤٦

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٦

متزوجة والأخرى فتاة فى سن الزواج فاشترى لها كافور دارا بأربعمائة دينار ودفع للفتاة مائتى دينار لتجهز بها [١] .

ويقال إن كافوراً عند ما جلب من بلاد السودان مر على السوق بمصر ومعه عبد أسود آخر فقال هذا العبد : كنت أتمنى أن أباع لطباخ حتى أكون طول عمرى شبعان من المطابخ . فقال كافور : وأنا أتمنى أن أملك هذه المدينة . وبعد أن بلغ كافور الملك مر يوما على السوق فرأى زميله القديم فى ثياب الطباخين وهو يحرك القدر فضحك وقال : « أدرك كل واحد ما أمله » [٢] .

وكأنما أراد بعض المؤرخين أن يبينوا إلى أى درجة من البؤس وصل كافور قبل ارتفاعه إلى الشوكة والسلطان فذهبوا إلى أنه فى بداية أمره لحقه جرب كثير حتى كان لا يظهر ولا يقابل ، فطرده سيده ، فكان يمشى فى السوق . وحدث أن مر بطباخ فيه فطلب منه بعض الطعام فضربه الطباخ بالمغرفة على يده وهى حارة فوقع مغشيا عليه ، فأخذه رجل طيب القلب وداواه حتى شفى فسار به إلى سيده وأخذه سيده وعرض على الرجل أجراً على إيوائه وعلاجه فرفض الرجل قائلا: « أجرى على الله ». وكان كافور بعد ارتفاعه يذكر هذا الحادث كلما عزت نفسه . وربما سار إلى السوق وسجد إلى الله شكراً وقال لنفسه : أذكر ضرب المغرفة [٣] !

ولا ريب فى أن الاخشيد أدرك ما كان يمتاز به كافور من الذكاء والهمة والاخلاص فقربه إليه. وظلت منزلته عنده ترتفع تدريجياً حتى أصبح موضع ثقته وأقرب المقربين إليه . والمؤرخون حريصون على تفسير هذه الحظوة عند الاخشيد ببعض القصص التى يروونها عن اخلاص كافور . ومنها أن الاخشيد كان فى مجلسه ذات يوم و بين يديه عبيده وجىء بفيل وزرافة وأقبل العبيد على النظر إلى الحيوانين الغريبين وانصرف انتباههم عن سيدهم

(١) ابن ظافر الازدى فى Wüstenfeld : Statthalter IV. p. 60. وانظر أيضاً ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٢٠٠

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٦

(٣) ابن ظافر الازدى : المرجع السابق ص ٥٩ — ٦٠ وابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٢٠٠

الاخشيد، ولكن كافوراً وحده «لم تبرح عينه من عين الاخشيد خوف أن يحتاج إليه ويدعوه فيكون مشتغلا عنه» [١] فأعجب الاخشيد بيقظة كافور وتفانيه فى خدمته.

ومنها كذلك ما رواه طبيب الاخشيد من أن هذا الأمير اشتهى يوما لونا من ألوان الطعام يسمى البقرية فأعد له، وبادر كافور فحمله بيده إلى سيده. ولم يكن هذا من الأعمال المكلف بها بعد أن ارتفعت مرتبته فى بلاط الأمير، فلما خرج قال له الطبيب: «ما يزيدك الله بهذا إلا رفعة» فقال كافور: «كانت شهوة مولاى لها قوية فأحببت أن أدخل أنا بها». ولما رفعت المائدة دخل الطبيب على الاخشيد وسأله عن أكله فقال ان البقرية كانت طيبة وان أعجب ما فيها حمل كافور لها. وأضاف الاخشيد «وحياتك يا أبا الفرج (أى الطبيب) لا جلس فى هذا المجلس غيره ولا أخذ هذا المال سواه!» [٢].

ويحرص بعض المؤرخين على أن يفسروا ازدياد ثقة الاخشيد فى كافور بأنه رأى فى المنام كأنه سلم إلى غلام من كبار غلمانه شيئا فلم يقم به ثم نقله إلى غيره فلم يقم به حتى سلمه إلى كافور وانتبه من نومه وهو فى يد كافور. وقص الاخشيد هذه الرؤيا على أحد مفسرى الأحلام فقال ان هذا الملك يعود إلى كافور. ويرى هذا المفسر أن هذه الرؤيا كانت سببا فى وصية الاخشيد بأن يكون كافور مدبرا لشئون ابنه من بعده [٣].

والواقع ان بعض المؤرخين يذكر أن الاخشيد كان يتنبأ بأن كافورا سيرث ملكه من بعده وأنه كان يقول فى كثير من الأحيان: «والله لا ورث دولة ابن طغج إلا هذا العبد» يعنى كافورا [٤]. ولكننا نرجح أن مثل هذا الزعم فيه شىء من المبالغة لأنه لو صح لانتظرنا ألا يعهد الاخشيد إلى كافور بالوصاية على ولده من بعده فيسلمه بذلك مقاليد الأمور منحيا سائر أفراد أسرته. أولعله كان يرى الا مفر من التسليم بما لابد منه!

---

(١) ابن سعيد: المغرب ص ٤٧
(٢) المرجع نفسه ص ٣٦
(٢) المرجع نفسه ص ٣٦
(٤) المرجع نفسه ص ٤٦ — ٤٧

ومهما يكن من الأمر فان الاخشيد عنى بتربية كافور ثم أعتقه . وظل كافور يرتقى فى بلاط هذا الأمير ويتدرب على مختلف شئون الحكم والادارة حتى أصبح من كبار قواده وذوى الشأن فى دولته ، فعهد اليه الاخشيد بتربية ابنيه أونوجور وعلى ، كما عهد اليه بقيادة جيشه فى قتال سيف الدولة وبغير ذلك من الأمور الخطيرة الشأن .

وتبع كافور سيده الاخشيد إلى النهاية وكان إلى جانبه عندما توفى فى دمشق وعمل على القضاء على الفتنة التى قامت فى هذه المدينة وحافظ على قسط كبير من الأموال التى كانت مع البلاط حينئذ. ثم كان له بعد ذلك الفضل فى القضاء على ثورة غلبون وفى صد سيف الدولة واعادة دمشق إلى حكم الاخشيديين كما سنرى فى الأبواب القادمة .

وقد مر بنا كيف أصبحت مقاليد الأمور كلها بيد كافور بعد وفاة الاخشيد ، وعرفنا أن أونوجور حاول سنة ٣٤٣ أن ينحى كافورا عن تدبير شئون الدولة ولكنه لم يفلح وقامت « الوحشة » بينهما فترة من الزمن ثم اصطلحا واحتفظ كافور بكل سلطانه . وطبيعى أن هذه الوحشة بين الأمير الاخشيدى ورئيس حكومته الآمر الناهى كانت حديث الناس . ونظم المتنبى قصيدة بعد تمام الصلح بينهما نذكر منها الأبيات الآتية لما تدل عليه من طبيعة العلاقة بين الأمير وكافور ولما فيها من اشادة بذكر الصفات التى ساد بها كافور :

حَسَمَ الصُّلحُ ما اشتهتهُ الأعادِى وأذاعَتْهُ ألسُنُ الحُسَّادِ

وأَرادَتْه أنفسٌ حالَ تدبيرُكَ ما بينَها وبينَ المُرادِ

وأشارَتْ بما أَبَيْتَ رِجالٌ كُنتَ أَهدَى مِنها إلى الإرشادِ[1]

نِلتَ ما لا يُنالُ بالبِيضِ والسُّمرِ وصُنتَ الأرواحَ فى الأجسادِ

ففَدَى رَأْيَكَ الَّذى لم تُفَدْهُ كُلُّ رَأْيٍ مُعلَّمٍ مُستَفادِ

فبِهذا ومِثلِهِ سُدتَ يا كافورُ واقتَدتَ كُلَّ صَعبِ القِيادِ

(١) لعل فى ذلك إشارة إلى أن كافورا أبى أن يأخذ أونوجور بالشدة والعنف كما أشار عليه بعض ناصحيه .

إنّما أنتَ والدٌ والأبُ القـــاطِعُ أحنَى من واصِلِ الأولادِ

لا عَدا الشَّرُّ مَن بغَى لـكُما الشَّرَّ وخَصَّ الفَسادُ أَهلَ الفَسادِ

أنتُما ما اتّفقتُما الجسمُ والرّو حُ فلا احتَجتُما إلى العُوّادِ

هذهِ دَولَةُ المكارِمِ والرّأ فةِ والمجدِ والندَى والأيادِى

يزحَمُ الدَّهرَ رُكنُها عن أذاها بِفَتًى مارِدٍ على المُرّادِ [1]

متْلِفٍ مُخْلِفٍ وَفِيٍّ أَبِيٍّ عالِمٍ حازِمٍ شُجاعٍ جَوادِ [2]

وقد عرفنا أن كافورا ظل الحاكم المطلق فى البلاد بعد وفاة أونوجور وتولية أخيه على . ولما توفى على بقيت مصر أياما بغير أمير ، فكان لا يدعى على المنابر إلا للخليفة المطيع . والظاهر أن كافورا استشار بعض ذوى الرأى فى البلاد ورأى بعضهم من الواجب أن ينصب احمد بن على بن الاخشيد وكان فى التاسعة من عمره وأن يظل تدبير الأمور بيد كافور ، ولكن كافورا لم يحبذ هذا الرأى محتجا بأن احمد ابن على لا زال صغير السن ، وانتهى الأمر بتحقيق رغبته فى أن يكون له حكم البلاد ومع ذلك فقد احتفظ كافور بلقب « الأستاذ » [3] . ولعله كان يرى فيه تكريما واعترافا بالمكانة التى وصل اليها بجهوده . كما كان يتجنب به الاعتراض على شرعية ولايته العرش.

بيد أن حكم كافور لم يطل أمده فقد توفى فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ أى بعد انفراده بحكم مصر زهاء سنتين وأربعة أشهر . وحمل تابوته إلى بيت المقدس فدفن فيها [4] . وفى قول آخر أنه دفن فى القرافة الصغرى بمصر [5] .

---

(١) المراد بالفتى كافور .
(٢) ديوان المتنبى ص ٣٩٣ — ٣٩٦
(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٧

وقد تهيأ لكافور كثير من صفات الزعامة التي استطاع بفضلها أن يسود على الرغم من أصله الوضيع . وعلى رأس هذه الصفات معرفته الناس وأساليب معاملتهم ، وأخذ بعضهم باللين وبعضهم الآخر بالشدة ، واصطناع الحلم حينا وإظهار الغضب حينا آخر ، والتوفيق بين أصحاب التيارات المختلفة والأهداف المتباينة . ولقد صدق المتنبي حين قال من قصيدة في مدح كافور :

إذا مَنعَت مِنكَ السياسةُ نَفسَهَا فَقِفْ وَقفَةً قُدَّامَهُ تَتَعَلَّمِ [1]

ومن سياسة كافور في كسب قلوب الشعب أنه كان يجل أهل البيت ويكرم العلويين أعظم الإكرام . ويروى في هذا الصدد أنه كان يسير يوما مع أبي جعفر مسلم ابن عبيد الله بن طاهر العلوى النسابة ، وهو في موكب وبين يديه بعض حاشيته وخلفه بغال عليها بعض الأمتعة والمال ، فسقطت مقرعة كافور ولم يرها أحد من حاشيته وخدمه فنزل العلوى عن دابته وأخذ المقرعة من الأرض ودفعها إلى كافور ، فقال كافور : أيها الشريف ، أعوذ بالله من بلوغ الغاية ، ما ظننت أن الزمان يبلغني حتى تفعل بي أنت هذا ! وكاد يبكى . فقال العلوى : أنا صنيعة الأستاذ ووليه . ولما بلغ كافور باب قصره ودع العلوى ثم أرسل خلفه كل ما كان على البغال من مال ومتاع وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار [2] .

ومما يروى في هذا الشأن قصة لكافور مع عبد الله بن احمد بن على بن إبراهيم ابن طباطبا ، وكان من أغنياء العلويين في العصر الأخشيدى ومن عاداته أن يبعث إلى كثير من أهل مصر بهدايا من الحلوى في شتى المناسبات . وكان يرسل إلى كافور كل يومين صحنين من الحلوى ورغيفا في منديل مختوم . فحسده بعض الأعيان وقال لكافور أن إرسال الرغيف إلى الأمير أمر لا يليق ، فأرسل كافور إلى الشريف

---

(١) يقول إذا كنت لا تحسن السياسة فقف قدام كافور مرة واحدة وهو يتعاطاها تتعلم منه « الحاشية ٧ من صفحة ٣٩١ في ديوان المتنبي » .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣ — ٤

العلوى يسأله أن يعفيه من الرغيف ، فأدرك الشريف أنهم حسدوه وقصدوا إبطال عادته فذهب إلى كافور وقال له : « أيدك الله ! إنا لا ننفذ الرغيف تطاولا ولا تعاظما ، وإنما هى صبية حسنية تعجنه بيدها وتخبزه فنرسله على سبيل التبرك فاذا كرهته قطعناه » فقال كافور : لا والله لا تقطعه ولا يكون قوتى سواه ! » وعاد العلوى إلى ما كان عليه من إرسال الحلوى والرغيف[1].

ومن طريف ما كتبه المؤرخون عن سياسة كافور ما نقله أبو المحاسن عن الذهبى حين قال : « كان خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية . كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه . وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر »[2] .

وقد خلف الأمراء الاخشيديون لكافور أموالا طائلة فزاد عليها وأظهر ما طبع عليه من الجود والكرم ، وقيل انه وقع يوما لأحد القواد بعطاء قدره أربعة عشر ألف دينار فما زال عبدا له حتى مات[3] . وذاع صيت بلاطه وعطاياه وقصده أصحاب الحاجات وأعلام الشعراء والأدباء . وحسبنا شاهدا على حياة البلاط فى عصره ما قيل من أن سماطه كان فى اليوم الواحد مائتى خروف كبار ومائة خروف رميس ومائتين وخمسين أوزة وخمسمائة دجاجة وألف طير من الحمام ومائة صحن حلوى كل صحن عشرة أرطال ومائتين وخمسين قربة من شراب يصنع من السكر المحلول بالماء والليمون ويسمي أقسما[4] ، ويقال انه كان لكافور خزانة شراب كان يفرق منها فى الحاشية كل يوم خمسين قربة من مختلف أنواع الأشربة وأن قاضى أسيوط كان يهدى إلى كافور كل عام خمسين ألف سفرجلة تعمل شراب سفرجل[5] . وقد يكون فى هذا الاحصاء شيء من المبالغة ولكنه يشهد بما عرف عن بلاط كافور من الكرم والعظمة .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٦ وفى الكواكب السيارة لابن الزيات ص ٦١ يقول : « إن له والدة صالحة تعجن بيدها وتقرأ عليه القرآن » .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦
(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧
(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٢٠٠ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٩ ، أنظر أيضاً ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٣
(٥) ابن ظافر الازدى : المرجع السابق ص ٥٩

وقيل إن كافوراً كان يرسل كل ليلة عيد حمل بغل من المال فى صرر مكتوب على كل صرة اسم من جعلت له من بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج [١] . وممن ذكر ذلك من المؤرخين جمال الدين بن ظافر الأزدى وقد فصل الكلام عليه فى قطعة طويلة من النبذة التى عقدها للكلام على الدولة الاخشيدية فى كتابه « أخبار الدول المنقطعة » وقد وردت هذه القطعة فى المخطوط المحفوظ فى المتحف البريطانى من هذا الكتاب . وفى دار الكتب المصرية صورة منه مأخوذة بالتصوير الشمسى . ولكنها لم ترد فى الجزء الذى نقله وستنفلد عن المخطوط المحفوظ فى مكتبة غوطا وهو الجزء الذى نشره فى كتابه بالألمانية عن ولاة مصر فى عصر الخلفاء . وقد وازنا بين ما نقله وستنفلد عن المخطوط المذكور وما جاء عن الدولة الاخشيدية فى مخطوط المتحف البريطانى فوجدنا أن الذى يزيد فى المخطوط الأخير هو القطعة الطويلة التى نحن بصددها وقصتان صغيرتان هما قصة كافور مع العلوى الذى نزل عن دابته وناوله مقرعة سقطت منه، وقد أشرنا إلى هذه القصة نقلا عن أبى المحاسن ، ثم قصته بشأن الحلوى والرغيف الذى كان يرسله إليه ابن طباطبا . وقد أشرنا اليها أيضا معتمدين على ابن خلكان . ولذلك كله رأينا أن ننقل هنا القطعة الطويلة التى جاءت فى مخطوط المتحف البريطانى ولم ينشرها وستنفلد .

قال ابن ظافر الازدى يتحدث عن كافور :

« وله رحمه الله مع الشيخ أبى عبد الله بن جاباز الصوفى الزاهد شيخ الفقاعى رحمهما الله وكان من كبار المشايخ قصة عجيبة هى من غرر مناقبه . ذكر المسبحى فى تاريخه قال : حدثنى ابن الدابة كاتب أبو بكر القمنى [٢] عن أبى الحسن البغدادى قال : وردت إلى مصر مع والدى وأنا صبى دون البلوغ فى أيام كافور . وكان أبو بكر المحلى يتولى نفقات مصالحه وخواص خدمه . وقد انتسجت بينه وبين أبى مودة . وكان يزوره ويصله . قال : فجاءه ذات يوم فتذاكروا أخبار كافور وطريقته وما هو عليه من الخشوع . فقال أبو بكر لأبى ، وأنا أسمع : هذا الأستاذ كافور

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٢

(٢) نسبة إلى قِمَن ، انظر ابن الجيعان : أسماء البلاد المصرية ص ١٤٥ . أو لعلها القمى نسبة إلى قم فى فارس .

له فى كل عيد أضحى عادة ، وهو أن يسلم إلىّ بغلا محملا ذهباً وورقاً وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى المنامة وما بينهما . ويمضى معى صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل ، وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من جعل له وتتضمن اسمه الجريدة . فأطرق منزل كل انسان ما بين رجل وامرأة وأقول : الأستاذ أبو المسك كافور يهنيك بعيدك ويقول لك أصرف هذا فى منفعتك ، فادفع إليه ما جعل له . فلما كان هذا العيد جريت على العادة وزاد فى الجريدة الشيخ أبو عبد الله بن جاباز مائة دينار . فأنفقت المال فى أربابه ولم يبق إلا الصرة فجعلتها فى كمى وسريت مع النقيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة ، فطرقت الباب فنزل الينا شيخ عليه أثر السهر فسلمت عليه فلم يزد عليه وقال : ماحاجتك ؟ قلت : الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام . فقال : والى بلدنا ؟ قلت : نعم قال : حفظه الله . الله يعلم أنى أدعوله فى الخلوات وإدبار الصلوات وللمسلمين بما الله سامعه ومستجيبه . قلت : وقد أنفذ معى هذه الصرة وهو يسألك قبولها لتنصرف فى نوبة هذا العيد المبارك. فقال نحن رعيته ونحن نحبه فى الله تعالى وما نفسد هذا بعلة . فراجعته القول فتبين لى الضجر فى وجهه والقلق والتلهف واستحييت من الله تعالى أن أقطعه عما هوعليه فتركته وانصرفت . قال فجئت فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب وهو ينتظرنى فلما رآنى قال : هيه يا أبا بكر ! . قلت أرجو أن يستجيب الله تعالى فيك كل دعوة صالحة دعيت لك فى هذه الليلة وفى هذا اليوم الشريف . فقال الحمد لله الذى جعلنى سببا لايصال الراحة إلى عياله . ثم أخبرته بامتناع ابن جاباز فقال : هوجديد لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم. ثم قال لى عد اليه واركب دابة من دواب النوبة فلست أشك فيما لقيت دابتك فى هذه الليلة من التعب ، ثم أمعن إليه وأطرق بابه ، فاذا نزل اليك فانه سيقول . ألم تكن عندنا ! ؟ فلا ترد عليه جوابا ثم استفتح واقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم « طه ۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۞ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۞ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۞ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى » يا ابن جاباز يقول لك كافور :

ومن كافور العبد الأسود ؟ ومن مولاه ؟ ومن الخلق ؟ بقى لأحد مع الله تعالى ملك أو شركة ؟ تلاشا الناس كلهم . ها هنا تدرى من معطيك ، وعلى من رددت . أنت ما سألت . هو أرسل اليك يا ابن جاباز ، ما تفرق بين السبب والمسبب ؟ ! » قال أبو بكر : فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل إلى وقال لى مثل لفظ كافور فأضربت عن الجواب وقرأت « طه . . . . » ثم قلت ما قال كافور . فبكى ابن جاباز ، وقال أين ما حملت ؟ فأخرجت له الصرة فأخذها وقال : علمنا الأستاذ كيف التصرف . قل له : أحسن الله جزاك ! قال فعدت اليه فأخبرته فسر بذلك ثم سجد لله شكراً وقال : الحمد لله الذى جعلنى سبباً لايصال الراحة إلى عياله ثم ركب حينئذ »[١] .

وكان لكافور فى بلاطه الف وسبعون من الغلمان الترك والفان من الغلمان الروم وكان له غلمان آخرون من المولدين والسودانيين ، وكان عدد غلمان بلاطه كلهم أربعة آلاف غلام . ويقال إن كافورا خلف فى خزائنه بعد وفاته ماقيمته نحو مليون دينار من الجواهر والثياب والسلاح والأمتعة [٢] ، وإنه كان يرسل كل عام المال والطعام والثياب مع ركب الحجاج ليوزع فى الحجاز على أولاد رسول الله (صلعم) [٣] .

وكان كافور كريما حتى مع أعدائه ومن لا يستحقون منه العطف والتقدير . ومما يروى فى هذا الصدد أن واعظا فى مصر كان يقص على الناس فقال يوما فى قصصه : انظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين : ابن بويه ببغداد وهو أشل ، وكافور عندنا بمصر وهو خصى . فنقل إلى كافور قول هذا الواعظ وظنوا أنه يعاقبه ، ولكنه أرسل إليه خلعة ومائة دينار وقال : « لم يقل هذا إلا لجفائى

---

(١) جمال الدين ابن ظافر الازدى : الدول المنقطعة الورقة ٣٧ و٣٨ من الصورة المحفوظة فى دار الكتب المصرية والمنقولة بالتصوير الشمسى عن المخطوط المحفوظ فى المتحف البريطانى .

(٢) ابن ظافر الازدى عن Wüstenfeld : Die Statthalter p. 59 ، أما المقريزى فقد بالغ فى تقدير ما خلفه كافور فذكر أنه قوم بستمائة مليون دينار (الخطط ج ٢ ص ٢٧) . أنظر أيضاً ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٢٠٠

(٣) ابن ظافر الازدى فى Wüstenfeld : Die Statthalter p. 59. وأنظر ابن الزيات: الكواكب السيارة ص ١٩٩

له وكان الواعظ يقول بعد ذلك فى قصصه : ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة ، لقمان وبلال المؤذن وكافور [١] .

وكان كافور قويا شديد الساعد لا يكاد أحد يمد قوسه . وكان غروره واعتزازه بنفسه فى هذه الناحية من مواطن الضعف فيه فكان يرضى عمن يظهر العجز عن منافسته فى الرمى ويعبس لمن يجرأ على الاستهانة بتفوقه أو يطمع فى مساجلته [٢] . وكان مغرما بالخروج إلى الصيد [٣] .

وكان لكافور شهرة عظيمة فى فنون القتال أشار إليها الشعراء فى مدائحهم له . فلا عجب اذا فخر الفاطميون بالاحتفاظ بسيفه فى خزائنهم [٤] .

ويقال إن كافورا كان يداوم الجلوس صباحا ومساء لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول : اللهم لا تسلط على مخلوقا [٥] .

ويروى بعض المؤرخين أنه كان يحن إلى موسيقى السودانيين وإنه مر ذات يوم بجماعة منهم وهم يطبلون الطبل السودانى المعروف بالدبدبة فطرب لذلك كافور ونسى نفسه وحرك أكتافه على أنغام الدبدبة ثم تذكر نقد الناس لحركاته هذه فأخذ يهز أكتافه فى مناسبات كثيرة كى يظن الناس أنه لم يهزها فى ذلك المكان بسبب الدبدبة بل كان ذلك عادة عنده [٦] . وقيل إن كافورا كان له فى قصره جوار مغنيات [٧] .

وحرص كافور على أن يكون بلاطه مجمع العلماء والأدباء وأن يفوق فى هذا الميدان بلاط الخليفة وبلاط سيف الدولة . فكان الأدباء والمؤرخون يقرأون له كتب السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وكان له نظر فى الأدب والعلم وفروع اللغة

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥
(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٧ ، وزكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٥
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٤٨ وابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٣
(٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

العربية [١] . وسوف نعود الى الكلام على الشعراء والأدباء والعلماء المصريين الذين اتصلوا به ، ولكننا نعرض الآن لما كان له بينه وبين المتنبي .

والمعروف أن المتنبي كان متصلا بسيف الدولة الحمداني وقال في مدحه قصائد خالدات . ولكن أمرا حدث بينهما أدى إلى أن يبحث المتنبي عن سيد آخر يرعاه . ولعله سمع ببلاط كافور وما يلقاه الشعراء والأدباء من تقدير وإكرام فيه فعقد العزم على أن ييمم شطر مصر [٢] . وقيل إن كافورا كتب إليه يستدعيه إلى بلاطه [٣] .

وقابل المتنبي في الرملة — في طريقه الى مصر — الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد الله ابن طغج ومدحه بعدة قصائد ، منها القصيدة التي مطلعها :

أَنا لائِمِي إِنْ كُنْتُ وَقْتَ اللَّوائِمِ عَلِمْتُ بِما بِي بَيْنَ تِلْكَ المَعالِمِ [٤]

ومن أبياتها :

أَرَى دُونَ ما بَيْنَ الفُرَاتِ وبَرْقَةٍ ضِرَاباً يُمَشِّي الخَيْلَ فَوقَ الجَماجِمِ
وطَعنَ غَطارِيفٍ كَأَنَّ أَكُفَّهُمْ عَرَفْنَ الرُّدَيْنِيَّاتِ قَبلَ المَعاصِمِ
حَمَتْهُ عَلَى الأَعداءِ مِن كُلِّ جانِبٍ سُيُوفُ بَنِي طُغْجَ بْنِ جُفِّ القَماقِمِ
هُمُ المُحْسِنُونَ الكَرَّ فِي حَومَةِ الوغَى وأَحْسَنُ مِنهُ كَرُّهُمْ فِي المَكارِمِ
وَهُمْ يُحْسِنُونَ العَفْوَ عَن كُلِّ مُذْنِبٍ ويَحتَمِلُونَ الغُرْمَ عن كُلِّ غارِمِ

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

(٢) قيل ان الذى حمس المتنبي حتى رحل إلى مصر أنه سمع أن محمد بن عاصم الشاعر أنشد كافورا قصيدة على أثر زلزلة عظيمة وقعت بمصر ومن أبياتها :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها لكنها رقصت من عدله طربا

وأن كافورا أجازه على هذه القصيدة بألف دينار . ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥ وابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٤

(٣) ابن ظافر الازدى : المرجع السابق ص ٦٠ وديوان المتنبي ص ٣٧٣

(٤) ديوان المتنبي ص ١٧٧

حَيِيُّونَ إلاَّ أَنَّهم في نِزَالِهم أَقلُّ حَيَاءً من شِفارِ الصَّوارِمِ

ولَولا احتِقار الأُسْدِ شَبَّهْتُهم بِها ولٰـكِنَّها مَعْدُودَةٌ في البَهائِمِ

ووصل المتنبي إلى مصر سنة ٣٤٦ [(١)]، وقيل إنه صرح قبل قدومه أنه إذا دخل مصر لا يقصد العبد (كافورا) وإنما يقصد مولاه (أونوجور) [(٢)]. ولم يكن هذا أول عهد المتنبي بالاخشيديين فالراجح أنه حين اتهم بادعاء النبوة في بادية السماوة قبض عليه ابن لؤلؤ نائب الاخشيد في حمص وحبسه ثم استتابه وأطلقه [(٣)]. كما يروى له بعض الشعر في رثاء محمد بن طغج الاخشيد [(٤)].

ومهما يكن من الأمر فان كافورا رحب بالمتنبي وأخلى له دارا وخلع عليه وحمل اليه كثيرا من المال، فقال المتنبي في مدحه قصيدته المشهورة التي مطلعها :

كَفَى بِكَ داءً أَنْ تَرى المَوتَ شافِيا وحَسْبُ المَنايا أَنْ يَكُنَّ أَمانيا [(٥)]

ومن أبياتها :

قَواصِدَ كافُورٍ تَوارِكَ غيرِهِ ومَن قَصَدَ البَحرَ استَقَلَّ السَّواقِيا

فَجاءَتْ بِنَا إِنسانَ عينِ زمانِهِ وخَلَّتْ بَياضاً خَلفَها ومآقِيا

أَبا كُلِّ طِيبٍ لا أَبا المِسكِ وَحدَهُ وكُلِّ سَحابٍ لا أَخُصُّ الغَوادِيا

إِذا كَسَبَ الناسُ المَعالِيَ بالنَّدَى فإِنَّكَ تُعطِي في نَدَاكَ المَعالِيا

وغَيرُ كَثيرٍ أَنْ يَزُورَكَ راجِلٌ فيَرجِعَ مَلْكاً لِلعِراقَينِ والِيا

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥

(٢) ابن ظافر الازدى : المرجع السابق ص ٦٠

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥ ودائرة المعارف الاسلامية مادة المتنبي (ج ٣ ص ٨٣٥ من الطبعة الفرنسية).

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٣

(٥) مما يشهد لكافور بسلامة الذوق الأدبي أنه قال معلقاً على مطلع هذه القصيدة « ما ينبغي لمن يقصد الملوك في نجاح حاجة أن يكون خطابه لهم أول ما يخاطبهم به مثل هذا » ابن سعيد : المغرب ص ٤٧

مَدى بَلَّغَ الأُستاذَ أَقصاهُ رَبُّهُ ونَفسٌ لَهُ لم تَرضَ إلا التناهِيا

دَعَتْهُ فلَبَّاها إلى المَجدِ والعُلَى وقد خالفَ الناسُ النُّفُوسَ الدّواعِيا

فأصبَحَ فوقَ العالَمِين يَرَونَهُ وإنْ كانَ يُدنِيهِ التَّكَرُّمُ نائيا[1]

وظل المتنبي فى بلاط كافور يقول فى مدحه القصيدة السنية بعد الأخرى . ومن بعض أبيات تلك القصائد ما يصف كافورا والحالة السياسية على عهده وصفا قد يكون فيه شيء من المبالغة ، ولكن له معناه على كل حال . ومن ذلك قوله :

تَرَعرعَ المَلِكُ الأُستاذُ مُكتَهِلاً قَبلَ اكتِهالٍ أَديباً قَبلَ تأديبِ

مُجرَّباً فَهِماً مِن قَبلِ تَجرِبةٍ مُهذَّباً كَرَماً مِن غَيرِ تَهذيبِ

حَتَّى أَصابَ من الدُّنيا نِهايتَها وهَمُّهُ فى ابتداءاتٍ وتَشبيبِ

يُدبِّرُ المُلْكَ من مِصرٍ إلى عَدَنٍ إلى العِراقِ فأرضِ الرُّومِ فالنُوبِ[2]

ومن ذلك قوله فى قصيدة أخرى :

وأَخلاقُ كافُورٍ إذا شِئتُ مَدْحَهُ وإنْ لم أَشأْ تُملِى عَلىَّ وأَكتُبُ

إذا تَركَ الإنسانُ أهلاً وَراءَهُ ويَمَّمَ كافوراً فَما يَتَغَرَّبُ

فَتًى يَملأُ الأَفعالَ رأياً وحِكمَةً ونادِرَةً أَحيانَ يَرضَى ويَغضَبُ[3]

وهى القصيدة التى جاء فيها :

إذا لم تَنُطْ بِى ضَيعةً أو وِلايةً فَجُودُكَ يَكسونى وشُغلُكَ يَسلُبُ

---

(١) ديوان المتنبي ص ٣٧٣ — ٣٧٧

(٢) المرجع نفسه ص ٣٨١ — ٣٨٢

(٣) المرجع نفسه ص ٣٩٨ — ٣٩٩

وقد ليم كافور على قلة إرضائه للمتنبي وكونه لا يوليه ولاية حتى قال هذا البيت فقال كافور : « ياقوم ! رجل ادعى النبوة مع خير البشر صلى الله عليه وسلم كيف يوليه كافور فيأمنه ! »[١].

ومن أبيات تلك القصيدة قول المتنبي يخاطب كافورا ويشير إلى أونوجور :

وأنتَ الّذي رَبَّيتَ ذا المُلكِ مُرضَعاً ... ولَيسَ لهُ أُمٌّ سِواكَ وَلا أَبُ

وكُنتَ لَهُ لَيثَ العَرينِ لِشِبلِهِ ... ومالَكَ إلاَّ الهِنـدُوانِى مِخلَبُ

لَقِيتَ القَنَا عَنْه بِنَفسٍ كَرِيمةٍ ... إلى المَوتِ فى الهَيجَى منَ العارِ تَهرُبُ

سَلَلتَ سُيوفاً عَلَّمَتْ كُلَّ خاطِبٍ ... على كُلِّ عُودٍ كَيفَ يَدعو ويَخطُبُ

ويُغنيكَ عَمَّا يَنسُبُ الناسُ أنَّهُ ... إلَيكَ تَناهَى المَكرُماتُ وتُنسَبُ

وأىُّ قَبِيلٍ يَستَحِقُّكَ قَدرُهُ ... مَعَدُّ بنُ عَدنانٍ فِداكَ ويَعرُبُ[٢]

ولكن المتنبي كان يطمع من كافور بأكثر مما نال من عطاء وكان يرجو أن ينصبه كافور واليا على إقليم من دولته،فلا عجب إذا تضاءل حماس المتنبي لهذا الأمير . والواقع أن آخر قصيدة أنشدها فى حضرته ولم يلقه بعدها تنذر بنفاد صبره وتؤذن بالقطيعة بينهما . ومن أبيات هذه القصيدة :

وفى النَّفسِ حاجاتٌ وفيكَ فَطانةٌ ... سُكوتى بَيانٌ عِندَها وخِطابُ

وَما أَنا بالباغى على الحُبِّ رِشوةً ... ضَعيفُ هَوًى يُبغَى عليه ثَوابُ

وَما شِئتُ إلا أنْ أَدُلَّ عَواذِلى ... على أنَّ رَأْيِى فى هَواكَ صَوابُ

وأُعلِمَ قوماً خالَفُونى فَشَرَّقُوا ... وغَرَّبتُ أَنِّى قد ظَفِرتُ وخابُوا

وما كُنتُ لَولا أنتَ إلا مُهاجِراً ... لهُ كُلَّ يَومٍ بَلدةٌ وصِحابُ[٣]

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٧ وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥

(٢) ديوان المتنبي ص ٤٠٠

(٣) المرجع نفسه ص ٤١٠

وقيل ان المتنبي « أقام بعد إنشاء هذه القصيدة سنة لا يلقى كافورا غضبا عليه لكنه يركب فى خدمته خوفا منه ولا يجتمع به ، واستعد للرحيل فى الباطن وجهز جميع ما يحتاج اليه »[١].

وقال المتنبي فى يوم عرفة سنة ٣٥٠ هـ قبل مغادرته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية المشهورة التى هجا فيها كافور . ومطلعها :

عِيدٌ بأَيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ   بما مَضَى أَمْ لِأَمرٍ فيكَ تَجديدُ

ومن أبياتها :

إنّي نَزَلْتُ بكذَّابينَ ضَيْفُهُمُ   عَنِ القِرَى وعَنِ التَّرْحالِ محدودُ

جُودُ الرِّجالِ منَ الأَيْدى وجُودُهُمُ   منَ اللسان فلا كانُوا ولا الجُودُ

أَكلَّما اغتالَ عَبدُ السَّوْءِ سَيِّدَهُ   أَو خانَهُ فَلَهُ فى مِصر تَمهيدُ

صارَ الخَصِيُّ امامَ الآبقينَ بها   فالحُرُّ مُستَعبَدٌ والعَبدُ مَعبُودُ

لا تَشْتَرِ العَبدَ إلاَّ والعَصا مَعَهُ   إنَّ العَبيد لَأَنجاسٌ مَناكيدُ

مَن عَلَّمَ الأَسودَ المَخصِيَّ مَكرُمةً   أَقومُهُ البيضُ أم آباؤُهُ الصِّيدُ

أَمْ أُذْنُهُ فى يَدِ النَّخَّاسِ دامِيةً   أم قَدْرُهُ وَهْوَ بالفَلْسَين مردُودُ

وذَاكَ أَنَّ الفُحُولَ البِيضَ عاجِزَةٌ   عن الجَميلِ فكيفَ الخِصْيةُ السُّودُ[٢]

ونظم المتنبي قصائد أخرى كثيرة فى هجاء كافور[٣] . وقيل انه لما فر من مصر كتب ورقة فيها هجو لكافور ووصلت الورقة إلى يد هذا الأمير فأمر باحراقها ولم يقف على ما فيها « فكان ذلك مما استحسن له »[٤].

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٨

(٢) ديوان المتنبي ص ٤٣١ — ٤٣٤

(٣) ديوان المتنبي ص ٤٢٧ — ٤٣٧ وانظر أيضاً « المصريات الكافوريات » فى ديوان المتنبي (طبع ديتريشى فى برلين سنة ١٨٦١) ص ٦٢٣ وما بعدها .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٤٨

ومما يلقى بعض الضوء على علاقة المتنبي بكافور ويفسر حذر الأمير وعدم اطمئنانه إلى هذا الشاعر أن كافوراً كان له منافس من بين قواد الاخشيد: هو أبو شجاع فاتك الرومي الاخشيدي. وكانت له حظوة عند الاخشيد ولكن فيه طيشاً وخفة حتى كان يعرف بالمجنون « فكان كلما تزايد أمر كافور وعظم يزيد جنون فاتك وحسده فلا يلتفت كافور إليه بل يدر عليه الإحسان ويراعيه إلى الغاية. وكان الفيوم إقطاع فاتك المجنون فاستأذن فاتك كافورا أن يتوجه إلى إقطاعه بالفيوم ويسكن هناك حتى لايرى عظمة كافورفأذن له كافور في ذلك وودعه. فخرج فاتك إلى الفيوم فلم يصح مزاجه بها لوخامتها فعاد بعد مدة مريضاً إلى مصر ليتداوى بها، وكان المتنبي الشاعر بمصر قد مدح كافوراً بغرر القصائد، فسمع المتنبي بكرم المجنون فأحب أن يمدحه ولم يجسر خوفاً من كافور. وكان كافور يكره فاتكا في الباطن ويخافه. وصار فاتك يراسل المتنبي ويسأل عنه إلى أن اتفق اجتماعهما يوما بالصحراء وجرت بينهما مفاوضات، فلما رجع فاتك إلى داره بعث إلى المتنبي بهدية قيمتها ألف دينار ثم أتبعها بهدايا أخر. فاستأذن المتنبي كافوراً في مدح فاتك فأذن له خوفا من فاتك وفي النفس شيء من ذلك، فمدحه المتنبي بقصيدته التي أولها:

لا خَيلَ عِندَكَ تُهدِيها وَلا مالُ   فَليُسعِدِ النُّطقُ إنْ لم تُسعِدِ الحالُ [1]

إلى أن قال:

كَفاتِكٍ ودُخُولُ الكافِ مَنقَصةٌ   كالشَّمسِ قُلتُ وما لِلشَّمسِ أَمثالُ

فحقد كافور على المتنبي لذلك » [2].

***

وقد رأينا في الباب السابق أن أولي الأمر في مصر اتفقوا بعد وفاة كافور على تولية أبي الفوارس أحمد بن علي الاخشيد وكان في الحادية عشرة من عمره. ودعى له

---

(١) ديوان المتنبي ص ٤١٤ — ٤١٥

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤ — ٥

على المنابر ثم من بعده للحسن بن عبيد الله . ثم عقد للحسن بن عبيد الله على بنت عمه فاطمة بنت الاخشيد بوكيل سيّره من الشام[١] .

وعاد الحسن بن عبيد الله من الشام وقبض على مقاليد الامور فى البلاد بعد أن سجن الوزير جعفر بن الفرات وصادر أملاكه[٢] . ولكنه ما لبث أن أطلق هذا الوزير وفوض إليه تدبير الامور ثم سافر ثانية إلى الشام .

بيد أن الجيوش الفاطمية كانت لمصر بالمرصاد واستطاعت أن تدخلها فاتحة ، وقبض على أحمد بن على الاخشيد ومات بعد قليل . ولكن المؤرخين لم يعنوا بالتحدث عن مصيره اما لصغر سنه أو احتقارا لشأنه لأنه لم يكن له من الأمر شيء[٣] . وعلى كل حال فإن ابن سعيد لم يذكر عن نهايته أكثر من الاشارة إلى أنه « مات من علة صادفت وقتا ظن الناس فيه أنه قتل »[٤] .

* * *

بقى علينا أن نذكر القليل الذى نعرفه عن أمراء البيت الاخشيدى الذين لم يتولوا حكم مصر .

ولا ريب فى أن أعظم هؤلاء الأمراء هو أبو المظفر الحسن بن طغج . وقد كان أميرا جليلا عرف بالشجاعة والكفاية فى الأعمال التى عهد بها إليه . وكان أخوه الاخشيد يستخلفه على حكم مصر حين يغادرها الى الشام ، ففعل ذلك حين خرج لقتال ابن رائق سنة ٣٢٨ هـ[٥] ، وكذلك حين خرج إليها سنة ٣٣٠[٦] ، وحين خرج للقاء الخليفة المتقى سنه ٣٣٢[٧] وإن كان ابن سعيد يذكر نقلا عن ابن زولاق أن الاخشيد استخلف

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠
(٢) المرجع نفسه ج ٤ ص ٢٣
(٣) المرجع نفسه ج ٤ ص ٢٤
(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٤٦
(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٩ وابن سعيد : المغرب ص ٢٥ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٢٩
(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٤

هذه المرة ابنه أونوجور واستخلف له عمه الحسن بن طغج [١]، وكأنما أراد الاخشيد أن يحدد نظام وراثة العرش بعده ، وأن يثبت البيعة التى أخذها لابنه بولاية العهد سنة ٣٣١ فجعله نائبه الرسمى فى مصر ولكنه استخلف له عمه الحسن بن طغج لتكون بيده مقاليد الأمور فى غيبة أخيه الاخشيد . والراجح أن هذا هو الذى حدث سنة ٣٣٣ حين خرج الاخشيد لقتال سيف الدولة ، فابن سعيد ينقل عن ابن زولاق أن الاخشيد استخلف على مصر ابنه أبا القاسم واستخلف له عمه الحسن بن طغج [٢] . أما أبو المحاسن فلا يحفل بهذا « البروتوكول » إنما يذكر أن الاخشيد استخلف أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج على مصر [٣] .

وكان الاخشيد يعتمد على أخيه الحسن بوصفه قائدا من كبار قواده ذوى الخبرة والشجاعة . ومن المهمات الحربية التى بعثه فيها ما حدث سنة ٣٢٤ هـ حين بعثه ومعه القائد صالح بن نافع الى الاسكندرية لقتال جيش المغاربة [٤] . كما كان للحسن بن طغج فضل كبير فى القضاء على ثورة غلبون التى سيأتى الكلام عليها . فان الحسن بن طغج ، بعد أن رجع من عند ابن أخيه الأمير أونورجور من الشام ، طارد غلبون حتى ظفر به وقتله [٥] .

وقد ولى الحسن بن طغج امرة دمشق من قبل أخيه الاخشيد فترة من الزمن ثم عزله الاخشيد وولى أخاه عبيد الله بن طغج مكانه . ثم ولى الحسن هذا امرة دمشق مرة أخرى من قبل ابن اخيه أونوجور سنة ٣٣٧ ، ثم نقل الى امرة اقليم الرملة ومات بها سنة ٣٤٢ هـ ودفن بالقدس [٦] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠

(٢) المرجع نفسه ص ٤٢

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٥

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩٢

(٦) المرجع نفسه ج ٣ ص ٢٩٧ وص ٣١٠

وفى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا وثيقة على ورق تتضمن سجلا من الحسن ابن طغج الى رجلين أحدهما اسمه محمد بن ربيعة بشأن تأجير ستة أفدنة بخمسة عشر دينارا وهى بالعربية واليونانية [(١)] . وقد تفضل الأستاذ أدولف جرومان فأطلعنى على صورة هذه الوثيقة ورأيت أن اسم المستأجر الثانى لم يبق منه الا كلمة « الوارث » ولعلها جزء من اسم « عبد الوارث » .

أما أبو النصر الحسين بن طغج فكان من قواد أخيه الاخشيد وكان على رأس جنده فى الشام حين باغتهم ابن رائق وقتل أبا نصر الحسين . وأراد ابن رائق مسالمة الاخشيد فحنط جثة الحسين بن طغج وجعلها فى تابوت وأنفذه الى الاخشيد معزيا ومعتذرا بأنه ما أراد قتله وأرسل معه ابنه مزاحم بن محمد بن رائق عارضا أن يكون فدية للقتيل اذا أراد الاخشيد ذلك [(٢)] . وقد مر بنا أن الاخشيد أكرم مزاحما وجنح الى السلم مع ابن رائق .

وممن اشتهر من أسرة الاخشيد أخوه عبيد الله بن طغج وقد كان من كبار أعوانه فى الادارة وقيادة الجند . والظاهر أنه كان شديد الاعتداد بنفسه حريصا على كرامته فهو مرة يرفض ألا يسير بين يدى أخيه الاخشيد كاحد الحجاب ويحرص على أن يركب خلفه حين ركب لأول مرة الى الجامع العتيق [(٣)] . ونراه مرة أخرى لا يقبل أن يترجل للاخشيد عند رؤيته إلا بعد أن ألح عليه كاتبه الخاص الحسن بن جابر وأفهمه أن الاخشيد هدد بقتل هذا الكاتب اذا لم يترجل صاحبه عبيد الله بن طغج عند رؤيته [(٤)] .

وكان عبيد الله بن طغج يعاون أخاه الاخشيد فى قتال أعدائه [(٥)] . وعرض الاخشيد بعد اتمام الصلح بينه وبين ابن رائق أن يكون عبيد الله رهينة عند ابن رائق

(١) Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstelung No. 967 p. 253.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٣

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٣

(٤) المرجع نفسه ص ٣٨

(٥) المرجع نفسه ص ١٤ و٢٥

ومزاحم بن محمد بن رائق رهينة عند الاخشيد ليقوم كل منهما بما تعهد به فى هذا الصلح ، ولكن الظاهر أن عبيد الله بن طغج لم يقبل هذه المهمة فاحتج الاخشيد بأن غلمان أخيه كرهوا مفارقته ومنعوه من مغادرتهم وعرض أن يرجع مزاحم إلى أبيه محمد بن رائق إلى أن يرسل الاخشيد ابنه أونوجور ليكون رهينة بدلا من عمه عبيد الله . بيد أن هذا التبادل لم يتم [١] .

ويبدو أن عبيد الله بن طغج كان ذا ثروة كبيرة فى حمص مشاركة مع أخيه الاخشيد [٢] وأن اقليم الشام كان ميدان نشاطه بوجه عام فقد كان يقيم فى الرملة وتوفى بها فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٣ هـ [٣] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٩
(٢) المرجع نفسه ص ٣٢
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢

(٣)

موظفو البـــلاط

الحـاجب

كانت وظيفة الحاجب من الوظائف السامية فى بلاط الخلفاء والأمراء [١] . ولم يكن عمله وقفا على إدخال الناس على الأمير فى مواعيد محددة ، بل كان يشبه عمل كبير الأمناء فى عصرنا الحالى .

ويقال ان الاخشيد اتخذ عمران بن فارس حاجباً له . وكان عمران حاجباً لتـكين والى مصر قبيل العصر الاخشيدي . ويروون أن لاستحجاب الاخشيد إياه قصة طريفة . ذلك أن الاخشيد كان فى دار تكين ذات يوم وكان هناك عدد من الأتراك والقواد ووجوه القوم ينتظرون الاذن للدخول على الوالى . ولمـا أقبل حاجبه عمران بن فارس حيا الناس ودخل على تكين ليستأذن لهم فى الدخول . فقال جماعة منهم تعريضا بعمران : أى كبش ما أسمنه ليت شعرى من يجزره ! فقال محمد بن طغج : « أنا أجزره » .

ومرت الأيام وولى ابن طغج حكم مصر وكان عمران بن فارس بالشام ، فاستدعاه الاخشيد واتخذه حاجبا له . ولـكنه ما لبث أن صادر أمواله وأخذ منه عدداً كبيراً من العبيد والخيل والأتباع [٢] .

وقد يكون لهذه القصة نصيب من الصحة . ولـكن الراجح أن الاخشيد استحجب عمران لاعجابه بجلال مظهره وحسن درايته . ومهما يكن من الأمر

---

(١) راجع ابن خلدون : المقدمة (الفصل الرابع والثلاثون فى مراتب الملك والسلطان وألقابهما . . . الحجابة) والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٢ ، والقلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٤٧ و Van Berchem ; Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte 1, pp. 567-568; Zaky Hassan : Les Tulunides p. 193 : Wiet : Précis de l'histoire d'Egypte 11, p. 245.

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٨

فان عمران بن فارس جمع ثروة طيبة كما يتبين من ذكر ما صادره الاخشيد حين انقلب عليه [١].

ويقال ان الذى خلف عمران بن فارس فى منصب الحجابة للاخشيد هو غلامه فاتك الرومى [٢]، الذى علا شأنه فى بلاط الاخشيديين حتى ولى امرة دمشق حينا من الزمن. وقد مر بنا أن المتنبي مدحه بقصيدة عصماء أوغرت صدر كافور على أمير الشعراء. ونضيف هنا أن أبا شجاع فاتكا توفى سنة ٣٥٠هـ وأن المتنبي رثاه بعد خروجه من مصر بقصيدتين جاء فى إحداهما :

قُبحاً لِوَجهِكَ يا زَمانُ فإِنَّهُ وَجهٌ لَهُ مِن كُلِّ قُبحٍ بُرقُعُ
أَيَموتُ مِثلُ أَبي شُجاعٍ فاتِكٍ ويَعيشُ حاسِدُهُ الخَصِيُّ الأَوكَعُ
أَيْدٍ مُقَطَّعَةٌ حَوالَيْ رَأْسِهِ وَقَفاً يَصِيحُ بِها أَلا مَنْ يَصْفَعُ [٣]

والظاهر أن فاتكا الرومى كان عظيم الشأن فى بلاط الاخشيد وكان أكبر منافس لكافور، ولكن تم النصر للأخير بعد وفاة الاخشيد فاعتزل فاتك الحياة العامة وعاش فى اقطاعه بإقليم الفيوم عيشة أمراء الاقطاع، ولاعجب فقد كان كافور «يخافه ويكرهه» كما يقول أبو المحاسن.

ولسنا نعرف على وجه التحقيق من تولوا منصب الحجابة لأمراء مصر بعد الاخشيد ولكن كافورا كان شديد الحرص على مظاهر البروتوكول فى بلاطه حتى قيل «إنه كان عظيم الحرمة وله حجاب يمتنع عن الأمراء» [٤].

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص١٦
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٩
(٣) ديوان المتنبي ص ٤٢١
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

الحرس الخاص

رأينا عند الكلام على الاخشيد أنه اتخذ بضعة آلاف من المماليك حرسا خاصا له وأن ألفين منهم كانوا يحرسونه كل ليلة . ولا شك أن فى هذه الرواية شيئا من المبالغة ، ولكن لعل المقصود أنهم كانوا يحرسون قصر الأمير وثكنات حرسه . والراجح أن الأمراء الاخشيديين — ولاسيما محمد بن طغج ثم كافور — كانوا يؤلفون حرسهم الخاص من آلاف من الجند تشبها بالخلفاء والملوك وكبار الأمراء فى أنحاء العالم الاسلامى .

الخازن

ومن وظائف البلاط فى العصر الاخشيدى وظيفة الخازن ، والراجح أنه كان يتولى أمر خزانة الأمير ويشرف على مافى قصره فضلا عن ادارة ممتلكاته الخاصة . ولعله يشبه صاحب بيت المال فى العصر الفاطمى [1] والخازندار فى العصر المملوكى [2] وناظر الخاصة فى عصرنا الحالى . وممن شغل هذه الوظيفة محمد بن عبد الله الخازن ، وقد شغلها على عهد الاخشيد نفسه . وكان عظيم السلطان وله عدد من الأعوان والمساعدين [3] . ولسنا نعرف هل هو محمد الخازن الذى أشار إليه أبو صالح الأرمنى وذكر أنه كان يعيش فى أيام كافور الاخشيدى [4] .

طبيب البلاط

ومن الوظائف الرئيسية فى بلاط الاخشيديين وظيفة طبيب الأمير . وقد وصل الينا اسم طبيب الاخشيد . وهو ابو الفرج الباسى ، وعرفنا أنه كان يقيم فى قصر الأمير دائما وكان يصحبه فى أسفاره [5] ويشرف على ألوان الطعام الذى كان يقدم إليه ويمنع مالا يصلح منها لحالة الأمير الصحية [6] .

---

(١) راجع القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٥

(٢) المرجع نفسه ج ٥ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ ، وعلى ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ص ٢٠١

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٠ — ٣١

(٤) تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ص ١٢٢

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٤٣

(٦) المرجع نفسه ص ٣٦

سائر الوظائف

وطبيعى أن بلاط الأمير وقصره كان يضم عددا كبيرا من مختلف الموظفين والخدم والفراشين اللازمين لمطابخه وخزائنه واصطبلاته وأصحاب صيده وما إلى ذلك مما لا حاجة إلى تفصيل الكلام عليه [1] .

---

(١) راجع فى هذه المناسبة ما جاء عن قصر الخليفة وبلاطه ببغداد فى هلال الصابى : الوزراء تاريخ ص ١٥ — ١٩

الباب الخامس

الإدارة والموظفون

الادارة والموظفون

(١)

الوزير [١]

لم تعرف مصر منصب الوزارة فى عصر الولاة ، وذلك بحكم تبعيتها إلى الخلافة مباشرة. ثم جاء الطولونيون فاتخذوا وزراء لهم تشبها بالخلفاء [٢] . وفى عهد محمد بن طغج الاخشيد ولى الوزارة أبو بكر محمد بن على المـاذرائى . وقد مر بنا أن أبا بكر المـاذرائى كان فى صحبة الفضل بن جعفر بن الفرات مقبوضا عليه . فلما عاد ابن الفرات من العراق وتوفى بالرملة فى جمـادى الأولى سـنة ٣٢٧ استدعى الاخشـيد المـاذرائى وأطلق سراحه ورد اليه الأمور ، وقد كتب المقريزى فى هذا الصدد : « وخلع على ابنه الحسين بن محمد وقلده السيف وألبسه المنطقة ولزم محمد بن على الدراعة وسار إلى منزله وخلفه ابنه بالخلع فعادت الأمور كلها اليه [٣] » . ولـكن ابن سعيد يذهب إلى أن رد الأمور إلى المـاذرائى لم يكن إلا فى العام التالى. وكتب ابن سعيد فى هذا الشأن. « وفى رجب سنة ثمـان وعشرين أطلق الاخشيد أبا بكر محمد بن على المـاذرائى واستوزره واستكتب ابنه الحسين بن محمد وخلع عليه وصرفه إلى داره فمشى بين يديه أهل الدولة

---

(١) راجع عن الوزارة فى التاريخ الاسلامى ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ١١٠ — ١١١ والماوردى : الأحكام السلطانية ، الماوردى : كتاب أدب الوزير، وابن عبدوس الجهشيارى : كتاب الوزراء، وابن الصيرفى : الاشارة إلى من نال الوزارة ، وخليل الظاهرى : زبدة كشف الممالك، وابن خلدون : المقدمة (الفصل الرابع والثلاثون فى مراتب الملك والسلطان وألقابهما) ص ١٩٧ وحسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ١٤٤ و Zaky Hassan : Les Tulunides p. 194 .

(٢) Zaky Hassan : op. cit. pp. 194-195

(٣) المقريزى : المقفى (النص العربى فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٣ — ١٢٤ وابن سعيد : المغرب ص ٣٤

وابنه الحسين خلفه بالخلع ومشى الشريف أبو جعفر مسلم بين يديه حتى حلف عليه فركب . . . . ورد اليه الاخشيد التدبير بمصر والشام والرملة ولبس الدراعة ونزع الطيلسان ، وكان (الاخشيد) لا يصدر إلا عن رأيه ولا يخليه من حضور مجلسه ويقول للناس إذا انصرف « كم قبلت يده ووقفت بين يديه »[(١)] .

والراجح عندنا أن الماذرائى قدم إلى مصر بعد وفاة ابن الفرات وأن الاخشيد أطلق سراحه ولكنه لم يرد اليه تدبير الأمور ولم يتخذه وزيرا له إلا بعد أن عاد من حملته الأولى فى الشام لقتال ابن رائق أى فى رجب سنة ٣٢٨

ومهما يكن من الأمر فان هذا النص الذى نقلناه عن ابن سعيد يشير إلى أن الوزير فى مصر عندئذ كان يتميز بلبس الدراعة ونزع الطيلسان[(٢)] . ولا عجب فقد « كان الاشتغال فى الدواوين يختلف عن عمل الفقهاء والعلماء كل الاختلاف ، فكان المشتغل بادارة الدواوين هو ممثل الثقافة الأدبية وكان لا يعالج العلوم الشرعية إلا بمقدار ما يتطلبه عمله وثقافته . أما التمايز الظاهرى بينهم فكان يتجلى فى أن الكاتب يلبس دراعة ، على حين أن العالم يلبس الطيلسان[(٣)] » .

ولما خرج الاخشيد فى حملته الثانية لقتال ابن رائق استخلف على مصر أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج ومعه الوزير محمد بن على الماذرائى[(١)] . واستحق الماذرائى فى هذه الفترة تقدير الاخشيد وشكره ، لأنه كان خير عون للحسن بن طغج فى تهدئة أحوال الناس والقضاء على الاضطراب الذى قام بسبب وصول أخبار غير مطمئنة

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥

(٢) كان الوزير العباسى يلبس دراعة وقميصاً ومبطنة وخفا . أنظر هلال الصابى : تاريخ الوزراء ص ٣٢٥ ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٤٥ والدراعة قميص مفتوح من الامام إلى موضع القلب ومزين بالزرار النفيسة والطيلسان شبه طرحة أو شال يلقى على الكتفين وعلى الرأس فى بعض الأحيان أنظر Dozy : Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes pp. 177, 278-280.

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٣٦ نقلا عن المقدسى وياقوت .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٢٩ و ٣٨

من ميدان القتال [١] . ولما عاد الاخشيد من هذه الحملة وقع له مع الماذرائي حادث كان وخيم العاقبة على هذا الوزير . ذلك أن الاخشيد رأى قبل وصوله إلى الفسطاط وفدا بادر إلى لقائه وتوقع أن يكون على رأسه محمد بن على الماذرائى وخشى ألا يترجل هذا الوزير عند ما يصل اليه فأرسل الحسين بن محمد الماذرائى — وكان فى صحبته — ليلاقى أباه . وأحس الحسين بما فى نفس الأمير فبادر إلى أبيه وقال له :

« الاخشيد قد قرب منك وقد رآك فاخرج رجلك من الركاب فهو يرضى منك بها »
فغضب الماذرائى الكبير ورفض أن يترجل أو يخرج رجله من الركاب عند لقاء الاخشيد بل عانقه وهو على ظهر حصانه ، واستاء الاخشيد فأقبل على محادثة كاتبه محمد بن كلا وانصرف عن الماذرائى ، وطلب الأخير إلى غلمانه إخراجه من زحمة الموكب . وفطن الاخشيد إلى هذا وأراد أن يتجنب حدوثه فاستدعى الماذرائى وسايره . ومما يشهد بعلو مكانة هذا الوزير ما يروى عن قوله ، حين فاتحه ابنه باظهار الترجل للاخشيد : « ذهاب المال أهون على من هذا » [٢] ! ولكن الاخشيد حقد عليه وما لبث أن قبض عليه وعلى ابنه الحسين سنة ٣٣١ ه .

ومما يستحق الذكر أننا نلاحظ فى ذلك العصر نوعا من الحبس يشبه اعتقال بعض عظماء الرجال فى عصور التاريخ ولا سيما العصر الحديث . فان الاخشيد أعد لاعتقال الماذرائى دارا أسرف فى تزيينها وتأثيثها وزودها بجميع ما يحتاج اليه من ملابس وطيب وطرائف ومآكل ومشارب . ولم يعتقله فيها حتى تأكد من أنه لا ينقصها شىء . وقد سئل الاخشيد كيف عمل هذا كله للماذرائى فقال : « هذا ملك ! وأردت أن لا يحتقر بشىء لنا ولا يطلب حاجة إلا ويجدها ، لأنه ان عجز شىء أحضره من داره ونسقط من عينه » [٣] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٨
(٢) المرجع نفسه ص ٣٨ — ٣٩
(٣) المقريزى : المقفى (فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٤

وهكذا نرى كيف كان هذا الوزير ملكا غير متوج أو كأنه أمير كبير من أمراء الاقطاع يرعى جانبه أمير البلاد ويخشى بأسه .

ثم أطلق الاخشيد سراح محمد بن على المـاذرائى وابنه الحسـين فى العام التالى . ولكنه حين عزم على السير للقاء الخليفة المتقى فى الشـام سنة ٣٣٢ هـ قبض عليه ثانية وصادر جزءا كبيرا من أملاكه وحمله معه إلى الشام [١] . ويروى أن الخليفة المتقى طلبه من الاخشيد فأجاب بأنه ليس معه [٢] ، وقيل ان الاخشيد عرض على المـاذرائى مقابلة المتقى وان المـاذرائى رفض هذه المقابلة [٣] . وعلى كل حال فان المـاذرائى عاد مع الاخشيد إلى مصر وظل بها إلى أن توفى الاخشيد سنة ٣٣٤

ويبدو أن مقاليد الأمور كانت حينئذ فى يد صاحب الخراج وهو محمد بن على ابن مقاتل الذى كان كاتبا لابن رائق [٤] ثم ولاه الاخشـيد خراج مصر فى نهاية سنة ٣٣٢ أو فى بداية سنة ٣٣٣ هـ [٥] . وجمع بعد ذلك إلى ولاية الخراج كثيرا من اختصاصات الوزير حتى صار له هذا اللقب فى رأى كثير من المؤرخين [٦] .

وقد مر بنا الـكلام على اجتماع وجوه القوم بعد وفاة الاخشيد وتبادل الرأى فيمن يخلفه وعرفنا أن أبا بكر المـاذرائى كان له الفضل فى تنصيب أنوجور وأنه كوفىء على ذلك بأن قلد تدبير الأمور . والواقع أنه جمع بين أعمـال الوزارة والإشراف على الخراج بعد عزل محمد بن على بن مقاتل [٧] . ويبدو أنه كان يشعر بتقدمه فى العمر

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠

(٢) المرجع نفسه .

(٣) المقريزى : المقفى (فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٤

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٢٩ و٣٨

(٥) كتب ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٣٢ أن ناصر الدولة بن حمدان استعمل فى ربيع الأول من هـذه السنة أبا بكر محمد بن على بن مقاتل على طريق الفرات وديار مضر وجند قنسرين والعواصم وحمص ثم عزله فى شهر رجب . وكتب فى حوادث سنة ٣٣٣ ان ابن مقاتل كان فى حلب حين قدم إليها الاخشيد فأكرمه هذا الأمير واستعمله على خراج مصر (الـكامل ج ٨ ص ١٤٨) . أنظر أيضاً ابن سعيد : المغرب ص ٤٥ وابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٤١٨

(٦) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٤٩١ و٥٦٧ و٥٦٨

(٧) ابن سعيد : المغرب ص ٤٥ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩

ويريد أن يعهد الوزارة لابنه فرفض فى البداية أن يقبل تدبير الأمور حين طلبت منه ذلك أم أونوجور وأيدها رجال الحاشية . ولما ألحوا عليه قال: « على أن لا أنزع الطيلسان ، ولكن ابنى أبا على (يعني الحسين بن محمد) يكون وزيرا وأنا أدبر الأمر » (١) فأجابوه إلي ذلك .

والظاهر أن الوزير كان يصرف الأمور فى داره أحيانا وفى دار الإمارة أحيانا أخرى وأن بعض رجال الحكومة كانوا يركبون معه إذا خرج ويشيعونه إلى داره وإلى المسجد يوم الجمعة (٢) .

وقد روى المقريزى فى كتاب المقفى أن محمد بن على الماذرائى بقى فى مصر إلى جانب أونوجور يدبر أمور البلاد حين خرج كافور على رأس الجند ومعه الحسين ابن محمد الماذرائى لقتال سيف الدولة بن حمدان ، وأن غلبون ثار فى الصعيد سنة ٣٣٥ وقدم إلى الفسطاط وأفلح فى هزيمة أونوجور ففر هذا الأمير ومن معه ومن بينهم أبو بكر الماذرائى وتبعهم أصحاب غلبون فأدركوا الماذرائى وقد سقط عن بغلته فأتوا به إلى غلبون فأكرمه وفوض اليه تدبير الأمور . وجلس الماذرائى فى دار الإمارة ولكن أونوجور وأصحابه عادوا إلى المدينة وتم لهم النصر . ولما رأى أن الماذرائى قبل التعاون مع الثائر غلبون أمر بضربه ونهبت داره ودور أهله وعزله الأمير واستوزر أبا الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات . ولكن الوزير المعزول مالبث أن عاد إلى منصبه عندما قدم كافور من الشام سنة ٣٣٦ وصار اليه تدبير أمور البلاد . ورد اليه كافور مابقى من ضياعه وضياع ابنه .

وعاش أبو بكر الماذرائى السنوات الأخيرة من حياته بعيدا عن الشئون العامة إلى أن توفى سنة ٣٤٥ وهو فى الثامنة والثمانين من عمره . وحضر أونوجور وكافور الصلاة عليه (٣) . وانتهى بموته ما كان للماذرائيين من سلطان فى إدارة مصر نحو سبعين عاما .

---

(١) المقريزى : المقفى (رسالة جوتشلك) ص ١٢٤

(٢) المرجع نفسه .

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٥ ، وابن سعيد : المغرب ص ١٦١ — ١٦٤

ولا ريب فى أن مادونه المؤرخون من سيرة أبى بكر الماذرائى — على ما فيه من مبالغة ظاهرة — يشهد بما جمعه من أموال ضخمة وما كان له من مظاهر الكرم والعطاء والترف . وحسبنا أن نشير إلى مايقال عن إنفاقه على ستين ألفا من الناس فى مكة كل عام وأنه كان يجرى عليهم الرزق من الدقيق والقمح والدراهم . وكان له بمصر من يجرى عليهم مائة ألف رطل من الدقيق فى كل شهر واجتمع له مائة ألف عبد أعتقهم فى طول عمره . وملك بمصر من الضياع الواسعة ما لم يملكه أحد قبله حتى بلغ دخل أملاكه أربعمائة ألف دينار فى كل سنة سوى الخراج . وحج إحدى وعشرين حجة « وكان يقال انه ينفق فى كل حجة مائة ألف دينار ويخرج معه تسعين ألف ناقة لنفسه وأربع مائة عربى لجهازه ومؤونته ومعه محامل فيها أحواض البقل ومحامل فيها أحواض الريحان ومحامل فيها الكلاب للصيد .... وكان يحمل إلى الحجاز فى البر والبحر جميع مايحتاج اليه يفرقه هناك : الدنانير والدراهم والثياب والطيب والحلوى والحبوب وسائر الأطعمة والقمح والدقيق والشعير والزيت . ولا ينصرف عن الحجاز إلا وجميع من فيه أغنياء »[1] .

* * *

ويبدو أن الاخشيد كان له أعوان آخرون يقومون بأعمال الوزير دون أن يكون لهم لقبه فى بعض الأحيان . وفضلا عن هذا فقد كان الوزير العباسى الفضل بن جعفر يعاون الاخشيد فى الحكم والادارة على الرغم من أن مهمته الأولى التى ندب لها من قبل الخلافة العباسية هى الاشراف على جمع الأموال للخلافة من خراج مصر والشام . والواقع أن الفضل بن جعفر كان سياسيا ممتازا واستطاع بمرونته وكياسته أن يوفق بين عمله مندوبا ووزيرا للخلافة واتصاله بالاخشيد ونصحه له وتفهم وجهة نظره فى الاستقلال الذاتى لمصر . وقيل انه لما توفى الفضل بن جعفر بن الفرات حزن محمد بن طغج حزنا شديدا وكان يتقبل فيه العزاء من الناس .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٣

وبعد وفاة الفضل كتب الخليفة الراضى الى الاخشيد يأمره بانفاذ ابنه جعفر ابن الفضل الى بغداد ليتقلد منصب الوزارة ولكن الاخشيد لم يستطع أن يجيب هذا الطلب . والظاهر أن صلة النسب بين جعفر بن الفضل بن جعفر والاخشيد جعلت الأول يؤثر البقاء فى مصر بعيدا عن جو الدسائس فى بغداد . ومع ذلك فان بنى الفرات كانت لهم مكانة مرموقة فى دار الخلافة فلا عجب إذا نزل الخليفة على إرادة جعفر بن الفضل وأعفاه من الذهاب إلى بغداد وعينه خلفا لأبيه وزيراً للكشف عن أعمال الاخشيد فى مصر والشام [1] . وطبيعى أن عمل جعفر بن الفضل كان مثل عمل أبيه أشبه شيء بعامل البريد من قبل الخلافة أو بعبارة أخرى كان هو وأبوه من قبله مندوبين للخلافة فى مصر والشام يرقبان أعمال الاخشيد ويتجسسان عليه إذا أرادا ، ولكن الاخشيد استطاع بسياسته أن يوطد الصلة بهما وأن ينتفع بخبرتهما وبما كان لهما ولأسرتهما من نفوذ فى دوائر الخلافة .

والظاهر أن جعفر بن الفضل بن جعفر كان يعد نفسه مصريا اخشيديا ولم تكن صلته بالخلافة إلا صلة اسمية . فلا عجب إذا اعتبره المؤرخون وزيراً للاخشيديين من سنة ٣٣٤ هـ الى الفتح الفاطمى [2] . ويعرف جعفر بن الفضل باسم ابن حنزابة . وحنزابة — بكسر الحاء وسكون النون — اسم جدته ويقال انها كانت جارية رومية [3] . وكان جعفر واسع السلطان فى ادارة مصر على عهد كافور [4] ولكن نفوذه زاد كثيراً بعد وفاة هذا الأمير حتى استطاع فى عهد أبى الفوارس احمد بن على الاخشيد أن يقبض على نفر كبير من رجال

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٤

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ وياقوت : معجم الأدباء ج ٧ ص ١٦٣ وما بعدها ، والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦ و ٤٥١ ، وأبو المحاسن : ج ٣ ص ٢٩٢ و ج ٤ ص ٦

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٩ وابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٠

(٤) قيل ان المتنبى نظم فى جعفر بن الفرات قصيدته التى مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

ولكنه لم يظفر منه بالعطاء المنتظر فلم ينشده إياها ، ولما خرج إلى إيران صرفها إلى ابن العميد فأعطاه ثلاثة آلاف دينار . أنظر ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٢ وديوان المتنبى ص ٤٤٣

مصر وأن يصادر أموالهم . وكان من بينهم يعقوب بن كلّس الذى استطاع أن يخرج خلسة الى الفاطميين فى افريقية وكان عونا كبيراً فى وضع الخطط افتح مصر كما سنرى فى نهاية هذا الكتاب .

ولم يكن جعفر بن الفضل موفقاً مع الجند ، فقد عجز عن ارضاء مختلف طوائفهم بعد أن طالبوه بما لا طاقة للحكومة باجابته ، فثاروا عليه ونهبوا داره ودور أصحابه حتى اضطر إلى الاختفاء فترة من الزمن .

ولما قدم الحسن بن عبيد الله بن طغج منهزما من القرامطة فى الشام قبض على هذا الوزير وصادر أمواله وتولى تدبير مصر بنفسه ثلاثة أشهر واستوزر كاتبه الحسن بن جابر الرياحى [١] . ولكنه ما لبث أن أطلق سراح جعفر بن الفضل بوساطة الشريف أبى جعفر الحسينى وفوض إليه أمر مصر ثانية . ثم سافر الحسن بن عبيد الله ابن طغج إلى الشام فى ربيع الآخر سنة ٣٥٨ ، وقدمت جيوش الفاطميين إلى مصر بعد مسيره بمدة يسيرة [٢] .

ومما يشهد بمكانة جعفر بن الفضل أن اسم كافور لا يذكر مع اسمه فى الكتابة التاريخية التى أشار إليها المقريزى [٣] . والتى وجدت بعض آثارها تخليداً لبناء بئر الوطاويط [٤] . وسوف نعود إلى الكلام على هذه الكتابة التاريخية .

وقد وصل إلينا اسمان لرجلين من رجال العصر الاخشيدى قيل إنهما وليا منصب الوزارة . والراجح عندنا أن الاخشيد فوض إليهما تدبير الإدارة فى فترتين قصيرتين خلا فيهما منصب الوزارة من صاحبه الماذرائي أو ابن الفرات . وأول هذين الرجلين أبو الحسن على بن خلف بن طباب . وقد ذكره المسعودى وأشار إلى أن الاخشيد

---

(١) كان هذا الوزير ممن وقعوا بعد ذلك فى أسر جوهر القائد وأرسلوا إلى القيروان أنظر المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٧١

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣ — ٢٤

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٣٥

(٤) Wiet: Corpus, Egypte 11. pp 91 et suiv.

استوزره حين كان أبو بكر محمد بن على الماذرائى معتقلا [١] وكان الاخشيد عندئذ فى الشام ولما عاد إلى الفسطاط قبض عليه وعلى أخيه ابراهيم بن خلف . والظاهر أنه ظل محبوساً إلى أن توفى الاخشيد وتولى أونوجور وآل تدبير الأمور إلى ابى بكر محمد الماذرائى فأمر باطلاق سراحه [٢] . ومهما يكن من الأمر فان أبا الحسن على بن خلف ابن طباب كان وزيراً للقائد التركى بجكم فى بغداد [٣] ثم ولاه ناصر الدولة على أعمال الخراج والضياع بديار مصر والشام [٤] ولجأ بعد ذلك إلى الاخشيد سنة ٣٣١ ﻫ واتخذه الاخشيد وزيراً له .

أما الوزير الثانى فهو أبو الحسن أو أبو الحسين محمد بن عبد الوهاب . وقد ذكره المسعودى أيضا وأشار إلى أن الاخشيد استوزره بعد أن حبس على بن خلف بن طباب [٥] وإذا صح ما ذكره ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق فان محمد بن عبد الوهاب هذا كان شيعيا واعتقله الاخشيد سبع سنين ثم أطلق سراحه واصطفاه فصار من خاصته وإليه يرجع الفضل فى اقناع الاخشيد بالعدول عن الدعاء فى الخطبة للخليفة الفاطمى حين كان حانقا على الخليفة العباسى بسبب عدوان ابن رائق [٦] . وقد جاء ذكر محمد بن عبد الوهاب فى ملحق أخبار القضاة الذى طبع مع كتاب الكندى نقلا عن رفع الاصر لابن حجر العسقلانى وعن النجوم الزاهرة بتلخيص أخبار قضاة مصر والقاهرة لابن شاهين . ووصف محمد بن عبد الوهاب هذا بأنه كان عامل مصر ومدبر أمرها نحو سنة ٣١٣ ﻫ [٧] . ولسنا نستطيع الجزم بأن هذا العامل الذى كانت بيده مقاليد الأمور بمصر فى فترة وجيزة جدا من ولاية تكين هو الذى حبسه الاخشيد بعد ذلك ثم استوزره زمنا قصيراً .

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٨ ص ٦٥
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٥
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٢٥
(٤) المرجع نفسه ج ٨ ص ١٣٦ و ١٣٩
(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٨ ص ٦٥
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٢٧
(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٣٢

وذكر ساويرس بن المقفع أن كافورا الاخشيدى كان له وزير قبطى اسمه أبو اليمن قزمان بن مينا وأن الفاطميين أبقوه على حاله « ناظراً فى كورة مصر »[١] والراجح أن قزمان بن مينا هذا لم يكن وزيراً وإنما كان من كبار الموظفين فى الشئون المالية بحاضرة مصر حينئذ . وعلى كل حال فالمعروف أنه ندب فى بداية العصر الفاطمى لبعض الدولة فى فلسطين وأنه جمع لنفسه مالا كثيراً[٢] .

وصفوة القول أن معالم منصب الوزير فى العصر الاخشيدى غير واضحة تماما واننا لا نعرف اختصاصاته على وجه التحقيق . ومن المحتمل أن هذا اللقب كان يطلق فى بعض الأحيان على أكثر من شخص واحد فى الوقت نفسه . ولكن الراجح أن هذا المنصب كان يشغله فى معظم الأحيان شخص يفوض إليه الأمير معاونته فى تدبير كافة الأمور فى البلاد مستعينا بطائفة من كبار الموظفين وان منزلة بعض هؤلاء الموظفين كانت ترتفع حتى أنه ليوصف فى بعض الأحيان بأنه من وزراء الأمير[٣] .

---

(١) ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، المجلد الثانى الجزء الثانى ص ٨٧ — ٨٨

(٢) تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ص ٤٦

(٣) أشار ابن الزيات (فى الكواكب السيارة ص ٢٠٠) إلى سبع قبور فى القرافة قيل انها قبور وزراء كافور . ولعلها قبور بعض كبار الموظفين فى العصر الاخشيدى .

(٢)

الكاتب

كانت وظيفة الكاتب من الوظائف الرئيسية فى مصر الاخشيدية وفى الخلافة بوجه عام . إذ كان الكاتب يساعد الوزير فى عمله ويحرر الرسائل التى يبعث بها الأمير إلى الخليفة أو إلى غيره من الملوك والأمراء [١] . ولذا كان الكاتب يختار ممن نالوا قسطا كبيراً من الثقافة الأدبية وعرفوا بأصالة الرأى ، حتى يستطيع القيام بعمله على الوجه الأكمل . وكان من دواوين الادارة ديوان خاص تصدر عنه الرسائل والمكاتبات .

والواقع أن ديوان الانشاء أو ديوان الرسائل ازدهر نشاطه وظهرت الحاجة اليه منذ العصر الطولونى . وقد كتب القلقشندى فى هذا الصدد أن الحالة الأولى لديوان الانشاء فى مصر « ماكان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة الطولونية ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحدا بعد واحد فلم يكن لهم عناية بديوان الانشاء ولا صرف همة اليه ، للاقتصار على المكاتبات لأبواب الخلافة والنزر اليسير من الولايات ونحو ذلك ، ولذلك لم يصدر عنهم ما يدون فى الكتب ولا يتناقل بالألسنة » . أما الحالة الثانية . « فما كان الأمر عليه فى الدولة الطولونية من ابتداء ولاية احمد بن طولون واستفحال ملك الديار المصرية فى الاسلام وترتيب أمرها وإلى حين انقراض الدولة الاخشيدية ، وفى خلال ذلك ترتب ديوان الانشاء بها وانتظم أمر المكاتبات والولايات » [٢] .

ويبدو أن الأمير الاخشيدى كان له ديوان للانشاء على رأسه كاتب أو أكثر من كاتب واحد . وأن الكاتب لم يكن يعمل فى تحرير الرسائل فحسب بل كان يقوم بما يدخل فى عصرنا الحالى فى أعمال رئيس الديوان أو السكرتير الخاص .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ١٠٦

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٩٥ و Zaki Mubarak : La Prose Arabe au IVe siècle p. 241.

وأول من نعرفه من كتاب الاخشيد على بن محمد بن كلا . وقد كان كاتبه في دمشق قبل قدومه إلى مصر . وهو الذى أوفده الاخشيد إلى بغداد ليلتمس من الخليفة القاهر ولاية مصر فرد القاهر بأنه قد ولى عليها محمد بن تكين [١] . وكان الاخشيد عظيم الثقة بابن كلا . وقد مر بنا أنه أوفده إلى الرملة سنة ٣٢٨ ﻫ وفوضه فى عقد الصلح بينه وبين ابن رائق ، بعد أن أفلحت وساطة الحسن بن طاهر العلوى بينهما [٢] .

والظاهر أن ابن كلا لم يكن من رجال القلم فحسب ، بل كان من رجال السيف أيضا أو لم يكن بعيداً عنهم كل البعد . فقد نقل ابن سعيد عن ابن زولاق أن الاخشيد أوفد ابن كلا على رأس عساكره إلى الشام بعد قتل ابن رائق [٣] . ويبدو أن الاخشيد لاحظ فى سنة ٣٣٣ ﻫ أن هذا الكاتب جمع ثروة كبيرة فشك فى أمره وصادر أمواله وقبض عليه [٤] ، ولكنه أطلق سراحه بعد ذلك .

وكان ابن كلا بين الحاضرين فى الاجتماع الذى عقد بدار الامارة فى مصر لما ورد نعى الاخشيد [٥] .

وكان الأمير يعتمد على كاتبه كل الاعتماد بوصفه « رئيس ديوانه » ، فكان يشاوره فى معظم الأمور حتى خلط الناس فى هذا العصر بين الوزير والكاتب فى بعض الأحيان .

ومن ذلك أن أم أونوجور طلبت من أبى بكر الماذرائى أن ينوب عن ابنها وأن يدبر الأمور فقال : « على ألا أنزع الطيلسان ، ويكون ابنى أبو على (يعنى الحسين ابن محمد) كاتبه ، فاتفقوا على ذلك » [٦] أى أنه قبل أن يكون تدبير الأمور بيده

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٠
(٢) المرجع نفسه ص ٢٥
(٣) المرجع نفسه ص ٢٩
(٤) المرجع نفسه ص ١٧ و ٤٠
(٥) المرجع نفسه ص ٤٥
(٦) المرجع نفسه

دون أن يكون هو وزيراً بل يكون ابنه كاتبا (أو وزيراً) لأونوجور[1] . ومما يؤيد ذلك أيضا أن جمال الدين بن ظافر الأزدى ختم النبذة التى كتبها عن أونوجور بقوله : « وكاتبه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة »[2] .

ومن كتاب العصر الاخشيدى محمد بن عبد الرحمن الروذبارى . وكان يعاون الفضل بن جعفر بن الفرات ، وقد خلفه فى أعماله حين سافر ابن الفرات إلى بغداد[3] . ومنهم على بن صالح الروذبارى ، وقد كتب المقريزى أنه كان كاتبا لكافور وأنه حسن له أن يوفر من « ميزانية » الرواتب بخفضها وأن الله ابتلاه بمرض قضى عليه سنة ٣٤٧ هـ وأن « هذه موعظة من الله لمن توسط للناس بالسوء »[4] .

ويبدو من الموازنة بين النصوص التاريخية المختلفة أن طائفة الكتاب فى العصر الاخشيدى كانت تنقسم قسمين : الأول الكتاب السياسيون وهم الذين كانوا مجال حديثنا فى السطور السابقة وكان القوم يخلطون بينهم وبين الوزراء . أما القسم الثانى فالكتاب الذين كانوا يشتغلون بتحرير الرسائل ويؤلفون ديوان الانشاء بالمعنى الذى ذكره القلقشندى وأشرنا إليه فى بداية هذا الفصل .

وكان زعيم أولئك الكتاب المحررين فى العصر الاخشيدى ابراهيم بن عبد الله بن محمد النجيرمى[5] . وسوف نعود إلى الكلام عليه حين نتحدث عن الأدباء والعلماء .

وذكر المؤرخون أن من كتاب الاخشيد أبا جعفر بن المتفق وابن توماتس[6] ، ولكننا لم نستطع أن نعثر فى المراجع التاريخية على شىء من سيرتهما ، اللهم إلا ماروا

---

(١) نص المقريزى صراحة على أن الماذرائى قال : « على أن لا أنزع الطيلسان ، ولكن ابنى أبا على يكون وزيراً وأنا أدبر الأمر » . أنظر المقفى فى رسالة جوتشلك ص ١٢٤

(٢) ابن ظافر الأزدى (فى وستنفلد) ص ٥٨

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩

(٥) نسبة إلى نجيرم وقد قال السمعانى إنها محلة بالبصرة وخالفه ياقوت فقال إنها بلدة صغيرة على مقربة من سيراف على ساحل الخليج الفارسى . أنظر ياقوت : معجم البلدان : مادة نجيرم وياقوت : معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٨ — ١٩٩

(٦) ابن ظافر الازدى (فى وستنفلد) ص ٥٨

ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق بشأن نفى ابن توماس إلى الاسكندرية بعد وفاة الاخشيد وقبض الماذرائى على مقاليد الأمور [١] ثم ما رواه عن اشتراك ابن المتفق بثلاثمائة دينار فى نفقات متنزه أقامه الاخشيد [٢].

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٥ ؛ أنظر أيضاً ص ١٧ من المرجع نفسه . وقد ورد هذا الاسم فى ابن سعيد ابن ترماقس وابن قرماقس .

(٢) المرجع نفسه ص ١٢

(٣)

ولاة الأقاليم

من المعروف أن العرب لم يغيروا كثيرا فى الأساليب الادارية البيزنطية بمصر ولا فى تقسيم البلاد الادارى على عهد البيزنطيين . فظلت البلاد تنقسم إلى أقسام يعرف كل منها باسم « كورة » وعلى رأسه حاكم يسمى صاحب الكورة وله اختصاصات تشبه إلى حد ما اختصاصات المديرين الحاليين ، كما كانت لأصحاب الكورات إمامة الصلاة فى المساجد الجامعة بحواضر كوراتهم [(١)] . وفضلا عن ذلك فقد كانت البلاد تنقسم أحيانا إلى عدة أقسام كبرى بحسب موقعها الطبيعى ، فكانت هناك مصر العليا ومصر السفلى ومصر الوسطى . وتسمى مصر السفلى « أسفل الأرض » ومصر الوسطى « الصعيد الأوسط » . وكانت السلطة المركزية فى الفسطاط تعين فى بعض الأحيان حاكما عاما على كل إقليم من هذه الأقاليم الكبرى . ولكن أصحاب الكورات كانوا مسئولين أمام أمير البلاد مباشرة ، ولسنا نعرف تماما اختصاص حاكم الإقليم الذى يتألف من عدة كورات . والواقع أننا لانستطيع أن نؤكد أن البلاد كانت تشتمل دائما على أقاليم كبرى تضم عددا من الكورات ، ولكن المراجع التاريخية تشهد بوجود هذا التقسيم أحيانا . وكان لكل من المدن الساحلية والواحات وبرقة وسينا حاكم يعينه الأمير أو يعينه الخليفة مباشرة . ومع ذلك فقد كان بعض المناطق كورة قائمة بذاتها أو كان يضم عدة كورات [(٢)] . والراجح أن مصر كان بها نحو ثمانين كورة تضم كل منها عددا من القرى والعزب ، يرأس كل منها « مازوت » ، وهو العمدة الحالى وقد عرف منذ العهد الطولونى باسم « العميد » [(٣)] .

---

(١) أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٨ — ٢٩ وما ذكر فيهما من المراجع القديمة .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٣

(٣) Ibn Said-Vollers ; Fragmente p. 34

ومن المحتمل أن حكام الأقاليم أو الكورات المهمة كانوا يختارون من كبار قواد الأمير وأعوانه . أما اختيار المازوت أو العمدة فلسنا نعرف قواعده تماما ، ولكنا نرجح أن المازوت كان من أهل القرية نفسها وأن رؤساء الكورات كانوا يحتفظون بقوات من الشرطة يعتمدون عليها في إقرار النظام . ولسنا نعرف شيئا عن رواتب رؤساء الكورات وحكام الأقاليم . وبالنظر إلى أن الحكومة كانت تعتمد عليهم في جمع الضرائب المقررة فالراجح أنهم كانوا يحجزون من الضرائب رواتبهم والأموال اللازمة لإدارة كوراتهم .

أما المدن والأقاليم التي كان الأمراء يفتحونها في الشام فكان على رأس كل منها حاكم يعينه الأمير .

وقد ظل هذا النظام قائما في عصر الولاة وفي العصر الطولوني [١] وفي الفترة التي تفصل العصرين الطولوني والاخشيدي . والراجح أن قصر العصر الاخشيدي وطبيعة البلاد وأصالة هذا النظام كل ذلك كان من شأنه أن يبقى هذا النظام في العصر الاخشيدي نفسه .

والواقع أن النصوص التاريخية التي وصلت إلينا عن حكم الأقاليم وتقسيمها الاداري في العصر الاخشيدي قليلة .

ومن ذلك ما رواه المقريزي نقلا عن وثيقة بخط كاتب قبطي كان من ولاة الخراج في العصر الاخشيدي . وقد جاء في هذه الوثيقة أن قرى مصر كانت سنة ٣٤٥ هـ ألفين وثلاثمائة وخمسا وتسعين قرية ، منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية وبأسفل الأرض ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية [٢] .

ويبدو أن حاكم الأقليم في العصر الاخشيدي كان يعرف احيانا باسم والى الحرب [٣] . وقد ذكر الكندي عند الكلام على ثورة غلبون والى اقليم الأشمونين ، أنه كان والى الحرب في هذا الإقليم [٤] .

---

(١) Zaki M. Hassan : Les Tulunides pp. 196-199 وما جاء فيها من المراجع القديمة .

(٢) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٧٣

(٣) يذهب بعض المستشرقين إلى أن والى الحرب هو صاحب الشرطة ولكنا نرجح أن والى الصلاة والحرب هو الحاكم العام للاقليم . أنظر Wiet : Corpus, Egypte 11. p. 54.

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٩٥ و Maspero et Wiet : Matériaux pour servir à la géographie d'Egypte p. 21.

وممن وصل إلينا أسماؤهم من ولاة الأقاليم فاتك الاخشيدى الذى ولى دمشق [١]،
وشعلة بن بدر الاخشيدى الذي وليها أيضا سنة ٣٣٨ هـ [٢]. وذلك فضلا عن الحسن بن
طغج وعبيد الله بن طغج وقد مر بنا أنهما ولياها من قبل أخيهما الاخشيد [٣].

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ وج ٤ ص ٤ — ٥
(٢) المرجع نفسه ج ٣ ص ٢٩٩ و٣١٣
(٣) المرجع نفسه ج ٣ ص ٣١٠

(٤)

صاحب الشرطة [١]

كانت الشرطة فى التاريخ الاسلامى نخبة من الجند يتبعون الخليفة أو حكام الأقاليم ويعهد إليهم بأعمال البوليس وحفظ النظام ورعاية الأمن . ويسمى رئيسهم صاحب الشرطة أو صاحب الشرط أو غير ذلك مما يفيد هذا المعنى [٢] وكان صاحب الشرطة هو الحاكم الفعلى للمدينة التى يرأس شرطتها [٣] ، وكان له سلطان واسع مستمد من الخليفة أو الأمير [٤] وكان صاحب الشرطة فى مصر الى عهد قيام ابن طولون يعين من قبل الوالى . ولما أنشئت العسكر على يد أول الولاة العباسيين فى مصر أنشئت فى حاضرة مصر الاسلامية شرطة جديدة سميت الشرطة العليا [٥] ، وكان مقرها دارا جنوبى المكان الذى شيد فيه ابن طولون مسجده الجامع [٦] . ولا ترجع تسميتها الشرطة العليا الى أنها أعظم شأنا من شرطة الفسطاط كما قد يتبادر إلى الذهن [٧] . ولكن هذه التسمية مشتقة من الموقع

---

(١) راجع عن الشرطة فى الاسلام مقال « شرطة » للأستاذ تزترستين Zetterstean فى دائرة المعارف الاسلامية وما ذكر فيه من المراجع القديمة .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٤ و Wiet : Corpus Egypte II. pp. 51-62

(٣) مما يؤيد ذلك ما كتبه الكندى عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج صاحب الشرطة فى ولاية يزيد بن حاتم المهلبى على مصر سنة ١٤٥ ، فقد قال انه « على الفسطاط » . والواقع أن عبد الرحمن هذا جمع بعد ذلك بين القضاء وولاية الشرطة فكتب الكندى أنه جمع بين « القضاء وخلافة الفسطاط » ، أنظر الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٢٤ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٨ فضلا عن أن صاحب الشرطة كان يسمى فى عصر المماليك « الوالى » أو صاحب العسس . أنظر المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٣ وكان يسمى عند الموحدين فى المغرب « الحافظ » أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٣٩

(٤) اقرأ فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٢٠٢ و ٢١٥ ما جاء بشأن ما يجب أن يكون عليه صاحب الشرطة فى وصايا كتبها عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن الخليفة الأموى مروان بن محمد لبعض من ولاه .

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٤

(٦) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٦٤

(٧) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٣

وحدود الاختصاص وتشهد بأن تقسيم الفسطاط الى « عمل فوق » و « عمل أسفل » يرجع الى عهد انشاء العسكر سنة ١٣٣ هـ [١]. بل ان صاحب الشرطة السفلى فى الفسطاط كان أعلى شأنا وأعظم اختصاصا من زميله بوصفه حاكم القسم الرئيسى الأصيل فى الحاضرة. ونرى أن الكندى يذكرهما معاً مرةواحدة [٢]، ولكنه لا يذكر بعدها إلا صاحب شرطة الفسطاط [٣].

ومن المحتمل أن صاحب الشرطة فى الحاضرة كان له أعوان فى سائر أنحاء البلاد ولكن الراجح عندنا أن ولاة المدن والأقاليم فى ريف مصر كان لكل منهم شرطة يتخذها لإقرار الأمن والمحافظة على النظام فى منطقة حكمه.

ولما قدم محمد بن طغج الى مصر واستقر له الأمر عين على الشرطة سعيد بن عثمان غلام الأحول فى رمضان سنة ٣٢٣، وكان سعيد هذا صاحب الشرطة على عهد أحمد بن كيغلغ ولكنه لحق بابن طغج عند قدومه فكافأه على ذلك بتعيينه فى هذا المنصب [٤].

وتوفى سعيد بن عثمان فى صفر سنة ٣٢٨ هـ فقام غلامه بدر مقامه الى شهر جمادى الأولى. ثم عين شادن مولى الفضل بن جعفر بن الفرات [٥] وما لبث أن عزل فى شعبان من السنة نفسها، وخلفه على الشرطة على بن سبك الى ربيع الآخر سنة ٣٢٩ هـ ثم الحسين بن على بن معقل الى رجب ثم ينال الحاكي الى ذى الحجة من السنة نفسها حين أعيد على بن سبك. وظل ابن سبك فى هذا المنصب الى رمضان سنة ٣٣٠ حين صرف عنه وعين احمد بن موسى بن زغلمان [٦]. وعزل ابن زغلمان فى جمادى الأولى

---

(١) كتب المقدس (أحسن التقاسيم، طبعة دى غويه ص ١٩٩) ان جامع عمرو كان يسمى الجامع السفلانى وجامع ابن طولون الجامع العليانى. راجع عن هذا التقسيم خطط المقريزى ج ١ ص ٥ و ٢٩٩

(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص ١٠٢

(٣) المرجع نفسه ص ١٠٦ و ١٠٧ و ١١٨

(٤) الكندى: الولاة والقضاة ص ٢٨٥ — ٢٨٦ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥١ — ٢٥٢

(٥) الراجح أنه غير شادن الصقلبى غلام الاخشيد. أنظر ابن سعيد: المغرب ص ١٤ — ١٩ و ٢٨ و ٣٣ و ٣٤

(٦) كان من قواد الاخشيد. أنظر المغرب: ابن سعيد ص ١٨

سنة ٣٣١ وعين على الشرط محمد بن داوود وكان ممن عملوا مع ابن رائق ثم تركه وقدم الى مصر [١] . وتوفى ابن داوود فى جمادى الأولى سنة ٣٣٢ فخلفه مظفر بن العباس الجيشانى الى ذى القعدة سنة ٣٣٣ وبعده لؤلؤ الغورى الى ذى الحجة سنة ٣٣٤ [٢] ثم أعيد على بن سبك . وتوفى الاخشيد بعد ذلك ببضعة أيام .

أما أصحاب الشرطة فى عهد خلفاء الاخشيد فان أسماءهم وتواريخ تعيينهم لم تصل إلينا كاملة ، وسبب ذلك أن الكندى وقف فى كتابه عن ولاة مصر عند وفاة الاخشيد وأن هذا المؤرخ دون غيره من سائر المؤرخين فى مصر الاسلامية كان يعنى بذكر أصحاب الشرطة عند الكلام على ولاة مصر .

ومهما يكن من الأمر فقد جاء فى تذييل كتاب الكندى اسم صاحب الشرطة تكين الخاقانى . وكان تكين هذا من قواد الاخشيد [٣] ويبدو أنه ولى الشرطة على عهد اونوجور ثم عزل وخلفه عليها جندى اسمه نصر وقد أظهر الظلم والقسوة وعزل سنة ٣٤٤ [٤] .

ومن أصحاب الشرطة على عهد خلفاء الاخشيد بدر غلام يانس وقد وليها سنة ٣٥١ هـ .

وإذا حكمنا بما نعرف عن عصر الاخشيد نفسه فقد كان عدد أصحاب الشرطة فى الدولة الاخشيدية كبيراً . والراجح عندنا أن ذلك كان وفقاً لسياسة محكمة تقضى بتغيير كبار الموظفين من حين إلى آخر ابعاداً لهم عن توطيد نفوذهم فى أى مرفق من مرافق الدولة وتشجيعاً للتنافس بين الطامعين فى الوظائف .

والمعروف أن صاحب الشرطة كانت له صفة سياسية فى عصر الولاة وكان بمثابة نائب الوالى فى حكم البلاد ، يحل محله إذا مرض أو تغيب ويحكم البلاد إذا توفى الوالى ،

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩١
(٢) المرجع نفسه ص ٢٩١ — ٢٩٣
(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٣
(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٦

إلى أن يصل الوالى الجديد . وكثيراً ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة والياً على البلاد إذا مات الوالى أو عزل أو استقال [١] .

أما فى العصر الطولونى ثم فى العصر الاخشيدى من بعده فلا نلاحظ وجود هذه الصفة السياسية . وكان الأمراء فى الدولتين لا يستخلفون صاحب الشرطة ، فكانت مهمة الأخير تقف عند المحافظة على الأمن ومساعدة الأمير والموظفين القضائيين فى إقرار النظام بتنفيذ قراراتهم وأحكامهم والعمل على منع الجرائم والمخالفات .

ومما يلاحظ فى وظيفة صاحب الشرطة وفى بعض الوظائف الإدارية بوجه عام أن معظم الذين كانوا يعينون فيها كانوا من الوافدين على مصر أو من المتصلين بالأمراء والجند الترك ولم يكونوا من أفراد الشعب المصرى ، الذى كان يعيش فى الغالب على هامش الأحداث السياسية ولا يشترك فى إدارة البلاد اشتراكا ملموساً [٢] .

---

(١) أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٤ وما ذكر فيها من المراجع القديمة .

(٢) G. Wiet : Le Mosquées du Caire I pp. 66-70 ; Zaky M, Hassan : Les Tulunides pp. 212 — 222.

(٥)

عامل الخراج [١]

من مظاهر استقلال مصر فى العصر الاخشيدى أن اجتمعت لمحمد بن طغج ولاية الصلاة وولاية الخراج والأموال كما اجتمعتا لابن طولون من قبله [٢] . والراجح أن عامل الخراج فى الدولة الاخشيدية كان رئيس الهيئة التى تشرف على جمع الخراج وعلى تدبير نفقات الإدارة فى البلاد أى أنه كان بمثابة وزير مالية للأمير .

ومما يؤسف له أن المراجع التاريخية لم تحفظ لنا شيئا كثيراً عن عمال الخراج فى مصر الاخشيدية ولا عن أساليبهم فى جباية الضرائب وتنظيم مصروفات الدولة .

وقيل ان أبا الحسين الفرغانى كان على الخراج عندما دخل الاخشيد مصر [٣] . وكتب أبو المحاسن أن كافورا قبض على أبى بكر محمد بن على بن مقاتل صاحب خراج مصر سنة ٣٣٥ وولى مكانه أبا بكر محمد بن على المـاذرائى [٤] . وقد مر بنا أن المـاذرائى كان وزيراً وأن ابن مقاتل كان يقوم بأعمال الوزارة حتى حسبته بعض المراجع القديمة وزيرا . والواقع أن بعض وزراء هذا العهد ، كان لهم الاشراف على الشئون المـالية فى البلاد وكان يطلق على الوزير فى بعض الأحيان « صاحب الخراج » أو « متولى ديوان الخراج » .

ويبدو أن الإشراف على ديوان الخراج كان يدر على صاحبه مالا كثيراً فقد كتب الذهبى أن أبا بكر محمد بن على بن مقاتل — متولى ديوان الخراج — لمـا توفى سنة ٣٣٥ ﻫ وجدوا فى داره ثلاثمـائه الف دينار مدفونة [٥] .

---

(١) أنظر ابن خلدون : المقدمة (الفصل الرابع والثلاثون فى مراتب الملك والسلطان وألقابهما . ديوان الأعمال والجبايات) ص ٢٠٣

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٥

(٣) المرجع نفسه ص ١٧

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩١

(٥) الذهبى : تاريخ الاسلام ص ٨٢ . وقد روى أبو المحاسن هذه القصة فى النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٨ ولكنه ذكر ابن مقاتل فى وفيات سنة ٣٥٠ ﻫ . والواقع اننا لم نستطع تحقيق السنة التى توفى فيها ابن مقاتل لأننا لا نعرف شيئاً من سيرته بعد سنة ٣٣٥ ﻫ .

وإذا صح ما ذكره ابن زولاق فقد كان من عمال الخراج فى عهد الاخشيد موظف كبير اسمه على بن محمد الكرخى[١] .

ويبدو من بعض النصوص التاريخيـة أنه كان يحدث أحيانا أن يصبح النظر فى الشئون المالية لموظف كبير من موظفى ديوان الخراج ، ففى فترة من عهد كافور كان يعقوب بن كلس قابضاً على مالية البلاد . وقيل ان كافورا أمر رؤساء جميع الدواوين بألا يصرف درهم أو دينار بغير توقيع ابن كلس . ومع ذلك فان ابن كلس لم يكن وزيراً في عهد كافور[٢] . ويروى أن كافوراً كان يقول عنه: « لو كان مسلما لصح أن يكون وزيراً ! » . والظاهر أن ابن كلس اعتنق الاسلام عندما تبين أن دينه اليهودي يحول دون وصوله إلى منصب الوزارة . غير أن اسلامه سنة ٣٥٦ ه جاء متأخراً ، فقد كانت الوزارة حينئذ لأبى الفضل جعفر بن الفرات وكان يحسد ابن كلس ويكرهه فقبض عليه ولكنه أفلح فى الهرب إلى بلاد المغرب[٣] .

والظاهر أن أهل الذمة كانوا لا يزالون يعملون فى جباية الخراج فى البلاد بوصفها من الأعمال التى لم يكن ميسورا أن يستغنى عنهم فى أدائها ، ففى الأوراق البردية المحفوظة بمجموعة الأرشيدوق رينر فى ڤينا وثيقة من البردى تتضمن إيصالا مؤرخا من سنة ٣٣٥ ه (٩٤٢ م) يثبت أن بكام بن دنيال دفع الجزية المقررة عليه وهى ثلث دينار وثلثا قيراط فى حضور ابى الحسن بن عيسى لعامل الجباية تيودور ابن خاييل[٤] .

وممن أشرفوا على الشئون المالية فى العصر الاخشيدى الكاتب القبطى ابن عيسى بقطر بن شفا . وقد كتب المقريزى أنه تولى خراج مصر للدولة الاخشيدية[٥] .

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٧

(٢) نقل السيوطى عن ابن زولاق ان ابن كلس « كان من جملة كتاب كافور » أنظر حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٩ (ذكر وزراء مصر) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٠ — ٤٤٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١

(٤) Papyrus Erzherzog Rainer, Führer durch die Ausstellung p. 243 No. 916

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٣ . وأنظر أيضاً ترتون Tritton : أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٧

وقد وصل إلينا اسم موظف كبير من عمـال الدولة الاخشيدية فى عهد أونوجور . وسمه ابراهيم بن مروان . وكان نصرانياً والراجح أن عمله كان متصلا بالشئون المـالية فى البلاد [١] . ومن القبط الذين اشرفوا على إدارة الشئون المـالية على عهد الاخشيديين جرير بن الحصان [٢] .

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٦ و٤٣

(٢) المرجع نفسه ص ٤٣

(٦)

ممثل الأمير فى بغداد

كان للاخشيد ممثل فى بغداد يرقب عن كثب ما يجرى فى بلاط الخليفة ودواوين حكومته وينقل إلى الأمير فى مصر ما يعنيه من الأمور ويعمل على الدفاع عن مصالح الأمير ويتلقى أوامره فى هذا الشأن . فهو أشبه شىء بالمندوب السامى فى لندن لحكومات الدومينيون أو الحكومات المستقلة فى مجموعة الأمم البريطانية . وكان الاخشيد فى هذا الصدد ينسج على منوال ابن طولون الذى كان له ممثلون وعيون فى سامرا [١] . ولم يكن عمل ممثل الاخشيد يقف عند تمثيله رسميا فى بلاط الخليفة ودواوين حكومته ولكنه كان يمتد إلى التجسس وما إلى ذلك مما يلزم لخدمة قضايا الاخشيد بوجه عام .

وقد كتب ابن سعيد أن « خليفة » الاخشيد فى بغداد هو على بن أحمد العجمى . وأن الاخشيد كتب إليه عند هجوم ابن رائق على أملاكه فى الشام وطلب منه أن يرفع الأمر إلى الخليفة الراضى ليتبين رأيه ويشير بما يجب على الاخشيد أن يفعله [٢] .

والراجح أن كافورا كان له ممثل فى بغداد وإن كانت المراجع القديمة لم تحتفظ لنا باسمه .

---

(١) راجع Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 104-105 وما ذكر فيهما من المراجع القديمة . وانظر البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ٦٠ و٦١ و١٠٩ و١٣٩ و١٥١ و١٦٧ و٢٨٦ و٢٩٠

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٢٦

(٧)

صاحب الطراز

عنى المسلمون فى مصر بصناعة النسج منذ الفتح العربى . ولا غرو فقد حذقها المصريون منذ العصور القديمة ثم تقدمت على يدهم فى العصر القبطى ، وإن تكن قد تأثرت بالأساليب الزخرفية البيزنطية وما تمثله بيزنطة من الموضوعات الزخرفية الساسانية . وظل التقدم مطردا فى العصر الاسلامى ، إذ بقيت هذه الصناعة فى يد أهل البلاد سواء منهم من اعتنق الاسلام أو تمسك بالمسيحية .

واحتكرت الحكومة صناعة النسج الى حد كبير . فكانت هناك مصانع حكومية تسمى طراز ، وهى نوعان : الأول طراز الخاصة حيث كانت تصنع المنسوجات للخليفة أو للأمير والأقمشة التى كان يخلعها على كبار رجال الدولة . والثانى طراز العامة وكان يشتغل فضلا عن هذا بنسج الأقمشة اللازمة للشعب [١] وكانت تسير مع الطراز الحكومى جنبا إلى جنب مصانع أهلية تثقلها الحكومة بضرائب فادحة ورقابة شديدة [٢] .

وظل نظام الطراز يتطور حتى بلغ فى العصر الاخشيدى حدا كبيرا من الجودة فى الانتاج مما مهد لعصره الذهبى فى عهد الفاطميين . وكان يشرف على الطراز موظف كبير يسمى صاحب الطراز أو ناظر الطراز . ولسنا نعرف مدى سلطانه وحقوقه فى العصر الاخشيدى ، ولكننا نستطيع أن نتصوره مما نعرفه عن حاله فى العصرين الفاطمى والمملوكي حين كان من أعلى الموظفين مقاما وأحسنهم راتبا وأوسعهم سلطانا وكان لصاحب الطراز

---

(١) راجع مقال « طراز » الذى كتبه الأستاذ جرومان فى دائرة المعارف الاسلامية (فى الجزء الرابع وفى الملحق) .

(٢) أنظر زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ٨٣ — ٩٠ وكنوز الفاطميين المؤلف نفسه ص ١١٠ وما بعدها .

مساعدون فى مصانع النسج بالبلاد المصرية كلها كما كان له مقر رسمى فى الحاضرة ومراكب حكومية ينتقل بها فى النيل [١] .

وكان يعاون صاحب الطراز فى الاشراف على المصانع فى كل إقليم من الأقاليم المصرية فى فجر الاسلام موظف يسمى المتوكل بطراز الإقليم ، كما يتبين من وثيقة بردية فى دار الكتب المصرية نشرها الأستاذ جروهمان وترجع الى القرن الثالث الهجرى وقد جاء فيها « قبض حسين [٢] بن يحنس من رماح بن يوسف المتوكل بطراز أشمون وأنصنى [٣] »

ومن أصحاب الطراز فى العصر الاخشيدى جابر وشفيع وبكير وأبو زيد وعبيد وفائز . أما جابر فقد وصل إلينا اسمه على قطعتين من نسيج الكتان محفوظتين فى دار الآثار العربية بالقاهرة وعليهما كتابة بالخط الكوفى مؤرخة سنة ٣٢٣ هـ [٤] . وعلى قطعة أخرى من نسيج الكتان محفوظة فى متحف بناكي بأثينا ومؤرخة سنة ٣٢٤ [٥] وعلى قطعتين من النسيج إحداهما من الحرير والأخرى من الكتان محفوظتين فى متحف بناكي أيضا وعليهما اسم جابر بعد اسم الوزير الفضل بن جعفر . [٦] كما نجد اسمه أيضا على قطعة نسيج من الكتان محفوظة فى متحف بناكي ومؤرخة سنة ٣٢٨هـ [٧] وعلى قطعة أخرى من الكتان كانت فى مجموعة تانو تاجر العاديات بالقاهرة وهى مؤرخة سنة ٣٣٠ هـ وعليها اسم جابر بعد اسم الخليفة المتقى [٨] . كما نجده على قطعة نسيج من الكتان محفوظة فى دار الآثار العربية بالقاهرة (رقم ٩٣٨٦) [٩] .

---

(١) راجع القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢ — ٤٩٤ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٩ — ٤٧٠ وزكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٢ — ١١٤

(٢) الراجح عندنا أن قراءتها « حنين » وليست « حسين » .

(٣) A. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library vol. 11. p. 153 and plates 17 and 19

(٤) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. IV No. 1260 p. 28

(٥) ibid t. IV No. 1266 p. 32

(٦) ibid t. IV Nos. 1294 et 1295 p. 47

(٧) ibid t. IV No. 1304. p. 53

(٨) ibid t. IV No. 1360 p. 76

(٩) ibid t. IV No. 1420 p. 106.

وثمة قطعة نسيج أخرى من الكتان محفوظة فى القسم الاسلامى من متاحف الدولة فى برلين وعليها كتابة بالخط الكوفى البسيط . وقد قرأها الأستاذ الدكتور كونل على النحو الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين بركة من الله لعبد الله أبى العباس الإمام الراضى بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه أمر الوزير (أبو) الفضل جعفر أيده الله بعمله فى طراز الخاصة بمصر على يدى خالد (؟) مولى أمير المؤمنين سنة ثلث وعشرين وثلثمائة »[١] .

وبالنظر إلى أننا لم نر هذه القطعة من النسيج فاننا لا نستطيع أن نجزم بصحة قراءة اسم « خالد » لنحسبه اسما جديدا من أسماء أصحاب الطراز فى العصر الاخشيدى . إذ من المحتمل أن تكون القراءة الصحيحة « جابر » وهو الذى نحن بصدده من أصحاب الطراز .

أما شفيع فقد جاء اسمه على قطعتين من نسيج الكتان احداها فى دار الآثار العربيـة بالقاهرة (رقم ١٠١٠٠) والأخرى محفوظة فى متحف بناكى ومؤرخة من سنة ٣٢٦[٢]

وجاء اسم بكير على قطعة من نسيج الكتان كانت فى مجموعة تانو تاجر العاديات بالقاهرة ومؤرخة سنة ٣٢٥ [٣] . كما جاء اسم أبى يزيد على قطعة من نسيج الكتان محفوظة فى دار الآثار العربية بالقاهرة (رقم ٩٧٨٤) [٤] . وجاء اسم عبيد على قطعة من الكتان كانت فى مجموعة تانو[٥] .

---

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. IV No. 1260 A p. 206-207

هكذا قرأها الأستاذ كونل ووضع لفظ « أبو » بين قوسين لأنه غير ظاهر فى الكتابة ولكن الصحيح هو (أبو الفتح الفضل بن جعفر) لأنه الوزير فى السنة المذكورة .

(٢) ibid t. IV. Nos. 1267 et 1276 pp. 32 et 38

(٣) ibid t. IV. No. 1271 p. 34

(٤) ibid t. IV. No. 1283 p. 42

(٥) ibid t. IV. No. 1290 p. 45

أما فائز فقد جاء اسمه على قطعة من نسيج الكتان كانت فى مجموعة تانو أيضا وهى مؤرخة سنة ٣٣٨[١] وعلى قطعة أخرى محفوظة فى متحف بناكى ومؤرخة سنة ٣٤٧[٢] وعلى قطعة ثالثة من نسيج الكتان كانت فى مجموعة تانو ومؤرخة سنة ٣٥١[٣] وعلى قطع أخرى ، بعضها مؤرخ سنة ٣٥٧ أى قبل الفتح الفاطمى بعام واحد[٤] .

ولا يفوتنا فى مناسبة الكلام على صاحب الطراز أن نشير إلى أن أسماء الخلفاء كانت تنسج فى الأقمشة الثمينة بلحمة[٥] من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان تمجيدا لهم ودليلا على أنها صنعت فى عصرهم ووثيقة لمن خلعت عليه تدل بنوعها على درجته ووظيفته وتشير إلى رضاء الأمير عنه[٦] .

ولكننا نلاحظ أن أسماء الأمراء الاخشيديين لم تظهر فى كتابات المنسوجات كما ظهر اسم خمارويه وهارون من أمراء الدولة الطولونية[٧]. ولسنا نستطيع أن نعلل ذلك على وجه التحقيق ، ولكننا نرجح أن الاخشيد لم يعن بهذا المظهر من مظاهر الاستقلال — ونقصد ذكر اسم الأمير فى الطراز — لأنه كان شديد العناية بتقليد ابن طولون . وابن طولون لم يحرص على ذكر اسمه فى الطراز ، لأنه كان يعمل على أن يظل ولاؤه للخليفة نفسه — وليس لأخيه الموفق صاحب الأمر فى الحكم — غير مشكوك فيه . أما خلفاء الاخشيد فلعلهم لم يذكروا اسماءهم فى الطراز لأن كافورا كره أن يغتصب حق الخليفة فى هذا الميدان فوق اغتصابه السلطان من ذرية الاخشيد .

ومهما يكن من الأمر فان الكتابات التى وصلت إلينا من العصر الاخشيدى تشتمل عادة على اسم الخليفة والوزير وقد تشمل تاريخ النسج أيضا . وفيما يلى بيان بتلك القطع وما تسجله من الأسماء .

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. IV No. 1442 p. 118

(٢) ibid t. IV. No. 1493 p. 146.

(٣) ibid t. IV, No 1555 p. 180

(٤) ibid t. V, Nos 1639, 1641,1642,1644

(٥) اللحمة : ما نسج عرضا وهو خلاف سداه .

(٦) أنظر ابن خلدون : المقدمة (الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به) ص ٢٢٢

(٧) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. II Nos. 731, 757, 785, 788 et t. III Nos. 805, 813, 815, 818, 847.

رقم القطعة في السجل (١)	الخليفة	الوزير العباسي	التاريخ	ملاحظــــات
١٢٦٠		محمد بن علي (ابن مقلة)	٣٢٣	
١٢٦١	الراضي بالله	محمد بن علي (ابن مقلة)	٣٢٣	
١٢٦٦	الراضي بالله	محمد بن علي (ابن مقلة) وعلي ابنه	٣٢٤	كان ابن مقـلة وزيرا للمرة الثالثة من جمادى الأولى سـنة ٣٢٢ إلى جمادى الأولى سـنة ٣٢٤ اما ابنه علي فانه لم يتقلد الوزارة إلا في رمضان سنة ٣٣١
١٢٦٧		سليمان بن الحسن		تقلد سليمان بن الحسن بن مخلد الوزارة للمرة الثانية في رجب سنة ٣٢٤
١٢٧٠	الراضي بالله		٣٢٥	
١٢٧١	الراضي بالله	سليمان بن الحسن	٣٢٥	
١٢٧٦	الراضي بالله	محمد (ابن مقلة)	٣٢٦	تقلد محمد بن علي (ابن مقلة) الوزارة للمرة الرابعة في ربيـع الآخر سنة ٣٢٦
١٢٧٧	الراضي بالله		٣٢٦	
١٢٧٨	الراضي بالله	محمد بن علي (ابن مقلة)	٣٢٦	
١٢٨٢ — ١٢٩١	الراضي بالله	محمد بن علي (ابن مقلة)		

(1) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. IV.

رقم القطعة في السجل	الخليفة	الوزير العباسي	التاريخ	ملاحظـــات
١٢٩٢		الفضل بن جعفر (ابن الفرات)		تقلد الوزارة في عهد الراضي مرتين : الأولى من ذي الحجة إلى ربيع الآخر سنة ٣٢٦ والثانية من شوال سنة ٣٢٦ إلى رجب سنة ٣٢٧
١٢٩٣		الفضل بن جعفر (ابن الفرات)		
١٢٩٤		الفضل بن جعفر		
١٢٩٥		الفضل بن جعفر		
١٢٩٦	الراضي	أبو الفتح (الفضل بن جعفر)		
١٣٠٩		أبو عبد الله أحمد ابن محمد		هو أحمد بن محمد البريدي تقلد الوزارة للراضي من رجب سنة ٣٢٧ إلى ذي القعدة سنة ٣٢٨
١٣١٠ — ١٣١٦	الراضي			
١٣١٩ — ١٣٣٠	الراضي			
١٣٣١	الراضي	علي بن عيسى		تقلد الوزارة مرتين للخليفة المقتدر سنة ٣٠١ وسنة ٣١٤ ولم يتقلدها للراضي . وإنما تقلدها له أخوه عبد الرحمن بن عيسى بن داوود الجراح من منتصف جمادى الأولى إلى بداية جمادى الآخرة سنة ٣٢٤

رقم القطعة في السجل	الخليفة	الوزير العباسي	التاريخ	ملاحظـــات
١٣٣٢ — ١٣٥١	الراضي			
١٣٥٢	المتقى	محمد بن أحمد		لعله محمد بن أحمد الاسكافي القراريطي. وقد تقلد الوزارة للمتقي من شوال إلى ذى القعدة سنة ٣٢٩ ثم تقلدها له مرتين افترتين قصيرتين فى سنة ٣٣٠ وسنة ٣٣١
١٣٥٣	المتقى	محمد بن أحمد		
١٣٥٥	المتقى	سليمان بن الحسن	٣٣٠	هو سليمان بن الحسن بن مخلد . أقره المتقى فى الوزارة من ربيع الأول إلى شعبان سنة ٣٢٩ ولعل هذه المنسوجات تمت قبل أن يصل إلى مصر خبر عزله
١٣٥٧ — ١٣٦٨	المتقى	سليمان بن الحسن	٣٣٠	
١٣٧٠ — ١٣٧٣	المتقى	محمد	٣٣١	لعله محمد بن أحمد القراريطي . تقلد الوزارة للمرة الثالثة عشرين يوما فى رمضان سنة ٣٣١
١٣٩٣ — ١٤٠٥	المتقى			
١٤٠٦	المتقى	محمد بن على	٣٣٣	الصحيح على بن محمد (ابن مقلة الاصغر) تقلد الوزارة للمتقى فى رمضان سنة ٣٣١
١٤٠٧	المتقى	على بن محمد (ابن مقلة)		

رقم القطعة في السجل	الخليفة	الوزير العباسى	التاريخ	ملاحظات
١٤١٠	المستكفى	محمد بن على (السامرى)	٣٣٣	هو أبو الفرج محمد بن على السامرى تقلد الوزارة للمستكفى فى ٢٩ من صفر سنة ٣٣٣
١٤١١ — ١٤١٢	المستكفى			
١٤١٣	المستكفى	محمد بن على (السامرى)		
١٤١٦ — ١٤٢٠	المطيع		٣٣٥	
١٤٢٣	المطيع	سليمان بن الحسن	٣٣٦	
١٤٢٧ — ١٤٢٩	المطيع		٣٣٧	
١٤٣٠	المطيع	محمد بن على	٣٣٧	
١٤٣١		محمد بن على		
١٤٣٢	المطيع	محمد بن على		
١٤٣٣ — ١٤٣٤		محمد بن على		
١٤٤٠ — ١٤٤١	المطيع		٣٣٨	
١٤٤٤	المطيع		٣٣٩	
١٤٤٩ — ١٤٥١	المطيع		٣٤٠	
١٤٥٢	المطيع	سليم بن الحسن	٣٤٠	

رقم القطعة في السجل	الخليفة	الوزير العباسى	التاريخ	ملاحظـــات
١٤٥٣ — ١٤٥٦	المطيع		٣٤٠	
١٤٥٧		سليم بن الحسن		
١٤٦٥	المطيع		٣٤٢	
١٤٧٠ — ١٤٧٢	المطيع		٣٤٣	
١٤٨١	المطيع		٣٤٥	
١٤٨٣ — ١٤٨٤	المطيع		٣٤٥	
١٤٩٣	المطيع		٣٤٧	
١٥٢٢ — ١٥٢٣	المطيع		٣٥٠	
١٥٥٥	المطيع		٣٥١	
١٥٦٠	المطيع		٣٥٢	
١٥٦٨ — ١٥٦٩	المطيع	سليم بن الحسن	٣٥٣	
١٥٧٠ — ١٥٧١	المطيع	سليم بن الحسن		
١٥٧٢	المطيع			
١٥٧٣ — ١٥٧٥	المطيع	سليم بن الحسن		
١٥٧٦	المطيع			

رقم القطعة في السجل	الخليفة	الوزير العباسى	التاريخ	ملاحظات
١٥٧٧	المطيع	سليم بن الحسن		
١٦٠٨ (١)	المطيع		٣٥٤	
١٦١١ — ١٦١٢	المطيع		٣٥٤	
١٦٢٢	المعز		٣٥٥	مما يلفت النظر وجود هذه القطعة باسم المعز لدين الله الفاطمى وتاريخها ٣٥٥ أى قبل الفتح الفاطمى بثلاثة أعوام. ولسنا نستطيع أن نجزم بصحة التاريخ المكتوب عليها ، فقد يكون ثمة خطأ فيه . وإلا فلا مفر لنا من القول بأنها صنعت فى مصر المعز وان كافورا كان يسمح بمثل هذا الامتياز مهادنة للفاطميين .
١٦٢٣ — ١٦٢٥	المطيع		٣٥٥	
١٦٢٩ — ١٦٣٠	المطيع		٣٥٦	
١٦٣٧	المطيع		٣٥٧	
١٦٤٠	المطيع		٣٥٧	
١٦٤٢ — ١٦٤٧	المطيع			
١٦٦٠ — ١٨٠٩	المطيع			

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. v

ونستطيع أن نستنبط من البيانات التى ذكرناها الحقائق التاريخية الآتية :

(أولا) أن أسماء الخلفاء العباسيين ظلت تذكر في الطراز بمصر إلى الفتح الفاطمي ، دليلا على سيادتهم على البلاد .

(ثانيا) أن أسماء الأمراء الاخشيديين لا تذكر فى الطراز . مما يشهد بأن الاستقلال الذي نالته مصر على يدهم كان استقلالا تقيده الولاية العامة للخليفة .

(ثالثا) أن أسماء الوزراء العباسيين كانت تذكر كثيرا فى الطراز إلى خلافة المطيع . وأما منذ ولاية هذا الخليفة فقد ازداد ضعف الخليفة وصار الوزير لمعز الدولة ابن بويه ، أما الخليفة فأصبح له كاتب [1] لا يرقى إلى رتبة الوزارة .

(رابعا) أن أسماء الوزراء الاخشيديين لا تذكر فى الطراز . ولا عجب فإنهم كانوا يشدون أزر الأمير ويعاونونه فى الحكم ويعملون عمل الوزير فى دار الخلافة ، بل كان يطلق عليهم هذا الاسم ، ولكنهم مع ذلك كانوا لا يقرنون بالوزراء فى دار الخلافة أو فى مصر الفاطمية ، لأن الأمراء الاخشيديين الذين كانوا يستعينون بهم كانوا من الناحية الرسمية على الاقل عمالا للخليفة العباسى وإن تمتعوا بقسط كبير من الاستقلال .

---

(١) لابن الأثير نص مشهور فى هذا الشأن . قال يصف خلافة المطيع . « وازداد أمر الخلافة ادبارا ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة . وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء . فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير إنما كان له كاتب يدير اقطاعه وإخراجاته لاغير ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد . وكان من أعظم الأسباب فى ذلك ان الديلم كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها . حتى لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى... الخ » . الكامل ج ٨ ص ١٦٢

(٨)

متولى دار الضرب

روى ابن سعيد عن ابن زولاق قصة تحدث فيها عن جشع الاخشيد وحبه المال وأشار إلى حادث وقع له مع صدقة بن الحسن متولى دارالضرب[١] حين قدم إليه ومعه دنانير وسبيكة وأحضر السباكين ليقوموا عيار الدنانير .

والواقع أن مصر أسست فيها دار لضرب النقود على يد أحمد بن طولون[٢] حيث ضربت الدنانير التى عرفت بالأحمدية وامتازت بعيارها الجيد[٣] . ولا عجب فإن السكة كانت تعتبر فى العالم الإسلامى من شارات الملك[٤] . ويبدو أن دار الضرب لم تكن كبيرة أو معقدة فى نظامها . وقد كتب ابن خلدون أن السكة هى « الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه ، فيكون التعامل بها عددا وان لم تقدر أشخاصها يكون بها وزنا. ولفظ السكة كان اسما للطابع وهى الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهى النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة فصار علما عليها فى عرف الدول . وهى وظيفة

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣١

(٢) راجع المقريزى : كتاب النقود القديمة الاسلامية (فى النقود العربية وعلم النميات الذى عنى بنشره الأب انستاس مارى الكرملى) ص ٥٤ وأنظر البلوى: سيرة احمد بن طولون ص ١٩٦ و Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 210-211

(٣) المقريزى : المرجع نفسه ص ٥٧

(٤) ابن خلدون : المقدمة (الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به) ص ٢١٨

ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات . ويتقون فى سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة »[١] .

ويبدو أن الختم على الدنانير والدراهم وعيارها كان يقوم به نفر قليل من الموظفين يعرف بعضهم باسم المعدّلين[٢] ويعرف الآخرون باسم السباكين[٣] . ويشرف عليهم متولى دار الضرب[٤] . ولكن الأمير كان يعنى بأعمالهم ويطلب أن يطلع عليها وأن يقوموا ببعضها فى حضرته بين وقت وآخر . وكان الأمير فى بعض الأحيان يعهد بالإشراف على دار الضرب إلى القاضى[٥] .

ويبدو لنا أن موظفى دار الضرب كانوا يتنقلون مع الأمير فى بعض الأحيان أو يلبون طلبه فى موافاته إلى حيث يكون خارج مصر . فإن النقود التى نعرفها من العصر الطولونى مثلا ضربت فى مدن مختلفة مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وانطاكية . والراجح عندنا أن هذه المدن لم يكن فى كل منها دار مستقلة لسبك النقود وإنما كان الأمير يعتمد على الإخصائيين عنده فى هذا الميدان اللهم إلا إذا فوض نائبه ببلد من البلاد فى الإشراف على ضرب النقود فيها أو كان البلد مشهوراً بدار للضرب فيه .

والنقود الاخشيدية التى نعرفها ضربت فى مصر (الفسطاط) وفلسطين (الرملة) ودمشق ويمكن أن نستنبط منها الحقائق التاريخية الآتية :

(أولا) أن الدنانير التى ضربت بمصر فى عهد الخليفة الراضى وولاية محمد بن طغج من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٢٩ كان يذكر فيها اسم الخليفة وحده[٦] مما يشهد بأن الاخشيد كان لايزال يخضع كل الخضوع للخلافة العباسية التابع لها .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢١٨

(٢) أنظر انستاس مارى الكرملى : المرجع السابق ص ٣٧

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٣١

(٤) وصلت إلينا عن دار الضرب بإيران فى العصر الصفوى بيانات طيبة فى كتاب تذكرة الملوك الذى نشره الاستاذ مينورسكى (V. Minorsky: Tadhkirat al-Mulûk : A Manual of Safavid Administration ، وانظر أيضاً :

H. L. Rabino di Borgomale : Coins and Seals of the Shahs of Iran pp. 1-5.

(٥) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٢ — ٥٦٣

(٦) Lane-Poole : Gatalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo Nos. 694-706 pp. 89-99

(ثانياً) أن الدنانير التى ضربت بمصر فى عهد الخليفة المتقى وولاية محمد بن طغج سنة ٣٢٩ كان يذكر فيها اسم الخليفة وحده مما يشهد أيضاً بأن الاخشيد كان فى بداية حكم المتقى لايزال يدين للخلافة بالطاعة التامة والتبعية الظاهرة [١].

(ثالثاً) أن سنة ٣٢٩ كانت فاصلا بين عهدين ، فقد وصل إلينا دينار منها لم ينقش عليه اسم الخليفة وإنما نقش اسم محمد بن طغج وحده ومعه لقب الأمير الاخشيد [٢]. (أنظر اللوحة رقم ١ شكل ١) [٣]. ولسنا ندرى هل حذف اسم الخليفة مقصود أو أن ثمة خطأ فى كتابة هذا الدينار. وإذا كان الحذف مقصوداً فلسنا نستطيع تفسيره إلا بأن الاخشيد فكر فى الاستقلال التام عن الخلافة بعد صلحه مع ابن رائق ثم تبين صعوبة تحقيق ذلك فرجع إلى الوقوف عند الاستقلال الذاتى.

(رابعا) أن السكة التى ضربت للاخشيد بعد سنة ٣٢٩ كان ينقش عليها اسمه واسم الخليفة المتقى [٤] (انظر اللوحة رقم ١ شكل ٢) [٥]

---

(١) ibid No. 725 p. 102. Lane Poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 81.

(٢) Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Egypte et Syrie No. 50 pp. 22-23.

(٣) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بسم الله ضرب سنة تسع وعشرين وثلثماية »، وفى الوسط عبارة « لله الأمير الاخشيد ». وعلى ظهره كتابة دائرية نصها « لا إله إلا الله محمد رسول الله ». وفى الوسط عبارة « بالله محمد بن طغج ».

(٤) Lavoix : op. cit. No. 48 et 49 pp. 21-22, Lane-Poole : op. cit. (Catalogue) No. 936 & 937 p. 143.

(٥) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بسم الله ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة اثنين وثلاثين وثلثماية » وفى الوسط عبارة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له أبو منصور ابن أمير المؤمنين» وكتابة دائرية خارجية نصها « لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ».

وعلى ظهره كتابة دائرية نصها « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» وفى الوسط « لله محمد رسول الله . المتقى لله الاخشيد ».

(خامساً) أن السكة التى ضربت فى عهد اونوجور من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٧ كان ينقش عليها اسم الخليفة المطيع واسم « أبو القاسم بن الاخشيد »[١] (انظر اللوحة رقم ١ شكل ٣ [٢]) .

(سادساً) أن السكة التى ضربت لعلى بن الاخشيد من سنة ٣٥٠ إلى سنة ٣٥٥ كان ينقش عليها اسمه واسم الخليفة المطيع [٣] . (انظر اللوحة رقم ١ شكل ٤ [٤])

(سابعاً) أن كافوراً لم ينقش اسمه على السكة [٥] . وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه فى التكييف القانونى للفترة التى حكم فيها مصر بعد وفاة على بن الاخشيد حين كتبنا أنه كان يشعر بما نكاد نصل اليه من النصوص وهو أنه وسط بين الأمير والوصى على العرش .

(ثامناً) أن السكة الاخشيدية بعد وفاة كافور كانت تضرب باسم الخليفة المطيع واسمى الأمير احمد بن على بن الاخشيد وعمه الوصى عليه الحسين بن عبيد الله بن طغج [٦] (انظر اللوحة رقم ١ شكل ٥ [٧] وشكل ٦) [٨] .

---

(١) Lavoix : op. cit. Nos. 51-56 pp. 23-25, Lane-Poole : op. cit. (Catalogue) Nos 938-942 p. 144. Lane-Poole : History of Egypt p. 86-87.

(٢) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بسم الله ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة سبع وثلاثين وثلثمائة » وفى الوسط « أبو القسم بن الاخشيد » وعلى ظهره « لله محمد رسول الله صلى الله عليه المطيع لله » .

(٣) Laviox : ibid No. 57-62 pp. 26-28, Lane-Poole : op. cit. (Catalogue) No. 943-947 p. 145, Lane-Poole : History of Egypt, p. 86-87.

(٤) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بسم الله ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة خمسين وثلثمايه » وفى الوسط « لا إله إلا الله وحده لا شريك له . على ابن الاخشيد » وعلى ظهره فى الوسط « لله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله المطيع لله » .

(٥) Lane-Poole : op. cit. (Catalogue)

(٦) Lavoix ; ibid No. 63-64 pp. 28-29

(٧) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بسم الله ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة ثمان وخمسين وثلثماية » وفى الوسط « لا إله إلا الله وحده لاشريك له الحسين بن عبيد الله » . وعلى ظهره فى الوسط « لله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله المطيع لله احمد بن على » .

(٨) على وجه هذا الدينار كتابة دائرية نصها « بفلسطين سنة ثمان وخمسين وثلثماية » وفى الوسط « الحسين بن عبيد الله » وعلى ظهره فى الوسط « لله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله . المطيع لله . أحمد بن على طغج » .

وهكذا نرى أن دراسة السكة [١] قد تكشف عن أشياء كثيرة توضح الاحداث التى نعرفها من المراجع التاريخية . ولكن مما يؤسف له أن مانعرفه عن السكة فى العصر الاخشيدى ليس كثيراً . وحسبنا أن نذكر ما اشتهر عن ضرب الدينار الاخشيدى على عيار كامل وعن صلاح النقود فى عهد الاخشيد بعد فسادها [٢] . وكانت العملة الذهبية شائعة فى ديار الاسلام التى كانت فى الجاهلية تحت حكم الرومان [٣] ، وان تكن قد انتشرت فى العراق وشرقى العالم الاسلامى منذ القرن السابع . وكان الدينار فى القرن الرابع يساوى نحو الأربعة عشر درهما [٤] والدرهم ستة دوانق والدانق إثنى عشر قيراطاً [٥] وكانت للمعاملات الضخمة وسائل للدفع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص كالسفاتج والمستندات . وقد مر بنا أن الاخشيد أرسل إلى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة [٦] .

---

(١) أنظر فضلا عن المراجع التى مر ذكرها عن السكة: استانبول موزه ى هايون مسكوكات قديمة إسلامى كتالوجو و

O. Codrington : A Manual of Musulman Numismatics, L. A. Mayer : Bibliography of Moslem Numismatics, India excepted., Lane-Poole : Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, H. Nützel : Konigliche Museen zu Berlin : Katalog der Orientalischen Münzen.

C. J. Tornberg: Mémoires sur les monnaies des Ikhschidites (dans Nova acta Regiae Societatis scientiarum Upsaliensis, 3e série, vol. 11 p. 48).

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٥٢ نقلا عن مخطوط كتاب العيون والحدائق (برلين) ورقة ٢٠٩ ب .

(٣) لعل ذلك يرجع إلى أنه كان بين البيزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط وأن يتخذوا العملة البيزنطية الذهبية عملة لهم ، ولذلك كانت الدراهم الفضية هى العملة الجارية فى العراق وإيران . أنظر متز : المرجع السابق ج ٢ ص ٣١٦

(٤) متز : المرجع السابق ج ٢ ص ٣١٨

(٥) المرجع نفسه ج ٢ ص ٣١٩

(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢ ومتز : المرجع نفسه ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٠

ولسنا نعرف مكان دار الضرب فى العصر الاخشيدى [١] . ويبدو أنها كانت معطلة حين فتح الفاطميون مصر فأمر جوهر القائد بفتحها وضرب فيها سكة باسم المعز لدين الله [٢] . وقد ظلت هذه الدار تؤدى مهمتها إلى أن أنشئت دار ضرب جديدة فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله [٣] .

(١) وصل الينا من أسماء الموظفين فيها يحيى بن بكر بن رجاء المعدل . أنظر ابن سعيد : المغرب ص ٣١

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٦٤

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٣ وابن سعيد : أخبار مصر ص ٦٢ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٤٥ والقلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٩

(٩)

وظائف أخرى وملاحظات عامة على الإدارة

لسنا نريد أن نعرض هنا للوظائف القضائية فسوف نعقد لهـا بابا مستقلا نتحدث فيه عن القضاء والنظر فى المظالم والحسبة .

ولـكننا نتبين من المراجع القديمة والوثائق التاريخية وجود بعض وظائف غير التى تحدثنا عنها . ومن ذلك الوظائف التى تتعلق بالمساجد وإقامة الشعائر الدينية فيها . فكان لـكل مسجد إمام معين . ولسنا ندرى هل كان يعينه الأمير أو القاضى . ومن أئمة الجامع العتيق فى العصر الاخشيدى عمر بن الحسن الهـاشمى الذى ولى القضاء فترة من الزمن بعد أن كان إماما لجامع عمرو [١] . ومنهم أيضا سليمان بن محمد بن رستم ويبدو أنه كان واسع السلطان فى الشئون القضائية والدينية على عهده [٢] . ومنهم الحسن بن موسى الخياط [٣] .

وفى دار الـكتب المصرية بالقاهرة وثيقة على ورق مؤرخة من ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) وتتضمن استئجار خادم لمسجد وتنص على أن أجرته فى السنة ثلاثة دنانير ونصف يقبض فى كل شهر سبعة قراريط وان عليه تنظيف المسجد وإضاءة قناديله وجلب المـاء له والقيام بجميع ما يحتاج إليه المسجد . وقد أعطى فضلا عن أجرته مسكنا من بيوت المسجد بالمجان [٤] (أنظر شكل ١) . والمعروف أن أجور المؤذنين

---

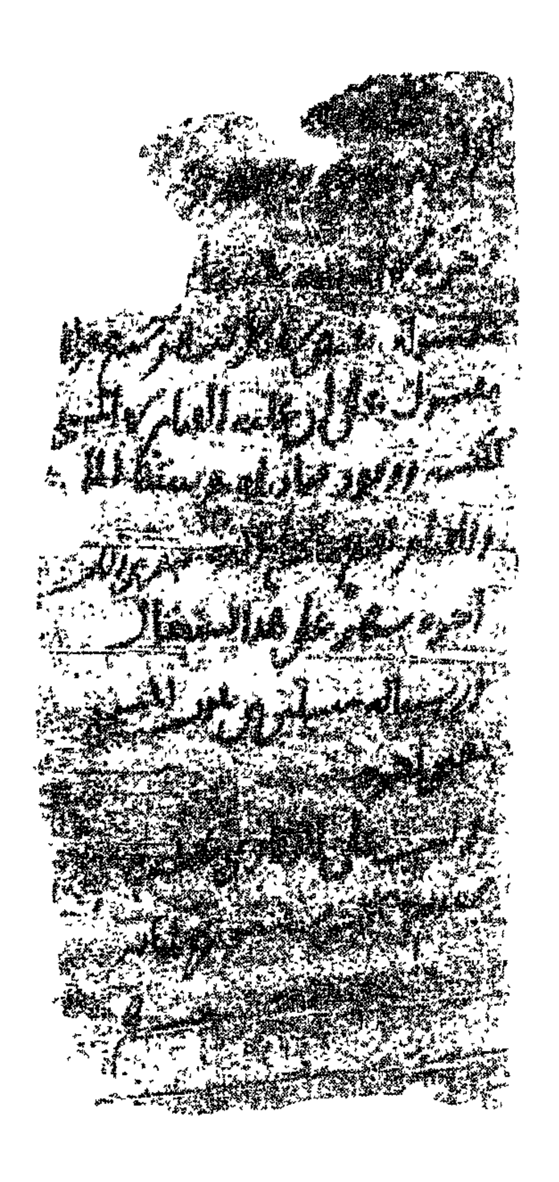
(١) الـكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٤ — ٥٧٥

(٢) المرجع نفسه ص ٥٤٣ و٥٥٣ و٥٦١ و٥٦٨ ، أنظر أيضاً ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٤٣

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ١٩

(٤) Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library II pp. 104-105.

وخدم المساجد والكنائس كانت تدفع من إيراد بيوت وحوانيت يوقفها أهل الخير لهذا الغرض (١) .



شكل (١) وثيقة بردية من سنة ٣٥٦ هـ محفوظة بدار الكتب المصرية
[عن جرومان]

وثمة وظائف لا تتحدث عنها المراجع التي كتبت عن العصر الاخشيدى ولكن الراجح عندنا أنها كانت موجودة فى ذلك العصر .

ومن ذلك الموظفون الذين ينظرون فى جوازات السفر والجمارك ، فقد عرفتهم مصر قبل العصر الاخشيدى . وقد كتب ابن الداية أن موسى بن طولون عندما غضب من أخيه أحمد ذهب إليه حانقا وطلب منه جوازا للسفر حتى يترك الديار المصرية (٢) . كما كتب المؤلف

(١) Grohmann: op. cit. 11. p. 88.
(٢) Ibn Said—Vollers: Fragmente p. 13.

نفسه أن تاجراً كان قد اشترى من أحد اتباع ابن طولون عبداً بمائتى دينار ثم حصل على جواز سفر له ولخادم معه . وكان فى العريش على الحدود بين مصر وفلسطين موظف مختص بفحص جوازات السفر والأمتعة التى يحملها المسافرون . ولما رأى الموظف جواز سفر التاجر اعتقد أن الخادم يلزمه جواز سفر مستقل وقائم بذاته ولم يقبل أن يسمح بالمرور للتاجر وتابعه إلا بعد وصول البيانات التى طلبها عن موضوعهما من الفسطاط . والواقع أنه كتب إلى ابن طولون نفسه يشرح له المسألة . وأمر الأمير باستدعاء التاجر وسأله عن مصدر العبد وعرف أنه اشتراه من أحد أتباعه فأمر باعطائه جواز سفر قانونى . وطالب التاجر بنفقات قدومه من الحدود وعودته إليها قائلا أنه انفق فى ذلك عشرة دنانير فأمر ابن طولون بدفعها اليه (١) .

وفضلا عن ذلك فقد كان الجيش الاخشيدى يحتاج إلى دار كبيرة للصناعة تمده بالمعدات اللازمة وكان لهذه الدار مدير وموظفون . وكان للأمراء الاخشيديين سجون يتولى إدارتها موظفون موثوق فى إخلاصهم . ومع أن الادارة فى العصر الاخشيدى لم تكن فى حاجة إلى إدارة حكومية معقدة فالراجح أنه كان للأمراء الاخشيديين كل مايلزمهم لاستغلال البلاد والعمل على استقرار الأمن فيها . ولكن ليس من اليسير دراسة الوظائف العامة فى ذلك العصر دراسة دقيقة لنقص البيانات التى نجدها فى المراجع التاريخيـة . وعلى كل حال فان السلطة التنفيذية كانت فى يد الأمير أو من يفوضه فى القيام بعمل من الأعمال العامة باشرافه أو تحت مراقبة من ينديه الأمير لهذا الاشراف وكان الأمير مصدر السلطات يعين الموظفين ويعزلهم حين يشاء .

وطبيعى أنه كان للموظفين دواوين يديرون منها دفة أعمالهم . وفى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا وثيقة من ورق مؤرخة سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) تتضمن استدعاء رجل اسمه جورجيوس للقدوم إلى الديوان قبل مضى ساعة من الزمن (٢) .

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٢ — ٥٣ ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ و Zaky Hassan : Les Tulunides p. 207-209

(٢) Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung No. 1059 p. 257

وأكبر الظن أن المقصود هنا ديوان الخراج وأن الرجل كان مطلوبا لسؤاله عن مال متأخر عنده من الضرائب المفروضة عليه .

وقد كتب ابن سعيد والمقريزى أن الاخشيد أول من رتب الرواتب فى مصر [١] . ولسنا نظن أن المقصود بذلك أن الاخشيد أول من جعل للموظفين رواتب يتقاضونها من الدولة ؛ لأن مثل هذا الزعم بعيد عن الدقة ، فقد كان لكثير من الموظفين فى فجر الإسلام أرزاق ورواتب من بيت المال [٢] . والراجح عندنا أن متز [٣] وغيره ممن فهموا النص على هذا النحو قد أخطأهم التوفيق وأن المراد بالرواتب هنا ما كانت الدولة تجريه على الفقراء والمحتاجين ، وكان من بينهم طائفة من الأشراف والذين حل بهم الفقر بعد النعمة ، وذلك على نحو ماتفعله وزارة الأوقاف وبعض جهات البر فى زماننا هذا .

والواقع أن نص المقريزى فى هذا الشأن يفهم منه التفسير الذى نذهب إليه . فقد كتب هذا المؤرخ « والاخشيد أول من عمل الرواتب بمصر . وكان كاتبه ابن كلا قدعمل تقديراً عجزفيه المرتب عن الارتفاع مائتى ألف دينار . فقال الاخشيد: كيف نعمل؟ قال : حط من الجرايات والأرزاق فليس هؤلاء أولى من الواجب . فقال : غداً تجيئنى وندبر هذا . فلما أتاه من الغد قال له الاخشيد : قد فكرت فيما قلت ، فاذا أصحاب الرواتب الضعفاء ومنهم المستورون وأبناء النعم ، ولست آخذ هذا النقص إلا منك . فقال ابن كلا : سبحان الله! فقال : تسبيحاً ! وما زال به الاخشيد حتى أخذ خطه بالقيام بذلك » [٤] ثم كتب المقريزى بعد ذلك : « بلغت الرواتب فى أيام كافور الاخشيدى خمسمائة ألف دينار فى السنة لأرباب النعم والمستورين وأجناس الناس ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين فى الأعمال » [٥] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٩ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣١٧ و٣٥٤ و٣٦٩ و٤٢١ و٤٣٥

(٣) ساق متز هذا النص عند الكلام على رواتب الموظفين فى العالم الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى (الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٣٤ — ١٣٥) .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩

(٥) المرجع نفسه ج ١ ص ٩٩

ولسنا نعرف عدد الأيام التي كان يعملها الموظفون في الأسبوع في العصر الاخشيدى . ونذكر في هذه المناسبة أن الخليفة العباسى المعتضد بالله (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) أمر بتعطيل دواوين الحكومة يومى الجمعة والثلاثاء، لأن يوم الجمعة يوم صلاة، ولحاجة الناس في وسط الأسبوع إلى الراحة والنظر في أمورهم والتشاغل بما يخصهم [1] . ولكننا لم نستطع أن نتبين في المراجع التاريخية التي بين أيدينا هل كان هذا النظام مطبقا في مصر على عهد الاخشيديين أو كانت العطلة الأسبوعية في يوم الجمعة فحسب .

والراجح عندنا أن الأمراء الاخشيديين كانوا يولون بعض المناصب لمن يدفع لهم في بعض الأحيان من المال والهدايا ما يؤيد به ترشيحه. ولم يكن هذا غريبا على الإدارة الإسلامية عامة في هذا العصر، فقد عرفنا أن معز الدولة في بغداد كان يبيع مناصب الحسبة والشرطة سنة ٣٥٠ هـ بل انه قلد عبد الله بن الحسن بن ابى الشوارب القضاء بعد أن تعهد هذا القاضى بأن يحمل كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتى ألف درهم وكتب على نفسه بذلك سجلا أو وثيقة [2] .

بقى أن نذكر أن دار الأمارة على عهد الاخشيديين كانت في العسكر . والواقع أن العسكر كانت مقر الحكم في مصر منذ شيدها أبو عون الوالى العباسى سنة ١٣٣ هـ إلى أن شيد ابن طولون القطائع . ولما سقطت الدولة الطولونية وخرب محمد بن سليمان القطائع أقام الولاة بعد ذلك في العسكر . ويقال إنه كان بالعسكر دار عظيمة بناها بدر الخفيفى غلام احمد بن طولون . وقد نزل فيها محمد بن سليمان ومن خلفه من الولاة ثم سكنها الأمراء الاخشيديون ووسعها محمد بن طغج ونزل فيها أيضا الخلفاء الفاطميون [3] .

---

(١) هلال الصابى : تاريخ الوزراء ص ٢٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٨

(٣) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٢٧ — ٣٣٠

الباب السادس

القضاء والمظالم والحسبة



القضاء والمظالم والحسبة

كان القضاء فى الدولة الاسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة [1] ، فكان الخليفة هو الذى يعين القاضى فى مصر منذ فتحها العرب إلى العصر الطولونى [2] ، وفى بعض الأحيان كان والى مصر يعين القاضى ثم يقره الخليفة على ذلك [3] .

ولما قدم ابن طولون الى مصر وجد بكار بن قتيبة قاضياً فيها منذ أرسله الخليفة المتوكل سنة ٢٤٦ هـ [4] ، فاستمر على القضاء . وحين طالبه ابن طولون بلعن الموفق على المنابر وامتنع بكار عن ذلك عزله ابن طولون وسجنه فى سنة ٢٧٠ هـ [5] .

ويظهر أن ابن طولون فعل ذلك بموافقة الخليفة ، لأن المعتمد كان قد أرسل كتابا إلى ابن طولون وهو بدمشق يذكر فيه خلع الموفق من ولاية العهد . وأجاب القضاة كلهم إلى خلعه إلا بكاراً فإنه سمى الخليفة « الناكث » . ويقال ان ابن طولون أرسل إلى بكار مرة وهو فى السجن يقول : « كيف رأيت المغلوب المقهور لا أمر له ولا نهى ولا تصرف فى نفسه ! ولا تزال هكذا حتى يرد على كتاب المعتمد باطلاقك » [6] .

وهكذا نرى أنه بالرغم من استقلال مصر الذاتى فى عهد الطولونيين فان أمر القضاء كان لا يزال مرجعه إلى الخلافة . وقد توفى بكار بعد وفاة ابن طولون بعدة أيام ، وذلك فى سنة ٢٧٠ هـ وخلفه فى القيام بأعمال القضاء ابن شاذان الجوهرى نحو ثلاث سنين

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٢ — ١٨٣ (الفصل الحادى والثلاثون فى الخطط الدينية الخلافية) .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٠٠ و ٣٠١ و٣٠٣ و٣٤٠ و٣٦٨

(٣) المرجع نفسه ص ٣٤١ — ٣٤٣ و ص ٣٨٥

(٤) المرجع نفسه ص ٤٧٦

(٥) المرجع نفسه ص ٤٧٧ و ٤٧٨

(٦) المرجع نفسه ص ٥١٢ — ٥١٤

دون أن يكون له لقب القاضى . ثم عين خمارويه محمد بن عبدة للنظر فى المظالم . وكان له كل اختصاص القاضى . وظل محمد بن عبدة بن حرب ينظر فى المظالم نحو أربع سنين ثم ولى القضاء فى سنة ٢٧٨ ه من قبل الخليفة المعتمد . وذلك بعد أن تعطل منصب القضاء نحو سبع سنين [1] .

وقام ابن عبدة بمنصب القضاء حتى قتل خمارويه وخلع ابنه جيش وقتل فى سنة ٢٨٣ ه . وحينئذ اختفى ابن عبدة ولم يظهر فى الحياة العامة إلا بعد سقوط بنى طولون . وظلت مصر بغير قاض إلى أن ولى هارون بن خمارويه أبا زرعة محمد بن عثمان الدمشقى القضاء فى سنة ٢٨٤ ه . ويقال ان الذى ولاه هو الخليفة المعتضد [2] .

ولما سقطت الدولة الطولونية اتصل محمد بن عبدة بالقائد محمد بن سليمان فولاه القضاء والمظالم فى ربيع الأول من سنة ٢٩٢ ه [3] ثم خلفه آخرون فى هذا المنصب إلى أن تقلده محمد بن موسى السرخسى فى ولاية تكين .

ولما عزل السرخسى عن القضاء فى شوال من سنة ٣٢٣ ه تقلده محمد بن بدر الصيرفى من قبل الخلافة ، وبمعنى أدق من قبل قاضى القضاة فى بغداد ، وهو فى ذلك الحين محمد بن الحسن بن ابى الشوارب . وكان الراضى قد ولاه قضاء بغداد وسائر الممالك فكان ينيب عنه من يشاء .

ثم ولى القضاء بعد ذلك من قبل قاضى القضاة فى بغداد أيضا عبد الله بن احمد بن زَبر ولكن هذا الأخير كتب إلى أبى الحسن على بن احمد بن اسحق وإلى أبى العباس يحيى بن الحسن بن الأشعث لينظرا فى قضايا الناس بالنيابة عنه . فتسلم هذان الاخيران القضاء فى شوال من سنة ٣٢٤ ه [4] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥١٣ و ٥١٥ و Zaky M. Hassan : les Tulunides p. 224

(٢) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٤٧٩ و ٤٨٠ و ٥١٨ و ٥١٩

(٣) المرجع نفسه ص ٤٨٠ و ٤٨١

(٤) المرجع نفسه ص ٤٨٦ و ٤٨٧ و ٥٥٠

وكان فى مصر حينذاك الحسين بن محمد بن ابى زرعة الدمشقى وكان يطمع فى قضاء مصر ، فسأل الاخشيد فى ذلك . ويبدو أنه قدم له بعض المال أو الهدايا [١] فأوقف الاخشيد خليفتى عبد الله بن احمد بن زَبر من النظر فى القضاء فى ذى القعدة من سنة ٣٢٤ هـ وولى الحسين بن أبى زرعة على أن ينظر محمد بن احمد بن الحداد فى القضاء حتى يرد الكتاب من بغداد بولاية ابن أبى زرعة [٢] . والراجح أن اختيار ابن الحداد للنيابة يرجع الى أنه كان معروفا بالعلم الواسع حتى سمى « فقيه الديار المصرية » [٣] .

وظل أبو بكر بن الحداد ينظر في قضايا الناس فى داره وفى الجامع حتى ورد تقليد ابن أبى زرعة على القضاء من قبل ابن أبى الشوارب قاضى قضاة بغداد فى سنة ٣٢٥ هـ [٤].

وكانت المدة التى قضى فيها ابن الحداد بين الناس ستة أشهر وقد أنشد بعض الشعراء أبياتاً يتهكمون فيها على ابن الحداد ويشيرون إلى قيامه بأعمال القضاء دون تقليد رسمى . ومن تلك الأبيات :

قولوا لحدادنا الفقيه ... العالم النابه الوجيه
والمسقع المستطيل لولا ... مافيه من نخوة وتيه
حكمت حكما بغير عقد ... وغير عهد نظرت فيه [٥]

وظل الحسين بن أبى زرعة ينظر فى القضاء إلى أن توفى فى ذى الحجة من سنة ٣٢٧ هـ .

---

(١) أو « بذل له » على حد قول ابن برد فى ذيل الولاة والقضاة للكندى ص ٤٨٧
(٢) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٤٨٧
(٣) المرجع نفسه ص ٥٦٣ ، راجع عن تقوى ابن الحداد وورعه ، ابن سعيد : المغرب ص ١٨
(٤) وقيل ان هذا التقليد جاء فى شوال من سنة ٣٢٤ هـ ، أنظر الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٢
(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٨٧ و ٤٨٨

والظاهر أن ابن أبى الشوارب قاضى قضاة بغداد عُزل فى سنة ٣٢٧ هـ وولى بدلا منه أبو نصر يوسف بن عمر بن أبى عمر — وكان فى نحو العشرين من عمره — فكتب هذا الأخير إلى ابن أبى زرعة يقره على قضاء مصر . فقرأ الحسين بن أبى زرعة كتابه على الناس فى داره .

ثم ولى قضاء مصر محمد بن بدر الصيرفى مرة ثانية من قبل ابن أبى الشوارب الذي كان قد عاد إلى منصب قاضى القضاة فى بغداد وظل ابن بدر فى منصبه من ذى الحجة سنة ٣٢٧ هـ إلى صفر من سنة ٣٢٩ وأقر ذلك محمد بن طغج [(١)] .

وفى هذه الأثناء سعى عبد الله بن شعيب ، المعروف بابن وليد أو ابن أخت وليد ، فى ولاية قضاء مصر واستعان للوصول إلى غرضه بمال قدم لابن أبى الشوارب ، فكتب ابن أبى الشوارب بولايته القضاء وذلك فى شهر رمضان من سنة ٣٢٨ هـ ، ومن ثم توجه ابن وليد إلى الحسين بن عيسى بن هروان من وجهاء القوم ، وكان بمصر حينذاك ، فأقرأه عهد القضاء وطلب منه أن يعينه على تولى هذا المنصب [(٢)] .

وهكذا نرى أن منصب القضاء أصبح ، كمنصب الولاية والامارة ، لا يكتفى فيه بعهد الخليفة أو من يفوض إليه الخليفة هذا الأمر ، بل يبقى على القاضى الجديد أن يتمكن من مباشرة عمله . ولذا نرى عبد الله بن وليد يطلب معونة الحسين بن عيسى بن هروان كما نراه يستعين بأبى المظفر الحسن بن طغج ، وكان يخلف أخاه الاخشيد مدة غيبته لقتال ابن رائق .

ولكن الظاهر أن عبد الله بن وليد لم يستطع بالرغم من هذا كله أن يتسلم القضاء من محمد بن بدر . وظهر فى ذلك الوقت طامع آخر فى القضاء : هو الحسين بن عيسى ابن هروان الذى عمد إلى رشوة الحسن بن طغج كي يساعده فى تولى القضاء وليكاتب الاخشيد فى ذلك على أن يخلفه محمد بن بدر فى مباشرة القضاء . ووافق الاخشيد

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٤٨٨ و ٥٦٣ و ٥٦٤

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٠ و ٥٦١ و ٥٦٤

على أن يتولى القضاء محمد بن بدر نيابة عن الحسين بن عيسى فوافق ابن بدر على ذلك . ويقال ان هذا الأمر شق على ابن وليد حتى مرض وأشرف على الموت [١] .

وهكذا نتبين أن الاخشيد استطاع أن يتحدى قاضى قضاة بغداد وهو المفوض من قبل الخلافة فى تعيين قضاة مصر . كما نلمس أن منصب القضاء أصبح مجالا للتنافس وصارت تبذل فى سبيل تولّيه الأموال والرشاوى . والواقع أن هذا التحدى لم يستطع مثله الأمراء فى عصر بنى طولون . وهو يرجع قبل كل شىء الى الفوضى التى كانت تسود الخلافة فى بغداد والى أن قاضى القضاة فيها لم يعد فوق الشبهات ، بل كان تقليده هذا المنصب محلا للطعن والشكوك فى بعض الأحيان ، ولذلك كان تفويضه وتوليته غيره من قبله أمراً يمكن تحديه ووقف تنفيذه .

ثم ولى القضاء بمصر عبد الله بن أحمد بن زَبر من قبل قاضى القضاة فى بغداد . فدخل الفسطاط فى سنة ٣٢٩ هـ وأقر الاخشيد ولايته ولكنها لم تدم إلا شهراً واحداً وأياماً، مرض بعدها وتوفى فى سنة ٣٢٩ هـ [٢] . وكانت هذه هى المرة الرابعة التى ولى فيها ابن زَبر قضاء مصر والمرة الثانية التى ولى فيها قضاء مصر فى عصر الاخشيديين .

وبعد وفاة ابن زبر قلد الاخشيد الحسين بن عيسى بن هروان القضاء وفى بعض الروايات أن عبد الله بن وليد سعى ليتولى قضاء مصر بعد وفاة ابن زبر وأنه تقلد هذا المنصب من قبل الحسين بن عيسى بن هروان ثم عزل فى شوال من سنة ٣٢٩ هـ [٣] . وفى رواية أخرى أن ابن وليد تقلد قضاء مصر فى سنة ٣٢٩ هـ وعزل فى سنة ٣٣٠ هـ [٤] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦١

(٢) المرجع نفسه ص ٤٨٨ و ٤٨٩ وص ٥٦١ ، وأنظر فى هذا المرجع (ص٥٤٢ و ٥٤٣) قصة تشير إلى أن ابن زبر تقلد قضاء مصر للمرة الأخيرة بحيلة احتالها على الاخشيد وذلك بتزوير كتاب تفويض للقضاء من ابن أبى الشوارب إلى عبد الله بن احمد بن وليد .

(٣) المرجع نفسه ص ٤٨٩ و ٤٩٠ و ٥٦٤ و ٥٦٥

(٤) المرجع نفسه ص ٥٦٥

وبعد ذلك ورد كتاب من الحسين بن عيسى بن هروان إلى الاخشيد يذكر فيه أنه ولى القضاء محمد بن بدر الصيرفى . ويقال ان ابن أبى الشوارب قاضى قضاة بغداد عزل حينئذ عن القضاء وخلفه أحمد بن عبد الله بن اسحق فأقر الحسين بن عيسى على القضاء ، على أن يكون محمد بن بدر نائباً عنه بمصر [1] فكانت هذه هى المرة الثالثة التى ولى فيها محمد بن بدر قضاء مصر فى عصر الاخشيديين . وقد ظل محمد بن بدر أحد عشر شهراً فى ولايته حتى توفى فى شعبان سنة ٣٣٠ هـ [2] .

أما عن الحسين بن عيسى بن هروان الرملى فالروايات بشأن توليته القضاء متضاربة . وقد ذكرنا أن الاخشيد ولاه القضاء فى سنة ٣٢٨هـ وولاه أيضاً بعد وفاة ابن زبر . ولكن فى بعض الروايات أنه ولي القضاء من قبل الخليفة أو قاضي القضاة فى بغداد [3] .

والراجح عندنا أن الاخشيد هو الذى ولاه قضاء مصر . فكان يستخلف من يشاء ، لأنه لم يكن فقيهاً ولم يكن يصلح لتولى الأحكام ، وإنما سعى إلى المنصب طلباً للجاه ولا سيما أنه كان غنياً عظيم الثروة [4] . وكان بعد تقلده القضاء حريصاً أشد الحرص على الاحتفاظ بهذا المنصب .

ويقال انه لما مرض محمد بن بدر الصيرفى مرضه الأخير استخلف أبا الذكر محمد بن يحي الأسوانى [5] فى النظر فى الأحكام . ولما مات ابن بدر فى شعبان سنة ٣٣٠ استبقى الاخشيد أبا الذكر للقيام بأعباء منصب القضاء بضعة أيام إلى أن جاء كتاب الحسين بن عيسى بن هروان باستخلاف الحسن بن عبد الرحمن بن اسحق الجوهرى على القضاء . وذلك فى رمضان سنة ٣٣٠ هـ [6] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٦

(٢) المرجع نفسه ص ٤٨٩ و ٤٩٠ و ٥٦١

(٣) المرجع نفسه ص ٥٦٤

(٤) المرجع نفسه ص ٥٦٤

(٥) أنظر الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٦٤

(٦) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٣٣

وما لبث الحسن بن عبد الرحمن الجوهرى ان أبعد عن القضاء . ويقال ان السبب فى عزله خلاف وقع بينه وبين بكران الصباغ . وكان بكران من الشهود العدول[1] . فذهب الأخير إلى الاخشيد فى دمشق واتفق معه ومع الحسين بن عيسى بن هروان على عزل الحسن بن عبد الرحمن الجوهرى عن القضاء وعن تولى الأحباس . فاستخلف الحسين ابن عيسى بن هروان أبا الفضل الكشى على الأحكام وفوض أمر الأحباس وتولية قضاء النواحى إلى بكران الصباغ[2] .

ولكن الاخشيد أبعد الكشى عن النظر فى الأحكام بعد ثلاثة أشهر وولى عبد الله ابن أحمد بن وليد خليفة للحسين بن هروان وذلك فى رجب سنة ٣٣١ هـ[3] . وسبب هذا العزل المنافسة القوية التى قامت بين بكران الصباغ وبين الكشى وأسفرت عن اضطراب الأمور . فشكا الناس إلى الاخشيد فاستاء وأمر باحضار بكران ووبخه على ذلك ثم عزله هو والكشى عن الحكم . واستشار وجوه الناس فأشاروا عليه بتولية عبد الله بن وليد فولاه الاخشيد خلافة للحسين بن عيسى[4] .

ولم يزل ابن وليد يتولى القضاء حتى جاء ابن هروان نفسه إلى مصر ويقال انه قدم مصر فى آخر رجب من سنة ٣٣٣ هـ[5] . واصبح ابن وليد فى بعض الأحيان ينظر فى الأحكام فى حضرة ابن هروان نيابة عنه . ثم بلغ ابن هروان أن ابن وليد كان يذكر أن ولايته على القضاء من قبل الخليفة المستكفى نفسه وليست من قبل ابن هروان ، فعزله عن القضاء فى جمادى الأولى من سنة ٣٣٣ هـ[6] . وفى بعض الروايات أن الحسين ابن عيسى بن هروان علم أن عبد الله بن وليد أرسل يلتمس من بغداد كتابا بولايته

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٢

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧١

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩٠

(٤) المرجع نفسه ص ٥٧٣

(٥) يروى ان وفاته كانت فى دمشق سنة ٣٣٤ هـ أنظر الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٤ و ٥٦٥

(٦) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٤٩١

قضاء مصر استقلالا من قبل الخليفة . فقال له الحسين بن هروان « ما هذا الذى بلغنى عنك ! ؟ والله لونازعنى أحد فى القضاء لبذلت فى إتلاف روحه مثل هذا الجرن ذهباً ! »[1] ثم استخلف ابن هروان الحسن بن عبد الرحمن الجوهرى على القضاء ولكن الأخير مرض بعد أيام فعزله ابن هروان وولى القضاء محمد بن احمد بن الحداد فى جمادى الأولى من سنة ٣٣٣ هـ[2] .

ولما غادر ابن هروان مصر أظهر عبد الله بن وليد كتابا من الخليفة المستكفى بتوليته قضاء مصر . وقد ساعده على تولية القضاء محمد بن على بن مقاتل وزير الاخشيد، فعزل ابن الحداد عن القضاء فى أواخر المحرم من سنة ٣٣٤ هـ .

والظاهر أن ولاية عبد الله بن وليد القضاء من قبل الخليفة المستكفى جاءته من بغداد قبل هذا الوقت ولكنه أخفى كتاب التقليد خوفا من ابن هروان لأنه كان خليفته . ولما غادر ابن هروان مصر إلى الشام أظهر عبد الله بن وليد الكتاب وعضده فى موقفه هذا ، الوزير ابن مقاتل[3] .

ويقال ان سعيد بن عبدان التاجر هو الذى سعى لابن وليد فى ولاية القضاء لدى الخلفية المستكفى. وقد ظل ابن وليد يخشى الحسين بن هروان برغم خروجه من مصر. ولم يأمن على نفسه ويطمئن إلى استقرار الأمر له إلا بعد أن جاءه الخبر بموت ابن هروان[4] .

ويقال فى استقلال ابن وليد بالقضاء إنه أخرج « كتابا زعم أنه من المستكفى » . أى أن كتاب الخليفة مشكوك فى صحته .

ومهما يكن من الأمر فان ابن وليد استطاع أن يحصل على مساعدة من الوزير محمد بن على بن مقاتل فى تقليد القضاء واستعان ابن وليد على ذلك بالأموال والرشوة .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٦ و ٥٦٧

(٢) المرجع نفسه ص ٤٩١

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩٢

(٤) المرجع نفسه ص ٥٦٧ و ٥٦٨

وأفلح هو وابن مقاتل فى إقناع الاخشيد، فأمر الاخشيد بتقليده القضاء من قبل الخليفة وتسلم له أخو الاخشيد أبوالمظفر الحسن من ابن الحداد[١] .

وقد شق ذلك على ابن الحداد ، فكتب إليه الحسين بن عيسى بن هروان يهون عليه الأمر ووعده بالانتقام من ابن وليد[٢] .

ثم ولى الخليفة المطيع محمد بن الحسن العباسى الهاشمى منصب قاضى القضاة ببغداد وقضاء مصر والرملة وطبرية والاسكندرية . وكتب محمد بن الحسن الهاشمى إلى ابن وليد يقره على القضاء ، ولكنه ما لبث أن أناب عنه أخاه عمر بن الحسن الهاشمى ليتولى قضاء مصر وذلك فى رجب سنة ٣٣٦ . ويقال إن الشهود وعلى رأسهم يحيي بن مكي بن رجاء حسنوا لعمر الهاشمى ولاية القضاء نيابة عن أخيه . ويبدو أن كافورا وافق على ذلك بعد أن قدم إليه الهاشمى مبلغا من المال . وقد ظل عمر بن الحسن الهاشمى قاضيا لمصر مدة ثلاث سنوات ونصف أى إلى ذى الحجة سنة ٣٣٩هـ، ثم عزل بعدها عن القضاء . ويقال انه لم يعزل بل طلب أن يعفى من المنصب فأجيب إلى طلبه .

وحدث بعد ذلك فى بغداد أن قلد الخليفة المطيع قضاء مصر وأعمالها والرملة وبعض الشام لمحمد بن صالح بن أم شيبان ، فعين هذا الأخير عبد الله بن محمد بن الخصيب أو الخصيبي خليفة له بمصر فولى قضاءها فى النصف من ذى الحجة سنة ٣٣٩ هـ . وظل الخصيبي ينظر فى القضاء هو وابنه إلى أن مرض وتوفى فى المحرم سنة ٣٤٨ هـ .

وبعد وفاته حل ابنه محمد بن عبدالله بن الخصيب محله فى القضاء خليفة لابن أم شيبان أيضاً وبأمر كافور الاخشيدى ولكنه توفى بعد شهر وبضعة أيام[٣] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٧

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٧

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩٢ و ٤٩٣ و ص ٥٦٨ و ٥٦٩ و ص ٥٧٣ — ٥٧٦

ومما يلفت النظر فى ولاية عبد الله بن محمد بن الخصيب وابنه ما يقال من أن عبد الله الخصيبي أحضر عهدا من الخليفة فحواه أن يكون ولده محمد بن عبد الله نائبا عن محمد بن صالح ابن أم شيبان، وأن يكون العهد باسمه، أما هو فيكون ناظرا على ابنه [1].

ولما مات محمد بن عبد الله الخصيبي سعى ابن وليد لدى كافور لتولى منصب القضاء وبذل لكافور مالا فى هذا السبيل، ولكن مستشارى كافور نصحوه برفض طلبه فعين كافور على القضاء أبا الطاهر الذهلى [2]. ونلاحظ أن تولية أبى الطاهر كانت باتفاق أهل الرأى فى الدولة أو أهل الشورى الذين أثنوا عليه عند كافور [3].

ويظهر أن كافورا لم يكن يرغب فى توليه القضاء بادئ ذى بدء، إذ أنه قبل أن يأتى إلى مصر فى سنة ٣٤٠ هـ كان قاضيا فى دمشق وشكاه أهلها إلى الخليفة المطيع وأيدهم كافور فى ذلك فعزل الخليفة هذا القاضى. ولذا رفض كافور أن يقلده القضاء فى مصر، وعين عثمان بن محمد بن شاذان قاضى الرملة بعد أن سعى له فى ذلك الوزير جعفر بن الفضل وفى تلك الأثناء أشيع ان ابن شاذان توفى فسعى عبد الله بن وليد للحصول على هذا المنصب كما ذكرنا. ويقال انه بذل لكافور نحو ثلاثة آلاف دينار. ولكن كافورا لم تلن قناته بل رضخ لتوصية أهل الشورى وعين أبا الطاهر الذهلى [4]. وظل أبو الطاهر على القضاء حتى فتح الفاطميون مصر [5].

وهكذا يتبين لنا أن أمر القضاء فى مصر كان إلى الخليفة أو إلى قاضى القضاة فى بغداد وهو الذى يفوض اليه الخليفة تعيين القضاة فى الأقاليم ولكننا نلاحظ أنه كان لا بد للقضاة — فضلا عن ذلك — من الحصول على موافقة الأمير الاخشيدى. وكان الأمير الاخشيدى فى بعض الحالات يولى القضاء لمن شاء بدون موافقة الخليفة.

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٧

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧٠

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩٣

(٤) المرجع نفسه ص ٥٨٣

(٥) المرجع نفسه ص ٤٩٣

ومما يستحق النظر أن العلماء والفقهاء — بَلْهَ من دونهم مرتبة فى العلم أو من لا علم عنده مثل ابن هروان — كانوا يتهافتون على ولاية القضاء فى هذا العصر حتى أنهم كانوا يعمدون فى سبيل الوصول إلى هذا المنصب ، إلى رشوة الأمراء الاخشيديين وذوى النفوذ فى الدولة الاخشيدية ، وإلى رشوة أولى الأمر فى الخلافة ولا سيما قاضى قضاة بغداد وهذه ظاهرة لم نعرفها قبل العصر الاخشيدى ولا نستطيع تعليلها تعليلا واضحاً ، ولعلها ترجع إلى أن منصب القضاء كان من المناصب الخطيرة فى الدولة ، فضلا عن أن القاضى كان يستطيع أن يستغل منصبه فى جمع الثروة وذلك بقبول الرشوة او بوضع يده على ما يريد من أموال الاحباس .

وقد رأينا كيف كان التهافت على هذا المنصب . ونضيف هنا عدة حوادث تؤكد الاقبال على تولية القضاء والسعى إلى ذلك بكافة الوسائل ، فقد مر بنا أن عبد الله بن وليد القاضى كان يتهافت على هذا المنصب وعرفنا أنه شغله ثلاث مرات . ويقال انه عند ما سعى اليه المرة الأولى ولم يفلح شق عليه ذلك ومرض حتى أشرف على الموت . ووصلت تلك الأخبار إلى العامة فكانوا يتندرون بحالته وينظمون الكلام فى التهكم عليه ومن ذلك قولهم : « عبد الله بن وليد أبرد من حديد ! عبد الله بن وليد هو وارب[1] شهيد ! »[2] .

ورأينا أيضاً كيف عمل بكران بن الصباغ على اقصاء الحسن بن عبد الرحمن الجوهرى عن ولاية القضاء والتمس لنفسه ولاية الأحباس . ولما أجابه الحسين بن هروان إلى طلبه ، بدأ بكران بن الصباغ يعمل على الايقاع بأحمد بن عبد الله الكشى الذى فوض اليه ابن هروان النظر فى الأحكام . ويقال إن هذه الحالة بلغت حداً من السوء « اضطرب معه أمر البلد » وطبيعى أن المقصود بالاضطراب هنا اضطراب الأحكام واضطراب أمور القضاء بسبب التنافس بين الرجلين . وقد عرفنا أن الاخشيد استاء من هذه الحالة وعزل بكران بعد أن وبخه على تصرفه كما أبعد الكشى أيضاً عن القضاء[3] .

---

(١) الوارب المخاتل الداهية .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦١

(٣) المرجع نفسه ص ٥٧٣

وعرفنا أنه عندما تقلد عمر بن الحسن الهاشمى القضاء بعد عزل عبد الله بن وليد فى رجب سنة ٣٣٦ ﻫ تخاصم الرجلان ووصل حديث النزاع بينهما إلى الأمير أبى القاسم أونوجور وإلى الأستاذ كافور . وادعى عمر الهاشمى أن ابن وليد يتصرف فى أموال كثيرة لا صاحب لها فاعتقله كافور، ولكن الهاشمى ووجوه الناس شفعوا فيه حتى أطلق سراحه[١] .

وحينما تولى محمد بن صالح بن أم شيبان قضاء القضاة ببغداد استخلف عبد الله ابن وليد على قضاء مصر وكتب إليه بذلك . ولكن بقى الحصول على موافقة كافور على هذا التعيين ، فذهب جماعة من الفقهاء والعلماء إلى هذا الأمير وحسنوا له ولاية ابن وليد فوعدهم خيرا . ثم تبعهم جماعة آخرون من بينهم ابن الحداد والهاشمى وأبو جعفر مسلم العلوى وتقدموا إلى الأمير بألا يوافق على تولية ابن وليد. وانتهى الأمر بأن ولى كافور عبد الله بن محمد بن الخصيب القضاء نيابة عن محمد بن صالح ابن أم شيبان[٢] . ويظهر أن الخصيبى استطاع أن يتقرب إلى كافور بما كان يقدمه له من المال[٣] .

والغريب فى ولاية هذا القاضى ما يقال عن ورود كتاب من الخليفة المطيع بتولية محمد بن عبد الله بن الخصيب القضاء من قبل محمد بن صالح بن أم شيبان وأن يكون الأب ناظرا على ابنه . ويقال ان الخصيبى نفسه كان يقول : « العمل لابنى محمد وأنا له معين »[٤] .

وقد بلغ التنافس فى القضاء أشده بين الأب والابن فكان الابن يريد أن يوقع كل التوقيعات باسمه ويعزل ويولى دون أن يرجع إلى أبيه ويشترط على الكتّاب ألا يكتبوا

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٥

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧٦ و٥٧٧

(٣) المرجع نفسه ص ٥٧٨

(٤) المرجع نفسه ص ٥٧٧و٥٧٨ و٥٨٠ . وفى روايات أخرى أن محمد بن عبد الله كان ينوب عن أبيه أو انه كان يقضى بمصر خليفة لأبيه فى حياته وأبوه يحضر معه ، المرجع نفسه ص ٥٨١

إلا للقاضى « محمد بن عبد الله » . ويقال ان الخلاف زاد بين الأب والابن ، فإذا قرب الأب أحدا أبعده ابنه[١] .

وهكذا كان محمد بن عبد الله بن الخطيب يحرص على أن يستقل بالقضاء كما كان يحرص على ألا يظهر له أى منافس فى هذا المنصب . ويقال انه بلغه أن أحد الشهود بمصر ، واسمه أحمد بن ابراهيم الاندلسى ، سعى من بغداد لتولى القضاء فأوقع به عند كافور وقبض عليه كافور وكاد يقتله . وكذلك فعل بمنافس آخر : هو أبو بكر محمد بن طاهر النقيب .

وكان مسعى أحمد بن ابراهيم الاندلسى قد نجح فى بغداد فوصل كتاب بتقليده القضاء ولكنه توفى قبل وصول هذا التقليد بخمسة أيام وكان ذلك فى سنة ٣٤٢ هـ . وتوفى محمد بن طاهر أيضاً فى سنة ٣٤٦ هـ فاستراح ابن الخصيبى من الاثنين[٢] .

وهكذا نرى أن القضاء قد فقد استقلاله فى هذا العهد فكان لا بد للقاضى من التقرب إلى الأمير للوصول إلى هذا المنصب ثم كان لا بد له من مداراة الأمير وطاعته ليستطيع الاحتفاظ بمنصبه . وكان لابد له فى كثير من الأحيان من تقديم الرشوة والهدايا ليتقلد المنصب أو يبقى فيه . وهكذا بطلت القاعدة المعروفة وهى أن طالب القضاء لا يولّى

وكثيراً ما كان القضاة يحضرون مجالس الأمراء ويبحثون بعض المسائل فى حضرتهم[٣] . كما كان الأمراء يتدخلون أيضاً فى بعض شئون القضاء ، فيقال ان كافوراً الاخشيدى كلف يعقوب بن كلس بأن يقول للقاضى أبى الطاهر الذهلى : « بلغنى أنك تتبسط مع جلسائك ، وهذا الانبساط يذهب هيبة الحكم » ، فلما أبلغه ذلك ابن كلس رد القاضي بأن قال : « قل للأستاذ لست ذا مال أفيض به على جليسى فلا يكون أقل من خلقى »[٤] . ويقال أيضاً عن أبى الطاهر الذهلى أنه كان

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٨ و ٥٨٠

(٢) المرجع نفسه ص ٥٨٠

(٣) المرجع نفسه ص ٥٦٦ و ٥٦٩ و ٥٧٥

(٤) المرجع نفسه ص ٥٨٢ و ٥٨٣

« كالمحجور عليه فى أحكامه » ، وذلك لأن كافوراً كان يجلس كثيراً للمظالم فى أيام السبت [١] ، كما أنه لم يجعل اليه النظر فى الأحباس منذ سنة ٣٥٠ هـ [٢] .

وكان القاضى حين يتسلم عمله يلبس السواد شعار العباسيين ويركب إلى الجامع العتيق فى موكب من الشهود وأصحاب الشرطة والأمناء [٣] ووجوه أهل البلد ، وكان يقرأ عهد القضاء له فى الجامع [٤] . وكان القاضى الجديد يتسلم أوراق القضايا من القاضى السابق ويختم عليها بختمه ويكسر ختم من سبقه . ولكنه كان يعهد أحياناً إلى أحد الثقاة ليتسلم له من القاضى السابق . ويبدو أن أوراق القضايا فى العصر الاخشيدى كانت تحفظ فى سلال وتختم [٥] مع أننا نعلم أنه منذ ولاية محمد بن مسروق الكندي على قضاء مصر فى فجر الإسلام (١٧٧ — ١٨٤ هـ) كانت أوراق القضايا تختم وتوضع فى قمطر [٦] .

والظاهر أنه كان من عادة قضاة ذلك العصر إذا انصرفوا من مجلس الحكم من المسجد الجامع أن ينصرفوا وبين يديهم الحجاب وسلة القضاء [٧] .

وكان القضاة فى العصر الاخشيدى من مذاهب مختلفة ، فكان القاضى محمد بن بدر الصيرفى حنفيا [٨] ، وكان احمد بن عبد الله الكشى حنفى المذهب أيضا [٩] ، بينما كان

---

(١) ومثل هذا التعطيل حدث لبكار بن قتيبة فى عصر احمد بن طولون فيقال ان احمد بن طولون « قد داوم النظر فى المظالم حتى استغنى الناس من الشرطتين عن القاضى حتى كان بكار ربما نعس فى محله واتكأ ثم انصرف إلى منزله ولم يتقدم اليه اثنان » المرجع نفسه ص ٥١٢ وقارن Zaky M. Hassan : Les Tulunides p. 223

(٢) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٨٤

(٣) كانت هناك وظيفة فى القضاء يعرف أصحابها باسم الأمناء (المرجع نفسه ص ٥٣٣ و٥٦٩ و٥٧٥) ولكننا لا نعرف على وجه الدقة ماهية وظيفتهم وربما كانت مهمتهم المحافظة على أوراق القضايا أو الاشراف على أموال الاحباس .

(٤) المرجع نفسه ص ٥٦٢ و٥٧٥ و٥٧٧

(٥) المرجع نفسه ص ٥٥٠ و٥٦٠ و٥٦٩

(٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٩١ و ٣٩٢

(٧) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٧

(٨) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٥٧

(٩) المرجع نفسه ص ٥٧٢

عبد الله بن زبر والحسين بن أبى زرعة بن عثمان الدمشقى وابن الحداد وعمر بن الحسن الهاشمى وعبد الله بن محمد الخصيب من أتباع المذهب الشافعى [(١)] . أما أبو الذكر محمد ابن يحيى الأسوانى والحسن بن عبد الرحمن الجوهرى وأبو الطاهر الذهلى فكانوا يتبعون مذهب مالك ، إلا أن أبا الطاهر كان لا يتقيد بمذهب مالك فى أحكامه [(٢)] . وكان عبد الله ابن وليد القاضى يميل الى الاعتزال [(٣)] .

وكان بعض القضاة مصريا مثل أبى الذكر بن يحيى الأسوانى وابن الحداد ومحمد بن بدر الصيرفى . وكان البعض الآخر أجنبيا عن مصرأى من الشام أو العراق مثل الحسين ابن عيسى بن هروان والحسين بن أبى زرعة الدمشقى والكشى وبكران بن الصباغ . وكان سلطان القضاة فى مصر لا يمتد إلى الشام أو الحجاز إلا فى حالات معينة ، ومن ذلك أن القاضى الحسين بن أبى زرعه تقلد قضاء مصر والاسكندرية [(٤)] والشام وحمص وفلسطين والرملة وطبرية وأعمال ذلك [(٥)] .

ويقال إن عمر بن الحسن الهاشمى بعد ما تولى قضاء مصر أضيف اليه قضاء الاسكندرية والرملة وطبرية وأعمالها [(٦)] .

وبعد ما ولى عبد الله بن محمد بن الخصيب قضاء مصر أضيف اليه قضاء دمشق والرملة وطبرية [(٧)] . ونعرف أيضا أن أبا الطاهر الذهلى أضيف اليه قضاء دمشق بعد أن ولى قضاء مصر [(٨)] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٣٩ و٥٦٢ و٥٧٥ و٥٧٦

(٢) المرجع نفسه ص ٥٣٢ و ٥٣٣ و ٥٧١ و٥٨١ و٥٨٤

(٣) المرجع نفسه ص ٥٦٥

(٤) نلاحظ أنه منذ العهد اليونانى حتى ذلك العصر الذى نحن بصدده كانت الاسكندرية تعتبر فى معظم الأحيان جزءاً مستقلا عن مصر .

(٥) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٢

(٦) المرجع نفسه ص ٥٧٥

(٧) المرجع نفسه ص ٥٧٧

(٨) المرجع نفسه ص ٥٨٢

وكان القاضى يولى قضاة فى البلاد المختلفة فى مصر أو فى غيرها من البلاد التابعة لنفوذه القضائى . وكان نواب القاضى يكثرون أو يقلون بحسب البلاد التابعة له وأعمالها [١] .

أما الاختصاص النوعى للقاضى فكان غير محدود . والراجح أنه ظل كما كان عليه منذ فجر الاسلام فى مصر فكان إلى القاضى الأحكام الخاصة بالمنازعات المختلفة والمسائل الشرعية والأحباس ونفقة الأيتام ، كما كان القاضى يخرج لرؤية هلال رمضان .

وكانت كل هذه الأمور تجتمع إلى قاض واحد أو توزع بين قاضيين أو أكثر ، فكان الحسين بن أبى زرعه القاضى يتولى بالإضافة إلى النظر فى الأحكام المواريث والأحباس ويشرف على دار الضرب [٢] . وكان بكران بن الصباغ ينظر فى الأحباس بينما ينظر الكشى فى الأحكام [٣] . وفى ولاية أبى الطاهر الذهلى أبعد كافور عنه النظر فى الأحباس منذ سنة ٣٥٠ هـ وسلمها إلى الحسن بن أيوب ويحيى بن مكى [٤] .

والراجح أن القضاة فى ذلك العصر كانوا يتقاضون مرتبات أو أرزاقا كبيرة . وقد يفسر هذا تكالب بعض العلماء على هذا المنصب . وقد رأينا أن مرتبات القاضى فى فجر الإسلام فى مصر تدرجت من مائتى دينار فى السنة (٦٩ — ٨٣ هـ) إلى ١٦٨ ديناراً فى كل شهر (١٩٨ — ١٩٩ هـ) [٥] ، ونعرف أن القاضى بكار بن قتيبه كان يتقاضى فى العصر الطولونى ١٠٠٠ دينار سنويا [٦] . ويقال ان خمارويه كان يمنح القاضى محمد بن عبدة بن حرب ثلاثة آلاف دينار كل شهر [٧]

ولعل المقصود هنا كل سنة وليس كل شهر أو لعلها ثلاثة آلاف درهم [٨] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٥٢ و٥٦٢ و٥٧١ و٥٧٢

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٢ و ٥٦٣

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩٠ و ٥٧٣

(٤) المرجع نفسه ص ٥٨٤

(٥) المرجع نفسه ص ٣١٧ و٤٢١

(٦) المرجع نفسه ص ٥١٢

(٧) المرجع نفسه ص ٥١٦

(٨) راجع عن مرتبات القضاة G. Wiet: The Governers and Judges of Egypt (Journal of the Royal Asiatic Society, July 1914) p. 769.

وكان بعض قضاة العصر الاخشيدى مترفا . ومن ذلك أن الحسين بن أبى زرعه الدمشقى كان ينفق على مائدته أربعمائة دينار كل شهر [١] وهناك نصوص كثيرة تشهد بكرمه وسخائه مما يدل على وفرة ماله بالإضافة إلى كرمه [٢] .

وكان القضاة فى هذا العصر يقضون بين الناس فى جامع عمرو بن العاص أو فى بيوتهم [٣] . والظاهر من النصوص التى وصلت إلينا أن القضاة كانوا يذهبون إلى الجامع للقضاء فى أيام معلومة من أيام الأسبوع ، فكان الحسين بن أبى زرعه يجلس فى الجامع كل سبت [٤] ، ولما استخلف القاضى عمر بن الحسن الهاشمى الفقيه ابن الحداد كان ابن الحداد يجلس للقضاء فى دار العباسى يومى الخميس والسبت وفى داره هو يوم الاثنين [٥] .

وكان القضاة ينيبون عنهم من يساعدهم فى أعمالهم القضائية وغيرها مما يدخل فى اختصاص القاضى . فقد رأينا أن عبد الله بن أحمد بن زبر استخلف أبا بكر بن الحداد ويقال أيضاً انه ولاه النظر فى وقف المارستان وكان يعطيه كل شهر ثلاثين ديناراً . كما استخلف أيضاً أبا بكر محمد بن على العسكرى ، ومحمد بن بدر الصيرفى [٦] ، وعرفنا أيضاً أن الحسين بن أبى زرعه أناب عنه فى الحكم أبا بكر بن الحداد [٧] . ولما ولى عمر بن الحسن الهاشمى القضاء استخلف ابن الحداد ، فكان ابن الحداد يجلس فى دار العباسى يومى الخميس والسبت وفى داره هو يوم الاثنين . وكان إذا خرج العباسى للحج يجلس ابن الحداد فى الجامع [٨] . ولما ولى عبد الله بن وليد القضاء فى سنة ٣٢٩ هـ

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٢

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٣

(٣) المرجع نفسه ص ٤٨٧ و٥٣٩ و٥٥٢ و٥٦٦

(٤) المرجع نفسه ص ٥٦٣

(٥) المرجع نفسه ص ٥٥٣

(٦) المرجع نفسه ص ٥٤٠

(٧) المرجع نفسه ص ٥٦٣

(٨) المرجع نفسه ص ٥٥٣

أناب عنه فى الأحكام ابن الحداد أيضاً . ثم وقع خلاف بينهما فاستخلف ابن وليد احمد ابن محمد بن شعيب الداودى[(١)] .

ونلاحظ بوجه عام أن الفقيه الذى اشتهر فى معاونة القضاة فى ذلك العصر هو ابن الحداد . ولعل ذلك يرجع إلى ثقة القضاة فى أحكامه وفى نشاطه وعمله .

وكان يعاون القضاة طائفة من الشهود كانوا بمثابة موظفين دائمين ، وكان الشاهد المعترف به يسمى الشاهد العدل ، ويعرف الشهود أيضا باسم العدول . وكان القضاة بمصر فى فجر الإسلام يعنون بالسؤال عن الشهود ومعرفة مدى أمانتهم ونزاهتهم . ولكن عبد الرحمن بن عبد الله العمرى الذى تقلد القضاء بمصر بين عامى (١٨٥ و ١٩٤ هـ) أثبت الشهود العدول فى كتاب خاص . وتبعه فى ذلك القضاة من بعده[(٢)] .

والراجح أن الشهود كانوا يشبهون من بعض الوجوه مشايخ البلاد أو مشايخ الحارات فى عصرنا الحالى[(٣)] . فكان على كل شاهد أن يعرف أحوال أهل الحى الذى يسكنه ومنازعاتهم وخصوماتهم ، ومن أجل ذلك كان لشهادة هؤلاء الشهود قيمتها الخاصة فى القضاء . وطبيعى أن المفروض فيهم النزاهة وحسن السيرة .

ونرى طوال العصر الاخشيدى أن كل قاضٍ فى مصر كان يعنى بأمر الشهود عقب توليه هذا المنصب فيوافق على بعض شهود القاض السابق أى يعدلهم أو يعدل شهودا جددا ويوقف من يرى ضرورة إيقافهم أى يسقطهم[(٤)] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٥

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧١ و ٥٧٢ و ٣٨٦ و ٣٩٤

(٣) راجع عن الشهود الكاسانى : بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع ج ٦ ص ٢٦٦ — ٢٩٠ ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٧٤ — ٣٧٨ Omedroz : The Office of Kadi (Journal Roy As. Soc. 1910 p. 779 & seq. .Van den Berg : Principes du droit musulman (Alger 1896) pp. 216 et suiv.

(٤) المرجع نفسه ص ٥٤٠ و ٥٥٨ و ٥٦٣ و ٥٦٨ و ٥٦٩ و ٥٧٠ و ٥٧١ و ٥٧٥ و ٥٨٤

ويظهر أن كثيرا من هؤلاء الشهود كانوا من الأسرات الكبيرة فى البلاد أو من وجوه القوم[١] . وكان رئيس الشهود يعرف باسم مقدم الشهود[٢] .

وكثيرا ما كان للشهود أثر فى تولية بعض القضاة ، وذلك بتشجيعهم بعض الطامعين على السعى لهذا المنصب أو بالشهادة بكفايتهم أمام الأمير[٣] .

ولا نعرف على وجه التحقيق عدد الشهود الذين كان يعدلهم كل قاض ، وهل كان يضمهم إلى من عدلهم سلفه أو يعيد النظر فى أمر الشهود جميعا . ويقال ان القاضى عبد الله بن وليد عدل فى ولاياته الثلاثة على القضاء أربعين شاهدا أو يزيد[٤] .

والظاهر أن ابن وليد استكثر من الشهود[٥] . ويبدو أن القاضى فى العصر الاخشيدى كان يجلس للحكم وعن يمينه ويساره أربعة شهود[٦] .

ويظهر أن اسقاط أحد من الشهود المعروفين أو ذوى المكانة منهم كان يحدث أزمة ، فعند ما أسقط القاضى عبد الله بن وليد مقدم شهوده سليمان وسجل هذا الاسقاط وأشهد عليه الشهود ، رضى جماعة ورفض آخرون . وذهب سليمان إلى دار الاخشيد ليشتكى ابن وليد . وفض هذا النزاع سماية القهرمانة وذلك بأن طلبت من ابن وليد السجل ولما أحضره مزقته وأصلحت بينهما[٧] .

وحدث أن تقلد بعض الشهود منصب القضاء ، كما أن بعض القضاة صاروا شهودا بعد صرفهم عن القضاء ، ومن أمثلة ذلك أبو الذكر بن يحيى الأسوانى ومحمد بن بدر الصيرفى وأبو بكر بن الحداد والحسن بن عبد الرحمن الجوهرى .

---

(١) نرى فى نصوص هذا العصر تكرار هذه العبارة عن القضاة « وعدل جماعةمن الا ومن وجوه مصر » انظر الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٣ و ٥٨٤

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٨ و ٥٦٩

(٣) المرجع نفسه ص ٥٦١ و٥٦٨ و ٥٦٩ و٥٧٦ و٥٨٣

(٤) المرجع نفسه ص ٥٧٠

(٥) المرجع نفسه ص ٥٦٩

(٦) المرجع نفسه ص ٥٥٢ و٥٦٠

(٧) المرجع نفسه ص ٥٦٨

وكان للقضاة كتاب يساعدونهم . ومن ذلك أن الحسين بن أبى زرعه الدمشقى اتخذ الحسن بن عبد الرحمن بن اسحق الجوهرى كاتبا له [١] ، ولما تقلد هذا الكاتب القضاء بعد ذلك اتخذ ابنه الحسين كاتبا له [٢] .

وكان للقاضى عبد الله بن وليد كاتب اسمه حماد ، وقد هجا محمد بن بدر الصيرفى القاضى ابن وليد فى قصيدة طويلة منها :

يا ابن الوليد تدبر ما أتيت به ولا تكن للهوى مستكملا عمما
لو كنت تسمع قول الحق معتقدا أو كنت تخشى عذاب الله معتصما
لما استعنت بحماد اللعين وما رأيت انت له فى صالح قدما
جعلته كاتبا يمضي الأمور ولم يمس فى العلم قرطاسا ولا قلما [٣]

ويبدو من هذه الأبيات أن كاتب القاضى رجل ينتظر أن يكون على شيء من العلم بأمور الدين . ولا عجب فان بعض الكتاب تولوا منصب القضاء فى هذا العصر مثل محمد بن بدر الصيرفى القاضى الذى كان كاتبا للقاضى محمد بن عبدة بن حرب [٤] قاضى خمارويه بن احمد بن طولون . كما أن القاضى الحسن بن عبد الرحمن بن اسحق الجوهرى كان كاتبا للحسين بن أبى زرعه [٥] .

ولسنا نعرف على وجه التحديد عمل كاتب القاضى ، ولكن يبدو أن بعض الكتاب كانوا يعاونون القضاة فى كتابة الأحكام [٦] ، بل وفى تصريف الأمور كما يستنبط من الأبيات السابقة التى قيلت فى هجاء القاضى ابن وليد وكاتبه حماد .

ويظهر أن بعض القضاة كان يعهد الى كاتبه بعمل معين من أعمال القضاء ، فيقال ان عبد الله بن محمد بن الخصيب ، استكتب ابنه ينظر فى الأحباس [٧] ، كما أن بعض

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٣
(٢) المرجع نفسه ص ٥٧١
(٣) المرجع نفسه ص ٥٧٠
(٤) المرجع نفسه ص ٥٥٨
(٥) المرجع نفسه ص ٥٦٣
(٦) المرجع نفسه ص ٥٦٣
(٧) المرجع نفسه ص ٥٧٧

النصوص الخاصة بالقضاء فى هذا العصر تشير إلى فريق من الكتاب يعرفون باسم « كتّاب الشروط » [١] . ولعلهم كانوا ينصرفون الى تسجيل ما يتفق عليه الخصوم .

وكان للقضاة فى العصر الاخشيدى حجاب يستأذنون للناس وللشهود فى الدخول إلى القاضى [٢] .

وكان بعض القضاة فى هذا العصر شديداً فى الحق بينما كان بعضهم ظالماً مستهتراً . وممن عرفوا بالعدل محمد بن بدر الصيرفى . ويقال انه دخل مرة على الوزير أبى الفضل جعفر بن حنزابة « وكان عنده أبو بكر محمد بن على المادرائى مقبوضاً عليه فى المصادرة ، فقال الوزير لمحمد بن بدر : هذا اسماعيل بن بنان وكيل جارية محمد بن على ، فمهما جاءك فيه فامضه ، فقال : حتى يثبت وكالته عندي بشاهدين عليها . فقال له : أنا أقول لك هو وكيل تقول لى « حتى يثبت عندى » ! وخبرك عندى بالتفصيل . وليس هذا موضعك وإنما تريد أن يشيع هذا القول ! أقيموه ! . فأقيم واعتقل ساعة فى داره . ثم خوطب فيه فأطلق ثم أرسل إليه . من تريد من الشهود ؟ وقال : من شهودى الذين أقبلهم . فقبل الوزير ذلك وعظم محمد بدر فى عينه وحسن موقع فعله عنده » [٣] .

وعنى محمد بن بدر بأمر اليتامى وبالأحباس عناية زائدة ويقال انه اشترى — وهو قاض — للأيتام دورا أو رباعا بسبعة عشر ألف دينار . وفضلا عن ذلك فقد كان يخصص صباح كل يوم جمعة للنظر فى أحوال اليتامى [٤] .

ومن الذين عرفوا بالعدالة أيضا أبو بكر بن الحداد [٥] . ومع ذلك يقال إن الأمراء الاخشيديين كلهم كانوا يكرهون ابن الحداد لكراهتهم للشافعيين ولأنه كان متشدداً عليهم . ولكنهم كانوا يحترمونه وكان كثير التردد عليهم [٦]

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٨٠

(٢) المرجع نفسه ص ٥٤٠ و ٥٦٩

(٣) المرجع نفسه ص ٥٦٠

(٤) المرجع نفسه ص ٥٥٩

(٥) المرجع نفسه ص ٥٥٢

(٦) المرجع نفسه ص ٥٥٥

وقد رويت عن ابن الحداد قصة تشهد بشدته فى الحق برغم تدخل أبى المظفر الحسن ابن طغج أخى الاخشيد [١] .

ومن الذين اشتهروا أيضا بحسن السياسة والعدل الحسين بن أبى زرعه الدمشقى [٢] ، وعمر بن الحسن الهاشمى [٣] ، وعبد الله بن محمد بن الخصيب [٤] .

أما القضاة الذين اتخذوا القضاء سبيلا لجمع الأموال فمنهم عبد الله بن أحمد بن زبر . ويقال عنه انه « كان عارفا بأخذ الدراهم والدنانير والهدايا ، وكان مع ذلك لا يقبض درهما ولا يضم هدية حتى يقضى حاجة صاحبها » [٥] . والواقع أن فى المراجع المختلفة قصصا تشهد باستهتاره فى هذا الميدان حتى ليبدو أنه كان لا يحرص على أن يخفى عن الناس سوء خلقه وقبوله الرشوة [٦] . ومع ذلك فقد كان هذا القاضى فقيها عالما حتى قال فيه أحد ذوى الرأى « لو كان ابن زبر عادلا ما عدلت به قاضيا » [٧] . وممن اشتهر أيضا بقبوله الرشوة والبعد عن العدل القاضى عبد الله بن احمد بن شعيب المعروف بابن وليد [٨] .

وكان القضاة فى ذلك العصر ونوابهم الذين ينوبون عنهم فى الحكم بين الناس يلبسون طيلسانا أسود وعمامه سوداء فوق القلنسوة [٩] .

وكان العامة يثورون على القضاة فى بعض الأحيان . ومن ذلك أن جماعة من الفرما شكوا الخصيبى ونائبه ، ولكن كافورا نصره عليهم فأمر بضربهم وطيف بهم

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٧
(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٢
(٣) المرجع نفسه ص ٥٧٥
(٤) المرجع نفسه ص ٥٧٧
(٥) المرجع نفسه ص ٥٤١
(٦) المرجع نفسه ص ٥٤٠ و ٥٤١
(٧) المرجع نفسه ص ٥٤١
(٨) المرجع نفسه ص ٥٦٥ و ٥٦٨
(٩) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٧٨ والملحق ص ٥٤٠ و ٥٥٢ و ٥٦٥

على الجمال . فثار القوم على الخصيبي فى الجامع [1] . ولما استقل ابنه محمد بن عبد الله ابن الخصيب بولاية القضاة بعد وفاة أبيه وركب الى الجامع ثار الناس عليه وحصبوه (أى رموه بالحصباء) فصاح قائلا : « ما الذى يُنقم على وقد عمرت الاحباس ووفرتها وفرقت فى مستحقيها وما ضبط أحد قط أنى ارتشيت أنا ولا أبى ؟ ! » . ولما علم كافور الاخشيدى بذلك أرسل اليه غلاما من غلمانه يسأل عنه [2] .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق أسباب سخط الناس على الخصيبي وابنه . وحسبنا أنهما كانا مكروهين وأن ذلك لا يشهد لهما بالتوفيق فى اقامة العدل بين الناس .

* * *

وكان فى مصر الاخشيدية — كغيرها من أنحاء العالم الاسلامى — ما يسمونه النظر فى المظالم . ويعد الناظر فيها أشبه شيء بمحكمة الاستئناف ومحكمة النقض ومجلس الدولة فى عصرنا الحالى . فكانت تعرض عليه القضايا « اذا عجز القاضى عن تنفيذ حكمه فى قضية رجل من علية القوم أو اذا لجأ اليها المتقاضون اذا اعتقدوا أن القاضى لم يحكم بينهم بالعدل . وكان الغرض الاساسى من إنشائها هو وقف تعدى ذوى الجاه والحسب . ولهذا كانت تسند رئاسة ديوان المظالم لرجل جليل القدر كثير الورع يعرف باسم قاضى المظالم » [3] .

ولكن الواقع فى مصر الاسلامية يخالف ما تكتبه المراجع النظرية فى هذا الشأن . فان اختصاص الناظر فى المظالم كان غير محدود ، فكان دون اختصاص القاضى فى بعض الأحيان وفوقه فى أحيان أخرى . وقد كتب المستشرق فون درهايدن Vonderheyden أن منصب الناظر فى المظالم كان أول مناصب الدولة ، لأن صاحبه كان يراقب

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٧٨

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧٩

(٣) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٣٥٢ — ٣٥٣ وراجع الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦٤ — ٧٦ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠٧

سائر الموظفين ، وبذلك كان يشبه بمفرده كل ما تقيمه الأمم الحديثة من مجالس ولجان لضمان العدالة ومحاربة الاوتقراطية[1] . ولكننا نرى أن هذا القول مبالغ فيه . ولا ريب فى أن أساسه ما جاء فى الاحكام السلطانية للماوردى عن الناظر فى المظالم . والحق أن هذه الاختصاصات كانت نظرية الى حد كبير . وسلطان الناظر فى المظالم لم يكن واسعا إلا حين كان هو الخليفة أو الأمير أو من يقرب من مرتبتهما أو من كان مؤيدا من الأمير حائزا لثقته التامة . وفضلا عن ذلك فان اختصاص الناظر في المظالم واختصاص القاضى كانا يلتقيان فى كثير من الأحيان وكان يصعب أحيانا أن نتبين أيهما أوسع سلطانا[2] . وفى معظم الأحيان كان المرجع النهائى للبت فى المظالم الخطيرة الشأن هو الخليفة أو الأمير نفسه .

وفى بداية العصر الأخشيدى كان القاضى ينظر فى المظالم[3] . وفى سنة ٣٣١ أفرد للنظر فى المظالم قاض مستقل[4] . وبعد مقتل ابن رائق وعودة الاخشيد من الشام سنة ٣٣١ هـ كان هذا الأمير يجلس للنظر فى المظالم بنفسه فى أيام الأربعاء[5] . وبعده كان كافور يجلس كل سبت ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقضاة والشهود ووجوه البلد[6] « وكان القاضى كالمحجور عليه لكثرة جلوس كافور للمظالم »[7] .

* * *

(١) M. Vonderheyden : La Berbérie Orientale sous la Dynastie des Benoul'l-Arab p. 178

(٢) راجع بحث الأستاذ امدروز عن المظالم فى مجلة الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٩١١ ص ٦٣٥ وما بعدها ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٨٠ — ٣٨٦ و G. Von Grunebaum : Medieval Islam pp. 164-165

(٣) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٥٢ ، والسبكى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ١١٣ — ١١٤

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٧٢

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٣٩

(٦) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٨٤ ، والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٨٣ — ٥٨٤

بقى أن نتحدث عن المحتسب . ولسنا نريد هنا أن نفصل الكلام على اختصاصاته كما تبينها المراجع الفقهية والتاريخية [١] . وحسبنا أن نذكر أنه كان يراقب مراعاة أحكام الشرع ويسهر على حسن السلوك العام ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويشرف على نظام الأسواق والطرقات وعلى الباعة والعمال ، ويعمل بوجه عام على حماية الناس من غش التجار والصناع [٢] .

وأقرب المحتسبين عهدا ببداية العصر الاخشيدى هما ابو مقاتل صالح بن محمد الذى تقلد منصب الحسبة قبيل ولاية الاخشيد على مصر [٣] ، ثم محمد بن جعفر القرطى الذى قلده مؤنس الخادم هذا المنصب قبيل ولاية الاخشيد أيضا [٤] .

ومن المحتسبين فى العصر الاخشيدى محمد بن جعفر بن سلام . وقد روى ابن زولاق أن بعض جيران سيبويه المصرى ساءه ولايه ابن سلام على الحسبة فشكاه الى سيبويه فركب معه الى أبى الفضل جعفر بن الفضل فقاله له : « أبا الفضل حفظك الله ورعاك وصانك وأبقاك وليت علينا محتسبا قليل الوفا كثير الجفا طويل القفا فاما ان كفيناه أو أبدلته لنا بسواه . . . » [٥] . ويبدو من هذا النص أن الوزير كان صاحب الرأى الأعلى فى اختيار المحتسب وفى عزله .

وكان المفروض دائما أن يكون المحتسب « رجلا عفيفا خيرا ورعا عالما غنيا نبيلا عارفا بالأمور محنكا فطنا لا يميل ولا يرتشى فتسقط هيبته ويستخف به » [٦] . ولكن

---

(١) راجع الماوردى : الأحكام السلطانية (الباب العشرون) ص ٢٠٨ وما بعدها والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤

و Von Grunebaum : op. cit. pp. 165-167. Levi-Provençal : Le Traité d'Ibn Abdun p. 210
F. Tyan : Histoire de l'organisttion Judiciaire en pays de l'Islam,

(٢) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ والشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة . وزكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى ص ١٧٣ — ١٧٤ وما ذكر فيهما من مراجع

(٣) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٣٩

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٨

(٥) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٣ — ٥٤

(٦) Levi-Provençal : op. cit. p. 210.

الظاهر أن بعض الذين تقلدوا الحسبة فى العصر الاخشيدى كانوا بعيدين عن هذه الفضائل . وحسبنا مارواه ابن زولاق فى هذا الشأن . قال إن سيبويه المصرى لقى المحتسب والحراس بين يديه فقال: « ما هذه الأحراس يا أنجاس ! والله ماثم حق أقمتموه ولا سعر أصلحتموه ، ولاجان أدبتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه ، وما هى إلا أجراس تسمع اباطل يوضع وأقفاء تصفع وبراطيل تقطع ! . لا حفظ الله من جعلك محتسبا ! ولا رحم لك ولا له أما ولا أبا ! »[1] .

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٩

الباب السابع

دراسات فى المجتمع المصرى على عهد الأخشيديين

دراسات فى المجتمع المصرى على عهد الاخشيديين

(١)

طبقات المجتمع

(ا) الاشراف

أوجد الاسلام نوعا من شرف الدم لا يزال باقياً إلى عصرنا هذا ، وذلك فى ذرية أهل بيت رسول الله . وكانوا يأخذون بوصفهم قرابة النبى راتباً من الحكومة ، وكان لهم قضاء مستقل بهم يتولاه نقيبهم الذى يعينه الخليفة [١] . وكان لهم نقيب فى دار الخلافة ونقباء فى المدن الكبرى من ديار الاسلام يعينهم الخليفة أو من فوض الخليفة اليه تدبير الأمور كوزير التفويض وأمير الاقليم . وكان كل من العباسيين والطالبيين أو العلويين يخاطب بالشريف [٢] . وممن ولى نقابة الطالبيين بمصر على عهد كافور الاخشيدى الشاعر أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل طباطباً المتوفى سنة ٣٥٢ هـ [٣] .

والواقع أن أسرة طباطبا كان لها شأن عظيم فى المجتمع المصرى منذ قدم إلى م القاسم الرسى من أولاد السيد ابراهيم طباطبا . وقد توفى القاسم هذا سنة . وفى قرافة مصر مشهد كبير لكثير من أفراد هذه الأسرة [٤] . ومن أعلامها فى الاخشيدى عبد الله بن طباطبا ، وكان « شريفا عفيفاً فصيحاً جميلا وكان له رباع و

---

(١) أنظر الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٢ — ٨٦ (الباب الثامن فى ولا على ذوى الانساب) .

(٢) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦١

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٩ — ٥١ وابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ١

(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٥٩ — ٦٤

ونعمة ودائرة متسعة ، وكان كثير الافتقاد للفقراء والأرامل والمنقطعين »[١] . وتوفى عبد الله بن طباطبا سنة ٣٤٨ . ومن أعلام أسرة طباطبا فى العصر الاخشيدى أيضاً الحسن بن على بن محمد بن احمد بن على الحسن بن طباطبا وكان من الزهاد وتوفى سنة ٣٥٤

وكان الاشراف فى مصر موضع الاحترام والتكريم من الشعب والحكومة فى العصر الاخشيدى . وقد مر بنا أن الحسن بن طاهر العلوى سفر بين الاخشيد وابن رائق حينما جاء ابن رائق مهاجما مصر سنة ٣٢٧ هـ[٢] . والمعروف أيضا أن الاخشيد أرسله إلى سيف الدوله ليفاوضه من أجل السلام وتحديد الحدود بين أملاكهما[٣] .

وقد مرت بنا بعض قصص عن كافور تشهد بتكريمه العلويين . ونضيف هنا قصة تروى عما حدث لكافور ذات مرة مع سيدة علوية . فقد قيل ان امرأة وقفت له فى طريقه وصاحت به : ارحمنى يرحمك الله ! فدفعها أحد رجاله فسقطت فاغتاظ كافور وأمر بقطع يده فقامت تشفع له فتعجب من مكرمتها وقال : اسألوها عن أصلها فما تكون إلا من بيت عظيم . فسئلت فاذا بها علوية فعظم الأمر على كافور وقال : قد أغفلنا الشيطان عن نساء الأشراف . وأحسن اليها وتفقد سائر نساء الأشراف وأدر عليهن الاحسان والجرايات[٤] .

وكانت وساطة العلويين وشفاعتهم مقبولة عند الأمراء الاخشيديين[٥] . وكانت لهم منزلة سامية عند كبار القوم وأفراد الشعب . ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد أن الحسن بن طاهر العلوى توسط فى صلح بين القاضى الحسين بن ابى زرعة والفقيه

---

(١) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦٠

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥

(٣) المرجع نفسه ص ٤٢

(٤) المرجع نفسه ص ٤٨

(٥) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص٥٧٦ وأنظر أيضاً ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦٠ — ٦٤ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨

أبى بكر بن الحداد وذهب ومعه ابن الحداد إلى دار أبى زرعة ووجده فى الطابق العلوى بها. ونزل ابن ابى زرعة « ومر عليهما فسلم ولم يجلس عندهما وتوجه إلى مكان آخر فجلس فيه واستدعاها ، فلما دخلا عليه قام وتلقاهما . وفعل ذلك أدبا مع الشريف لئلا يقوم اليه . واستحسن من رأى ذلك عنده وعدّوه من آدابه »[١] .

وروى أن أبا بكر محمد بن على المادرائى لما عاد من معتقله فى الرملة بعد وفاة الفضل بن جعفر بن الفرات وخرج من دار الاخشيد بعد أن خلع عليه الأمير سار الشريف أبو جعفر مسلم بين يديه ولم يعلم به المادرائى إلا فى سوق السراجين[٢] فحلف عليه حتى ركب[٣] .

والظاهر أن بعض أوساط الناس كانوا ينقدون — فيما ينقدون من أحوال البلاد بوجه عام — ما كان للعلويين من مكانة وسلطان . ومن ذلك ما حدث بين الشريف أبى محمد عبد الله أخى مسلم والأديب سيبويه المصرى . فقد قيل ان هذا الشريف جاء يوما إلى سيبويه وقال : سلام عليكم ! فقال سيبويه : السلام على من اتبع الهدى وتجنب الردى وسلك الطريقة المثلى ولم يتشبه بكسرى وبهرام وسابور وشهرام ! ارجع إلى مص النوى فهو أصلح لك وأولى ![٤] .

وجاء سيبويه المصرى يوما الى الشريف أبى جعفر مسلم وقال : «جئت يا أيها الشريف فى حاجة . أريد قبة على بغل نقل يحمل جميع آلة السفر من وطاء وغطاء ومستعمل فانى خارج فى غد إلى مسجد موسى أصلى فيه وأدعو ، فقال له مسلم : السمع والطاعة

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٣

(٢) السراجون صانعو السروج : ولم يذكر المقريزى بين أسواق مصر والقاهرة (الخطط ج ٢ ص ٩٤ وما بعدها سوقاً للسراجين فى عصره . بل أشار إلى صناعة السروج فى سوق الجميين) والراجح عندنا أن لفظ السراجين كان أكثر شيوعا فى المغرب، ومن ثم استعمله ابن سعيد الذى تنقل عنه القصة التى نحن بصددها أنظر A. Cherbonneau : Dictionnaire Arabe-Francais t. 1 p. 449. Kasimirski : Dictionnaire Arabe-Francais t. 11 ويبدو أن لفظ السراج كان يطلق أحياناً على النقاش بيوية الأخشاب أنظر Dozy : Supplément t. 1. P. 645

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٤

(٤) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣١ ؛ أنظر أيضاً المرجع نفسه ص ٣٥

ما تفتح باب دارك غدا إلا والجميع على الباب . ثم دعا بالفراشين فأخذوا فيما يحتاجون إليه فقال له سيبويه : وحقك ياشريف ما أخرج إلا للصلاة والدعاء للمسلمين أن يريحهم الله من هذا الأسود الخصى فقد كدر الحياة وأعاب الولاة وأفسد الصلاة وما الله عنه بساه. ثم قام منصرفا وبقى مسلم مطرقا ثم قال فى مجلسه : ألا ترون أى بلية ؟! ان أرسلت إليه خفت من الأستاذ . وأن لم أرسل إليه وقعت فى لسانه وفى سبه »[١] . والواقع أن الشريف لم يستطع الخروج من هذا المأزق الا بفضل حيلة جعلت سيبويه يسعى إليه ويطلب منه أن يرجىء تنفيذ كل ما تقدم به .

(ب) علية القوم

وطبيعى أن كان بمصر على عهد الاخشيديين طائفة من علية القوم أنهضهم اليسار . وكان منهم كبار الموظفين والملاك والتجار . وكان على رأس هذه الطائفة أسرة المـاذرائيين ، وقد فصلنا الـكلام عليهم فى غير موضع من هذا الـكتاب . ولـكننا نضيف هنا بعض الأخبار التى تشهد بعلو مكانتهم فى مصر إلى حد جعل ابن زولاق يخصهم بكتاب من تأليفه[٢] ، فضلا عما ذكره عنهم فى كتبه : سيرة محمد بن طغج الاخشيد ، وتتمة أمراء مصر ، وتتمة قضاة مصر للـكندى ، وسيرة سيبوية المصرى ، وسيرة جوهر[٣] .

وكان للمـاذرائيين فى مصر الضياع الواسعة ، وكان كبار هذه الأسرة يتخذون الحجاب تشبها بالأمراء . وكان لمحمد بن على المـاذرائى ديوان كبير يشرف على نحو ستين ألف محتاج كانت تجرى عليهم الأرزاق[٤] . وكان الاخشيد ينكب المـاذرائيين أحياناً ويصادر كثيراً من أملاكهم وكانت العامة تحرق دورهم وتنهب ضياعهم ، ولـكنهم كانوا ينهضون وتعود اليهم مكانتهم وثرواتهم فى فترة قصيرة جداً ، ويبدو أن سلطانهم كان يمتد إلى كثير من نواحى النشاط الاقتصادى فى البلاد حتى ليصعب تجريدهم من أموالهم تماماً .

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٥ — ٥٦
(٢) «كتاب سيرة المـاذرائيين كتاب مصر» .
(٣) راجع ما كتبناه عن ابن زولاق فى تصدير هذا الـكتاب وما أشرنا إليه من المراجع .
(٤) المقريزى : المقفى (فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٥

بل إن الاخشيد كان حين ينكب المـاذرائى ويأمر باعتقاله يحرص على أن يكون هذا الاعتقال فى قصر يليق بمكانة المـاذرائى . وقد مر بنا أنه قال مرة عن ترف دار أعدها لاعتقال محمد بن على المـاذرائى : « نعم هذا ملك ! وأردت أن لايحتقر بشيء لنا ولايحتاج أن يطلب حاجة إلا وجدها ، فانه ان فقد عندنا شيئاً ممـا يريده استدعى به من داره فنسقط نحن من عينيه عند ذلك » [١] .

وكان المـاذرائيون يعيشون فى ترف ظاهر ولـكنهم كانوا إلى جانب هذا يغدقون الخير والاحسان على الفقراء والمحتاجين . وكان لهم جوسق عظيم بنى على هيئة الـكعبة « وكان أهل الرياسة يجتمعون عنده فى الأعياد ويوقدون فيه الشموع الـكثيرة ويجتمع عنده القراء ويتلون فيه القرآن وتأتى المـاذرائيون ويفرقون الجوائز فى ذلك اليوم رغبة لمـا فى ذلك المـكان من الخير والبركة : وقال الـكعبى . ما رأيت من بكا حوله الفقراء والارامل والأيتام كالمـاذرائى لمـا مات » [٢] .

وممن وصلت إلينا أسماؤهم من علية القوم فى العصر الاخشيدى أبو جعفر أحمد ابن نصر . ولعله أحمد بن نصر الذى قلده الفضل بن جعفر الخراج بمصر قبل دخول الاخشيد [٣] . ومهما يكن من الأمر فان أبا جعفر بن نصر كان من دعاة المعز لدين الله فى مصر قبيل الفتح الفاطمى [٤] . وكان يبر سيبويه المصرى وحدث أن أبطأ عليه بره ومر سيبويه بدار شيدها احمد بن نصر فقال : « كافور الأسود غداً يؤخذ بأذنه . إنمـا بنيت هذه الدار لصاحب المغرب تؤخذ فيها البيعة على كل تابع ومتبوع وذليل ومرفوع . تغير فيها الأحوال وتحمل اليها الأموال » [٥] فلمـا بلغ ابن نصر هذا التهديد أرسل اليه ما أرضاه .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦

(٢) ابن الزيات : الـكواكب السيارة ص ١٥٥ أنظر أيضاً ابن كثير : البداية ، ج ١١ ص ٢٣١

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١١

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٣

(٥) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠

ومن علية القوم فى العصر الاخشيدى أيضاً أبو الحسن محمد بن عبد القاهر وأبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن اسحق الجوهرى [١] وابن اريخا [٢] وابن برك التاجر [٣] .

(ج) سواد الشعب

يحكى عن الفضل بن يحيى أحد رجال الحاشية فى العصر العباسى أنه قال : « الناس أربع طبقات » :

١ — ملوك قدمهم الاستحقاق .

٢ — ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى .

٣ — وعلية أنهضهم اليسار .

٤ — وأوساط ألحقهم بهم التأديب ، والناس بعدهم زَبَد جُفَاء وسَيْل غُثَاء ، لُكع ولُكاع ، وربيطة اتضاع هم أحدهم طعمه ونومه [٤] .

والحق ان المؤرخين المسلمين لم يعنوا بغير الطبقات الأربع التى أشار اليها الفضل ابن يحيى [٥] ، أما سائر الناس من سواد الشعب فلا نكاد نعرف عنهم من المراجع القديمة ما يناسب نسبتهم الكبيرة بين سكان البلاد . وإذا صح أننا نعرف شيئا عن حياة العامة من كتب الأدب وبعض كتب الفقه ، فاننا لا نكاد نعرف شيئا خاصا عن حياتهم فى العصر الاخشيدى إلا ما سيأتى ذكره فى الصفحات القادمة حين نعرض للأعياد والعادات وما إلى ذلك .

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٨

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٣

(٣) ابن زولاق ، أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠

(٤) الهمدانى ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١

(٥) كتب المقريزى فصلا « فى ذكر أقسام الناس وأصنافهم وبيان جمل من أحوالهم وأوصافهم » وهو غنى ببيانات تكشف عن حال المجتمع فى عصر المماليك . انظر المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٢ — ٧٤

(د) أهل الذمة

كان فى مصر على عهد الاخشيديين كثير من المسيحيين ، أغلبهم من القبط الذين ظلوا على دينهم ، كما كان بها بضعة ألوف من اليهود . وليس فى الشريعة الاسلامية ما يغلق دون أهل الذمة أى باب من أبواب الأعمال العامة التى لا شأن للدين بها ولذا كان نشاطهم ملحوظا فى الأعمال التى تدر الأرباح الوافرة . فكان منهم أصحاب الضياع والأطباء[١] ، والصيارفة والتجار .

وكان لأهل الذمة محاكمهم الكنسية الخاصة بهم ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يحتكموا إلى القضاة المسلمين[٢] ، وكانوا يدفعون الجزية كل بحسب الطبقة التى ينتمى اليها . ولسنا نعرف تماما عدد الطبقات التى كانوا ينقسمون اليها فى حساب الجزية فى العصر الاخشيدى ولكن الراجح أنهم كانوا ثلاث طبقات : دنيا وعلى أفرادها دينار فى السنة ، ووسطى يدفع أفرادها دينارين ، وعليا يدفع أفرادها ثلاثة دنانير فى السنة[٣] .

ولا نسمع فى العصر الاخشيدى شيئا عن التزام أهل الذمة القوانين الخاصة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى اللباس والركوب[٤] . والراجح أن القبط كانوا لا يزالون يحتفظون بلغتهم القبطية وأنهم لم يتركوها إلا حوالى أواخر القرن الرابع الهجرى[٥] .

---

(١) روى ابن زولاق فى كتاب أخبار سيبويه المصرى (ص ٤٣) قصة يمكن أن يستنبط منها أن من بين أسماء الأطباء النصارى فى العصر الاخشيدى هاشم وابن توفيل وارسانه وقوريل ومرجب وابن عثمان . ولكنه نص غامض ولم نجد ما يؤيده فى طبقات الأطبا لابن أبى أصيبعة .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٥١ و ٣٩٠

(٣) أنظر أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ ، ويحيى بن آدم القرشى : كتاب ا. ص ٥١ ، والماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٨ ، وسيدة كاشف : مصر فى فجر الا ص ٣٨ — ٤١ ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٧٤ — ٧٥

(٤) راجع الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ١٠٠ و ج ١١ ص ٣٦ ، وأبو يو كتاب الخراج ص ٧٢ — ٧٣ ، والماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٩ ، وسيدة كا مصر فى فجر الاسلام ص ٢٠٣ — ٢١٥ ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٨٢

(٥) راجع متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٨٩ وما أشار اليه من المراجع القديمة

وكانت العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة فى العصر الاخشيدى طيبة فى معظم الأحيان . وكانت المشاغبات بين الفريقين تنشأ حين يقصد الشعب أن يحارب تسيطر أهل الذمة على الشئون المالية فى البلاد وحين ينتصر البيزنطيون على المسلمين فى أطراف الشام وحين يحتج المسلمون على السماح للمسيحيين بتعمير الكنائس .

ومن ذلك ما يروى عن هياج العامة وتخريب الكنائس فى مصر حين ورد الخبر بأن البيزنطيين دخلوا الشام سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) وقتلوا وخربوا [١] . ولما غزا الامبراطور نقفور جزيرة اقريطش فى العام التالى وخرب ما فيها من المساجد وسبى من أهلها خلقا كثيرا ووصل خبر ذلك إلى مصر ثار العامة وخربوا احدى الكنائس فى مصر القديمة [٢] .

ومما روى ابن زولاق قصة لسيبويه المصرى مع موظف كبير من الموظفين فى العصر الاخشيدى كان قد قطع عطاءً يتناوله سيبويه من ديوان الاحباس فشتمه سيبويه وعيره بأنه « عمار الكنائس » [٣] .

ويبدو أن أولى الأمر كانوا يستكتبون الشعراء المسلمين قصائد ينسبونها إلى المسيحيين ويذكرون فيها ما فعلوه فى المدن الاسلامية وأهلها وذلك استنهاضا لهمم المسلمين وحثا لهم على الأخذ بالثأر . ومن ذلك القصيدة المعروفة باسم القصيدة الأرمنية التى تنسب إلى شاعر ارتد عن الإسلام واتصل بالامبراطور نقفور ونظم هذه القصيدة حول منتصف القرن الرابع الهجرى وزعموا أنه أرسلها إلى الخليفة المطيع لله . ومن أبياتها :

ثغورُكم لم يبقْ فيها — لوَهْنكم وضعفكم إلا رسومُ المَعَالِمِ

فتحنا الثغورَ الأرمَنيةَ كلها بفتيان صدقٍ كالليُوثِ الضراغمِ

واقريطشُ قد جازت إليها مراكبى على ظهر بحرٍ مُزْبِدٍ متلاطمِ

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ١١٦
(٢) المرجع نفسه ص ١١٧
(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٠ — ٥١

فحزتهم أسرى وسيقت نساؤهم ذواتُ الشعورِ المُسْبلاتِ النواعمِ
إلى حلب حتى استبحنا حريمَها وهدّم منها سورَها كُلّ هادمِ
أخذنا النِّسا ثم البنات نسوقُهم وصبيانَهم مثلُ المماليكِ خادمِ
ومصرُ سأفتحها بسيفى عنوةً وآخُذُ أموالاً بها وبهائمِ
وأجزِى كافورا بما يستحقُّه بمشْطٍ ومقراض وقصٍّ محاجِمِ

وهكذا تسير أبيات هذه القصيدة معددة الأقاليم الإسلامية وما فعله المسيحيون فى الانتصار عليها وما يريدون إتمامه للقضاء على الإسلام وأهله ، إلى أن تنتهى بهذه الأبيات :

هنالك تخلو الأرضُ من كل مسلمٍ لكل نقِي الدينِ أغلف زاعمِ
سأفتح أرضَ الله شرقا ومغرباً وأنشر ديناً للصليب بصارمِ
فعيسى علا فوقَ السموٰاتِ عرشُه يفوزُ الذى والاهُ يوم التخاصمِ
وصاحبُكم بالترب أودى به الثرى فصار رفاتا بين تلك الرمائم (١)

ولا شك فى أن انتصارات البيزنطيين فى شمالى الشام ومثل هذه القصائد وما اليها من الأخبار التى كانت تروى استنهاضا لهمم المسلمين ، كل ذلك كان يؤدى فى بعض الأحيان إلى توتر العلاقات بين المسلمين والنصارى فى مصر والشام وغيرهما من ديار الاسلام.

وكان يحدث أحيانا أن يتدخل الأمير الاخشيدى بين المسيحيين لفض الخصومات التى تقوم بين الشيع والطوائف المختلفة . وقد انقسم المسيحيون على أنفسهم فى تنيس انقساما كبيراً بدأ قبيل ولاية الاخشيد واستمر حتى تدخل فيه هذا الأمير . ففى سنة ٣٢٢ مات أسقف تنيس وكان بينه وبين البطريرك وحشة وولى الأخير على تنيس أسقفاً من بين أنصاره من أهلها يسمى تاوفيلس ، ولكن أهل تنيس خاصة والأقباط

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٤٤ — ٢٤٧

عامة انقسموا حزبين: أحدهم مع البطريرك والأسقف تاوفيلس والآخر عليهما ، واجتمع إلى تاوفيلس بنوه واخوته وجماعة من أهل البلد « وقصد استصلاح من كان نافراً وجعل يقصد منازلهم راجلا وخفض جناحه لهم ولاطفهم فلم يغنه ذلك شيئاً وقام لكل من الحزبين غرض فى نصرة هواه حتى كان الأب لا يكلم ابنه ولا المرأة تخاطب بعلها وانتشت الحرومات بينهم وصارت القرابين تنتقل من هيكل إلى هيكل وتكسر على المذابح ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسلطان ، وخرج جماعة من النافرين عنه من أهل تنيس من النصارى إلى الاخشيد محمد بن طغج بمصر »[1] . فأرسل الاخشيد معهم قائداً على رأس جماعة من الجند وقبض على البطريرك وعلى الأسقف تاوفيلس وختمت الكنيسة ومنع الناس من الصلاة فيها وحمل ما فى خزائنها من الأموال والتحف إلى الاخشيد ولم يأمر باعادته اليها إلا بعد وساطة طائفة من وجوه القبط وكتابهم .

وليس فى النصوص التاريخية والأدبية التى وصلت الينا من العصر الاخشيدى ما يشير الى وجود أحياء مخصصة لأهل الذمة فى الفسطاط بحيث لا يتعدونها . وإن كان طبيعياً أن يؤثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين . وكان فى الصحراء الغربية والصحراء الشرقية أديرة لا يزال بعضها قائماً حتى اليوم .

(هـ) الرقيق

كانت مصر فى العصر الاخشيدى من أعظم أسواق الرقيق الأسود وكانت القوافل تجلب اليها العبيد من الجنوب . وكان الرقيق الأبيض يصل الى أسواقها من بيزنطة وارمينية وثغور البحر الأبيض المتوسط ومن أسواق الرقيق فى سائر ديار الاسلام . وكان تجار اليهود يستأثرون بجلب الغلمان والجوارى من أوربا[2] .

---

(١) تاريخ يحيي بن سعيد الانطاكى ص ٩٤ و ٩٥

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣١٥

وكان المسلمون يحسنون معاملة عبيدهم وإمائهم فى معظم الأحيان ، وذلك عملا بروح الاسلام وتعاليمه . وكان من البر والعادات المحمودة أن يعتق السيد كثيرا من العبيد الذين يملكهم . ومن ذلك ما يقال عن عتق محمد بن على المـاذرائى مائة الف مملوك فى حياته [١] . وفى هذا مبالغة واضحة ، ولـكنه يشهد باقبال هذا الوزير على مرضاة الله بمثل هذا العمل النبيل . وكانت لهذا المـاذرائى جارية عالية القدر رفيعة المنزلة ، اسمها ست الناس [٢] . ولعلها المقصودة فى نص جاء في ابن زولاق عن جارية المـاذرائى كانت تجلس فى شباك من شبابيك قصره وحولهـا جواريها قيام بالمذاب [٣] .

ويلوح أن السيد الذى كان يعتق عبداً أو جارية له كان يحرر وثيقة بذلك . وقد وصلت الينا وثيقة من هذا النوع محفوظة فى دار الـكتب المصرية ، ولـكنها لا ترجع الى العصر الاخشيدى نفسه بل الى سنة ٣٩٣ هـ . (١٠٠٣ م) [٤] ونرجح أن ذلك كان متبعا فى العصر الاخشيدي أيضا .

وكان كثير من العبيد المعتقين يحملون السلاح وينخرطون فى سلك الجيش ، وكان بعضهم يصل الى مكانة عالية فيه ، وقد يعده ذلك لتقلد بعض الوظائف الرئيسية فى الادارة ، وفضلا عن ذلك كان لبعض الغلمـان والجوارى سلطان كبير على سادتهم .

ولـكن المعتقين كانوا لا ينجحون تمـاما فى التخلص من وصمة الرق ، ولا ريب فى أن قصائد المتنبي فى هجاء كافور تفصح عن احتقار الرأى العام للأرقاء المعتقين ، وحسبنا قوله .

فَلَا تَرجُ الخَيْرَ عِندَ امرِئٍ ... مَرَّتْ يَدُ النَّخَّاسِ فِي رأْسِهِ [٥]

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٢

(٢) المقريزى : المقفى (النص العربى فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٦

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٥

(٤) A. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library 1. p. 61

(٥) ديوان المتنبي ص ٤٣٠

وقوله أيضا :

العبدُ ليسَ لحرٍّ صالحٍ بأَخٍ لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيابِ الحُرِّ مَولودُ [١]

وكانت مصر فى العصر الاخشيدي غاصة بالعبيد الأباق ، شأنها فى ذلك شأن سائر ديار الاسلام فى القرن الرابع الهجرى . وكان معظم العبيد الأباق يشتغلون فى الأعمال الزراعية .

(١) ديوان المتنبي ص ٤٣٣

(٢)

الجيش والبحرية

(١) الجيش

عرفنا أن الجيش والاسطول كانا عدة الاخشيد فى دخول مصر والتمكين لنفسه فيها بالقضاء على سلطان المعارضين لإمارته . وكان الجيش فضلا عن ذلك عدته فى صد غزوات أعدائه كابن رائق وسيف الدولة والفاطميين .

والمعروف أنه حين قدم الاخشيد إلى مصر كان الجند فيها قد انقسموا طائفتين : أهل الشرق أو المشارقة وعلى رأسهم قائد يدعى حبكويه ، والمغاربة وعلى رأسهم حبشى ابن احمد . وكان بين الطائفتين منازعات كثيرة أدت إلى نشوب القتال بينهما [١] . وأكبر الظن أن أساس تلك المنازعات تعدد الاجناس والطوائف التى كان يتألف منها الجيش فى ذلك الوقت .

وكذلك كان الجيش على عهد الاخشيد يتألف من ترك وسودانيين ومغاربة ومماليك من أجناس مختلفة . ويقال إن الجيش الاخشيدى بلغ اربعمائة ألف مقاتل فى مصر والشام [٢] . ولكن علينا أن نقبل هذا الرقم بتحفظ كبير لأن المبالغة فيه واضحة ، وحسبنا أن نفكر فى أن مثل هذا العدد لم يكن من السهل تموينه أو تدبير الثكنات له فضلا عن أنه لا يتناسب مع عدد سكان البلاد فى ذلك الوقت ولا مع القوة اللازمة للدفاع عنها .

ويقال ان جيش الاخشيد كان أعظم جيوش عصره فلما استدعاه المتقى واقترب من مدينتى الرقة والرافقة أشرف أهلهما على السواحل والأسوار ونظروا من عظم العسكر وحسن عدته مالم يشاهدوا مثله [٣] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٢ و ٢٨٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ وابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٣

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٥٢ نقلا عن كتاب العيون والحدائق (مخطوط برلين رقم ٩٤٩١ ص ٢١٣ ب) .

ولما توفى الاخشيد واستبد كافور بالأمر ولم يبق شيء من الأمر لأونوجور ولا لأخيه من بعده ضم إلى جيشه عدداً كبيرا من السودانيين [١] . والراجح أنه فعل ذلك ليكونوا عدة له ولا سيما بعد أن انقسم الجند إلى طائفتين: الاخشيدية والكافورية .

ولسنا نعرف من النصوص التاريخية ما يعيننا على البحث فى نظام الجيش الاخشيدى وعدده ورواتب القواد والجند وعتادهم وما إلى ذلك مما يعنى به المؤرخون المحدثون ، بعد أن كان المؤرخون المسلمون فى العصور الوسطى يهملونه إلى حد كبير .

والراجح أن حفظ النظام بين الجند فى العصر الاخشيدى كان أمرا شاقا وذلك لكثرة العناصر التى كان يتألف منها الجيش . ولكن الاخشيد وفق فى هذا الميدان بفضل حزمه وبعد نظره ، وما تهيأ له من صفات القيادة والزعامة . ولا شك فى أن الرواتب والمنح والعطايا التى كانت تغدق على القواد والجند كان لها أثر طيب فى كسب رضاء الجيش وبث الطاعة والاخلاص بين صفوفه . فضلا عن أن الحروب المتصلة والأخطار التى تعرضت لها الدولة ، كل ذلك جعل القواد والجند أمام أهداف يجب الوصول اليها وأعداء يجب التغلب عليهم فكان لا بد لهم من نظام يعينهم فى هذا السبيل .

وعلى الرغم من مهارة كافور وبعد نظره وخبرته فى القيادة والزعامة فان فريقا من الجند ساءهم استبداده بالأمر فانقسم الجيش ، كما مر بنا ، إلى جند ينصرون أبناء الاخشيد وآخرين ينصرون كافورا . ويبدو أن كافورا كان يعتمد على المال والعطايا فى القبض على زمام الجيش . ويقال ان القواد كانوا يجتمعون فى داره فيخلع عليهم ويمنحهم الهبات الكبيرة . ويروى أنه أمر لأحد القواد من أنصار أولاد الاخشيد بأربعة عشر الف دينار فى يوم واحد فظل هذا القائد عبدا له حتى مات [٢] .

أما بعد وفاة كافور فقد دبت الفوضى إلى صفوف الجيش وثار كثير من الجند على رؤسائهم وطالبوا بأرزاقهم ، وكان هذا كله من الأسباب التى أدت إلى انهيار الدولة

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٧

الاخشيدية ونجاح الغزو الفاطمى [١] . وذلك أن تدبير أمور الجند بعد وفاة كافور أصبح لسمول [٢] الأخشيدى [٣] ولكنه لم يكن موفقاً فى قيادته . ولا سيا بعد أن تعود الجند أن يشترى الأمراء طاعتهم بالمال والعطايا . وهكذا نراهم يطلبون إلى الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات من الأموال ما لم يستطع دفعه ، فلما تبين لهم عجزه نهبوا داره ودور نفر من أتباعه وكتب فريق منهم إلى الخليفة الفاطمي يزينون له فتح مصر [٤] .

ومن البيانات التى نعرفها عن الجيش فى العصر الاخشيدى أن محمد بن طغج كان يستعرض الجيش فى أيام الأعياد وفى بعض المناسبات الأخرى ، كما كان يفعل ابن طولون من قبله [٥] . وكان قواد الجيش يشتركون مع وجوه البلاد فى التشاور بشأن تولية الأمراء وإعلان الولاء لهم [٦] .

وكان محمد بن طغج الاخشيد وكافور يخرجان على رأس الجيش فى المعارك المختلفة فى معظم الأحيان . ولكن الاخشيد أناب عنه على بن محمد بن كلا على رأس الجيش الذى أرسله إلى الشام بعد مقتل محمد بن رائق [٧] . كما أرسل فاتكا وكافورا على رأس جيوش إلى الشام سنة ٣٣٣ هـ [٨] ، وكان يرسل اخوته فى بعض الأحيان على رأس المعارك الحربية المختلفة .

---

(١) تاريخ يحيي بن سعيد الانطاكى ص ١٢٩
(٢) فى بعض الروايات شمول بالشين المعجمة . أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠ حاشية
(٣) ينسب فى بعض الأحيان إلى كافور فيقال سمول الكافورى ، أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٦
(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص٣٠٣ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص٢٣ و ٢٤
(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٦
(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص٣٢٧
(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩١
(٨) المرجع نفسه ص ٢٩٢

وكان من عادات الجند فى المعارك أن يرسلوا الأسرى إلى الحاضرة ومعهم رؤوس الجند القتلى للدلالة على ما أحرزوه من النصر والظفر ولتطمئن النفوس . وذلك أن ورود أى أخبار غير مطمئنة من ميدان القتال كان من شأنه أن يثير الذعر بين الناس حتى لقد يضطر أولو الأمر إلى الطواف فى الحاضرة لتهدئة الخواطر ومنع السكان من مغادرة المدينة [١] .

وقد وصلت إلينا وثيقة على ورق محفوظة الآن فى مجموعة الأرشيدوق رينر فى ڤينا تتضمن تقريراً مقدما من قائد فرقة من الجند قامت برحلة استطلاعية على حدود البلاد استغرقت اثنى عشر يوماً . وحدث أثناء عودتها إلى الفيوم أن أراد القائد اختصار الطريق فقاد الجند فى الصحراء وضل بهم الطريق ثلاثة أيام بلياليها وكاد الجند يموتون من العطش ولكن الله هيأ لهم النجاة فوصلوا إلى الفيوم سالمين [٢] .

(ب) البحرية

ومما يؤسف له أن النصوص التاريخية التى وصلت إلينا عن البحرية الاخشيدية نادرة جداً ، مع أننا نعلم أن صناعة السفن فى مصر وخاصة السفن الحربية كانت من أهم الصناعات فى فجر الإسلام ، كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر فى عظمة البحرية الإسلامية ، إذ كانت الخلافة تعتمد عليهم فى إنشاء أسطولها الحربى . بل المعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط وظل كذلك إلى زمن معاوية بن أبى سفيان . وكان اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية وكانت صناعة السفن مزدهرة فى جزيرة الروضة وفى القلزم (السويس) وفى الاسكندرية [٣] .

وكذلك اهتم الطولونيون بالبحرية . ولكن السيادة فى البحر فى ذلك العهد كانت قد عقدت لبنى الأغلب الذين هزموا الاسطول البيزنطى واستولوا على صقلية ومالطة

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٨

(٢) Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung p. 255 No. 986

(٣) أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٩٠ — ٩٢ و٩٤ وما ذكر فيه من المراجع القديمة و Aly Mohamed Fahmy: Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranaen

ونهبوا السواحل الإيطالية بل وصلوا أحياناً إلى روما . وكان هناك أيضاً ركن من الإمبراطورية الإسلامية اقتضى موقعه الجغرافى أن يكون له أسطول كبير . وهو منطقة الثغور بين أملاك الروم والمسلمين . والمعروف أن أسطول الخلافة فى طرسوس هو الذى قام بقيادة دميانة لمساعدة القائد محمد بن سليمان فى حملته على مصر ونجح فى القضاء على الأسطول الطولونى فى تنيس حين تعرض لمنعه من التقدم فى مياه النيل [١] .

ولما تقلد الاخشيد إمارة مصر دخل البلاد وأقبل معه أسطول بقيادة صاعد ابن كلملم ودخل هذا الأسطول ثغر دمياط وسارت سفنه فى النيل بعد أن هزمت السفن المصرية فى شعبان سنة ٣٢٣ هـ ، ووصل الأسطول إلى جزيرة الروضة واستولى على مافيها من السفن فى رمضان من السنة نفسها [٢] .

وقد عرفنا فى الفصول السابقة أن ابن طغج بعد أن دخل مصر ونزل بدار الامارة فيها ، ثار عليه بعض الثوار واشتبكوا مع جيوشه وأسطوله واستطاع هؤلاء الثوار قتل صاعد قائد أسطول الاخشيد ، كما أنهم أحرقوا كل ما فى جزيرة الروضة من السفن . ووقف ابن طغج تجاههم بجيشه ولكنه لم يستطع أن يقوم بأى عمل حاسم [٣] .

وكان هذا الحادث سبباً فى أن فكر ابن طغج فى نقل « الصناعة » من مكانها إذ قال : « صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشىء » [٤] . ويقال انه بدأ فى نقلها سنة ٣٢٥ من جزيرة الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة احمد ابن طولون وكانت هذه الدار بساحل الفسطاط . أما موضع الصناعة بالجزيرة فأقام مكانه البستان المختار [٥] وأصبح يطلق على دار خديجة اسم « الصناعة الكبرى » [٦] .

---

(١) أنظر Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 174-175 وما ذكر من المراجع القديمة .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٥ و ٢٨٦ ، وابن سعيد : المغرب ص ١٢ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩

(٣) الكندى الولاة والقضاة : ص ٢٨٦ و ٢٨٧ ، والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩٧

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩٧ ، وابن سعيد : المغرب ص ١٣

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٨١ و١٩٧ ، وابن سعيد : المغرب ص ١٨ ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ٨ وعلى بهجت والبير جبرييل : كتاب حفريات الفسطاط ص ٣٢ ، و Omar Tousson : Mémoioe sur l'histoire du Nil t. 2 p. 351

(٦) ابن دقاق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ١٢

ولكن الظاهر أن انشاء هذه « الصناعة الكبرى » لم يقض تماما على « الصناعة » في جزيرة الروضة . إذ يقول المقريزى : « وكانت مراكب الاسطول مع ذلك تنشأ في الجزيرة وفي صناعتها »[١] .

ويقال ان تكين حينما كان يلي مصر فكر في نقل الصناعة من الجزيرة ، واستشار بعض خاصته ، وكان من بينهم محمد بن طغج ففكر إذ ذاك في دار خديجة ولكنه لم يذكر لتكين هذا الرأى . وتحدث الاخشيد بعد ذلك عما دار في نفسه حينئذ فقال : « وقلت أدع هذا الرأى لنفسى إذا ملكت مصر ، فبلغت ذلك والحمد لله »[٢] .

ويشهد ذلك بأن الاخشيد كان يتطلع إلى حكم مصر، فلا عجب إذا عمل على تحقيق هذا الهدف بكافة الوسائل .

ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئاً يستحق الذكر عن نشاط البحرية الاخشيدية خارج المياه المصرية وعن رجال الاسطول ورواتبهم وعن أنواع السفن التى كانوا يستخدمونها .

والظاهر أن المصريين كانوا يعرفون في العصر الاخشيدي التقليد المتبع في عصرنا الحاضر بشأن الاحتفال بانزال السفن إلى البحر حين يتم بناؤها . فقد كتب يحيي بن سعيد الانطاكى أن كافورا « ركب إلى دار الصناعة ووقف ليطرح مركباً حربياً عظيما كان بها إلى البحر . وكان على الشط مركب آخر مرسي فاجتمع الناس فيه وجلسوا على حافته وتزاحموا عليه لينظروا نزول المركب الآخر إلى البحر فانقلب ذلك المركب الذى كانوا مجتمعين فيه بهم ومال عليهم فقتلهم بأجمعهم وغرق عدة من المراكب اللاصقة له في البحر مملوءة أناساً وهلك جميع من كان فيها ومات من الناس زهاء خمسمائة رجل »[٣] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩٧
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٣
(٣) تاريخ يحيي بن سعيد الانطاكى ص ١١٦ و ١١٧

(٣)

الأعيـــاد

كان الشعب فى مصر الاخشيدية يحتفل بأعياد المسلمين وأعياد النصارى ، فضلا عن المناسبات التى تحتفل فيها الأسرات بأعيادها الخاصة .

وكانت الحكومة تشترك فى الاحتفال بعيد الفطر، فيقيم الجيش عرضاً كبيراً ويتأهب الناس للاحتفال بالعيد فيقبلون على شراء ما يحتاجون اليه فى آخر شهر رمضان ويجلس الأمير فى منظرة على باب دار الامارة ويمر الجند أمامه فى أحسن ملابسهم ثم يتبعهم حرسه الخاص وينصب بعد ذلك السماط لأفراد الشعب فيأكاون ويحملون ما يريدون من الطعام[1] . ولسنا نعرف أى نص فى وصف هذا السماط ، ولكننا نقرأ فى وصف السماط الذى كان يقام بقصر الخليفة الفاطمى أن طوله نحو ثلاثمائة ذراع وعرضه سبعة أذرع[2] . وكانت تعمل أسمطة أخرى فى عيد النحر .

ومن الأعياد التى كان المصريون يقبلون على الاحتفال بها عيد الغطاس . وقد سمى بهذا الاسم لأن كثيرا من النصارى كان يغطس فيه فى النيل . وكان من التقاليد القديمة بمصر الإسلامية أن يركب صاحب شرطة الفسطاط ليلة الغطاس فى مركب كبير وتوقد بين يديه الشموع والمشاعل فيطوف الشوارع وينادى فى الناس ألا يختلط المسلمون بالنصارى فى تلك الليلة والا يكدروا عليهم عيدهم . وذلك أن النصارى كانوا فى سحر تلك الليلة يخرجون إلى شاطئ النيل ويغطسون فيه . وكانت بعض طوائفهم تخرج من كنيسة ميكائيل بقصر الشمع إلى شاطئ النيل فى جمع وفير بالقراءة الملحنة والصلبان المشهورة وتصلى ويخطب الأسقف فيهم ويدعو للسلطان « وكان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب فى هذا العيد من الطيبة والفرح ما لا يكون لهم فى غيره من أيام السنة وأعيادها »[3] .

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٦
(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٨٧
(٣) تاريخ يحي بن سعيد الانطاكى ص ١٩٦ — ١٩٧

وقد كتب المسعودى عن الاحتفال بليلة الغطاس بعد أن شاهده بعينيه ، قال : « ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها . وهى ليلة إحدى عشرة تمضى من طوبة وستة من كانون الثانى . ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل مطيف بها . وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو آلاف من الناس المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون ، ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف . وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرىء من الداء »[١] .

وكان القبط يحتفلون بعيد الميلاد فى التاسع والعشرين من شهر كيهك . والمعروف أن الفاطميين كانوا يشتركون فى الاحتفال بهذا العيد ويفرقون فيه الطعام والحلوى على كبار الموظفين[٢] . وليس لدينا من النصوص ما يؤكد اشتراك الاخشيديين مع القبط فى الاحتفال بهذه الذكرى . كما كان القبط يحتفلون أيضاً بخميس العهد — أو خميس العدس كما كان العامة يقولون — وذلك قبل عيد الفصح بثلاثة أيام . ومن التقاليد التى أدخلتها الدولة الفاطمية — بعد العصر الأخشيدى — ضرب نقود خاصة توزع فى هذا العيد[٣] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٥ و ٤٩٤ وج ٢ ص ١٥٤ ، أنظر أيضا متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٤٢ و ٢٤٣ ، وترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١١٥ ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٢٥

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٥ و ٤٩٤

(٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٤٩٥ ؛ وانظر أيضاً : Silvestre de Sacy: Bibliothèque des Arabisants t. 1. pp. 62-63

وكان المصريون يحتفلون فى العصر الاخشيدى بفتح الخليج وتشترك الحكومة فى هذا العيد. وقد زادت عنايتها بهذا الاحتفال منذ العصر الفاطمي [١] . كما كانوا يحتفلون أيضاً بالنوروز القبطى وهو أول السنة القبطية. ويبدو أن الاحتفال بهذا العيد كان يتميز بايقاد النيران وصب الماء فى الطرق . وقد منع المعز لدين الله الفاطمى هذا العبث عند ما بالغ العامة فيه سنة ٣٦٣ وسنة ٣٦٤ هـ [٢] .

وكان المصريون يتزاورون للتهنئة فى أيام الأعياد . والظاهر من بعض النصوص أن الأثرياء منهم كانوا يقدمون هدية من المال حين يزورون الفقراء من أصدقائهم [٣] .

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٧٠ و٤٩٣ والقلقشندى ج ٣ ص ٥١٨ — ٥٢١ ج ٨ ص ٣٢٨ — ٣٣٠

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٦٧ و٢٦٨ و ٤٩٣

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٣ و ٣٤

(٤)

الأخلاق والعـادات

يبدو أن النزعة الدينية فى مصر على عهد الاخشيديين وفى القرن الرابع بوجه عام كانت أقوى منها فى بلاد الشرق الاسلامى . ولسنا نظن أن كثيراً من عامة المصريين فى ذلك الوقت كانوا يعتقدون أن الدين من شأن الطبقة الارستقراطية وأن الذين يجب عليهم أن يحافظوا على الصلاة هم الأغنياء والأمراء وأصحاب الضياع والأموال . والواقع أن مثل هذه الآراء كانت أكثر انتشاراً فى شرقى العالم الاسلامى حيث كانت نفوس العامة تثور على ما ينعم به الترك من ترف وما لهم من سلطان فى شئون الدولة . وفى ذلك يقول احمد بن محمد الافريقى الشاعر المعروف بالمتيم وهو من شعراء بخارى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى [1] :

تلومُ على تركِ الصـلاةِ حليلتى ... فقلت اعزِبى عن ناظِرى ، انتِ طالقُ

فو اللهِ لا صليتُ للهِ مُفلِساً ! ... يصلى لهُ الشيخُ الجليلُ وفائقُ

وتاشٌ وبِكتاشٌ وكُنباش بعدَه ... ونصرُ بنُ مَلْكٍ والشيوخُ البطارِقُ

وصاحبُ جيش المشرقينِ الذى له ... سراديبُ مالٍ حشوُها متضايقُ

لماذا أصلى ؟ أين باعِى ومنزلى ؟ ... وأين خيولى والُحلى والمناطِقُ ! ؟

أما فى مصر فكان القوم أكثر خضوعا لأولى الأمر وانصرافا إلى شئون دنياهم وآخرتهم . ومع ذلك كان كثير منهم بعيـداً عن التدين الصحيح كما سنتبين فى الصفحات القادمة .

وكان الاعتقاد بالخرافات والكرامات شائعاً بين مختلف طبقات الشعب . ومن ذلك أنه فى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) « ورد الخبر من دمياط إلى مصر بأن رجلا أقطع اليد قديماً ممن قد أخذ مع قوم اتهموا بقطع الطريق غاب عن البلد زمانا ثم عاد ويده صحيحة .

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٤٤ و ٢٤٥ والصفدى : الوافى بالوفيات ج ١ ص٩٢

وقد ادعى أنها كانت مقطوعة وأنها كانت عند أهله وقال إنه كان فى مسجد يتعبد فيه وأن يده عادت صحيحة ، فافتتن الناس به وكثر القول فيه . فوجه الاخشيد من أحضره إلى داره وسأله عن قصته فقال : رأيت فى النوم كأن سقف المسجد قد انفتح ونزل إلى منه ثلاثة أنفس : النبي وجبريل وعلىّ عليهم السلام . فسأل النبي صلى الله عليه وسلم رد يدى فردها إلى وانتبهت وقد عادت . وورد من دمياط كتاب بأن جماعة من المستورين رأوه مقطوع اليد ، فأوصله الاخشيد اليه وأكبره واستعظم قدرة الله تعالى فيه ثم قيل إن هذا دلس وكذب وزالت الفتنة والله أعلم [1] » .

وقد روى الفرغانى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ قصة عن زاهد ورع اسمه أبو سهل الصدفى توفي سنة ٣٣١ هـ وكان الاخشيد يجله ويتبرك بدعائه قال : « حدثنى أبو سهل بن يونس فى مسجده سنة ٣٣٠ هـ قال : قدم علينا شيخ كبير راهب كان بميافارقين . فحدثنا أنه كان مترهباً فى شبابه فى صومعة بميافارقين وأنه أشرف فى يوم كثير الضباب فنظر إلى طائر قد سقط بحيث يراه وفى فمه قطعة لحم فتركها ثم طار فأتى بأخرى ثم أخرى إلى أن أتى بعدة قطع ثم أن قطع اللحم اجتمعت حتى صارت شخص رجل . ثم أقبل الطائر عليه ينقره ويقطعه ويأكله وهو يستغيث . قال الراهب : فلما نظرت إليه صحت به وقلت له : ماقصتك ياإنسان ؟ وما الذى أرى بك ؟ قال : أنا عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، قد وكل الله بى هذا الطائر ، يفعل بى ماترى ، وينقلنى من موضع إلى موضع ، قال الفرغانى : قال أبو سهل : قال لنا الراهب : فلما نظرت منه مارأيت انحدرت من الصومعة فأسلمت » [2] .

وقد وصلت إلينا وثيقة على ورق محفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا وتتضمن طلسما للدغة العقرب . وهى ترجع إلى العصر الاخشيدى وفيها رسم عقرب حوله علامات ورموز سحرية [3] .

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٥٤ نقلا عن مخطوط كتاب العيون والحدائق (برلين) ص ٢٠٩ ب و ٢١٠ ا .

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ١١٥ و ١١٦ نقلا عن مخطوط كتاب العيون والحدائق (برلين) ص ٢٠٨ ا و ٢٠٩ ا .

(٣) Papyrus Erzherzog Rainer : Führer durch die Ausstellung p. 255 No. 999

وكان الشراب منتشراً رغم نهى القرآن عنه . ولم يكن وقفاً على الشبان بل كان الشيوخ لا يتورعون عن الإغراق فيه . ويحكى عن ابن طباطبا نقيب الطالبيين بمصر (المتوفى سنة ٣٥٢ هـ) أنه كان له شعر فى الخمر ، ومن ذلك قوله :

يابدرُ بادِرْ إلىَّ بالكأسِ فربَّ خيرٍ أَتَى على يأسِ [١]

ومنه :

أأتركُ الشُّربَ والأنواء دائمةٌ والطل منها على الأشجار منثورُ
والغصنُ يهتزُّ كالنشوانِ من طَربٍ والوردُ فى العودِ مطوىٌّ ومنشورُ
لا والتى تركَتْنى يوم فُرقَتِها كأنما الرملُ فى عَيْنَىَّ منثورُ [٢]

ويروى أن لابنه أبى محمد القاسم بن أحمد الرسى شعراً فى الخمر ، ومنه :

إذا الكروانُ صاحَ على الرمالِ وحلَّ البدرُ فى برجِ الكمالِ
وجَدَّدَ وجهَ بركتِنا هبوبٌ تمر به الجنوبُ مع الشَّمالِ
وحرَّكَتِ الغُصونَ فشابَهَتْهَا قدودُ سُقاتِنا فى كل حالِ
فهاتِ الكأسَ مُترعةً ودَعْنِي أبادرُ لذتِي قبل ارتِحالِي [٣]

ويقال ان محمد بن على الماذرائى كان يشرب الخمر ثم تركها وأقبل على الصلاة والصيام [٤] .

وكان سباق الخيل كثيراً فى مصر منذ القرن الثاني الهجرى . وفى سنة ٣٢٤ هـ شرع الاخشيد فى إجراء حلبة السباق تشبهاً بأحمد بن طولون . وانتشر سباق الحمام.

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٦٩
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٩
(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧٠
(٤) المقريزى : المقفى (النص العربى فى رسالة جوتشلك) ص ١١٧

فى عصر الاخشيديين وظل إلى العصر الفاطمى ، ويروى أن الخليفة المعز سابق بحمامه حمام الوزير أبى الفرج يعقوب بن كلس فسبق حمامه حمام الخليفة وعظم ذلك على المعز [١] . وكان القمار منتشراً فى مصر على عهد الاخشيديين . وكانت مراقبة دور القمار ومنعها من جملة المهام التى يقوم بها المحتسب . وقد مر بنا أن الاخشيد أمر بغلق المواخير ودور القمار وعرفنا أن هذه الدور كان بها شيوخ يسمون المطمعين ولهم رواتب من دور القمار ليجلبوا الناس إليها ويطمعونهم فى اللعب [٢] . وكذلك عمل أحمد بن على الاخشيد على تعطيل المواخير [٣] .

وليس فى النصوص التى نعرفها عن العصر الأخشيدى أي ذكر للبغاء وإن كنا نعرف أن الفاطميين فرضوا الرسوم على بيوت الفواحش [٤] ، بعد أن سبقهم إلى ذلك عضد الدولة فى فارس [٥] . ويبدو أن اللواط كان منتشرا فى مصر على عهد الأخشيديين [٦] . والواقع أنه شاع فى القرن الرابع فى كثير من البلاد الإسلامية [٧] .

ومما يؤسف له أن نظام السجون فى العصر الاخشيدي غير واضح فى النصوص التاريخية التى وصلت إلينا . والراجح عندنا أن الحكومة كانت تتحمل قسطا من نفقات السجون وثمن أقوات المحبوسين ، فقد كانت الحكومة المركزية فى بغداد تعرف هذا النظام فى عصر المعتضد بالله (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) وكان يخصص له فى الميزانية ألف وخمسمائة دينار [٨] . وفى العصر الفاطمى كانت السجون المصرية تضمّن وكان الاقبال على التزامها عظيما ، لأن متضمنها كان يحصل منها على دخل كبير ،

(١) الغزولى : مطالع البدور ج ٢ ص ٢٦٠
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٠
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٧
(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٩
(٥) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ وما ذكره من المراجع القديمة .
(٦) ابن زولاق : أخبار سيبويه ص ٤٠ و٤٢ و٥٦
(٧) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٣٤ — ١٤٠
(٨) هلال الصابى : تاريخ الوزراء ص ٢١

فقد كان كل من يدخل السجن يدفع ستة دراهم ولو لم يقم به إلا لحظة [١] . وأكبر الظن أن المسجونين كانوا يستطيعون أن يشتغلوا بصناعة أشياء يبيعونها كما يريدون [٢] . وكان متضمن السجون يمكنه أن يكسب كثيراً من رعاية بعض ذوى المكانة من المسجونين . ولسنا نظن أن تضمين السجون كان معروفاً فى العصر الأخشيدى . فليس فى النصوص التاريخية أى أشارة إلى ذلك .

والظاهر أن بعض المذنبين كانوا يحبسون فى العصر الاخشيدى فى مكان فى دار الصناعة على شاطئ النيل يعرف باسم بيت الزفت [٣] .

ويبدو كذلك أن المسجونين كانوا يعطون — أو تحرر لبعضهم على الأقل — شهادة باليوم والساعة التى يطلق سراحهم فيها . ويتبين ذلك من وثيقة من الورق محفوظة فى دار الكتب المصرية (رقم السجل ١٧٥) ، ونصها [٤] :

« بسم الله الرحمن الرحيم — الساعة التى أطلق فيها ابو السمح عقبة بن خليفة بن محمد الفضالى أيده الله ويتم الله خلاصه بمنه وكرمه على خمسة ساعات بقيت من يوم السبت لأربع عشرة بقيت من شعبان الجارى فى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة . وكتب عامر بن يزيد بن مجد الله شهادته بخطه » .

وفى ظهرها :

« تذكرة الساعة التى خلى فيها ابو السمح عقبة بن خليفة أيده الله » .

ومن المحتمل أن تكون هذه شهادة بتاريخ إطلاقه مؤقتا للتحقيق معه أو لأى غرض من الأغراض ، وذلك لأن عبارة : « ويتم الله خلاصه بمنه وكرمه » قد تحملنا على الظن بأن اطلاق سراحه لم يكن نهائياً . ومهما يكن من الأمر فالظاهر أن هذا المسجون

---

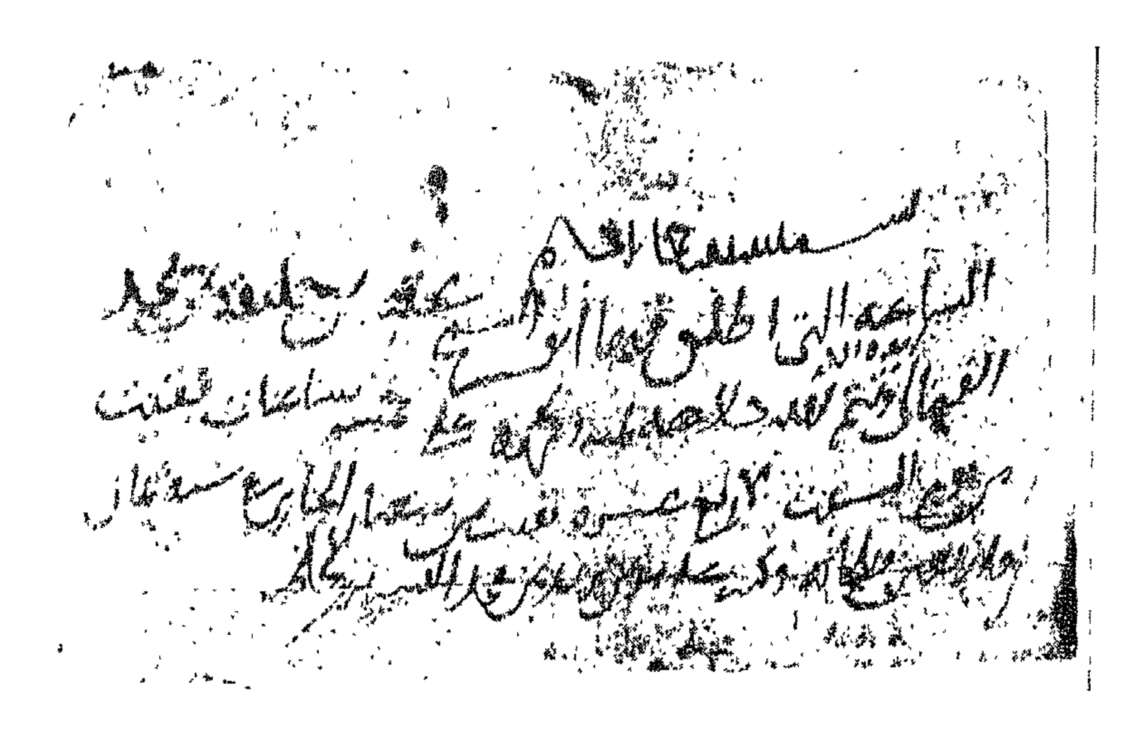
(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٩

(٢) وازن ابن الداية : المكافأة ص ٢٥

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه ص ٣٠

(٤) A. Grohmann: Arabic Papyri in the Egyptian Library 11 pp. 197-198

كان من ذوى المكانة ، كما تشهد بذلك تكنيته بأبى السمح والدعاء له بعبارتى « أيده الله » و « يتم الله خلاصه بمنه وكرمه »[١] .



شكل (ب) وثيقة بردية من سنة ٣٤٨ هـ محفوظة بدار الكتب المصرية

[عن جرومان]

ومن الطريف أن مصر كانت تعرف فى العصر الاخشيدى ما نعرفه ونأسف له فى عصرنا الحالى من اعتبار الصعيد الأعلى منفى يرسل إليه المغضوب عليهم . ومن ذلك أن محمد بن تكين نفى إلى اخميم بعد أن هزمه أحمد بن كيغلغ[٢] .

(١) مما يجدر بنا ملاحظته أن الذين كانوا يتقلدون المناصب الكبيرة لم يكونوا فى مأمن من أن ينكبوا ويلقى بهم فى السجون أو تصادر أملاكهم . وصفوة القول أنهم كانوا تحت رحمة أولى الأمر . ومن طريف ما يروى أن محمد بن على الماذرائى اتخذ رشيقا الخادم حاجباً له فلما مضت عليه سنة فى هذه الوظيفة وشى به بعض الناس إلى الماذرائى واتهموه بأنه كسب من الرشوة عشرة آلاف دينار فخاطبه الماذرائى فى ذلك فحلف بالايمان المغلظة على بطلانه . فأقسم الماذرائى قائلا : « لئن خرجت سنتنا هذه ولا تكسب هذه الجملة لا صحبتنى !! » ولم يزل رشيق فى خدمة الماذرائى حتى صودر الأخير وأخذ الأمير منه ومن حاجبه مالا جزيلا . أنظر المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٠

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١١ و ١٤

ولكن الغريب أن الاسكندرية كانت تعتبر من الأماكن التى ينفى إليها غير المرغوب فى بقائهم بالحاضرة [١]

* * *

وكان الأغنياء من المصريين فى العصر الاخشيدى يسرفون فى الطعام فكانت موائدهم عامرة بما لذ وطاب من أنواعه . بل انهم كانوا يحرصون على تقديمها فى الأوانى الجميلة من الخزف المصنوع فى مصر أو المستورد من الخارج . وقد روى ابن زولاق أنه عندما كان محمد بن طغج الاخشيدى يلى الحوفين من قبل محمد بن تكين كانت أمه معه فى مصر فسلمها خمسمائة دينار لتحفظها له ولم يكن يملك غيرها . وحدث ذات يوم أن كان الاخشيد « يأكل وعنده جماعة وعلى المائدة غضار [٢] وطيافير [٣] قد تقشرت ، فاغتمت وأخرجت من الخمسمائة دينار مائتى دينار واشترت مائدة حسنة وغضارا صينيا وطيافير جوداء » [٤] . والواقع ان هذا النص يصور لنا شيئا من مستوى المعيشة فى ذلك العصر ، أساسه ان والدة الاخشيد انفقت نحو مائة جنيه فى شراء مائدة جديدة مع مايلزمها من الأوانى الخزفية .

ومن ألوان الأطعمة التى كان علية القوم يقبلون عليها فى العصر الاخشيدى الحماضية ، وكانت تصنع من عصير البرتقال وماء الورد والمسك والأفاويه فى الحصرم [٥] . وكان الولع بالسكر والحلوى ظاهرا فى هذا العصر [٦] . ومن لطيف الشعر الذى يشير الى الطعام والولائم فى هذا العصر قصيدة للشاعر عبيد الله بن محمد بن أبى الجوع

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٥

(٢) الغضار الصحفة أو الصحن الكبير من الفخار أو الخزف . أنظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes 11. p. 216

(٣) الطيافير جمع طيفور وهو الصحن المقعر العميق ، أنظر المرجع نفسه ج ٢ ص ٤٨

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٩

(٥) المرجع نفسه ص ٣١

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٢

الذى اتصل بالمتنبي وروى عنه . وقد كتبها الى بعض إخوانه يستدعيه لمأدبة طعام وشراب وتحدث فى أبياتها عن الشواء والحلوى والخمر الذى أعدها لهذه المأدبة [١]

وكان فى أسواق الفسطاط كثير من أصناف الأطعمة التى تعد للبيع بعد طهيها ولا سيما الشواء [٢] والحمص المسلوق [٣] ، وكان بها طباخون يبيعون الطبيخ [٤]

وعرف الأغنياء فى مصر الاخشيدية الماء المثلج . وكان الثلج يحمل من الشام الى قصر كافور الاخشيدى بمصر ليستعمل في تبريد الماء والمشروبات . ولكن الظاهر أنه لم يكن يصل الى مصر كل يوم بانتظام [٥] .

* * *

وكان القوم يقبلون فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات ، ولكن يبدو أن أهل الورع والتقوى من الفقهاء والعلماء كانوا يتحرجون من سماع الغناء . ومما يروى فى هذا الصدد أن الاخشيد سخط مرة على مقبل المغنى فحبسه ، فطلب من الفقية أبى بكر الحداد أن يشفع فيه عند الأمير ففعل . وقبل الاخشيد شفاعته ووعد بأن يطلق سراح المغنى ويبعث به الى ابن الحداد . فلما انصرف ابن الحداد دعا الاخشيد مقبلا فقال له : « وتربة طغج لئن خالفتنى لأردنك الى الحبس ! قد شفع فيك ابن الحداد الفقيه فخذ العود فامض وغن له . » فركب مقبل الى ابن الحداد بالعود فدخل اليه فشكره وقال له : « قد أمرت بأمر لا أدرى والله كيف أفعله » ففطن ابن الحداد وقال : « والله ما سمعته قط إلا فى دور الناس من السطح » . وقام مقبل وجاء الى دار الاخشيد وحلف أنه حمل العود ولكنه وجد عند ابن الحداد جمعا من العلماء والفقهاء وقص على الأمير جواب ابن الحداد [٦] .

---

(١) انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٥٤
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٣
(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١
(٤) ابن ظافر الازدى : أخبار الدول المنقطعة (فى وستنفلد) ج ٤ ص ٥٩
(٥) الغزولى : مطالع البدور ج ٢ ص ٧١ ، أنظر أيضاً متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢١١
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ١٨

ومهما يكن من الأمر فان الاخشيد نفسه كان يطرب لسماع المغنين والمغنيات . وقد وصل الينا حديث مأدبة أقامها محمد بن على المـاذرائى جمع فيها المغنين من الرجال والنساء [١] .

وكان من عادات القوم فى الحفلات والمناسبات السعيدة أن ينثروا النقود على الحاضرين . وكان هذا تقليدا فى المـآدب التى يقيمها الأمير أو التى تقام له [٢] ، ولـكنه تقليد عرفته مصر فى العصر الطولونى أيضا [٣] .

ويبدو أن بعض الأغنياء من المصريين فى العصر الاخشيدى لم يكونوا يتأنقون فى ملابسهم فحسب ، بل كانوا يفخرون بالحصول على النادر والثمين منها . وكانت الفراء الغالية معروفة فى هذا العصر [٤] . ومما يؤسف له أننا لم نستطع أن نعرف كل أنواع الملابس المنتشرة بين المصريين حينذاك ، كما لم نستطع أن نعرف هل كانت لبعض الطوائف — كالجند والشرطة مثلا — أزياء خاصة تميزهم عن غيرهم . وعلى كل حال فإن أهم ما نعرفه من الملابس فى ذلك العصر الدراعة والطيلسان والسراويل والخفتان [٥] .

وكان إقبال وجوه القوم على الروائح العطرية عظيما . وقد روى ابن زولاق أن الحسين بن أبى زرعة قاضى مصر كان يبالغ فى التطيب ، ويذكر أن طغج بن جف والد الاخشيد كانت له فى دمشق « قبة مشبكة يتطيب فيها ، فاذا تطيب لم يخف على أكثر أهل دمشق بخوره [٦] . وكان الاخشيد يحب العنبر ويجمع منه مقادير كبيرة [٧] . وأكبر الظن أن كثيراً من الروائح العطرية كان يستورد من إيران [٨] .

* * *

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٩

(٢) المرجع نفسه ص ٢٩

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٣٤

(٥) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٨٦ — ١٩١ وراجع Dozy : Dictionnaire des vêtements chez les Arabes

(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٥

(٧) المرجع نفسه ص ٣٥ — ٣٦

(٨) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٠٥

وكانت الحمامات العامة معروفة فى مصر على عهد الاخشيديين ، ولكن يبدو أن المتزمتين من المسلمين كانوا ينظرون اليها نظرة ارتياب [١] ، ولا عجب فانه يروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : « بئس البيت الحمام! تكشف فيه العورات، وترتفع فيه الأصوات، ولا تقرأ فيه آية من كتاب الله» [٢] . وكان الغنى يستطيع أن يستأجر الحمام كله فيخلى له ولا يسمح بدخول غيره إلى أن يغادره [٣] . ويبدو أن سرقة الثياب من الحمام كانت أمراً شائعاً فى ذلك العصر حتى قيل : « دعوتان مغفول عنهما عند دخول الحمام : سلمك الله من الزلق ، وحرس ثيابك من السرق ! » [٤] .

* * *

والراجح أن عقود الزواج وبعض الوثائق الأخرى فى المعاملات بين الناس كانت تحرر من أكثر من نسخة واحدة ، كما يتبين من بعض وثائق وصلت الينا . ومنها ورقة محفوظة فى دار الكتب المصرية وترجع إلى سنة ٢٩٧ هـ أى إلى قبيل العصر الاخشيدى [٥] .

وقد وصل الينا عدد من الوثائق يتضمن عقود زواج ، ولكنها ترجع إلى نهاية القرن الثالث أو بداية القرن الرابع الهجرى ، وليس من بينها مايرجع إلى العصر الاخشيدى . ولكننا — إذا تذكرنا أن التطور بطىء فى مثل هذه الطقوس والتقاليد — عرفنا أننا نستطيع أن نستنبط من هذه الوثائق بيانات كثيرة عن الشؤون المتصلة بعقود الزواج من خطوبة وشهود ومهر معجل ومؤخر ووصايا بحسن الصحبة والمعاشرة والأمر بامساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، واشتراط من جانب الزوجة أن يكون لها حق طلاق أى امرأة يتزوجها الزوج بعدها وبيع أى جارية يتخذها بعد زواجهما [٦] .

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٥ ، وماذكره من المراجع القديمة .
(٢) الغزولى : مطالع البدور ج ٢ ص ١٧
(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠
(٤) المرجع نفسه ص ٤٠
(٥) A. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library, 1, p. 119
(٦) أنظر المرجع نفسه ج ١ ص ٦٥ — ١٢١

كما وصلت الينا وثيقة محفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا تتضمن بيان بعض حوائج تتجمل بها احدى العرائس فى القرن الرابع الهجرى . ومن هذه الحوائج الحنا وماء الورد والخروب والدارصينى فضلا عن نعل من نعال السند المشهورة [١] .

* * *

وكان الصيد من الرياضات المحببة إلى وجوه القوم فى مصر على عهد الاخشيديين ولا سيما فى اقليم الحوف [٢] . ولكن الاقبال على هذه الرياضة فى الشام كان أعظم منه فى مصر [٣] .

« وكان الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابه يهوى النظر إلى الحشرات من الأفاعى والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يجري هذا المجرى . . . وكان فى داره قاعة لطيفة مرخمة ، فيها سلل الحيات ولها قيم فراش حاو من الحواة ومعه مستخدمون برسم الخدمة ونقل السلل وحطها . وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يصيد له ما يقدر عليه من الحيات ويتباهون فى ذوات العجب من أجناسها وفى الكبار وفى الغريبة المنظر . وكان الوزير يثيبهم فى ذلك أوفى الثواب ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا فى تحصيلها . وكان له وقت يجلس فيه على دكة مرتفعة ويدخل المستخدمون والحواة فيخرجون ما فى السلل ويطرحونه فى ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يتعجب من ذلك ويستحسنه . فلما كان ذات يوم أنفذ رقعة إلى الشيخ الجليل ابن المدبر الكاتب — وكان من أعيان كتاب آبائه ودولته ، وكان عزيزا عنده وكان يسكن فى جوار دار ابن الفرات — يقول له فيها : نُشعر الشيخ الجليل — أدام الله سلامته ! — أنه لما كان البارحة وعرض علينا الحواة الحشرات الجارى بها العادات

---

(١) Papyrus Erzherzog Rainer: Führer durch die Ausstellung p. 256. No 1014

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٨

(٣) أنظر ديوان المتنبى ص١٨٤ و١٨٥ و٢٠٣ ، والغزولى : مطالع البدور ج ٢ ص ٢١٧ وآدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢١٩ و L. Mercier: La Chasse et les Sports chez les Arabes ,Zaky M. Hassan: Hunting as Practised in Arab Countries of the Middle Ages.

انساب إلى داره منها الحية البتراء وذات القرنين الكبرى والعقربان الكبير وأبو صوفة، وما حصلوا لنا إلا بعد عناء ومشقة ، وبجملة بذلناها للحواة . ونحن نأمر الشيخ — وفقه الله تعالى ! — بالتوقيع إلى حاشيته وصبيته بصون ما وجد منها إلى أن تنفذ الحواة لأخذها وردها إلى سللها . فلما وقف ابن المدبر على الرقعة قلبها وكتب في ذيلها : أتاني أمر سيدنا الوزير — أدام الله نعمته وحرس مدته ! — بما أشار إليه في أمر الحشرات . والذى يعتمد عليه فى ذلك ان الطلاق يلزمنى ثلاثا إن بت أنا أو أحد من أولادى فى الدار ، والسلام »[1] .

* * *

وكان لبعض الأطباء فى ذلك العصر سكرتيرون أو مديرو أعمال كانوا يتسلمون أجور العلاج ، كما يتبين من وثيقة على ورق محفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا تتضمن أمرا من طبيب إلى سكرتيره بأن يكتب لشخص اسمه حسين بن شعيب وصل بالنقود التى دفعها للطبيب نظير تشريطه[2] .

وكان استئجار البيوت للاقامة بها معروفا فى مصر الاخشيدية . وطبيعى أن المماطلة فى دفع أجورها لم تكن أمرا نادرا[3] . ولكن ما وصل إلينا من النصوص لا يشهد بأن الفنادق والربط والخوانق كانت معروفة بمصر فى ذلك العصر ، وان كانت مألوفة فى إيران[4] .

* * *

وكان للآثار المصرية القديمة شأن عظيم فى العصر الاخشيدى ، فكان القوم يعجبون بها وينسبون لها القوى السحرية ويذهبون فى تفسيرها مذاهب شتى . ومن أخبارهم فى هذا الشأن صور عديدة دونها المسعودى الذى زار مصر حينذاك . فقد حدثنا عن احدى ملكات مصر القديمة قال انها ملكت ثلاثين سنة « واتخذت بمصر البرابى

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج ٧ ص ١٧٠ — ١٧١ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣١٩

(٢) Papyrus Erzherzog Rainer : Führer durch die Ausstellung p. 256 No. 1032

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٣ و ٢٨ و ٢٩

(٤) وازن متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٤٤ — ٣٤٥

والصور وأحكمت آلات السحر وجعلت فى البرابى [١] صور من يرد من كل ناحية ودوابهم ابلا كانت أم خيلا ، وصورت ما يرد فى البحر من المراكب من بحر المغرب والشام ، وجمعت فى هذه البرابى العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الأحجار والنبات والحيوان . وجعلت ذلك فى أوقات حركات فلكية واتصالها بالمؤثرات العلوية . فكانوا إذا ورد اليهم جيش من نحو الحجاز واليمن عورت تلك الصورة التى فى البرابى من الابل وغيرها [٢] فيتعور ما فى ذلك الجيش وينقطع عن مصر أذى جنده . واذا كان الجيش من جهة الشام أتلفوا الصور التى تمثل أهل هذا القطر فينكب هذا الجيش وتنجو مصر من أذاه » [٣] .

والواقع أن المصريين فى العصر الاخشيدى وفى العصور الوسطى عامة كانوا يرون فى الآثار المصرية القديمة كنوزا يسعد بعضهم عند العثور عليها ويجد آخرون فى الكشف عنها حتى كانوا يسمونها « المطالب ». وكان أهم ما ينشدونه التحف المصنوعة من المعادن النفيسة . وفى ذلك يقول المسعودى « ولمصر أخبار عجيبة من الدقائق وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض وتدعى « المطالب »[٤] .

وتحدث المسعودى عن اشتراك الاخشيد فى البحث عن بعض هذه الكنوز الأثرية فقال : « وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلبة الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر وقع اليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة[٥] ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها بأن فيها مطلبا عجيبا فأخبروا الاخشيد محمد بن طغج بذلك ، فأذن لهم

---

(١) جمع بربى وهى كلمة من القبطية ومعناها المعبد . انظر Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes I. p. 63.

(٢) راجع عن الصور وأثرها السحرى عند الساميين تعليقات الدكتور زكى محمد حسن على كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا ص ١٣٦ — ١٣٨

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٩ — ٤٠٠ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٩

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٤ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠

(٥) أى الكتابات والحروف القديمة .

فى حفره وأباح لهم اعمال الحيلة فى استخراجه . فحفروا حفرا عظيما الى أن انتهوا إلى أزج وأقباء[١] وحجارة مجوفة فى صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من نوع الخشب قد طلى بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء والصور مختلفة فيها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ومنها ما وجوهها ذهب وفضة . فكسر بعض تلك التماثيل فوجد فى أجوافها رمما بالية وأجساما فانية . وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية كالبرانى وغيرها من الآلات من المرمر والرخام وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى تمثال الخشب وما بقى من الطلاء متروك فى ذلك الإناء . والطلاء دواء مسحوق وأخلاط معمولة لا رائحة لها فجعل منه على النار ففاح منه روائح طيبة مختلفة لا تعرف فى نوع من الأنواع التى للطيب . وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم . وبازاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر والمرمر أو من الرخام الأخضر على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل . والصور عليها أنواع من الكتابات لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملل . وزعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الأرض أعنى أرض مصر أربعة آلاف سنة »[٢] .

وأكبر الظن أن هذه الاستكشافات التى أشار اليها المسعودى كانت فى مقبرة من مقابر الدولة القديمة وأن التماثيل التى ذكرها يشبه بعضها ما نعرفه من تماثيل هذا العصر فى تاريخ مصر القديم كتمثال شيخ البلد والكاتب الجالس القرفصاء والأميرة نفرت والأمير رع حوتب[٣] ، كما أن بعضها الآخر نواويس على هيئة تماثيل .

* * *

(١) الأزج البيت يبنى طولا والقبو البناء المعقود بعضه إلى بعض على هيئة القبة .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٧ — ٤١٩

(٣) انظر Denison Ross : The Art of Egypt through the Ages pp. 97—115 .

وكان اكتراء الحمير فى العصر الاخشيدى وسيلة عادية للانتقال بين سكان المدن ولا سيما الفسطاط . أما فى الريف فكان معظم أهل الطبقة الوسطى يمتلكون حميراً لهذا الغرض . وكان فى الفسطاط موضع لاكتراء الحمير فى مكان يعرف باسم دار الحرم[١] . وكان لكثير من أهل الطبقة الوسطى فى المدن حمير ينتقلون بها ويعيرونها أصدقاءهم فى بعض الأحيان[٢] .

* * *

والراجح أن الاستئجار لم يكن للمساكن أو الحمير فحسب بل كان الناس يستأجرون الأثاث أيضا[٣] .

ومن العادات الطريفة التى عرفتها مصر فى العصر الاخشيدى جمع المال من الناس تبرعا للشئون الدينية والأهداف الوطنية بوساطة صندوق يوضع فى الجامع ليطرح الناس فيه مايتبرعون به . ولكن الاقبال على مثل هذا التبرع كان نادرا ، وأكبر الظن أن ذلك يرجع إلى اعتقاد الشعب بأن الأمير والحكومة يستطيعان النهوض من مال الدولة بالمشروعات التى يراد أن يجمع لها المال من الشعب . وقد حدث أن وردت كتب أهل الثغور إلى الاخشيد تستحثه على فداء الأسرى المسلمين عند الروم فأمر الاخشيد بصندوق فجعل فى الجامع العتيق ليطرح الناس فيه ولكنهم لم يطرحوا شيئا يستحق الذكر ، فأنفذ الاخشيد السفن والمال لفدية الأسرى من جيبه الخاص أو من مال الدولة بمعنى آخر[٤] .

* * *

والراجح أن الصياح على الجنائز كان مألوفا بمصر فى العصر الاخشيدى ، وإن كنا لا نعرف نصوصا تاريخية صريحة فى هذا الشأن . ولكن القرائن تشهد

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٣٢

(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٠

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٢٨ وما ذكره من المراجع القديمة .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٨

بوجوده . فالمعروف أن ولاة مصر قبيل الدولة الطولونية عملوا على منع النداء على الجنائز [(١)] ، وعلى سجن النائحات ومنع النساء من زيارة المقابر [(٢)] ، وأمر بعضهم بمنع النساء من الصياح على الموتى وبألا يشق على ميت ثوب ولا يسود وجه ولا يحلق شعر [(٣)] . كما نعرف أيضا أن والى مصر عيسى النوشرى أمر فى سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٧ م) بمنع النواح والنداء على الجنائز [(٤)] . ولكن الظاهر أن هذا المنع المتكرر لم يكن ليستطيع القضاء على تلك العادات التى عرفها الشعب المصرى منذ العصور القديمة ، كما يتبين من الرسوم التى نقشت على الآثار الفرعونية ولا سيما فى الدولة الحديثة [(٥)] . فلا عجب إذا رأينا أن الحاكم بأمر الله « حظر على النساء كشف وجوههن وراء الجنائز ومنع من البكاء والعويل وخروج النوائح بالطبل والزمر على الميت » [(٦)] .

وكان وجوه القوم وعلماؤهم يدفنون فى دورهم ثم ينقلون بعد فترة من الزمن إلى المقبرة . ومن الأمثلة التى نعرفها فى هذا الصدد محمد بن على الماذرائى حين توفى سنة ٣٤٥ هـ [(٧)] .

* * *

وقد خطا المسلمون خطوات واسعة فى تنظيم نقل البريد فى القرن الرابع الهجرى بواسطة الحمام . ويبدو أن القرامطة كانوا أول من استعملوه فى العراق على صورة واسعة النطاق [(٨)] . ومهما يكن من الأمر فان استعماله انتقل إلى مصر والشام أيضا . ومما يروى ابن زولاق أن الاخشيد خرج يوما للصيد على مقربة من دمشق فرأى

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠٣

(٢) المرجع نفسه ص ٢١٠

(٣) المرجع نفسه ص ٢١١ وانظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٩٢ — ١٩٣

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٦

(٥) E. Drioton et Vandier : L'Egypte p. 105

(٦) تاريخ يحيي بن سعيد الانطاكى ص ١٨٦

(٧) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦ وانظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

(٨) انظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ ، وما ذكره من المراجع القديمة .

حماما فأرسل عليه طائر الصيد الجارح فأمسكه فاذا مع الحمام كتاب من غلام للراشدى الذى كان واليا على الرملة ثم على دمشق . وكان هذا الكتاب إلى أحد الدمشقيين ينبئه فيه أن ما عليه ثمانون ألف دينار فانصرف الاخشيد إلى داره وأحضر الرجل وطالبه بالمال وأخذه منه [1] .

* * *

وقد خلف لنا الجغرافيون المسلمون فى القرن الرابع الهجرى وصفا لمصر يصور لنا ما كانت عليه فى العصر الاخشيدى ، فان بعضهم زارها قبيل قيام هذا العصر ، كما زارها آخرون قبل سقوط الدولة الاخشيدية أو بعده بقليل .

ولسنا نريد أن نعود الى ما كتبه المسعودى ، فقد مرت بنا مقتطفات كثيرة مما دونه عن هذه البلاد . أما الاصطخرى — وقد عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى — فقد أفرد فصلا طويلا عن ديار مصر فى كتابه المسالك والممالك . ثم لقى جغرافيا آخر من معاصريه : هو ابن حوقل ، وطلب اليه أن يراجع كتابه المسالك والممالك ففعل ولكنه ما لبث أن أخرج كتابا بنفس الاسم اعتمد فيه على ما كتبه الاصطخرى فى كتابه .

وقد طاف ابن حوقل فى العالم الاسلامي من شرقيه الى غربيه وكتب عن مصر حين زارها بعد سقوط الدولة الاخشيدية بتسع سنوات [2] . وطبيعى اننا نستطيع أن نستنبط من وصفه ما كانت عليه مصر من العمارة فى العصر الاخشيدى . ومما كتبه ابن حوقل عن مدينة الفسطاط أنها « مدينة حسنة ينقسم النيل عندها قسمين فيعدى من أحدهما الى الآخر فعدوة أولى فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة يعبر اليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة ويعبر من هذه الجزيرة على جسر فيه آخر الى القسم الثانى الى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة . والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام . . . وبساتين

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٠

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٧ — ١٠٨

نضرة والدار يكون بها طبقات ست وسبع وخمس طبقات وربما سكن فى الدار المائتان من الناس »[1] .

كما تحدث ابن حوقل عن مدينة الاسكندرية وكثرة عمائرها ومافيها من الرخام والمرمر والأعمدة وعن فنارها المشهور[2] . وتحدث عن تنيس ودمياط وما كانتا تنتجانه من المنسوجات الثمينة « التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة وربما بلغ الثوب من ثيابهم مائتى دينار اذا كان فيه ذهب . وما لا ذهب فيه يبلغ المائة دينار »[3] . وتحدث كذلك عن شطا ودبيق ودميرة وتونة وغيرها من مراكز صناعة النسيج فى مصر ، وعن الاشمونين واسوان والبلينا والفيوم وغيرها من مراكز العمران فى البلاد .

* * *

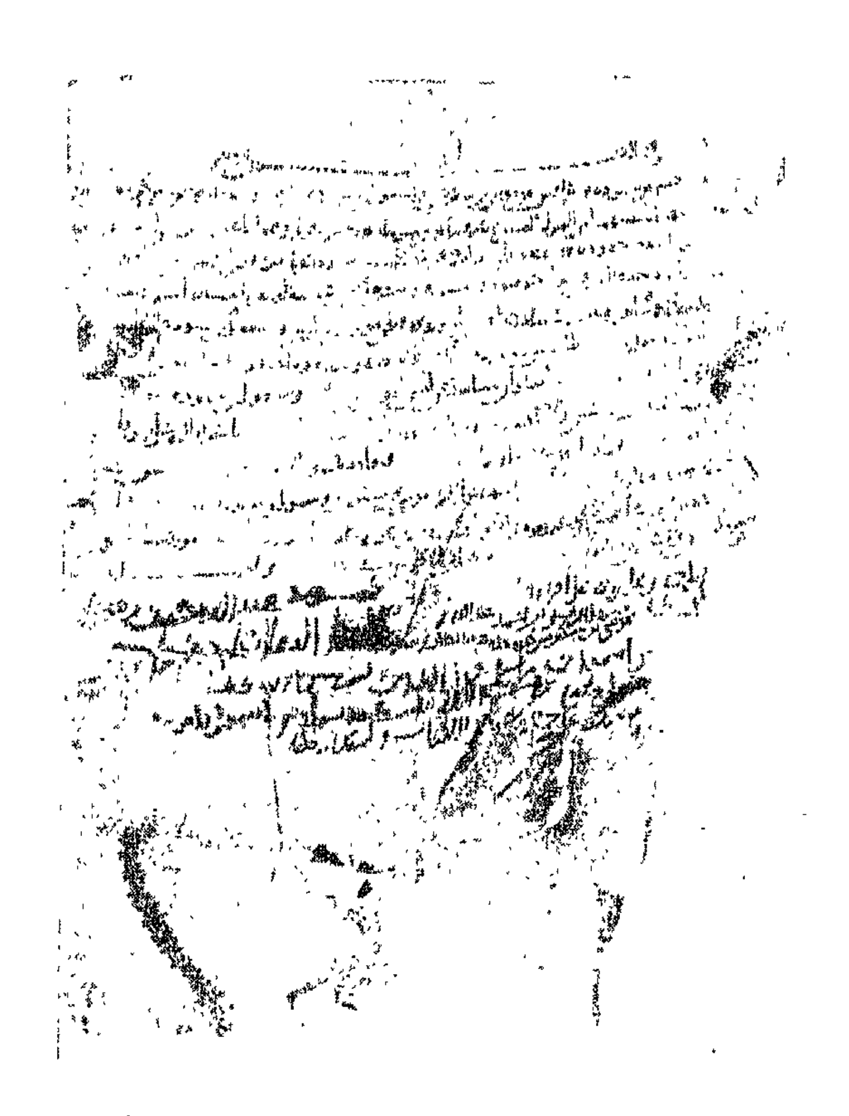
وقد وصل الينا بعض وثائق من العصر الاخشيدى تكشف عن بعض نواحى المعاملات فى المجتمع . ومن هذه الوثائق عقد بيع جزء من منزل محفوظ فى دار الكتب المصرية ومكتوب على ورق أبيض ومؤرخ من سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) (انظر شكل ج) . وهذا نص هذا العقد كما قرأه واكمل بعض كلماته الناقصة الأستاذ جرومان :

« هذا ما اشترى يحنس بن شنودة بن بطاقس من موسى بن سكريس وسمويل بن شنوده بن قفرى من سكان ططون[4] من كورة الفيوم اشترى منهما حصتهما من المنزل المشاع بينهما وبين سرماده بن يحنس بن قزمان وهو اثنا عشر سهما من أربعة وعشرين سهما بحده وحدوده وسفله وعلوه وداخل فيه وخارج منه حده القبلى منزل قفرى القمبشاوى وحده البحرى طريق المارة وحده الشرقى منزل حرميده بن سسنه وحده الغربى عرصة لورثة بنى ابشاية . اشترى ذلك منهما بهذه ثلاثة الدنانير وثلث عينا ذهبا وازن بالجديد . قد قبض موسى بن سكريس وسمويل بن شنوده الثلاثة الدنانير وثلث

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٩٦
(٢) المرجع نفسه ص ٩٩
(٣) المرجع نفسه ص ١٠١ — ١٠٢
(٤) هى مدينة تطون الحالية من أعمال مركز اطسا . انظر أيضا أبو عثمان النابلسى الصفدى : تاريخ الفيوم وبلاده ص ٨٦

وثلث وسلم ذلك الى يحنس بن شنوده بطاقس وقبضه وحازه وملكه وصار ذلك مال من ماله وملك من ملكه إن شاع باع وإن شا بنا وإن شا سكن ، ليس لموسى بن سكريس وسمويل بن شنودة فى هذا المنزل بعد هذا الكتاب دعوى ولا طلبة بوجه من الوجوه ولاسبب من الأسباب ، باعوا ذلك على شرط بيع الاسلام وعهدته فما كان من علقة



شكل (ج) وثيقة بردية من سنة ٣٤١ هـ محفوظة بدار الكتب المصرية
[عن جرومان]

أو تباعة أوطارى بدين فانقاذ ذلك وخلاصه على موسى بن سكريس وصمويل بن شنوده بالغ ما بلغ من خالص ما لهما . شهد على اقرار موسى بن سكريس وسمويل بن شنوده بجميع ما فى هذا الكتاب بعد أن قرئ عليهما وعرفوه وأقروا بفهمه فى صحة عقلهما وبدنهما وجواز أمورها طايعين غير مكرهين ولا مجبرين طالبين راغبين . وذلك فى جمادى الآخر من سنة احدى واربعين وثلثماية .

شهد محمد بن احمد بن على بن رحمة على اقرارها بما فيه وكتب بخطه .

شهد عبد الرحمن بن هدى البقار على جميع ما فيه .

شهد ابراهيم بن احمد على اقرار موسى بن سكريس بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب بخطه .

شهد خيار بن اسماعيل بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب شهادته بخطه .

(شهد . . . .) جبريل بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب عنه خيار بن اسماعيل بأمره وبحضره .

(شهد . . . .) بن يوسف على جميع ما فى هذا الكتاب وكتب شهادته بخطه »[١] .

وفى دار الكتب المصرية وثيقة أخرى من سنة ٣٤١ هـ أيضا[٢] . وتتضمن عقد بيع بين يحنس بن شنودة بطاقس وعبد العزيز بن مقبل ، ولا تختلف عباراته كثيرا عن عبارات العقد الذى نقلناه هنا . ويبدو أن السمسرة كانت أمرا مقررا ومعترفا به وإن كنا لانجد الإشارة اليها صراحة فى الوثائق التى نعرفها من العصر الاخشيدى ، ولكننا نجدها فى العصر الفاطمى فى عقد بيع منزل من سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) محفوظ فى دار الكتب المصرية وفيه نص على أن على المشترية السمسرة المقررة[٣] . والظاهر أنها أبطلت فى عصر الناصر محمد بن قلاوون[٤] .

وقد وصلت الينا وثيقة أخرى على ورق وهى محفوظة الآن بمجموعة الأرشيدوق رينر فى ڤينا وتتضمن وصلا باستلام إيجار طاحونة قدره دينار ، تسلمه يوحنا بن فكتور من أبى بكر فى مدينة أشمون سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م)[٥] .

---

(١) راجع تعليقات الأستاذ جرومان فى A. Grohmann: Arabic Papyri in the Egyptian Library. I. pp. 174-179 .

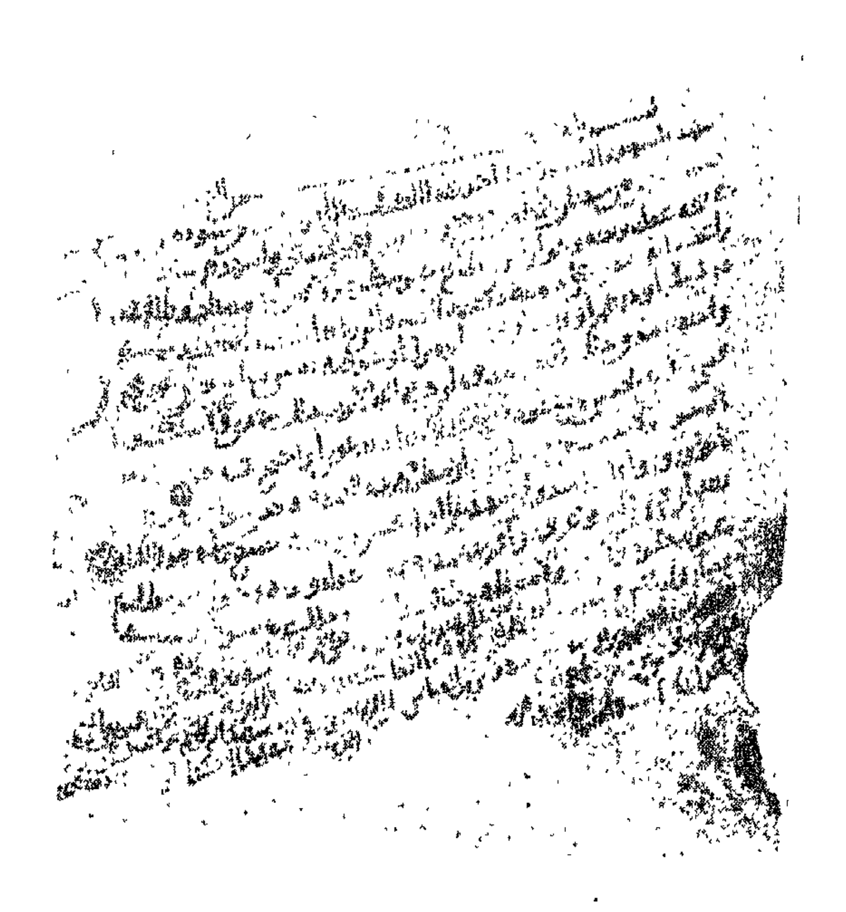
(٢) المرجع نفسه ج ١ ص ١٨٠ — ١٨٥

(٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٥٨

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٩

(٥) Papyrus Erzherzog Rainer: Führer durch die Ausstellung: p. 256 No. 1040

وفى دار الكتب المصرية وثيقة على ورق ترجع إلى سنة ٣٤٨ ﻫ وتتضمن تسجيل هبة من يحنس بن شنودة بن بطرس بطاقس لصبية رباها . وهبها ثلث ما يملك « من دينار



شكل (د) وثيقة بردية من سنة ٣٤٨ ﻫ محفوظة بدار الكتب المصرية

[عن جرومان]

أو درهم أو ثوب أو نحاس أو منزل أو عرصة أو شيء مما يساوى درهم واحد صدق ذلك عليها صدقة لوجه الله لا يريد بذلك جدى ولا شكورا »[1] (أنظر شكل د) .

---

(١) A. Grohmann : op. cit. 11, p. 157-160

ولكننا لا نتفق مع الأستاذ جرومان فى فهم السطور الخامس والسادس والسابع من هذه الوثيقة ؛ لأننا نذهب إلى أن يحنس تصدق على هذه الصبية بثلث ما يملك ، ولا نوافق على ما ظنه من أنه تصدق بهذه الجارية على صبية ثانية وان تلك الجارية تساوى ثلث ما يملك .

(٥)

الزراعة

كانت الزراعة المصدر الأساسي لثروة مصر في العصر الاخشيدي ، كما كانت في العصور القديمة وفي سائر العصور الإسلامية وكما لاتزال حتى الآن . وكان الفلاحون يزرعون القمح [١] ويعنون بزراعة الكتان ويصدرونه كما يصدرون المنسوجات المصنوعة منه إلى الخارج . وقد أشير إلى زراعته في كثير من الوثائق البردية [٢] ، كما ذكرته المراجع التاريخية الإسلامية [٣] . وعلى الرغم من أن القطن كان يزرع في مصر في العصور القديمة وفي العصور الوسطى [٤] فاننا لانجد له ذكرا في النصوص التاريخية التي نعرفها من العصر الاخشيدي . وكان الفول يزرع بكثرة وقد جاء ذكره في الوثائق البردية وفي المراجع التاريخية [٥] ، وكذلك القثاء [٦] . أما قصب السكر فان الوثائق البردية تشهد بزراعته في مصر منذ القرن الثالث الهجري [٧] ، ولكن الظاهر أن زراعته لم تنتشر بمصر تماما إلا منذ العصر الفاطمي [٨] . ومن حاصلات مصر

---

(١) A. Grohmann : op. cit. II, p. 48-49

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٤٦

(٣) ابن مماتي : كتاب قوانين الدواوين (انظر الفهرس ص ٤٤٧ — ٤٤٨) والسيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥١

(٤) ابن مماتي : المرجع السابق (الفهرس ص ٤٤٧) ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٩٦

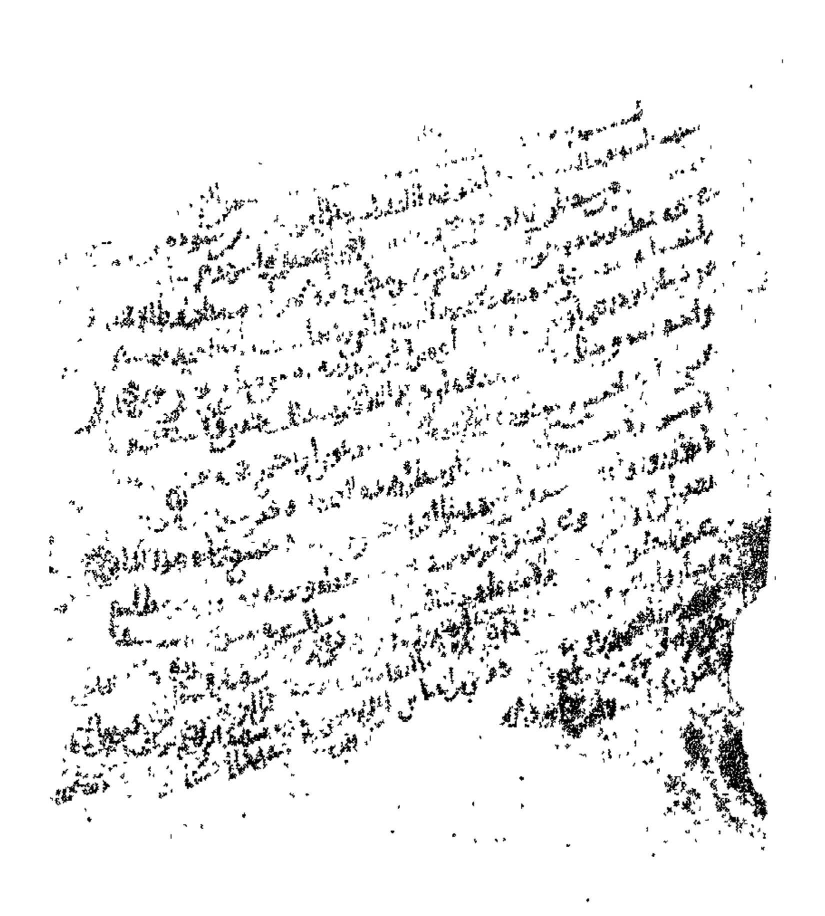
(٥) جرومان : المرجع السابق ج٢ ص١٠٢ ، وابن مماتي : المرجع السابق (الفهرس ص ٤٤٧)

(٦) ابن مماتي : المرجع نفسه (الفهرس ص ٤٤٧) ، وجرومان : المرجع نفسه ج ٢ ص١٧٢

(٧) Papyrus Erzherzog Rainer : Führer durch die Ausstellung p. 183 No. 705
وانظر السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٦

(٨) ابن مماتي : المرجع السابق (الفهرس ص ٤٤٧) ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٦١

وفى دار الكتب المصرية وثيقة على ورق ترجع إلى سنة ٣٤٨ ﻫ وتتضمن تسجيل هبة من يحنس بن شنودة بن بطرس بطاقس لصبية رباها . وهبها ثلث ما يملك « من دينار



شكل (د) وثيقة بردية من سنة ٣٤٨ ﻫ محفوظة بدار الكتب المصرية
[عن جرومان]

أو درهم أو ثوب أو نحاس أو منزل أو عرصة أو شيء مما يساوى درهم واحد صدق ذلك عليها صدقة لوجه الله لا يريد بذلك جدى ولا شكورا »[١] (أنظر شكل د) .

(١) A. Grohmann : op. cit. 11. p. 157-160
ولكنا لا نتفق مع الأستاذ جرومان فى فهم السطور الخامس والسادس والسابع من هذه الوثيقة ؛ لأننا نذهب إلى أن يحنس تصدق على هذه الصبية بثلث ما يملك ، ولا نوافق على ما ظنه من أنه تصدق بهذه الجارية على صبية ثانية وان تلك الجارية تساوى ثلث ما يملك .

(٥)

الزراعة

كانت الزراعة المصدر الأساسى لثروة مصر فى العصر الاخشيدي ، كما كانت فى العصور القديمة وفى سائر العصور الإسلامية وكما لاتزال حتى الآن . وكان الفلاحون يزرعون القمح [١] ويعنون بزراعة الكتان ويصدرونه كما يصدرون المنسوجات المصنوعة منه إلى الخارج . وقد أشير إلى زراعته فى كثير من الوثائق البردية [٢] ، كما ذكرته المراجع التاريخية الإسلامية [٣] . وعلى الرغم من أن القطن كان يزرع فى مصر فى العصور القديمة وفى العصور الوسطى [٤] فاننا لانجد له ذكرا فى النصوص التاريخية التى نعرفها من العصر الاخشيدى . وكان الفول يزرع بكثرة وقد جاء ذكره فى الوثائق البردية وفى المراجع التاريخية [٥] ، وكذلك القثاء [٦] . أما قصب السكر فان الوثائق البردية تشهد بزراعته فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى [٧] ، ولكن الظاهر أن زراعته لم تنتشر بمصر تماما إلا منذ العصر الفاطمي [٨] . ومن حاصلات مصر

---

(١) A. Grohmann : op. cit. II, p. 48-49

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٤٦

(٣) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين (انظر الفهرس ص ٤٤٧ — ٤٤٨) والسيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥١

(٤) ابن مماتى : المرجع السابق (الفهرس ص ٤٤٧) ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٩٦

(٥) جرومان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٢ ، وابن مماتى : المرجع السابق (الفهرس ص ٤٤٧)

(٦) ابن مماتى : المرجع نفسه (الفهرس ص ٤٤٧) ، وجرومان : المرجع نفسه ج ٢ ص ١٧٢

(٧) Papyrus Erzherzog Rainer : Führer durch die Ausstellung p. 183 No. 705
وانظر السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٦

(٨) ابن مماتى : المرجع السابق (الفهرس ص ٤٤٧) ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٦١

فى العصر الاخشيدى القلقاس [١] والأتْرُج المدور [٢] والزيتون [٣] . ولا محل هنا لذكر سائر الحاصلات التى يرد ذكرها فى الوثائق البردية ولا فى النصوص التاريخية المكتوبة فى القرن الرابع الهجرى [٤] ، فهى معروفة ولا تزال من حاصلات البلاد إلى اليوم .

وقد وصلت الينا وثائق تكشف عن بعض نواحى الزراعة فى العصر الاخشيدى . ومنهـا وثيقة على ورق ترجع إلى سنة ٣٥٦ هـ وهى محفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا [٥] . وتتضمن بالعربية واليونانية وصلا لمزارع اسمه على بالخراج الذى دفعه لحساب المـالك أبى على ، وهو الخراج المستحق على الأرض التى كان يفلحها بالمزارعة [٦] . ويبدو من الوثائق البردية أن المستأجر كان يأخذ على عاتقه عمـارة الأرض [٧] أى إصلاح جسورها ومد ترعها وحفر خلجها [٨] . وتشير بعض الوثائق البردية الأخرى إلى المتقبلين وهم الذين كان يرسى عليهم ضمان الخراج على صفقات الأرض حين ينادى عليها فى المسجد الجامع . وكان التقبل لأربع سنوات

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ ، وما ذكره من المراجع القديمة .

(٢) جلب إليها من الهند فى القرن الرابع الهجرى . انظر المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣٨ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٨ ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥٦ — ٢٥٧

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٦٠ وما يذكره من المراجع القديمة .

(٤) راجع ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين (الفهرس ص ٤٤٢ وما بعدها) .

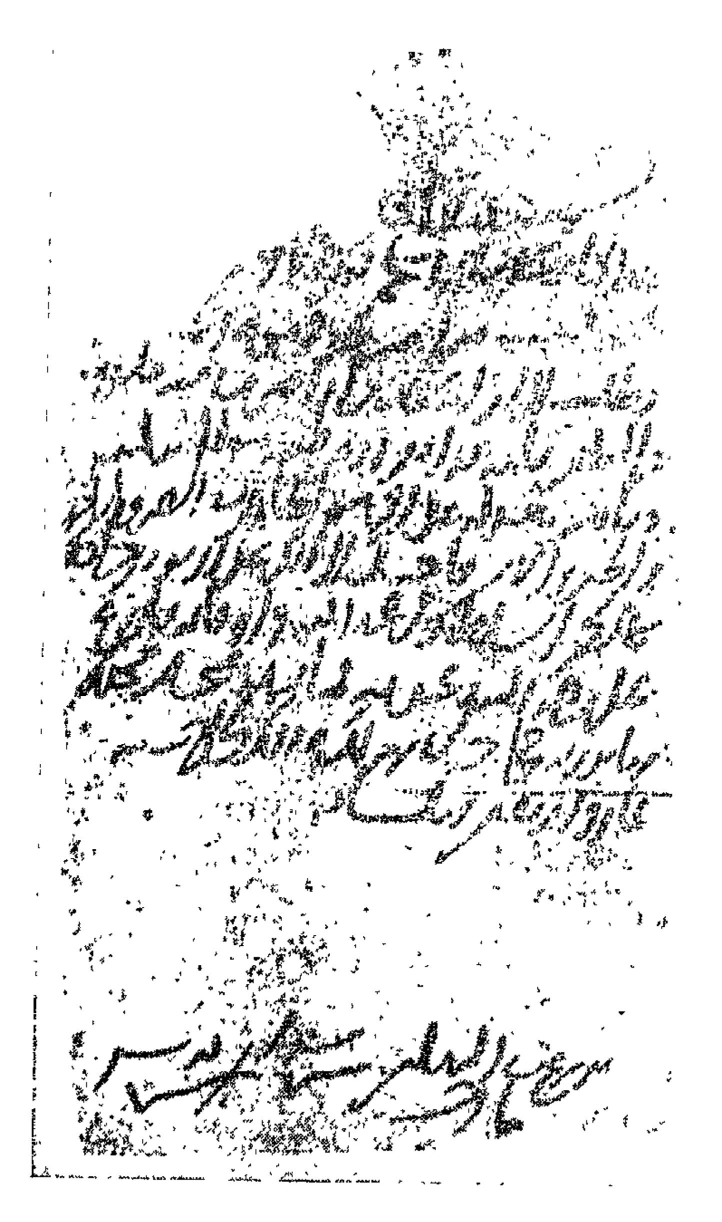
(٥) Papyrus Erzherzog Rainer ; Führer durch die Ausstellung p. 257 No. 1061

(٦) إذا أجر المالك جزءاً من أرضه واتفق مع المستأجر على أن يؤدى الايجار من المحصول عرف ذلك باسم المزارعة . وفى القاموس زارع فلانا أى عامله على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها . وتدل الوثائق البردية على أن الجزء الذى كان يأخذه المالك من المحصول كان النصف فى بعض الأحيان وكان فى أحيان أخرى الثلث أو الربع . وكان ينص فى عقد المزارعة على الطرف الذى يدفع الخراج أو يقوم بغير ذلك من النفقات . انظر ص ١٨١ من المرجع المذكور فى الحاشية السابقة . وانظر الشروط المختلفة فى إيجار الأرض بمصر فى فجر الاسلام كما تبدو من الوثائق البردية فى Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library II. p. 34.

(٧) A. Grohmann : op. cit. II. p. 60

(٨) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٢

حتى تتعادل سنو المحصول الضعيف بسني المحصول الطيب [١] . وقد وصلت الينا وثيقة من الورق محفوظة فى دار الكتب المصرية وترجع إلى سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) وتتضمن عقد إيجار فدادين ثلاثة بثلاثة دنانير [٢] . (أنظر شكل هـ) .



شكل (هـ) وثيقة بردية من سنة ٣٤٨ هـ محفوظة بدار الكتب المصرية
[عن جرومان]

وكان المصريون يستخدمون النيلة للتلوين باللون الأزرق . وكان شجر النيلة يزرع فى الصعيد وفى الواحات . وكان يحصد فى كل مائة يوم ويبقى فى الأرض الجيدة ثلاث سنين

(١) Grohmann : op. cit. 11. p. 39-40

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٥٢

وفى السنة الأولى يسقى فى كل عشرة أيام دفعتين ، وفى السنة الثانية ثلاث دفعات ، وفى الثالثة أربع دفعات [١] .

وطبيعى أن الرى فى مصر حينئذ كان بطريق الحياض . وقد كتب ابن حوقل فى هذا الصدد : « وزروعهم بماء النيل تمتد فتعم المزارع من حد اسوان إلى حد الاسكندرية ويقيم الماء فى أرضهم بالريف والحوف منذ امتداد الحر إلى الخريف ثم ينضب فيزرع ثم لا يسقى بعد ذلك ولا يحتاج إلى سقى البتة » [٢] .

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٧٢

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٩٧

(٦)

الصناعة والتجارة

كانت أهم الصناعات بمصر فى العصر الاخشيدى صناعة النسج وقد أشرنا إليها عند الكلام على صاحب الطراز، وسوف نعود اليها فى الفصل الذى نعقده للكلام على الفنون والآثار، لأن هذه الصناعة بلغت من الرقى درجة جعلتها من ميادين الفن التطبيقى .

ومن الصناعات التى عرفتها مصر فى ذلك العصر صناعة الحصر [١] . وكان يصنع منها أنواع فاخرة تقليدا للحصر المصنوعة فى عبادان [٢] .

وشهد العصر الاخشيدى تدهور صناعة القراطيس من البردى . وأصبح الورق يرد إلى ديار الاسلام من الصين كما يصنع فى سمرقند ودمشق وطبرية وطرابلس الشام [٣] .

ويبدو أن المصريين فى القرن الرابع الهجرى تعلموا من الزنوج صناعة بعض أنواع الجلود [٤] .

وكان لمصر شأن عظيم فى التجارة فى العصر الاخشيدى ، ولا عجب فقد كانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب مختلف البحار والبلاد فى القرن الرابع الهجرى . ولكن المصريين كانوا لا ينزحون عن مصر للتجارة إلا فى الندرة [٥] . وكان فى مصر جالية كبيرة من الفرس يحترفون التجارة . كما كان لليهود نشاط ملحوظ فى هذا الميدان [٦] . وبلغت ثروة بعض التجار فى مصر فى بداية العصر الاخشيدى درجة عظيمة ، حتى ان أحدهم

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٧

(٢) المرجع نفسه ص ٢٧ حيث يجب أن نقرأ العبادان بدلا من العبادات ، وانظر أيضا متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٠٥

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٠٨ و ٣٠٩ ، وما ذكر فيه من المصادر القديمة .

(٤) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٧٩ ، وما ذكر فيه من المصادر القديمة .

(٥) الثعالبى : لطائف المعارف ص ١٠١

(٦) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ وما ذكر فيه من المراجع القديمة .

— وهو عفان بن سليمان البزاز — حين توفى استطاع الاخشيد أن يأخذ من ماله نحو مائة الف دينار [١] .

وكانت الملاحة النهرية على النيل كثيرة جداً فى القرن الرابع الهجرى حتى تعجب المقدسى وهو بمصر من كثرة المراكب السائرة والراسية هناك [٢] . ولم تكن التجارة مع بلاد النوبة بأيدى المصريين وانما كان تجار النوبة هم الذين يأتون فى النيل حتى منطقة الجنادل ثم ينقلون بضائعهم على ظهور الجمال إلى أسوان .

وكانت مصر تستورد الحيوانات للذبح من برقة [٣] . وكانت المدن المصرية غنية بأسواقها كما نتبين من كثرة المدن التى أشار ابن حوقل إلى ما فيها من أسواق عامرة [٤] .

وكان الذهب يستخرج من الصحراء الشرقية بين أسوان وعيذاب وكان وادى علاقى مركز الذين يبحثون عن هذا المعدن النفيس وكان لسكان هذا الوادى عبيد من الزنوج يعملون فى استخراج التبر [٥] . وفى سنة ٣٣٢ ﻫ كان سيد قبيلة ربيعة صاحب السلطان فى هذه المنطقة [٦] . كما كان معدن الزمرد يستخرج على مقربة من المنطقة نفسها [٧] ومن مدينة قفط [٨] .

وكان بين المصريين فى العصر الاخشيدى ملاحون مهرة فى المدن الساحلية وفى بحيرة تنيس . وقد أعجب ابن حوقل — مع كثرة ما شاهده فى أسفاره الطويلة — بمهارة الملاحين الذين رآهم فى تنيس فكتب أن « هذه البحيرة قليلة العمق يسار فى أكثرها

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٧ ، أنظر أيضاً الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٤٣
(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٨
(٣) البكرى : المغرب (طبعة دى سلين) ص ٥
(٤) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٩ وما بعدها .
(٥) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٣٤ وما بعدها .
(٦) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧
(٧) المرجع نفسه ج ١ ص ١٩٧
(٨) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣

بالمدارى وتلتقى السفينتان تحك احداها الأخرى هذه مصعدة وهذه نازلة بريح واحدة مملأة شرعها بالريح ومتساوية فى سرعة السير »[١] .

وكانت الملاحة فى البحر الأحمر صعبة لما فيه من شعاب بارزة ورياح معاكسة . ولهذا كانت الملاحة فيه بالنهار فقط ، فاذا جن الليل أرست المراكب فى مواضع معروفة[٢] . واحتفظ نهر النيل الذى يسير موازيا هذا البحر بأهميته الكبيرة بوصفه طريقاً من طرق الملاحة النهرية . وكانت عيذاب الثغر الذى تلتقى عنده تجارة البحر بتجارة النهر ، فكانت البضائع تصل اليه من قوص وأسوان ثم يعبر التجار منه إلى جدة ، كما كانت ترد اليه فى البحر الأحمر من الحبشة واليمن وزنجبار ثم تحمل على الابل فى الصحراء مسيرة عشرين يوما إلى أسوان أو قوص[٣] .

---

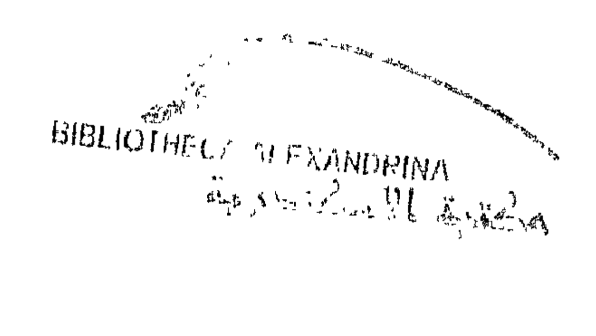
(١) ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك ص ١٠٣

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٦

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ وما ذكر فيه من المراجع القديمة .

الباب الثامن

الآثار والفنون



الآثار والفنون

كان العصر الاخشيدي — على قصره — عصر ازدهار فى تشييد العمائر وإنتاج التحف والآثار الفنية التى تمثل شتى ميادين الفن الإسلامى . ولكن الذى وصل الينا من آثاره قليل بسبب تقادم العهد بها من ناحية وبسبب مجىء العصر الفاطمى بعدها من ناحية أخرى . والعصر الفاطمى — كما نعرف — بلغت فيه الفنون الإسلامية فى مصر أوج عظمتها وطغت آثاره على ما كان فى مصر قبلها من الآثار الإسلامية [1] .

ومهما يكن من الأمر فقد وصل الينا من العمائر الاخشيدية أثران : هما مشهد أولاد طباطبا ومحراب قديم غربى مشهد يحي الشبيه .

مشهد آل طباطبا

أما مشهد آل طباطبا فيرجع إلى سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٣ م) . ويقع على بعد خمسمائة متر غربى ضريح الإمام الشافعى ونحو مائتين وثلاثين مترا شمالى حمامات عين الصيرة بالقاهرة . ويتألف من مساحة من الأرض شكلها غير منتظم وطولها نحو ثلاثين مترا وعرضها نحو عشرين مترا وفى طرفها الجنوبى قبتان ويحيط بهما جدار وتضم عددا من القبور (أنظر اللوحة رقم ٢) . ولكن كثيرا من المبانى القائمة فى هذا المشهد حديثة العهد . فلا يكاد يعنينا منها إلا بقايا دعائم صليبية الشكل ومبنية من الطوب القديم وترجع إلى عهد تشييده . ويدل وضعها على أنها كانت تقسم المشهد كله إلى تسعة أجزاء مربعة الشكل وكانت تحمل اثنى عشر عقدا .

---

(١) أنظر زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين .

وقد قام الأستاذ كريزويل بدراسة هذه البقايا المعمارية دراسة دقيقة [١] . وقامت إدارة حفظ الآثار العربية بإزالة الأتربة التى كانت تخفى المعالم القديمة ، فاستطاع الأستاذ كريزويل أن يثبت أن هذا المشهد لم تكن له جدران خارجية بل كان شبه مظلة محمولة على دعائم من الطوب وتضم تسعة أروقة عليها تسع قباب (أنظر اللوحتين رقم ٣ و ٤) .

وقد خلف لنا ابن الزيات وصف هذا المشهد كما كان فى بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) فتحدث عن مشهد القاضى بكار [٢] ثم عن مشهد طباطبا [٣] ثم عن عين الصيرة [٤] . وهذا هو ترتيب المشهد الذى نحن بصدده ؛ فهو على بعد خمسة وسبعين مترا جنوبى قبر القاضى بكار ومائتين وثلاثين مترا شمالى عين الصيرة . وذكر ابن الزيات أن الذين دفنوا فى مشهد طباطبا هم على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا المتوفى سنة ٢٥٥ هـ [٥] وأحمد بن على بن الحسن بن طباطبا [٦] وعبد الله بن أحمد بن على بن الحسن ابن ابراهيم طباطبا المتوفى سنة ٣٤٨ هـ [٧] وخديجة ابنة محمد بن اسماعيل بن القاسم الرسى ابن ابراهيم طباطبا المتوفاة سنة ٣٢٠ هـ [٨] وأبو الحسن على بن الحسن بن على بن محمد ابن أحمد بن على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا [٩] وأبو محمد الحسن بن على بن محمد بن أحمد

(١) ستظهر هذه الدراسة المفصلة فى الجزء الثالث من كتاب الأستاذ كريزويل عن العمارة الاسلامية وهو الذى تقوم بطبعه الآن مطبعة جامعة اكسفورد وقد تفضل المؤلف فأطلعنا على هذه الدراسة وله منا وافر الشكر والتقدير .

(٢) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٤٨

(٣) المرجع نفسه ص ٥٩

(٤) المرجع نفسه ص ٦٤

(٥) المرجع نفسه ص ٥٩ — ٦٠

(٦) المرجع نفسه ص ٦٠

(٧) المرجع نفسه ص ٦٠ — ٦١ ، أنظر سيرته فى ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٦

(٨) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦١

(٩) المرجع نفسه ص ٦٢

ابن على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا المتوفى سنة ٣٥٤ هـ ومعه والدته وابنه [١] ونفيسة ابنة على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا [٢] ثم الشريف طباطبا الأصغر أخو عبد الله بن أحمد وقد توفى سنة ٣٣٤ هـ [٣] وأمينة ابنة الحسن بن محمد بن أحمد بن على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا [٤] والحسين بن محمد بن محمد بن أحمد بن على بن الحسين بن ابراهيم طباطبا ووالده [٥] ونفيسة ابنة على الأزرق [٦] . وهكذا يتبين أن الذين دفنوا فى هذا المشهد أفراد من بين الجيلين الثالث والتاسع من أسرة ابراهيم طباطبا الذى قدم إلى بغداد فى خلافة هارون الرشيد [٧] .

ومهما يكن من الأمر فان الأستاذ كريزويل يذهب إلى أن تاريخ تشييد هذا المشهد يقع حول سنة ٣٣٤ هـ أى سنة وفاة الشريف طباطبا الأصغر ، وذلك بالنظر إلى أن طرازه المعمارى فريد فى نوعه وأن الأثرين اللذين يشبهانه بعض الشبه يرجع أحدهما إلى القرن الخامس الهجرى ويرجع الثانى إلى نهاية القرن الرابع أو إلى القرن الخامس .

محراب قديم [٨]

على مقربة من ضريح الأمام الشافعى تربة تعرف باسم تربة يحيي الشبيه . والى غربيها فى حذاء جدارها الخلفى آثار محراب صغير من الجص ، لا يظهر منه إلا الجزء العلوى أما باقيه فمدفون فى الأرض . ولـكنه لم يكن كذلك منذ نحو خمسين عاما حين رآه

---

(١) ابن الزيات : الـكواكب السيارة ص ٦٢
(٢) المرجع نفسه ص ٦٣
(٣) المرجع نفسه ص ٦٣
(٤) المرجع نفسه ص ٦٣
(٥) المرجع نفسه ص ٦٣
(٦) المرجع نفسه ص ٦٣
(٧) أنظر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٥٠ وابن خلـكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨
(٨) Julius Franz: Kairo p. 134 , S. Flury: Ein Stuckmihrab des IV (X.) Jahrhunderts (in Jahrbuch der Asiatischen Kunst, 11, 1925) pp. 106-110., J. Strzygowski: Asiens bildende Kunst p. 505.

فرانز باشا مهندس الأوقاف وفطن الى أهميته الأثرية وخشى أن تتفتت أجزاءه وتضيع معالمه فعمل على أن تؤخذ له صورة أو نموذج من الجص أودعت دار الآثار العربية بالقاهرة منذ سنة ١٩٠٣ [1] (أنظر اللوحة رقم ٥) .

وباطن هذا المحراب الجصى على هيئة المحار . والراجح أن هذا الباطن قد أضيف الى المحراب الأصلى ، لأن طرازه لم يظهر قبل سنة ٥١٦ هـ [2] ولا يمكن أن يكون معاصرا لطراز الكتابة الكوفية أو الزخارف النباتية فى اطار العقد وتوشيحتيه . وهى زخارف كلها أقرب الى الطراز العباسى الطولونى منها الى أى طراز آخر (أنظر اللوحة رقم ٦) . وقد درسها الأستاذ فلورى دراسة دقيقة ورجح أنها ترجع الى العصر الاخشيدى . ولا يتسع المجال هنا للاسترسال فى وصف الزخارف المذكورة وشرح مميزاتها مما يعنى به الاختصاصيون فى تاريخ الفنون الاسلامية .

* * *

ولكن ازدهار فن العمارة فى العصر الاخشيدى تشهد به البيانات التى نقرأها فى النصوص التاريخية عن القصور وشتى العمائر التى شيدت فى هذا العصر ثم عفت آثارها فلم يصل الينا شىء منها .

وأهم هذه المنشآت قصر المختار والبستان الذى شيده الاخشيد فى جزيرة الروضة سنة ٣٢٥ . وقد روى ابن زولاق قصة إنشاء هذا البستان فقال: ان الاخشيد قال لصالح بن نافع أنه أراد منذ تمت له إمارة مصر أن ينقل دار الصناعة من جزيرة الروضة وأن يجعل موضعها بستانا يسميه المختار ، ثم أمره أن يخرج الى الجزيرة ليعد مشروع هذا البستان مع دار كبيرة تقام فيه وان يقدر ما يلزم لذلك من النفقات ، فخرج صالح بن نافع مع بعض من لهم دراية بمثل هذه الأمور وخطوا تصميم البستان والقصر وألحقوا

(١) Comité de Conservation des Monuments de l'Art Arabe, Exercice 1904 p. 38

ومكس هرتس بك (ترجمة على بك بهجت) : فهرس مقتنيات دار الآثار العربية ص ٢٦٣

(٢) Flury: op. cit. p. 106

بهما دارا للحرس ودارا للغلمان وخزائن للطعام والملابس والفرش وما الى ذلك ، وعرضوا هذا التصميم فى رقعة كبيرة من الورق على الاخشيد فأعجب به وسأل عن نفقاته فقيل له : ثلاثون ألف دينار ، فاعترض الاخشيد على إنفاق هذا المال الكثير وقال إنه يريد الاقتصاد فى نفقات هذا المشروع ، وما زال بهم حتى انخفض رقم المال اللازم الى خمسة آلاف دينار . ومع ذلك فان الاخشيد — على عادته فى الحرص على المال — أصر على أن تجمع هذه النفقات من تبرع رجال حاشيته ومن اليهم من القادرين على الدفع ، فأخذ صالح بن نافع ورقة وبدأ قائمة التبرعات بأن سجل على نفسه التبرع بثلاثمائه دينار ، وتبعه غيره حتى جمع لهذا المشروع ستة آلاف دينار . وأشرف على تنفيذه المهندسان زقازق وابن ابى الرداد . وكان الاخشيد بعد ذلك يفاخر أهل العراق بهذا المنتزه [١] .

ويبدو أن الاخشيد كان شديد العناية بتجميل حاضرة ولايته ، فقد ذكرت المراجع التاريخية أنه أنشأ بستانا آخر شمالى الفسطاط عرف بعد ذلك باسم البستان الكافورى [٢] وأنه عنى به وجعل له أبوابا من حديد وأنه كان ينزل به ويقيم فيه أياما كاملة . وعنى به من بعده ابناه أبو القاسم اونوجور وأبو الحسن على فى أيام إمارتهما . وكان كافور كثيرا ما يتنزه به ويواصل الركوب الى الميدان الذى كان فيه ، وكانت خيوله بهذا الميدان . ولما قدم جوهر القائد الى مصر على رأس جيوش الفاطميين نزل بجوار هذا البستان وأصبح البستان جزءا من القاهرة واتخذه الخلفاء الفاطميون متنزها لهم [٣] .

وكتب على مبارك باشا أن جوهرا القائد لما قدم بجيشه الى ساحل الفسطاط فى شعبان من سنة ٣٥٧ « نزل بحرى الفسطاط التى فيها اليوم الجامع الأزهر وبيت القاضى وخان الخليلى وبين القصرين وما جاورهما من الأماكن التى بين الجبل والخليج .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٣ — ١٤
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٥
(٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٤٥٧

وكانت هذه البقعة رمالا فيما بين مصر الفسطاط وعين شمس التى تسمى الآن بالمطرية ، يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط الى عين شمس فيما بين الخليج المعروف فى أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه والخليج المعروف باليحاميم لمروره بجانبهما ، اذ اليحاميم اسم للجبل الأحمر الكائن بشرقى العباسية . وكان ذلك الخليج يمر بقربها ، وقد زال من مدة ولم يبق له أثر . وعند نزول جوهر بهذه الرملة لم يكن بها بنيان غير البساتين وأماكن قليلة منها بستان الاخشيد محمد بن طغج المعروف بالكافورى . وكان هذا البستان فى شرقى الخليج ، محله اليوم فيما بين جامع الشعرانى والسكة الجديدة قريبا من قنطرة الموسكى ممتدا فى الجهة الشرقية الى النحاسين . وكانت مساحته تبلغ ستة وثلاثين فدانا بمقياسنا اليوم ، وبجانبه من الجهة القبلية ميدان الاخشيد ومحله الآن من بر الخليج الشرقى الى شارع السكرية والغورية »[1] .

* * *

وكانت عناية الأمراء الاخشيديين بالمساجد عظيمة فكانوا يطلقون لها النفقات ويأمرون بعمارتها ومدها بما يلزم من الحصر والمصابيح وما إلى ذلك . وقد وصلت الينا أسماء عدد من المساجد المعروفة فى هذا العصر إلى جانب المسجد العتيق أو المسجد الجامع أو جامع عمرو ، فحفظت لنا النصوص التاريخية أسماء مسجد الريح[2] ومسجد عبد الله[3] ومسجد الزمام[4] ومسجد ابن عمروس[5] ومسجد الاقدام ومسجد موسى[6] .

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٤

(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٢

(٣) المرجع نفسه ص ٣٦

(٤) المرجع نفسه ص ٤١

(٥) المرجع نفسه ص ٤٤

(٦) المرجع نفسه ص ٥٦

وأمر أبو الحسن على بن الاخشيد ببناء مسجد فى الجيزة ، ويبدو أن الفضل فى بناء هذا المسجد كان لكافور لأن أهل الجيزة علموا أن الفضاء الذى شيد فيه هذا المسجد كان يراد أن تقام فيه حوانيت وغير ذلك من عمائر الاستغلال ولكنهم كانوا يريدون فيه مسجدا فخاطبوا كافورا فى الأمر وتم لهم بناء المسجد[١] .

ومن المساجد التى شيدت فى العصر الأخشيدى مسجد الفقاعى فى سفح جبل المقطم وقد بناه كافور الاخشيدى[٢] . ومنها مسجد موسى فى المنطقة نفسها وقد بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات[٣] .

وتذكر المراجع التاريخية أن كافورا شيد بعض القصور الجميلة فى مصر مثل دار الفيل التى سميت بهذا الاسم لأنها كانت تضم عددا من الفيلة . وقد سكنها كافور من سنة ٣٤٦ إلى أن توفى سنة ٣٥٧[٤] .

ومن العمائر الاخشيدية جوسق كبير شيده فى القرافة الوزير أبو بكر محمد بن على المـاذرائى على هيئة الـكعبة . وكان الناس يجتمعون عند هذا الجوسق فى الأعياد ويوقد كله فى ليلة النصف من شعبان ويجتمع القراء حوله لقراءة القرآن[٥] .

ومما ينسب الى المـاذرائى أيضا دار تسمى دار تبر . وقد وقفها هذا الوزير على ولده وبعد انقراض عقبه على الفقراء والمساكين بمدينة الرسول[٦] . وتنسب الى الوزير ابى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات دار تعرف بدار حنزابة[٧] .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٢٧
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٥٦
(٣) المرجع نفسه ج ٢ ص ٤٥٦ ، وابن الزيات : الـكواكب السيارة ص ١٤
(٤) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٢٥ ، أنظر أيضاً المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١
(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٥٣
(٦) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٩
(٧) المرجع نفسه ج ٤ ص ١٠

وأنشأ الاخشيد سنة ٣٣٠ قيسارية [1] لبيع المنسوجات فى سوق كان يعرف باسم سوق الحمام [2] . ويبدو أنه أنشأ قيساريات أخرى وحوانيت ودورا كان يحبس دخلها على المستشفى الذى شيده [3] .

ومن العمائر الاخشيدية التى تنسب الى الاخشيد مستشفى أو مارستان كان يعرف باسم المارستان الأسفل تمييزا له عن المارستان الطولونى [4] . كما ينسب الى كافور مارستان شيده هذا الأمير سنة ٣٤٦ هـ . والراجح عندنا أنه هو المارستان الأسفل المنسوب الى الاخشيد ، لأن المقريزى لم يذكر بين المارستانات أى مارستان شيده الاخشيد نفسه ، فضلا عن أن اشارة ابن دقماق الى الاخشيد فى نسبة المارستان الأول ليست صريحة تماما ، فقد يكون المقصود اونوجور الاخشيد الذى كان أمير البلاد حين شيد كافور المارستان .

ومن المنشآت الرئيسية التى شيدت فى العصر الاخشيدى « سبع سقايات » شيدها الوزير جعفر بن الفرات لسكان الفسطاط حين أصبحوا يحتاجون فى موسم الجفاف الى جلب الماء من منطقة جزيرة الروضة بسبب جفاف الخلجان وانحسار مياه النيل الى تلك المنطقة [5] . وقد حفر هذا الوزير بئرا لينقل منها الماء الى سبع السقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين التى كانت بخط الحمراء وكتب عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لله الأمر من قبل ومن بعد وله الشكر وله الحمد ومنه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات وما وفقه له من البناء لهذه البئر وجريانها الى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين وحبسه وسبله وقفا مؤبدا لايحل تغييره ولا العدول بشىء من مائه ولا ينقل ولا يبطل ولا يساق إلا الى حيث مجراه الى السقايات المسبلة فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم وذلك فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم » .

---

(١) القيسارية بمعنى السوق . أنظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes 11, p. 432

(٢) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٢

(٣) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٩٩

(٤) المرجع نفسه ج ٤ ص ٩٩

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٤٤

وقد حفظ لنا المقريزى نص هذه الكتابة التاريخية حين تحدث عن بئر الوطاويط[١]. ومن الطريف إنها وجدت على لوحة كبيرة من الحجر فى حى الصليبة عند مدخل الشارع الصغير الذي يصل شارع الصليبة بجامع ابن طولون والذى كان يعرف باسم عطفة بير الوطاويط . ولكن هذه اللوحة كسرت وضاعت بعض أجزائها فلم يبق منها إلا نحو ثلاثة سطور قرأها فان برشم وڤييت[٢].

وهذه الكتابة وثيقة عظيمة الشأن ، لأنها تشهد بأن المقريزى جدير بالثقة فيما يكتبه وبأنه يحرص على الدقة فيما يسجله عن الآثار ، ولأنها أقدم «وقفية» وصلت الينا فى تاريخ مصر الاسلامية : ومهما يكن من الأمر فان هذه البئر لم تكن تعرف عند إنشائها باسم بئر الوطاويط ، وقد ذكر المقريزى أن السقايات خربت بمرور الزمن وبنى فوق البئر وتولد فيها كثير من الوطاويط فعرفت ببئر الوطاويط .

***

ومن الآثار التى ترجع الى العصر الاخشيدى مجموعة من شواهد القبور محفوظة فى دار الآثار العربية بالقاهرة[٣] . وتشهد حروف الكتابة فى هذه الشواهد — سواء منها المحفور والبارز — بأن الزخارف الكتابية دخلت على الخط الكوفى قبل العصر الفاطمى[٤] ، فأصبحت هامات الحروف وذيولها تنتهى فى بعض الأحيان برسوم زخرفية تبشر بالزخارف الفنية التى طرأت على الخط الكوفى فى العصر الفاطمى حتى أصبح يعرف باسم الكوفى المزهر[٥] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٣٥

(٢) Wiet : Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte 11. pp. 91-94

(٣) G. Wiet : Gatalogue Géneral du Musée Arabe du Caire. Stèles Funéraires t. 5 pp. 24-151.

(٤) Ibid pl. 12, 13, 17, 24, 26, 36

(٥) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٢٣٨ و E. Kühnel : Islamische Schriftkunst p. 14

وفى اللوحات رقم ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ رسم أربعة من شواهد القبور فى العصر الاخشيدى ، ففى اللوحة رقم ٧ شاهد قبر من الحجر الجيري عليه كتابة محفورة بالخط الكوفى البسيط ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم
قل هو الله أحد الله الصمد
لم يلد ولم يولد ولم يكن
كفوا (هكذا !) أحد اللهم صلى
على محمـــد النبي وعلى اله الطا
هرين وارحم ام الحسن ابنت
عمر بن احمد بن عيسى بن سابق
بن ابى تراب وارض عنها واغفر لهـا
وتجاوز عن سيئاتها والحقها بنبيهـا
محمدا (هكذا !) صلى الله عليه واله وسلم
توفيت يوم الأربعـاء لثمـان عشرة ليلة
خلت من جمـادى الأولى سنة اثنين
وثلاثين وثلثمائه وهى تؤمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله وما شرع من دينه وحجته »

وفى اللوحة رقم ٨ شاهد قبر من الرخام عليه كتابة محفورة بالخط الكوفى وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم
كل شيء هالك الا وجهه له
الحكم واليـــه ترجعون هذا
قبر محمد بن وساس بن محمد
البزاز توفى رحمه الله يوم

الأربعاء لليلتين خلتا من ذى
الحجة سنة اثنتين وثلثين وثلثمائة
وفيه دفن ابنه عبد الله بن
محمد بن فساس توفى رضى الله
عنه يوم الاربعاء لخمس وعشرين
ليلة خلت من ذى القعدة سنة
ثلث وثلثين وثلثمائة »

وفى اللوحة رقم ٩ شاهد قبر من الحجر الجيرى وله إطار بارز وعليه كتابة محفورة بالخط الكوفى ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم
لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه
سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى ا
لأرض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه
يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
بشىء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات
والارض ولا يوده حفظهما وهو العلى
العظيم اللهم صلى على محمد وعلى اله الطا
هرين وارحم محمد بن يسين بن محسن بن محمد
بن محسن الجعفرى توفى يوم الثلثاء لسبع عشر
خلون من جمادى الأولى سنة خمس واربعين وثلثمائة »

وفى اللوحة رقم ١٠ شاهد قبر من الرخام عليه كتابة بارزة بالخط الكوفى تدل على أنه لحفيد ابن الجصاص التاجر الجوهرى الذى صحب خمارويه بن أحمد بن طولون

والذى سبق الكلام عليه . وقد توفى ابن الجصاص سنة ٣١٥ هـ ، وهذا نص الكتابة على شاهد حفيده :

« بسم الله الرحمن الرحيم
قل هو الله احد الله
الصمد لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفوا احد
هذا قبر عثمان المكنا
بابى عمرو بن عبيد الله
بن الحسين بن عبد الله
الجوهرى المعروف با
بن الجصاص توفى يوم الا
ربعاء ليلة (هكذا !)
بقيت من جماد
ى الأولى سنه خمس
وخمسين وثلمائة
الحقه الله بنبيه محمد
صلى الله عليه وعلى اله اسلم (هكذا !)

* * *

وقد وصلت الينا بضع أوراق محفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا ، ويظن أنها مما عثر عليه فى الفيوم . وعلى إحداها رسم فارس ذى لحية وقبعة مخروطية الشكل وفى إحدى يديه ترس وفى الآخر رمح . وفى الوجه الآخر العبارة الآتية : « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت » ثم « الحمد لله شكرا . الحمد لله وحده مما صور أبو تميم حيدرا »[1] .

(١) A. Grohmann and Th. Arnold : The Islamic Book fig. 4
وتعليقات الدكتور زكى محمد حسن على كتاب التصوير عند العرب لاحمد تيمور باشا ص ١٨٧ — ١٨٨

ويبدو فى رسوم هذه الأوراق التأثر بأساليب الفن القبطى وسيادة الألوان البدائية كالأحمر والأصفر والأخضر ، والراجح عند مؤرخى الفنون الاسلامية أنها ترجع إلى العصر الإخشيدى .

***

أما صناعة النسج فى عصر الإخشيديين فقد ازدهرت ازدهارا عظيما ، كما عرفنا عند عند الكلام على وظيفة صاحب الطراز . وكانت الحكومة تراقب صناعة النسج الأهلية مراقبة دقيقة وتختم الأقمشة بخاتم رسمى ولا تسمح بأن يتولى التجارة فيها إلا التجار الذين ترخص لهم بمزاولة هذا العمل . وكانت المراكز الرئيسية لهذه الصناعة هى المناطق التى يكثر فيها القبط . وكان القطن والكتان ينسجان فى كثير من مراكز صناعة النسج ولا سيما بالدلتا فى تنيس وشطا ودبيق ودمياط فضلا عن الفرما والاسكندرية ، كما كانا ينسجان فى البهنسا والاشمونين واخميم وأسيوط من مدن الصعيد .

وقد كتب ابن حوقل عن تنيس ودمياط وذكر ما بهما من « الحلل السنية التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة . وربما بلغ الثوب من ثيابهم مائتى دينار إذا كان فيه ذهب ، وما لا ذهب فيه يبلغ المائة دينار »[١] كما أشار إلى ما كان يصنع فى البهنسا من « الستور والبسط والمضارب والفساطيط » وذكر أن الزوج من بعض هذه الستور كان يساوى نحو ثلاثمائة دينار[٢] .

وكانت المنسوجات المصرية فى العصر الاخشيدى لا تزال متأثرة بالزخارف التى استعملها النساجون فى نهاية العصر القبطى وفى فجر الاسلام « وأكثرها رسوم طيور أو حيوان أو أشكال آدمية صغيرة فى جامات بيضية الشكل متعددة الأضلاع أو موزعة توزيعاً غير منتظم . وفيها أشكال هندسية وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة »[٣] (أنظر اللوحة رقم ١١)

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ١٠١

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٥

(٣) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٧

وقد رأينا كيف ظهرت الكتابة العربية على المنسوجات وتحدثنا عن قطع النسيج التى وصلت إلينا حاملة أسماء الخلفاء العباسيين والوزراء فى العصر الاخشيدى ، ونضيف هنا رسم قطعة منها عليها كتابة نقرأ منها « بشطا على يد فائز أمير المؤمنين أطال الله بقاءه سنة سبع وخمسين وثلثمائة . الخير مقبل إن شاء الله »[1] (أنظر اللوحة رقم ١٢) .

ومن المنسوجات التى انتشرت فى العصر الاخشيدى مجموعة تنسب إلى الفيوم فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، وقد جاء اسم هذا الاقليم فى كتابة على قطعة منها محفوظة فى دار الآثار العربية بالقاهرة (أنظر اللوحة رقم ١٣) وفى هذه القطعة شريط أحمر به رسوم جمال فى أسلوب تخطيطى بسيط دون مراعاة للنسب أو محاكاة للطبيعة . وتحت هذه الرسوم كتابة إما بيضاء أو بنية اللون وحروفها غريبة ولها ذاتية خاصة بما فى سيقانها من زخارف مدرجة الشكل وبما بين هذه السيقان من شتى الزخارف الصغيرة باللون الأصفر أو الأخضر ونص هذه الكتابة (سعا) دة ونعمة كاملة لصاحبه مما عمل فى طراز الخاصة بطمور (؟) من كورة الفيوم »[2] .

وكان المصريون فى العصر الاخشيدى يستوردون من اليمن المنسوجات التى اشتهر بانتاجها هذا الإقليم والتى تمتاز بزخارفها المؤلفة من الخطوط المتعددة الألوان[3] (أنظر اللوحة رقم ١٤) .

ونمت فى العصر الاخشيدى صناعة الخزف ذى البريق المعدنى ، ولكن زخارفه ظلت بدائية الى أن تم تطورها فى العصر الفاطمى[4] .

أما صناعة الحفر فى الخشب فى العصر الاخشيدى فقد كانت ذيلا وتطوراً للاساليب المعروفة فى عهد الطولونيين أى للطراز العباسى عامة وامتازت بأن أساس زخارفها

---

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 5. p. 20 No. 1639

(٢) أنظر زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٣٧ — ١٣٩

(٣) C. J. Lamm : Cotton in Mediaeval Textiles of the Near East pp. 151-156, 235-238

(٤) أنظر زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ١٠٠ — ١٠٨ ، وزكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٤٧ وما بعدها ، وزكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٣١٠

« حفر منحرف الجوانب » تخلق فيه الزخرفة من بضعة فروع وخطوط حلزونية تغطى الأرضية كلها (انظر اللوحة رقم ١٥) وقد تؤلف هذه الخطوط رسماً تخطيطيا محوراً عن الطبيعة لحيوان أو طائر [١] (انظر اللوحة رقم ١٦) .

وكانت تصنع من الخشب ألواح صغيرة تحفر فيها كتابات لتسجيل ما يملكه الأفراد من العقار فى عبارات قانونية . ومن ذلك لوح مكسور فى دار الآثار العربية لا تزال عليه الكتابة الآتية : « بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله ويمن وسعادة

وعشرين سهما من جميع هذه الدار وحانوتيها (من كل حق)

هو لها داخل فيها ومن كل حق هو لها خارج منها (كل قليل)

وكثير هو لها من حقوقها الذى هى لها فيها .

ن هرون بن موسى البزاز ملكها من فضل . . . » [٢] (انظر اللوحة رقم ١٦)

---

(١) أنظر زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٤٨ و E. Pauty: Catalogue du Musée Arabe. Les Bois Sculptés Jusqu'à l'époque Ayyoubide pl. 18-22.

(٢) J. D. Weill: Catalogue du Musée Arabe. Les Bois à Epigraphes Jusqu'à l'Epoque Mamlouke pp. 60-61.

الباب التاسع

الفقهاء والعلماء والأدباء



الفقهاء والعلماء والأدباء

نريد أن نتحدث فى هذا الباب عن الجوانب الممتازة فى الحياة العقلية فى العصر الاخشيدى . ولا ريب فى أن أهم مظاهرها نشاط الفقهاء والعلماء والأدباء ، وليس من السهل تمييز كل طائفة منها تمييزا خاصا لأنها كانت تلتقى فى بعض الأحيان . ولكننا نقصد حملة علوم الشريعة والعبادات حين نتحدث عن الفقهاء ، ونقصد المتخصصين فى فن واحد حين نتحدث عن العلماء . أما الباقون ممن تكلموا فى فنون مختلفة فهم الأدباء .

وكان العصر الاخشيدى غنيا بهذه الطوائف جميعها ، وكانت تلتقى فى مجالس الأمراء وعلية القوم [1] وتحظى بتقديرهم ورعايتهم . ومن ذلك أن الاخشيد أعجب بعلم أحد الفقهاء فولاه على سواحل مصر [2] . كما أن اونوجور كان يجالس سيبويه المصرى وينادمه [3] . وكان الوزير محمد بن على بن مقاتل يجرى على هذا الأديب مبلغا من المال فى كل شهر [4] . وكان بالفسطاط سوق كبير للوراقين يسعى اليه أهل العلم والأدب [5] . وقيل إن الخليفة عبد الرحمن الناصر أرسل من الأندلس عشرة آلاف دينار لتفرق على فقهاء المالكية فأمر كافور بعشرين ألف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية [6] .

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٩ ، والكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٦٩

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٠ — ٣١

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ١٨ و٣٦

(٤) المرجع نفسه ص ٣٥

(٥) المرجع نفسه ص ٥١

(٦) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ١٩٠ — ١٩١

وكان الفقهاء والعلماء والأدباء يلتقون فى المساجد للمناظرة وبحث المسائل الفقهية والأدبية . ومن المساجد التى كانوا يقبلون على الجلوس فيها لهذا الغرض مسجد عمرو بن العاص[١] ، ومسجد ابن عمروس[٢] ، ومسجد عبد الله[٣] .

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٢ و٢٣ و٤٢ و٥٢
(٢) المرجع نفسه ص ٤٤ و٤٦
(٣) المرجع نفسه ص ٤٦

(١)

الفقهـــاء

ظهر من المحدثين فى مصر الاخشيدية أبو بكر أحمد بن عمرو الطحان المتوفى سنة ٣٣٣ ، وأبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المتوفى سنة ٣٤٧ [١] . وقد استطاع ابن يونس أن يكون إماما متيقظا حافظا فى الحديث وإن كان لم يرحل ولم يسمع الحديث بغير مصر ، وكان العرف قبل القرن الرابع لا يجيز للانسان رواية الحديث من غير لقاء رجاله ومن غير إجازة مكتوبة تخوله حق الرواية [٢] . وقد ألف ابن يونس كتابا فى تاريخ مصر على هيئة سير لعلمائها . وضاع هذا الكتاب ولكننا نجد بعض مقتطفات منه فى حواشى المخطوط الذى طبع منه الاستاذ جست كتاب الولاة والقضاة للكندى ، كما أن ابن حجر نقل عنه فيما كتبه عن القضاة . ويبدو من هذه المقتطفات أن الكلام على الحديث والمحدثين كان أساس ما كتبه ابن يونس فى التاريخ [٣] .

ومن المحدثين الذين ظهروا فى عصر الاخشيديين حمزة بن محمد بن على العباسى الكنانى وقد توفى سنة ٣٥٧ ، وسعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن وهو بغدادى نزح الى مصر وتوفى سنة ٣٥٣ ، ومنهم محمد بن على بن حسن المصرى نزيل تنيس وكانت وفاته سنة ٣٦٩ ، والحسن بن رشيق المتوفى سنة ٣٧٠ ، وابن النحاس أحمد بن محمد بن عيسى ابن الجراح وقد قام بأسفار طويلة وتوفى سنة ٣٧٦ عن خمس وثمانين سنة . ومنهم ابن مسرور عبد الواحد بن محمد بن أحمد ، نشأ فى بلخ وأقام بمصر وتوفى سنة ٣٧٨ ، وأحمد بن ابى الليث نصر بن محمد النصيبى المتوفى سنة ٣٨٦ ، ومنهم الوزير أبو الفضل جعفر ابن الفرات المتوفى سنة ٣٩١ [٤] .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٤

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣١٥ وما ذكره من المراجع القديمة .

(٣) أنظر ص ٤٤ من المقدمة الانجليزية التى كتبها جست لكتاب الولاة والقضاة للكندى .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥

وعاش بمصر فى العصر الاخشيدى نفر من المحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفظ والمنفردين بعلو الاسناد وقد سرد السيوطي أسماءهم وتاريخ وفاتهم [١] .

* * *

استقرت المذاهب الفقهية الكبرى فى القرن الرابع الهجرى . وكانت السيادة فى مصر للمذهبين الشافعى والمالكى ، وفى سنة ٣٢٦ هـ كان للشافعيين فى جامع عمرو خمس عشرة حلقة وللمالكيين مثلها ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات فقط [٢] . وكانت المنافسة تقوى والنزاع يشتد فى بعض الأحيان بين أصحاب المذاهب المختلفة بمصر ، وقد حدث فى سنة ٣٢٩ أن « عاد أصحاب مالك والشافعى الى القتال فى المسجد الجامع العتيق » [٣] ويبدو أن الأمراء الأخشيديين وأتباعهم كانوا يكرهون الشافعية [٤] .

وكان على رأس الفقهاء الشافعية فى العصر الاخشيدى ابو بكر محمد بن احمد بن محمد ابن جعفر المعروف بابن الحداد وكان « فقيها محققا غواصا على المعانى تولى القضاء بمصر والتدريس ، وكانت الملوك والرعايا تكرمه وتعظمه وتقصده فى الفتاوى والحوادث . وكان يقال فى زمنه : عجائب الدنيا ثلاث : غضب الجلاد ونظافة السماد والرد على ابن الحداد » [٥] . وكانت ولادته سنة ٢٦٤ ووفاته سنة ٣٤٤ أو سنة ٣٤٥ ، « وكان متصرفا فى علوم كثيرة من علوم القرآن الكريم والفقه والحديث والشعر وأيام العرب والنحو واللغة وغير ذلك . ولم يكن فى زمانه مثله وكان محببا إلى الخاص والعام . وحضر جنازته الأمير ابو القاسم أونوجور بن الاخشيد وكافور وجماعة من أهل البلد » [٦] وكان أحد أجداده يبيع الحديد فنسب إليه . ولابن الحداد أخبار كثيرة مع الأمراء الاخشيديين تشهد بعلو

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٧٣ — ١٧٤
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٢٤
(٣) المرجع نفسه ص ٢٤
(٤) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٥٥
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٨٠
(٦) المرجع نفسه .

همته وثقته فى نفسه [١] . ولا عجب فقد كان « طويل اللسان غير مطعون عليه فى قول ولا فعل مجموعا على صيانة وطهارة . وكان من محاسن مصر حاذقا بعلم القضاء حسن التوقيعات » [٢] .

ومن فقهاء الشافعية الذين أدركوا العصر الاخشيدى ابو عبد الله الحسين بن ابى زرعة الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٧هـ . وقد عرفنا أنه ولى القضاء فى بداية حكم الاخشيد [٣] . ومنهم أبو بكر محمد بن بشر بن عبد الله الزبيرى المتوفى سنة ٣٣٢ [٤] ، وابو رجاء محمد ابن احمد بن الربيع الأسوانى المتوفى سنة ٣٣٥ ، ويقال انه كان أديبا شاعرا وأنه نظم قصيدة طويلة بلغت ثلاثين ومائة الف بيت (هكذا !!) ذكر فيها أخبار العالم وقصص الأنبياء وغير ذلك من كتب الطب والفلسفة [٥] .

ومن فقهاء الشافعية فى مصر الاخشيدية عبد الرحمن بن سلمويه الرازى ، قدم الى مصر وتفقه بها ودرس فى جامع عمرو وتوفى سنة ٣٣٩ ، ومحمد بن ابراهيم بن الحسين المعروف بابن سكره ، وهو بغدادى الأصل سكن مصر وتوفى سنة ٣٤٢ ، ومنهم عبد الله ابن محمد الخصيبى ، وقد عرفنا أنه ولى قضاء مصر وتوفى سنة ٣٤٨ ، ومحمد بن موسى ابن عبد العزيز الكندى ويلقب بسيبويه وكان شاعرا فصيحا يتظاهر بالاعتزال وتوفى سنة ٣٥٩ وعبد الله بن محمد بن عبد الله بن الناصح المتوفى سنة ٣٦٥ [٦] .

أما فقهاء المالكية فقد أدرك منهم العصر الاخشيدى هرون بن محمد بن هرون الاسوانى المتوفى سنة ٣٢٧ [٧] ، وعلى بن عبد الله بن أبى مطر الاسكندرانى المتوفى سنة ٣٣٠ ، ومن فقهاء المالكية فى ذلك العصر محمد بن يحي بن مهدى الاسوانى

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٥١ — ٥٥٧
(٢) المرجع نفسه ص ٥٥٢
(٣) المرجع نفسه ص ٤٨٧ و٤٨٨ و٥٦٢ — ٥٦٣
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٧
(٥) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٦٧ ؛ لعل المقصود ثلاثين ومائة وألف بيت .
(٦) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٧ — ١٨٨
(٧) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٩٣

وقدولى قضاء مصر ومات سنة ٣٤٠[1]، وبكر بن محمد بن العلاء القشيرى وأصله من البصرة ثم نزح الى مصر وتوفى بها سنة ٣٤٤[2] . ومنهم أحمد بن محمد بن جعفر الأسوانى الصواف المتوفى سنة ٣٦٤ أو سنة ٣٧٤[3]، ومحمد بن يوسف بن بلال الأسوانى المتوفى سنة ٣٧٦[4] . وكان على رأس فقهاء المالكية فى فترة من العصر الاخشيدى ابو اسحق محمد بن القاسم ابن شعبان المتوفى سنة ٣٥٥[5] .

وكان لمصر سبق مذكور فى ميدان التصوف وذلك منذ بدء ظهور طوائف الصوفية فى مصر مهد الرهبنة المسيحية[6] . وكان ذو النون المصرى المتوفى بالجيزة سنة ٢٤٥ من أكبر النساك فى بداية التصوف ويعد من أقطاب الصوفية وله فضل كبير فى وضع كثير من التعاليم الصوفية التى نعرفها الآن ، بل يقال انه أول شيخ أعلن اعتناقه العقيدة الصوفية[7] . ومات بمصر قبيل قيام الدولة الاخشيدية قطب آخر من أقطاب الصوفية : هو أبو الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الحمال[8] .

ومن الصلحاء والصوفية الذين أدركوا العصر الاخشيدى أبو الحسن على بن محمد بن سهل الدينورى المتوفى بمصر سنة ٣٣١، وأبو الخير الأقطع المتوفى سنة ٣٤٣، ومن الصوفية فى هذا العصر أبو على الحسن بن أحمد الكاتب المصرى المتوفى سنة ٣٤٣، وأبو بكر محمد ابن أحمد بن سهل الرملى النابلسى . وكان الأخير يكره الفاطميين حتى يروى أنه قال : لو كان معى عشرة أسهم رميت الروم بسهم ورميت بنى عبيد بتسعة . فلما فتح الفاطميون مصر قتله المعز سنة ٣٦٣، ويروى أن لهذا الصوفى قصة مع كافور تشبه قصة هذا الأمير

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص٣٦٤ ، والكندى : الولاة والقضاة ص٥٣٢ — ٥٣٤
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٢
(٣) السيوطى : المرجع نفسه ، وقد ذكره الادفوى فى الطالع السعيد ص٧٤ باسم أبى جعفر أحمد بن محمد بن هارون بن موسى الاسوانى .
(٤) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٦٦
(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤١
(٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٢ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ١٧٣
(٧) R. L. Nicholson : Studies in Islamic Mysticism
(٨) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٣ — ٢٤٤

مع الشيخ أبي عبد الله بن جاباز ، وهى القصة التى رويناها عند الكلام على أخلاق كافور [١] . وبيان ذلك أن كافورا الاخشيدى بعث الى أبي بكر محمد بن احمد بن سهل الرملي بهدية من المال فردها وقال : قال الله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » ، فالاستعانة بالله تكفى ، فرد كافور الرسول بالمال اليه وقال له : قال الله تعالى « له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » [٢] فأين ذكر كافور هنا ؟ فقال أبو بكر : صدق ، الملك والمال لله ، كافور صوفى لا أنا ، ثم قبل المال [٣] .

* * *

وانتقلت من العراق الى مصر فى القرن الثالث الهجرى صورة من خلافات المتكلمين ، وذلك منذ بعث المأمون الى ولاة الأمصار بمنشوره الذى أمر فيه بأخذ العلماء والقضاة بخلق القرآن . وقد ورد كتاب المأمون على كيدر والى مصر سنة ٢١٨ ﻫ فامتحن قاضيها وفقهاءها وقالوا بخلق القرآن [٤] . وما لبثت هذه الحركة أن اشتدت فى خلافة الواثق ، وقد كتب الكندى فى هذا الصدد : « أن أمر المحنة كان سهلا فى ولاية المعتصم لم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا أو أبوا ، حتى مات المعتصم وقام الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين فأمر بأن يؤخذ الناس بها ، وورد كتابه على محمد بن ابى الليث بذلك . وكأنها نار أضرمت . . . فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة . فهرب كثير من الناس وملئت السجون ممن أنكر المحنة وأمر ابن ابى الليث بالاكتتاب على المساجد : لا اله الا الله رب القرآن المخلوق . فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد وأمرهم أن لا يقربوه » [٥] .

---

(١) أنظر صفحة ١٣٥ إلى ١٣٧ من هذا الكتاب .

(٢) قرآن كريم سورة طه ، الآية ٦

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٣ و ٤٤٥

(٥) المرجع نفسه ص ٤٥١

وكان المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى يعالجون مسائل كلامية محضة ودفعوا خصومهم في القرن الرابع الى الاجابة عن هذه المسائل [١] . وفى مصر أثير الجدل فى الاعتزال فاعتنقه قوم ورفضه آخرون . وظلت حركة المعتزلة فى مصر حتى بعد أن ورد كتاب المتوكل على الوالى هرثمة بن النضر سنة ٢٣٤ « يأمر بترك الجدال فى القرآن » [٢] وهكذا شاهدت مصر فى العصرين الطولونى والاخشيدى بعض من يعتنقون مذهب الاعتزال .

وروى ابن زولاق أن سيبويه المصرى كان معتزليا وكان « يظهر الكلام فى الاعتزال فى الطرق والاسواق » وكان الناس يتحملون ذلك منه لاعتقادهم أنه لم يكن سليم العقل تماما . وقال ابن زولاق أن سيبويه أخذ علم الاعتزال عن أبي على محمد بن موسى القاضى الواسطى وكان وجه المتكلمين بمصر . ويروى أن سيبويه كان يوم جمعة فى سوق الوراقين [٣] فى جمع كبير ، وفى الحاضرين أبو عمران موسى بن رباح الفارسى المتكلم أحد شيوخ المعتزلة المشهورين ، وكان سيبويه يصيح ويقول : الدار دار كفر أحسبكم أنه ما بقى فى هذه البلدة العظيمة أحد يقول القرآن مخلوق إلا أنا وهذا الشيخ أبو عمران أبقاه الله ، فقام أبو عمران يعدو حافيا خوفا على نفسه حتى لحقه رجل ببغله [٤] .

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣١٣

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٧

(٣) نلاحظ أنه لم تكن هناك مدارس فى العصر الاخشيدى وإنما كانت الدروس تلق فى المساجد وفى بيوت علية القوم ، ولم تكن سوق الوراقين لبيع الكتب ونسخها فحسب ولكنها كانت مجمعاً للأدباء ومحلا للمناظرات .

(٤) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ١٨ — ١٩ وص ٢٣ — ٢٤

(٢)

الأدباء

كان حظ النثر الفنى أعظم من حظ الشعر فى العصر الاخشيدى . وكان فى هذا النثر المسحة العراقية والميل إلى السجع والمزاوجة مع إطناب فى اللفظ وتكرار المعنى وإقبال على الجمل القصيرة [١].

وكان زعيم الكتاب فى هذا العصر إبراهيم بن عبدالله بن محمد النجيرمى . وكان خبيراً بعلوم العربية ، أخذ النحو عن الزجاج وأخذ عنه بعض المصريين ومنهم أبو الحسين المهلبى وجنادة اللغوى . ومن انشائه الكتاب الذى أرسله الاخشيد الى المانوس ملك الروم [٢] ، وكان قد ورد الى الاخشيد « كتاب المانوس عظيم النصرانية يفتخر فيه ويزعم أن له المنة عليه فى خطابه إذ جرت عادته ألا يخاطب إلا الخليفة » [٣] فقرئ هذا الكتاب على الاخشيد فطلب الى كتابه إعداد رد له ، وكتب جماعة منهم ، ووقع اختيار الأمير على الرد الذى أعده النجيرمى فأرسله الى حاكم بيزنطة . وقد أعجب النجيرمى نفسه بالكتاب فنسخ منه نسخا وأنفذها الى العراق يفتخر بها [٤]. ولما كان لهذا الكتاب شهرة كبيرة فى تاريخ الاخشيديين والنثر فى عصرهم فانا ننقله فيما يلى [٥] :

« من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين ، الى أرمانوس عظيم الروم ومن يليه . سلام بقدر ما أنتم له مستحقون ، فانا نحمد الله الذى لا اله إلا هو ونسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أنظر أحمد أمين بك : ظهر الاسلام ج ١ ص ١٧٣ وزكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع.

(٢) هو رومانوس لكابينوس Romanus Lucapenus الذى استولى على عرش بيزنطة من سنة ٩١٩ إلى ٩٤٤ م وكان الآمر الناهى فحجب بذلك الأمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس Constantine Porphyrogenitus الذى امتد حكمه نظرياً من ٩١٢ إلى ٩٥٩ م. (٣٠٠ — ٣٤٨ هـ)

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٨

(٤) المرجع نفسه ص ٢٣

(٥) المرجع نفسه ص ١٨ — ٢٣ ، والقلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ١٠ — ١٨

أما بعد ، فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا واسحاق رسوليك ، فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلة الرحمة ، وما نمى عنا اليك ، وصح من شيمنا فيها لديك ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا ، وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء والتوصل الى تخليص الأسرى الى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه .

فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فمن سديد القول ، الذى يليق بذوى الفضل والنبل . ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون ، واليه راغبون ، وعليه باعثون ، وفيه بتوفيق الله ايانا مجتهدون ، وبه متواصون وعاملون ، وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور وجوامع المصالح بمنه وقدرته .

وأما ما نسبته الى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فانا نرغب الى الله جل وعلا الذى تفرد بكمال هذه الفضيلة ، ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها ، أن يوفقنا لها ، ويجعلنا من أهلها ، وييسرنا للاجتهاد فيها ، والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعزة القسوة بها ، ويجعل ماأودع قلوبنا من ذلك موقوفا على طاعته ، وموجبات مرضاته[1] ، حتى نكون أهلا لما وصفتنا به ، وأحق حقا بما دعوتنا اليه ، وممن يستحق الزلفى من الله تعالى ، فانا فقراء الى رحمته . وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا ، وحمله من جسيم الأمر ما حملنا ، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، أن يبتهل الى الله تعالى فى معونته لذلك وتوفيقه وإرشاده ، فان ذلك اليه وبيده : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

وأما ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون الخليفة فى المكاتبة لما يقتضيه عظم ملككم ، وأنه الملك القديم الموهوب من الله ، الباقى على الدهر ، وانك انما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك ، فان ذلك لو كان حقا ، وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه ، وكان لك فى ترك مكاتبتنا غنم ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى من حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ، ولا يراه وصمة ولا نقيصة ولا عيبا ، ولا يقع فى معاناة صغيرة من الأمور

(١) لعلها : موجبا لمرضاته .

تعقبها كبيرة ، فان السائس الفاضل قد يركب الأخطار ، ويخوض الغمار ، ويعرّض مهجته ، فيما ينفع رعيّته . والذى تجشّمته من مكاتبتنا ان كان كما وصفته فهو أمر سهل يسير ، لأمر عظيم خطير ، وجلّ نفعه وصلاحه وعائدته تخصّكم ، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين ، فمن كان منّا فى أيديكم فهو على بيّنة من ربه ، وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسبيله ، وإن فى الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشده البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه ، وحميد عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه ، ولم يعذه من أن يبتليه . هذا الى أوامر الانجيل الذى هو إمامكم ، وما توجبه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل الى استنقاذ أسرائكم . ولولا أنّ إيضاح القول فى الصواب ، أولى بنا من المسامحة فى الجواب ، لأضربنا عن ذلك صفحا . إذ رأينا أنّ نفس السبب الذى من أجله سما الى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم ، أو عدا عنهم الى من حلّ محلّنا فى دولتهم ، بل الى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منعه ، ورد ملتمسه ممن جاوره ، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كلّه فى اجابتهم ، ولا عار على أحد وان جلّ قدره فى ردّهم ، ومن وثق فى نفسه ممن جاوره ، وجد قصده أسهل السبيلين عليه ، و أدناهما الى ارادته ، حسب ما تقدم لها من تقدّم . وكذلك كاتب من حل محلّك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا ، فهالكنا عدة ، كان يتقلد فى سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن .

فمنها ملك مصر الذى أطغى فرعون على خطر أمره ، حتى ادعى الالهية وافتخر على نبي الله موسى بذلك .

ومنها ممالك اليمن التى كانت للتبابعة ، والاقيال العباهلة : ملوك حمير ، على عظم شأنهم ، وكثرة عددهم .

ومنها أجناد الشام التى منها جند حمص ، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم ومن قبله من عظائها . ومنها جند دمشق على جلالته فى القديم والحديث ، واختيار الملوك المتقدمين له . ومنها جند الأردن على جلالة قدره ، وأنه دار المسيح صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والحواريين . ومنها جند فلسطين

وهى الأرض المقدسة ، وبها المسجد الأقصى ، وكرسى النصرانية ، ومعتقد غيرها ، ومحج النصارى واليهود طرا ، ومقر داود وسليمان ومسجدهما . وبها مسجد إبراهيم وقبره وقبر اسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام ، وبها مولد المسيح وأمه وقبرها .

هذا إلى ماتتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة ، والدلالات الظاهرة ، فانا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها وعظم قدرها وما حوت من الفضل توفى على كل مملكة ، لأنها محج آدم ومحج إبراهيم وارثه ومهاجره ومحج سائر الأنبياء وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام وداره وقبره ومنبت ولده ومحج العرب على مر الحقب ومحل أشرافها وذوى أخطارها على عظم شأنهم وفخامة أمرهم . وهو البيت العتيق ، المحرم المحجوج اليه من كل فج عميق ، الذى يعترف بفضله وقدمه أهل الشرف ، من مضى ومن خلف ، وهو البيت المعمور ، وله الفضل المشهور .

ومنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة بتربته ، وانها مهبط الوحى ، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر ، والسهل والوعر ، والشرق والغرب ، وصحارى العرب على بعد أطرافها ، وتنازح أقطارها ، وكثرة سكانها فى حاضرتها وباديتها ، وعظمها فى وفودها وشدتها ، وصدق بأسها ونجدتها ، وكبر أحلامها ، وبعد مرامها وانعقاد النصر من عند الله براياتها . وإن الله تعالى أباد خضراء كسرى وشرد قيصر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها . هذا إلى ماتعلمه من أعمالنا ، وتحت أمرنا ونهينا ثلاثة كراسى من أعظم كراسيكم : بيت المقدس وأنطاكية ، والاسكندرية . مع ما الينا من البحر وجزائره ، واستظهارنا بأتم العتاد . وإذا وفيت النظر حقه علمت أن الله تعالى قد أصفانا بجل الممالك التى ينتفع الأنام بها ، وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دنيا وآخرة ، وتحققت أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كل منزلة ، والحمد لله ولى كل نعمة .

وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها على عظمها وسعتها بفضل الله علينا وإحسانه الينا ومعونته لنا وتوفيقه إيانا ، كما كتبت الينا وصح عندك من حسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها الأمن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا على نعمه التى تفوت عندنا عدد العادين ، وإحصاء المجتهدين ، ونشر الناشرين ، وقول القائلين ، وشكر الشاكرين . ونسأله أن يجعلنا ممن تحدث بنعمته عليه شكراً لها ، ونشراً لما منحه الله منها ومن رضى اجتهاده فى شكرها ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ، وكان سعيه مشكورا ، انه حميد مجيد .

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كرّمه وأظهره ، ووعدنا فى عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقدرة القاهرة ثم الفوز الأكبر يوم الدين . لكنك سلكت مسلكا لم يحسن أن نعدل عنه ، وقلت قولا لم يسعنا التقصير فى جوابه ، ومع هذا فانا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك ، ولا اعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ به ، اذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومنزلتك ، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك فى الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن فى يدك من أسرى المسلمين ، وعطفك عليهم ، وتجاوزك فى الاحسان اليهم ، جميع من تقدمك من سلفك . ومن كان محمودا فى أمره ، رُغب فى محبته ، لأن الخير أهل أن يحب حيث كان . فان كنت انما تؤهل لمكاتبتك ومماثلتك من اتسعت مملكته ، وعظمت دولته ، وحسنت سيرته ، فهذه ممالك عظيمة ، واسعة جمة ، وهى أجل الممالك التى ينتفع بها الأنام ، وسر الأرض المخصوصة بالشرف . فان الله قد جمع لنا الشرف كله ، والولاء الذى جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مخصوصين بذلك الى مالنا بقديمنا وحديثنا وموقعنا . والحمد لله رب العالمين الذى جمع لنا ذلك بمنه واحسانه ، ومنه نرجو حسن السعى فيما يرضيه بلطفه ولم ينطو عنك أمرنا فيما اعتمدناه .

وان كنت تجرى فى المكاتبة على رسم من تقدمك فانك لو رجعت الى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يحل محلنا ، ولا أغنى غناءنا ، ولا ساس فى الأمور سياستنا ، ولا قلده مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلدنا ، ولا فوض اليه ما فوض الينا . وقد كوتب أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وآخر من كوتب تكين مولى أمير المؤمنين ولم يكن تقلد سوى مصر وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيرا وآخرا على نعمه التى يفوت عندنا عددها عد العادين ، ونشر الناشرين . ولم نرد بما ذكرناه المفاخرة ، ولكننا قصدنا بما عددنا من ذلك حالات: أولها ، التحدث بنعمة الله علينا ، ثم الجواب عما تضمنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة فى المكاتبة ، ولتعلم قدر ما بسطه الله لنا فى هذه المسالك . وعندنا قوة تامة على المكافأة على جميل فعلك بالأسارى وشكر واف لما توليهم وتتوخاه من مسرتهم إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفقك الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة ، والتوفيق للسداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يحبه ويرضاه ويثيب عليه ، ويرفع فى الدنيا والآخرة أهله بمنه ورحمته .

وأما الملك الذى ذكرت أنه باق على الدهر لأنه موهوب لكم من الله خاصة ، فإن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . وإن الملك كله لله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير واليه المصير ، وهو على كل شىء قدير . وإن الله عز وجل نسخ ملك الملوك وجبرية الجبارين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين وشفع نبوته بالامامة وحازها الى العترة الطاهرة من العنصر الذى منه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، والشجرة التى منها غصنه ، وجعلها خالدة فيهم يتوارثها منهم كابر عن كابر ، ويلقيها ماض الى غابر ، حتى ينجز أمر الله ووعده ، ويبهر نصره وكلمته ، وأظهر حجته وأضاء عمود الدين بالأئمة المهتدين ، وقطع دابر الكافرين ليحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون حتى يرث الله الأرض ومن عليها واليه يرجعون .

وإن أحق ملك أن يكون من عند الله وأولاه وأخلقه أن يكنفه الله بحراسته وحياطته ، ويحفه بعزه وأيده ، ويجلله بهاء السكينة فى بهجة الكرامة ، ويجمله بالبقاء والنجاء ما لاح فجر ، وكر دهر ، ملك امامة عادلة خلفت نبوة فجرت على رسمها وسننها ، وارتسمت أمرها ، وأقامت شرائعها ، ودعت الى سبلها ، مستنصرة بأيدها ، منجزة لوعدها ، وإن يوما واحدا من امامة عادلة خير عند الله من عمر الدنيا تملكا وجبرية .

ونحن نسأل الله تعالى أن يديم نعمه علينا ، واحسانه الينا بشرف الولاية ثم بحسن العاقبة بما وفر علينا نخره وعلاه ، وبجده واحسانه ان شاء الله ، وبه الثقة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وأما الفداء ورأيك فى تخليص الأسرى ، فانا وان كنا واثقين لمن فى أيديكم احدى الحسنيين ، وعلى بينة لهم من أمرهم ، وثبات من حسن العاقبة وعظم المثوبة ، عالمين بما لهم ، فان فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها ، سكونا الى ما يتحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب . ويعلم أن الله قد أعاذه من أن يفتنه ، ولم يعذه من أن يبتليه ، وقد تبينا مع ذلك فى هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون ، والسلف الصالحون فوجدنا ذلك موافقا لما التمسته ، وغير خارج عما أحببته ، فسررنا بما تيسر منه ، وبعثنا الكتب والرسل الى عمالنا فى سائر أعمالنا ، وعزمنا عليهم فى جمع كل من قبلهم وأتباعهم بما وفر الايمان فى انفاذهم ، وبذلناهم ، وبذلنا فى ذلك كل ممكن ، وأخرنا اجابتك عن كتابك ليتقدم فعلنا قولنا ، وانجازنا وعدنا ، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسن الموقع منك ان شاء الله .

وأما ما ابتدأتنا به من المواصلة ، واستشعرته لنا من المودة والمحبة ، فان عندنا من مقابلة ذلك ما توجبه السياسة التى تجمعنا على اختلاف المذاهب ، وتقتضيه نسبة الشرف الذى يؤلفنا على تباين النحل ، فان ذلك من الاسباب التى تخصنا واياك . ورأينا من تحقيق جميل ظنك بنا إيناس رسلك وبسطهم ، والاستماع منهم والاصغاء اليهم والاقبال عليهم ، وتلقينا انبساطك الينا والطافك ايانا بالقبول الذى يحق علينا ، ليقع ذلك موقعه . وزدنا فى توكيد ما اعتمدته ما حملناه رسلك فى هذا الوقت ، على استقلالنا

اياه ، من طرائف بلدنا وما يطرأ من البلاد علينا ، وإن الله بعدله وحكمته أودع كل قرية صنفا ليتشوف اليه من بعد عنه ، فيكون ذلك سببا لعمارة الدنيا ومعايش أهلها . ونحن نفردك بما سلمناه الى رسولك لتقف عليه ان شاء الله .

وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه ، وأذنا لهم فى البيع وفى ابتياع ما أرادوه واختاروه ، لأنا وجدنا جميعه مما لايحظره علينا دين ولا سياسة . وعندنا من بسطك وبسط من يرد من جهتك ، والحرص على عمارة ما بدأتنا به ورعايته ، ورَبّ ماغرسته ، أفضل ما يكون عند مثلنا لمثلك . والله يعين على ما تنويه من جميل ، وتعتقده من خير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومن ابتدأ بجميل لزمه الجرى عليه والزيادة ، ولا سيما اذا كان من أهله وخليقا به ، وقد ابتدأتنا بالمؤانسة والمباسطة ، وأنت حقيق بعمارة ما بيننا وباعتمادنا بحوائجك وعوارضك قبلنا ، فأبشر بتيسير ذلك ان شاء الله .

والحمد لله أحق ما ابتدئ به ، وختم بذكره ، وصلى الله على محمد نبى الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليما » .

ولم يكن النجيرمى من كتاب الرسائل والانشاء فحسب ، بل كان ينظم الشعر فى بعض الأحيان . وقد قيل فى هذا الصدد ان الفضل بن عباس دخل على كافور الاخشيدى فقال له : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ (بكسر الميم) فتبسم كافور إلى أبى اسحاق النجيرمى فقال أبو اسحق :

لاغَرْوَ ان لَحنَ الداعى لسيدنا ... أوغُصّ من هيبةٍ بالريق أو بَهَرَ
فمثـل سيّدِنا حالت مهابتُه ... بين البليغ وبين القول بالحَصَرِ
فان يكن خفَضَ الأيام عن دهش ... من شدة الخوف لامن قلة البصر
فقد تفاءلتُ فى هذا لسيدنا ... والفأل مأثورة عن سيد البشر
بأن أيامه خفضٌ بلا نَصَبٍ ... وان دولتَه صفوٌ بلا كَدرِ

فأمر له كافور بثلاثمائة دينار ولابن عباس بمثلها[1] .

***

ومن أدباء العصر الاخشيدى ابن سيبويه المصرى . وهو أبو بكر محمد بن موسى ابن عبد العزيز الكندى الصيرفى المعروف بسيبويه ولد بمصر سنة ٢٨٤ وتوفى سنة ٣٥٨ وكتب بن زولاق أن سيبويه كانت فيه « خلال تشبه المتقدمين والمتصدرين ، كان يحفظ القرآن ويعلم كثيراً من معانيه وقراآته وغريبه وإعرابه وأحكامه عالما بالحديث وبغريبه ومعانيه وبالرواة . . . . ويعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه سيبويه . ويعرف صدرا من أيام الناس والنوادر والأشعار ، وتفقه على قول الشافعى »[2] .

وكان سيبويه من تلاميذ أبي بكر محمد بن أحمد بن الحداد فقيه العصر الاخشيدى . وبلغ من علو مكانته فى الأدب ومن فكاهته فى المنادمة ان جالس أونوجور بن الاخشيد والحسين بن محمد الماذرائى . وقد رأينا فى الصفحات السابقة أنه كان يقول بالاعتزال ومما يروى فى هذا الصدد أنه قال لأستاذه ابن الحداد ذات يوم : أيدك الله امتنعت من القول بخلق القرآن وجعلت الخالق عدد آى المصحف ! وبدا كأن ابن الحداد لم يفهم ما أراد سيبويه فقال : كيف قلت ياأبا بكر ؟ فقال : نعم ! إذا لم تقل أنه مخلوق فهو خالق : فقال له أبو بكر بن الحداد : لا تدخلنى فيما لا أعرف[3] .

ويبدو أن أحد الشيوخ الذين درس عليهم سيبويه أدرك أنه يطلب العلم لوجه الله والعلم فقال له يوما : لو كان كل من سمع منى مثلك لما استحللت أن اكتمم ، وكنت أنا أمضى إليهم ![4] . وهذا قول يكشف عن جانب من الحياة العلمية فى هذا العصر . ويشهد بأن كثيرا من طلبة العلم فيه كانوا ينشدون الأهداف المادية حتى اضطر مثل هذا الأستاذ إلى التصريح بأنه لو كان كل تلاميذه مثل سيبويه لسعى إليهم بنفسه ولما استحل أن يكتم من علمه شيئاً .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣

(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ١٧ — ١٨

(٣) المرجع نفسه ص ١٩

(٤) المرجع نفسه ص ١٩

وكان سيبويه يحضر مجالس العلم فى الجامع العتيق وعند علية القوم وفى سوق الوراقين. ثم اعتل بمرض السوداء وقيل إنه وقع فى بئر فأصابه مس من الخبل أو الشذوذ وأصبح يعد من عقلاء المجانين حتى عنى ابن زولاق — وكان زميلا له فى الدرس — بجمع أخباره وتسجيل جزء من نثره ونظامه المرتجل وأخباره مع الأمراء ووجوه القوم فى عصره، ولا سيما من تناولهم بالنقد اللاذع والتهكم المر.

وقيل ان صالح بن نافع — أحد كبار الحاشية فى العصر الاخشيدى — مر على سيبويه ذات يوم فى موكب كبير بالحجاب والجند فتذكر سيبويه — وكان زميلا له فى الكتّاب — أن أبا صالح كان شيخاً نوبيا يسمسر فى العطر وأن صالحاً كان عطاراً مع أبيه وغاظه الموكب الذى يتعالى فيه على الناس فصاح به: «أى شيء هذا! أنت فاسد ابن ضار! ارجع إلى شد الاشنان والسدر والزرنيخ» فأمر صالح بن نافع بأن يحمل سيبويه إلى المارستان. ولكن الناس غضبوا لذلك فاستدعى الاخشيد سيبويه وسأله فى بعض المسائل العلمية واقتنع بفضله فأطلقه وأمر صالح بن نافع بأن يعتذر ويحسن إليه[1].

وكان سيبويه اشتراكى الميول يكره الأغنياء وعلية القوم، وكان معظمهم يخشونه ويتقون شره، وله فى ذلك نوادر كثيرة. منها أن رجلا سأله عن رأيه فى أصحاب المهن فسأله سيبويه عن مهنته وعلم أنه يصنع الحصر، فقال: أى حصر؟ التى تعمل اعتباراً أو تعمل افتخاراً؟ فقال الرجل: حصر السامان والعبادان[2]، فقال سيبويه: هذه حصر الافتخار لا تحل لك لأنك سبب الفتنة بعمل الحصر السامان فيستزيد الغنى ويقول أنا أجلس على حصر سامان، وأما حصر الاعتبار فحصر الحلفا التى يأوى إليها الفقراء والعبدان والمساكين والسودان[3].

وقيل إن سيبويه رأى الناس يوم جمعة قد اجتمعوا فى الطرقات فاكتظت بهم فصاح: ماهذه الأشباح الواقفة والتماثيل العاكفة؟ سلط عليهم قاصفة يوم ترجف الراجفة تتبعها

---

(١) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصرى ص ٢٥ — ٢٧

(٢) كان أشهر الحصر ما يصنع بعبادان وكانت حصرها تقلد فى مصر وفارس، أنظر متز: الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٠٤ وما ذكره من المراجع القديمة.

(٣) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصرى ص ٢٧

الرادفة وتغلى قلوبهم واجفة ! فقال له رجل : هو الاخشيد ينزل الى الصلاة . فقال : هذه للأصلع البطين المسمن البدين، قطع الله منه الوتين ولاسلك به ذات اليمين ! أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ولا حاجب ولا حاجبان ولا تابع ولا تابعان ، لا قبل الله له صلاة ولا قرب له زكاة ، وعمَّر بجثته الفلاة [(١)] !

وروى أن سيبويه رأي جعفر بن الفرات وقد ركب فى موكب عظيم بعد موت كافور فقال : ما بال ابى الفضل قد جمع كتابه ولفق أصحابه وحشد بين يديه حجّابه وشمَّر أنفه وساق العساكر خلفه!؟ أبلغه أن الاسلام طرق فخرج ينصره ، أو أن ركن الكعبة سرق فخرج لهذا الأمر يفكره !؟ فقال له رجل : هو اليوم صاحب الأمر ومدبر الدولة . فقال : ياعجباه ! أليس بالأمس نهب الأتراك داره ودكدكوا قراره وأظهروا عواره حتى أصبح عنهم مستترا ومنهم متحجراً ، وهم إذاك يدعونه وزيراً ، صيروه اليوم عليهم أميراً ؟! ماعجبي فيهم كيف رضوه ونصبوه، بل عجبي فيهم كيف تولى أمرهم وأمن غدرهم [(٢)] .

ومما يدعو الى شيء من العجب أن سيبويه المصرى كان يعلن سخطه على كافور غير هيّاب [(٣)] وكان كافور يعلم ذلك ويأسف لأن بعض علية القوم كانوا يشملونه برعايتهم مداراة له وتخلصا من لسانه [(٤)] . ولكن هذا الأمير لم يتخذ أى إجراء إيجابى لعقابه أو القضاء عليه أو الانتقام منه .

ومهما يكن من الامر فان سيبويه امتاز بنثر غنى بالسجع الذى يشبه سجع الكهان ، ولكن بعض هذا النثر خفيف على السمع وتظهر فيه الصنعة الفنية

وكان لسيبويه شعر سهل ولكنه فقير الى الصور الشعرية العالية ، ومن ذلك قوله :

واخْتَرْ لنفسكَ ما زادَت فواضلهُ على نواقِصِهِ تَخْتَرْ بقسطاسِ
واقصُدْ إلى العلمِ لاتطلُبْ به بَدَلا فالعلمُ من أجلِهِ كُوِّنت فى الناس

---

(١) ابن زولاق : اخبار سيبويه المصرى ص ٢٨
(٢) المرجع نفسه ص ٥٣
(٣) المرجع نفسه ص ٣٢ و ٤٠ و٤٦
(٤) المرجع نفسه ص ٣٤ و٣٥ و ٤١ و٤٣

وانبُذْ مقالةَ مَنْ ينهاكَ عن نظرٍ   نبذَ الطبيبِ لداء القُرحةِ الآسِي[1]

ومنه قوله حين حجبه البواب عن أحد معارفه من علية القوم :

أنا بالباب واقفٌ من صلا   ة الصبح فى السَّرجُ ممسكٌ لعنانى

ويعاينُ البواب ما أنا فيه   ويرانى كأنه لا يَرانى

واعتقادى أن استخَفَّ بمولا   ه وإسقاطهِ من الإخوانِ

أو يزيلنَّه بصفعٍ وجيعٍ   فى قفاه أو يورم الأخْدَعانِ[2]

وكان سيبويه مع ذلك خبيرا بنقد الشعر . ويروى أنه لقى المتنبى وأنكر عليه قوله :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوا له ما من صداقته بدّ

وقال : هذا كلام فاسد لأن الصداقة ضد العداوة والصداقة مأخوذة من الصدق ولو كان قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوا له ما من مداراته بدّ

لكان أحسن وأجود[3] .

* * *

أما الشعر فى العصر الاخشيدى فكان هزيلا ، وهذه ظاهرة تستحق النظر لأن مصر أخرجت فى هذا العصر من الفقهاء والنحويين والمؤرخين من يضاهون نظراءهم فى العراق كما أن فنون العمارة والفنون الزخرفية فى هذا العصر كانت تشابه الفنون العباسية فى العراق ، ولكننا لا نجد من الشعراء المصريين فيه من يساوى شعراء العراق أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى[4] .

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٠
(٢) المرجع نفسه ص ٥٣
(٣) المرجع نفسه ص ٤٤
(٤) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ١٧١ — ١٧٢

ومهما يكن من الامر فقد ظهر بمصر في العصر الاخشيدى طائفة من الشعراء ، ومنهم أحمد بن محمد بن اسماعيل بن القاسم بن ابراهيم طباطبا نقيب الطالبيين المتوفى سنة ٣٤٥ [(١)] أو سنة ٣٥٢ [(٢)] . وقد كتب ابن سعيد أن له أدبا واسعا وشعرا مليحا في الزهد والغزل [(٣)] ، وروى بعض مقتطفات من شعره [(٤)] ، كما روى الثعالبي أبياتا من مختاراته ومن بينها :

خليلي انى للثريا لحاسدُ — وإنى على صَرف الزمان لواجدُ
أيبقى جميعها شملُها وهي سبعةٌ — وأَفْقِدُ من أحبته وهو واحدُ
كذلك من لم تَخْتَرِمهُ منيةٌ — يَرَى عجباً فيما يرى ويُشاهدُ [(٥)]

والملاحظ أن معظم ما روى من شعره في الغزل والوصف [(٦)] ، اللهم إلا ثلاثة أبيات من الشعر السياسى نظمها في الخلاف على ولاية مصر بعد وفاة الاخشيد ، وقد سبق ذكرها [(٧)] .

ومن شعراء العصر الاخشيدى القاسم بن احمد الرسى وهو ابن الشاعر السابق وقد روى ابن سعيد والثعالبي طائفة من شعره [(٨)] . وأدرك القاسم الدولة الفاطمية . ومن طريف شعره يهجو ابن كلس ويحذر منه المعز الخليفة الفاطمى :

توقّ معزَّ الدين شؤمَ ابنِ كِلّسٍ — ولا تقبلَنْ منهُ مقالَ مُدلِّسِ
فانّا أَرْدَناهُ لكافورَ شربةٍ — فزادَ على تقديرنا ألفَ مجاسِ [(٩)]

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٨
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٥١
(٣) المرجع نفسه ص ٤٩
(٤) المرجع نفسه ص ٤٩ — ٥١
(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧٠
(٦) النواجى : حلبة الكميت ص ٣٣٩
(٧) أنظر صفحة ٩٤ من هذا الكتاب .
(٨) ابن سعيد : المغرب ص ٥١ ، والثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧٠ — ٣٧١
(٩) الثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧١

وكان من أفراد أسرة طباطبا شعراء آخرون مثل ابراهيم بن أحمد الرسى وابنه الحسين بن ابراهيم [١] .

ومن شعراء الاخشيد سعيد قاضى البقر . وكان مقربا الى هذا الأمير لما امتاز به من حلو الفكاهة وحسن الحديث [٢] . ومن شعراء هذا العصر صالح بن رشدين وأحمد بن صدقة [٤] . ومنهم أبو هريرة أحمد بن عصام ، وكان من أصحاب النوادر واللهو والمجون والادمان على شرب الخمر [٥] ، وكانت له مجالس شرب فى بعض الأديرة المشهورة بخمرها العتيق ، وقد وصفها فى أشعار رواها المقريزى فى الكلام على الديارات بمصر [٦] .

ومن شعراء العصر الاخشيدى أيضاً محمد بن الحسن بن زكريا ، ومهلهل بن يموت . وقد روى لهما شعر فى رثاء الاخشيد ومدح ابنه اونوجور [٧] . ومنهم عبد الله بن محمد ابن أبى الجوع [٨] وصالح بن مؤنس [٩] .

ومما يؤسف له أن شعرا كثيرا من العصر الاخشيدى فقد ولم تسجله المراجع التى وصلت الينا . ولكن ما نعرفه من شعر هذا العصر يشهد باقبال على اللهو والمجون مع وصف للطبيعة وجمالها [١٠] ، وحب للفكاهة والدعابة .

ولسنا نريد أن نتحدث هنا عن الشعراء الذين وفدوا على مصر فى العصر الاخشيدى أو أقاموا فيها فترة من الزمن ، لأننا لانرى للطبيعة المصرية أثرا فى شعرهم وحسبنا .

---

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٧١

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٠٣

(٣) المرجع نفسه ص ٨٧ — ٨٨ ، والثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٨

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٨٧ — ٨٨ ، والثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٨١

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٠٤ والثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٦١

(٦) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٥٠٢ و٥٠٤

(٧) النويرى : نهاية الأرب ج ٥ ص ١٨٤ و١٨٦

(٨) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٥٣

(٩) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٤٦ — ٣٥١

(١٠) أنظر وصف ابن طباطبا للهلال فى ابن سعيد : المغرب ص ٥٠

أن المتنبي « يسمي المقطم فى مدحه لـكافور ويسمى الاهرام فى رثائه لابى شجاع ويذكر النواطير فى هجائه لـكافور ويذكر السواقى فى مدحه لـكافور وتعريضه بسيف الدولة ولـكنه لا يزيد على التسمية والذكر . وقد طلب اليه كافور أن يصف دارا جديدة انتقل اليها فلم يزد على أن وصف كافورا وهنأه بالدار ولم يلهمه موقع الدار من النهر والجبل وما يحف بها من الحدائق والبساتين شيئا ولم ير إلا كافورا الذي يستطيع أن يمنح المال والولاية » [١] .

بيد أن أحد هؤلاء الشعراء الوافدين على مصر يجب استثناؤه من هذا الحكم أو يجب أن نحسبه مصريا ، وهو أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم وقد نشأ فى اقليم الرملة الذى كان من املاك الاخشيديين فى ذلك العصر . ويشهد ديوان هذا الشاعر بأنه وفد على مصر عدة مرات وأنه كلما بعد عنها حن اليها والى مابها من الرياض وحياة اللهو والمجون .

ومن شعره فى هذا الصدد :

قد كانَ شوقى إلى مصرٍ يُؤرِّقُنِي ... فاليومَ عُدتُ وعادَتْ مصرُ لى دارَا

أغدُو إلى الجيزة الفيحاء مُصْطَحِباً ... طَوراً وطوراً أُرَجِّي السيْر أطوارَا

بَيْنَا أُسَامِي رئيساً فى رئاستهِ ... اذْ رُحْتُ أُحسَبُ فى الحانَاتِ خمّارَا

اما الشبابُ فقد صاحَبْتُ شرَّهُمُ ... وقد قَضَيْتُ لُبَانَاتٍ وأوتارَا

من شَادِنٍ مِنْ بَنِى الأقباطِ يعْقُدُمَا ... بين الـكَثيبِ وبينَ الخصْرِ زِنَّارَا [٢]

ومنه أيضا :

سلامٌ على دَيْرِ القُصَيْرِ وسِجْنِهِ ... فجنَّاتِ حُلْوانٍ إلى النَّخَلاتِ

منازلُ كانَتْ لِي بِهِنَّ مآربُ ... وكانَتْ مواخيرِى ومُنْتَزَهَاتِى

هُنالِكَ تَصفُو لى مشاربُ لذَّتِي ... وتَصْحَبُ أيامُ السُّرورِ حَيَاتِى [٣]

---

(١) طه حسين : مع المتنبي ص ٥٥١

(٢) ديوان كشاجم ص ٦٤

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٥٠٢

(٣)

العلمـــــاء

(ا) النحويون

أدرك العصر الاخشيدى من علماء النحو احمد بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢[١]. وهو من أسرة اشتهرت بالدراسات النحوية . وقال عنه المبرد انه شيخ الديار المصرية فى العربية . وقد رحل الى بغداد وأخذ النحو عن الزجاج وعاد الى مصر فألف كتاب «الانتصار لسيبويه» وكتاب «المقصور والممدود»[٢]. ونبغ من النحويين بمصر فى بداية العصر الاخشيدى أيضا أبوجعفر النحاس، وقد درس النحو فى العراق عن الأخفش الصغير والمبرد والزجاج وكان زميلا لابن ولاد فى الدراسة بالعراق وفى التدريس بمصر . وقد حذق فضلا عن ذلك علوم القرآن وألف كثيراً في علوم اللغة وفى الأدب وفى تفسير القرآن وإعرابه ومعانيه ومات سنة ٣٣٨ . وكان له ولابن ولاد الفضل فى اطراد نمو الدراسات اللغوية والنحوية بمصر وتلقى العلم عليهما كثير من المصريين ونشطت حركة التأليف[٣].

وممن أدرك العصر الاخشيدى من النحويين المصريين محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلم المتوفى سنة ٣٣٠ . وقيل انه كان يعلم الأمراء النحو[٤].

(ب) المؤرخون

قد يكون أكبر نصيب لمصر فى الثقافة الاسلامية ماكتبه أبناؤها فى التاريخ . وقد نبغ من المؤرخين المصريين فى فجر الاسلام ابن عبد الحكم . أما العصر الاخشيدى فقد أخرج من المؤرخين ابن يونس والكندى وابن زولاق .

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة ص ١٠٥ و١١٢ و١٦٩

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٠١ — ٢٠٣

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥ وياقوت : معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٢٤ — ٢٣٠

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٤

أما ابن يونس الصدفى [١] فقد تحدثنا عنه فى الصفحات السابقة عند الكلام على الفقهاء وذكرنا أنه كان يعنى بالتاريخ ولا سيما للبحث فى المحدثين . وقيل انه جمع لمصر تاريخين: أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين ، والآخر وهو صغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين على مصر . ويبدو أن بعض معاصريه كانوا لا يثقون بما يكتبه فى التاريخ وأن آخرين كانوا يتصدون للدفاع عنه ، كما يتبين من الأبيات الآتية التى قيلت فى رثائه سنة ٣٤٧ هـ :

أَبَا سَعِيدٍ وما نَالُوكَ إِنْ نُشِرَتْ عَنْكَ الدواوينُ تصديقاً وتصويبَا
مازلتَ تلهجُ بالتاريخِ تكتُبُهُ حتى رأَيْنَاكَ فى التاريخِ مكتُوبَا
نشرتَ عن مصرَ من سكانها علماً مُبَجَّلاً بجمالِ القومِ منصُوبَا
كشفْتَ عن فخْرِهِم للناسِ ما سَجَعَتْ وُرْقُ الحَمَامِ على الأغصانِ تطْرِيبَا
أعربتَ عن عَرَبٍ نقَّبْتَ عن نُخَبٍ سارَتْ مناقِبُهُمْ فى الناسِ تنقيبَا
أَنْشَرتَ مَيِّتَهُم حياً بنسبته حتى كأنْ لَمْ يَمُتْ إِذْ كانَ منسوبا [٢]

أما الكندى فشيخ المؤرخين المصريين قبل الدولة الفاطمية . وهو محمد بن يوسف ابن يعقوب بن حفص بن يوسف التجيبى الكندى، ولد سنة ٢٨٣ وتوفى سنة ٣٥٠. والراجح أنه تلقى العلم فى مصر إذ ليس لدينا ما يشير الى أنه رحل الى غيرها من البلاد . ومهما يكن من الأمر فقد درس العلوم الدينية ، ولا سيما الحديث ، ثم انصرف الى التاريخ والتأليف فيه فكتب طائفة من الكتب لم يصل الينا معظمها ولكنها كانت أساسا لكتب أخرى ألفت فى موضوعها فى العصور التالية . ومن ذلك أنه ألف كتابا فى الخطط [٣] . وقد أشار

---

(١) نسبة إلى قبيلة الصدف .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٩ — ٣٥٠

(٣) بدأ المقريزى الفصل الذى عقده لذكر الخطط التى كانت فى مدينة الفسطاط بقوله : « اعلم أن الخطط التى كانت بمدينة فسطاط مصر بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة فقيل لتلك فى مصر خطة وقيل لها فى القاهرة حارة » أنظر المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ — ٢٩٧

اليه المقريزى حين قال فى مقدمة كتابه « الخطط » ان أول من رتب خطط مصر وآثارها وذكر أسبابها فى ديوان جمعه هو ابو عمر محمد بن يوسف الكندى [١]. كما أن أبا صالح الأرمنى أشار فى كتابه كنائس وديور القاهرة [٢] الى كتاب خطط مصر للكندى ، فضلا عن أن ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ نقل فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الامصار [٣] أخبارا عن الكندى يرجح أنها من كتاب عن الخطط لأنها تتصل بالفسطاط وخرائبها وأزقتها وما الى ذلك .

ويبدو أن الكندى ألف كتاباً عن جامع عمرو سماه « أخبار مسجد أهل الراية الأعظم » [٤]. والمعروف أن أهل الراية خليط من القبائل التى لم تكن ممثلة فى جيش عمرو بن العاص تمثيلا يسمح بأن يكون لكل منها خطة مستقلة فى الفسطاط ، فجمعهم عمرو فى خطة سماها أهل الراية . كما ألف الكندى « كتاب الموالى » تحدث فيه عن الموالى الذين ارتقوا فى مصر ونالوا المراتب العالية فترجم لهم وكتب أخبارهم [٥]. وكتب الكندى مؤلفات أخرى ضاع معظمها . ولكن أعظم مؤلفاته هو الكتاب الذى وصل إلينا ووقف على طبعه المستشرق الانجليزى جست ، وهو « كتاب الولاة وكتاب القضاة » وقد أشرنا فى التصدير إلى مكانة هذا الكتاب بين المراجع الأصيلة فى تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح العربى إلى وفاة الأخشيد . والواقع أن المؤرخين المصريين الذين جاءوا بعد الكندى نقلوا عنه كثيراً . ولا ريب أنه سبقهم إلى الكتابة فى خطط مصر وآثارها وفى تاريخ قضاتها . وقد حذا حذوه فى الموضوع الأول ابن زولاق والقضاعى وابن دقماق والمقريزى والأوحدى والسيوطى . ونسج على منواله فى الكتابة عن القضاة ابن زولاق وابن حجر العسقلانى وابن شاهين .

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤

(٢) ص ٢٩ و٣٢ و١٠٧

(٣) ج ٤ ص ٧ — ٩ و١١ و١٣ و١٨ و١٩ و٢٣ و٥٣ و٦٧ و٨٦ و١٠٨ و١٠٩

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٤٦ وابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٤

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٧١ و ج ٢ ص ١٣٧ و١٦١ وابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥١

ومن الأخطاء الشائعة أن الكندى ألف كتابا فى « فضائل مصر »[١]. ولكن الحقيقة أن صاحب هذا الكتاب هو ابنه عمر[٢]. وقد كتب فى مقدمته أن الذى أمره بتأليفه هو كافور الاخشيدى وأشار إلى والده الكندى بين العلماء الذين جمع من كتبهم ما أمره به كافور ، ثم ذكره ثانية بين علماء مصر « الذين برع كل منهم فى مذهبه والذين لكل واحد منهم من الكتب المصنفة ما يعجز عن نظيرها سائر أهل الدنيا » .

أما ابن زولاق فهو الحسن بن ابراهيم بن الحسين الليثى بالولاء[٣]. ولد سنة ٣٠٦ وتوفى سنة ٣٨٧ ودرس على الفقيه أبى بكر بن الحداد ، وعلى المؤرخ أبى عمر الكندى ، وعنى بتاريخ مصر وكتب ذيلا لكتاب أمراء مصر وقضاتها للكندى . كما ألف كتابا فى سيرة الاخشيد ، وكتابا فى أخبار سيبويه المصرى[٤] ، وقد تحدثنا عنهما فى التصدير ويبدو أنه ألف كتاباً فى سيرة كافور وكتابا آخر فى سيرة الماذرائيين . ولعله صنف كتاباً مستقلا فى سيرة محمد بن على الماذرائى[٥] . وألف فضلا عن ذلك كتباً فى « فضائل مصر » وفى خطط مصر وفى تاريخ مصر على السنين ، وكتباً أخرى فى سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز[٦] .

ومن المؤرخين المصريين الذين أدركوا العصر الأخشيدى سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ هـ وهو البطريرك الرومى الملكانى افتيشيوس وكان طبيباً مشهوراً بالفسطاط[٧] . ثم نصب بطريركا على الاسكندرية سنة ٣٢١ ، وقد عني بالتاريخ وكتب فيه مؤلفاً مشهوراً هو « نظم الجوهر أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » وتحدث فيه عن التاريخ منذ الخليقة إلى العصر الذى عاش فيه .

---

(١) فى دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من هذا الكتاب (تاريخ ٤٢٢) .

(٢) راجع صفحة ١٤ من المقدمة الانجليزية التى كتبها جست لكتاب الولاة والقضاة .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٦٧ ، وياقوت : معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٢٥

(٤) من المحتمل أن مخطوطة أخبار سيبويه المصرى التى طبعت فى مصر ليست تامة ، لأن فى بعض كتب الأدب قصصاً عن هذا الأديب لا تضمها هذه المخطوطة ، أنظر مثلا الحصرى القيروانى : زهر الآداب (طبعة زكى مبارك ص ٢٠٦ — ٢٠٧) .

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٧

(٦) راجع صفحة ٤٥ من مقدمة جست لكتاب الولاة والقضاة .

(٧) ابن ابى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٦

الباب العاشر

السياسة الداخلية

السياسة الداخلية

(١)

السياسة الدينية

عرفنا فى الأبواب السابقة أن الأمراء الاخشيديين كانوا يعظمون العلويين ويظهرون لهم التقدير فى شتى المناسبات . وكانت للاخشيد ولكافور قصص مشهورة فى هذا الصدد روينا معظمها فى مواضع شتى من هذا الكتاب [1] .

ومع ذلك فقد كان الجند السودان والترك يتعصبون على الشيعة ، ولا سيما فى آخر عهد الدولة الأخشيدية . وقد بلغت الفتنة فى يوم عاشوراء سنة ٣٥٠ مبلغا شديدا فى الفسطاط فنشب القتال بين الجند السنيين من السودان والترك وبين الشيعة . وكان الجنود يسألون من يقابلونه : من خالك ؟ فان لم يقل معاوية ضربوه . وطاف أحد المتحمسين من السودان يصيح فى الطرقات : معاوية خال على ! وتبعه العامة . وكانت الحكومة تبذل جهودها فى المحافظة على النظام ، والظاهر أن زمام الامور أفلت من يدها فى هذه المسألة . وأصبح كثير من الناس يرددون تلك الصيحة التى يعرف بها السنى : معاوية خال على ! بل إن شيخين من العامة كانا يقفان على باب جامع عمرو فى كل يوم جمعة وينا ديان فى وجوه الناس : معاوية خالى وخال أمير المؤمنين وكاتب الوحى ورديف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانا يصيحان فى وجه أبى جعفر مسلم الحسينى : معاوية خال على ، ولما ورد الخبر بقيام بنى حسن بمكة ومحاربتهم الحاج ونهبهم ، خرج كثير من المصريين فلقوا كافورا الاخشيدى بالميدان ظاهر مدينة مصر وضجوا وصاحوا : معاوية خال على ، وسألوه أن يبعث لنصرة الحاج على الطالبيين [2] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٦ و١٨ و٣٧ و٣٨ و٤٢ و٤٧ و٤٨

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٤٠

وحدث فى سنة ٣٥٣ أن أخذ رجل من كبار الشيعة فضرب وعذب حتى مات فى السجن ، فحمل ليلا ودفن فمضى جمع من الناس لينبشوا قبره وأرسلت الحكومة طائفة من الجند لتمنعهم من ذلك وقام قتال بين الجند والعامة[1]. واضطر كافور محافظة على النظام إلى فرض نظام يكاد يشبه نظام منع التجول فى عصرنا الحاضر وأمر بتشديد الحراسة على أبواب المدينة المؤدية إلى الصحراء ومنع الناس من الخروج[2].

وفى سنة ٣٥٦ كتب الناس على المساجد فى مدح الصحابة وتفضيلهم على العلويين فأمر كافور بازالة ما كتبوا « فحدثه جماعة فى إعادة ذكر الصحابة على المساجد فقال : ماأحدث فى أيامى ما لم يكن . وما كان فى أيام غيري فلا أزيله . وما كتب فى أيامى أزيله . ثم أمر من طاف وأزاله من المساجد كلها[3] .

أما السياسة التى كان الأمراء الاخشيديون يتبعونها مع أهل الذمة فلم تكن سياسة ثابتة . ولكن الواضح من النصوص التاريخية أن الاخشيديين كانوا لا يضطهدون المسيحيين وأن سوء المعاملة التى كانوا يشكون منها فى بعض الأحيان لم تكن موجهة إليهم بصفتهم الطائفية وإنما كان الأمراء الاخشيديون ولا سيما الاخشيد نفسه يعملون على مصادرة أموالهم أحيانا كما كانت تصادر أموال كثير من المسلمين فى ذلك العصر .

وكان الخلاف بين المسيحيين ينتهى الى الأمير الاخشيدى فى بعض الحالات ، فيفصل فيه بشىء من العنف . وقد ينتهز الفرصة فيعمل على أن ينال شيئاً من أموال الكنيسة أو كنوزها[4] .

وكان موضوع بناء الكنائس وتعميرها من الموضوعات التى لم يكن للمسلمين فيها سياسة ثابتة . فكان يسمح للنصارى فى بعض الأحيان ببناء كنائس جديدة وأحيانا أخرى كانوا يمنعون حتى من إصلاح الكنائس القديمة[5] . وحدث سنة ٣٢٦ أن انهدم جانب

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٤٠
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٩٨
(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٤٠
(٤) تاريخ يحيي بن سعيد الانطاكى ص ٩٥ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٩٥
(٥) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٧٠ والمراجع التى أشار اليها .

من كنيسة أبى شنودة ، بمصر فبذل النصارى للاخشيد مالا كثيرا ليطلق لهم عمارتها فأمر بأن تؤخذ فتوى الفقهاء . فأما ابن الحداد فأفتى بألا تعمر وبذلك أفتى الفقهاء من أصحاب مالك. ولكن فقيها اسمه محمد بن على أفتى بأن لهم أن يرموها ويعمروها . وعرف الناس فتواه فحملوا النار الى داره وأرادوا قتله فاختفى وندم على فتياه . وثار العامة وأغلقوا الدروب وأحاطوا بالكنيسة ، فأرسل الاخشيد طائفة من الجند فزحف العامة ورموهم بالحجارة فسحب الاخشيد الجند ودعا ابا بكر بن الحداد وأمره أن يذهب الى الكنيسة فيتركها قائمة إذا كانت تبقى ويهدمها إذا كانت توشك على السقوط وتنذر بالخطر. وذهب ابن الحداد ومعه أحد المهندسين واستطاعا أن يدخلا الكنيسة وطاف المهندس وفى يده شمعة ثم عاد الى ابن الحداد وقال له : تبقى هكذا خمس عشرة سنة ثم يسقط منها موضع ثم تبقى الى تمام أربعين سنة وتسقط جميعها . فانصرف ابن الحداد الى الاخشيد ونقل اليه ما حدث فأمر الاخشيد بتركها من دون عمارة . وكان أمرها كما قال المهندس . فعمرت سنة ٣٦٦ ولو تركت لسقطت[١] .

ولم يكن الرهبان يعفون من الجزية فى فجر الاسلام إلا إذا كانوا مساكين يتصدق عليهم كباقى المساكين . ولكن الحكومة كانت تتشدد فى جباية الجزية أحيانا . وقد حدث فى مصر سنة ٣١٢ أن « أخذ الرهبان والاساقفة بأداء الجزية فأخذت الجزية منهم ومن الضعفاء والمساكين ومن جميع الديارات بأسفل مصر والصعيد ومن رهبان طور سيناء ، وسافر قوم من الرهبان الى العراق واستغاثوا بالمقتدر فكتب لهم ألا تؤخذ الجزية من الرهبان ولا من الاساقفة . . . وأن يجرى أمرهم على ما كانوا عليه[٢] .

وقد وصلت الينا وثيقة من البردى مؤرخة من سنة ٣٣٠ ومحفوظة الآن فى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا وتتضمن وصلا باستلام جزية قدرها ثلث دينار وثلثا قيراط

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢ — ٣٣ والكندى : الولاة والقضاة (الملحق) ص ٥٥٤ — ٥٥٥

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد ص ٨٣

من بكام بن دانيل ، سلمها الى تيود وروس بن خائيل أمام أبو الحسن بن عيسى وقيدت فى الورقة الرابعة من سجل الديوان [١] . وهذه الوثيقة مهمة لانها من أحدث الوثائق المكتوبة على البردى منذ طغى استعمال الورق العادى فقضى فى النهاية على الكتابة على الاوراق البردية .

وحدث بعد وفاة على بن الاخشيد واستقلال كافور بالأمر أن وقع المسيحيون فى بيت المقدس ضحية لموجة من الاضطهاد لم يكن أساسها طائفيا ، وإنما كان قوامها رغبة الوالى محمد بن اسماعيل الصناجى فى الاستيلاء من البطريرك على أكثر ما يمكنه الاستيلاء عليه من المال . والواقع أن هذا الوالى أرهق بطريرك بيت المقدس بمطالبه المالية حتى اضطر الأخير الى السفر الى مصر حيث رفع شكواه الى كافور فكتب كافور الى الحسن بن عبيد الله بن طغج خليفته على الشام يأمره بمنع الصناجى عن البطريرك وقبض يده عن مطالبته بما لا يجب له عليه . وكتب الحسن بن عبيد الله بن طغج الى الصناجى فى هذا المعنى. ولكن الصناجى لم يقلع عن سياسته الغاشمة فذهب البطريرك الى الرملة حيث كان يقيم الحسن بن عبيد الله بن طغج فوجه معه الحسن طائفة من الجند ومعهم قائد يسمى تكين . وكانت مهمتهم حماية النصارى ومنع الصناجى من اضطهادهم فكبر ذلك على الصناجى وجمع عشيرته وأتباعه وقبض على تكين وجنوده واعتدى على الكنائس واشترك اليهود مع المسلمين فى هذا الاعتداء وقتلوا البطريرك [٢] .

ومما يؤسف له أن المراجع التاريخية لا تذكر لنا ما فعلته الحكومة المركزية فى مصر لرد هذا الاعتداء على طائفة من رعاياها . وأكبر الظن أنها لم تفعل شيئا . ولا عجب فقد كانت الدولة الأخشيدية تكاد تحتضر فى هذا الوقت .

---

(١) Papyrus Erzherzog Rainer : Führer durch die Ausstellung p. 243 No. 916

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ١٢٤ — ١٢٥ ؛ وقد لاحظنا أن الأستاذ محمد كرد على سمى والى بيت المقدس المشار اليه هنا « الصنهاجى » بدلا من الصناجى ، أنظر محمد كرد على : خطط الشام ج ١ ص ٢١٥

ومما تجدر الاشارة اليه أن الاخشيد لخص سياسته الداخلية فى الكتاب الذى وجهه الى أرمانوس فى العبارات الآتية :

« وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها ، على عظمها وسعتها بفضل الله علينا واحسانه الينا ومعونته لنا وتوفيقه إيانا ، كما كتبت الينا وصح عندك من حسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الاولياء والرعية ، ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها الأمن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة »[1].

---

(١) القلقشندى ج ٧ س ١٤

(٢)

الأمن

كان الأمن مستتبا فى مصر الاخشيدية استتبابا لم تعرفه البلاد فى فترات طويلة من تاريخها قبل تولية محمد بن طغج . ولا ريب فى أن السبب فى ذلك أن الاخشيديين كانوا يحتفظون بجيش كبير لحماية ملكهم من أعدائهم على الحدود الشمالية الشرقية ومن الفاطميين الذين كانوا يهددونهم من الغرب . وطبيعى أن زمام الأمور لم يفلت من يد الحكومة إلا نادراً ، وكان ذلك حين يشتد الغلاء وينتشر الوباء ويعز وجود القمح فيقبل بعض الناس على نهب الضياع والاغارة على المزارع [١] .

وقد حدث فى سنة ٣٣٠ هـ — حين سار الإخشيد لاسترجاع الشام بعد مقتل ابن رائق — أن خلت الفسطاط من الجند وانتهز هذه الفرصة أحد العلويين ، وهو محمد بن يحى بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن موسى بن على بن أبى طالب المعروف بابن السراج وسار إلى قرية شرونة [٢]. ثم اتجه منها إلى غربى النيل فنهب سمسطا . ومن الغريب أن المراجع التاريخية لا تشرح أسباب هذه الثورة ولا أهدافها . ويبدو أن هذا العلوى لم تكن له أهداف معينة أو أنه خشى عودة الجند من الشام وإخماد ثورته والتمثيل به فسار إلى برقة حيث دخل فى طاعة الخليفة الفاطمى [٣] . ولكن هذا الثائر قدم الى مصر ثانية بعد وفاة الاخشيد ، فوصل اليها فى ربيع الآخر سنة ٣٣٥ . ويبدو أن أونوجور أُخبر بقدومه ، وأنه لم يشأ الانتقام منه ، بل سمح له بالخروج للحاق بالجيش الاخشيدى فى الشام فخرج بعد أيام وتوفى بالرملة [٤] . ولسنا نعرف من المراجع التاريخية سبب عودته الى مصر ، كما أننا لا نعرف

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩.

(٢) قرية بالصعيد الأدنى شرق النيل وعلى مقربة من البهنسا ، أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٥٩ وابن الجيعان : التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية ص ١٦٨

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩١

(٤) المرجع نفسه ص ٢٩٤ — ٢٩٥

هل هو الذى تقدم بالتوبة وعرض رغبته فى التكفير عن ذنبه فى ميدان القتال أم أن الحكومة الاخشيدية رأت التخلص من وجوده بمصر فأمرته باللحاق بالجند المصري فى الشام .

وقامت بعد وفاة الاخشيد ثورة أخرى حين كان كافور واونوجور فى الشام [١] . فقد خرج والى الأشمونين المعروف باسم غلبون بعد أن استبد بالأمور فى منطقة نفوذه حتى شكا منه التجار وأذاعوا أنه يريد أن يثور بها . وأعدت الحكومة جماعة من الجند سيرتهم اليه فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٥ ولكن هذا الثائر دبّر كمينا لهم واستطاع أن يقتل كثيراً منهم وأفلت قائدهم شادن الاخشيدى بنفسه . ونظمت الحكومة جيشاً لاخضاع غلبون ولكنه خالف الجيش فى الطريق واستطاع الوصول الى الفسطاط فدخل دار الامارة ويبدو — كما مر بنا — أنه اتفق مع محمد بن على المساذرائى — على أن يقوم هذا الوزير بتدبير الأمور . ولكن الجيش الاخشيدى كر على غلبون فى الفسطاط وهزمه وطرده منها فخرج الى الشرقية ولحقه الجند الاخشيديون وكانت بينهم معركة شديدة انتهت بقتل غلبون فى ذى الحجة سنة ٣٣٦ ، وشغلت الحكومة والناس بهذه الثورة واضطربت الأمور فى تلك السنة حتى أن أحدا من المصريين لم يستطع الذهاب الى الحج فيها [٢] .

ويبدو أن بعض رؤساء العشائر البدوية كانوا يثورون على سلطان الاخشيديين فى الشام . ولكن المراجع التاريخية لم تفصّل الكلام على هذه الثورات . ولسنا نعرف إلا ما ذكره أبو المحاسن فى حوادث سنة ٣٤٤ حين ذكر وفاة شعلة بن بدر الاخشيدى الذى ولى امرة دمشق من قبل أونوجور بن الاخشيد وكان شجاعا بطلا قتل فى طبرية

---

(١) مر بنا فى رواية للمقريزى فى المقفى أن كافورا فقط هو الذى كان فى الشام أنظر ص ١٥٩

(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص ٢٩٥ — ٢٩٦ والمقريزى: الخطط ج ٢ ص ١٥٦ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩٢ وج ٤ ص ٢ و Wiet : L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne t. 4.) p. 140

فى حرب كانت بينه و بين مهلهل العقيلى[(١)] . كما جاء فى ديوان المتنبى أنه نظم قصيدة يذكر فيها قيام شبيب العقيلى على كافور وقتله بدمشق سنة ٣٤٨ ومن أبيات هذه القصيدة المشهورة :

بِرَغْمِ شَبِيبٍ فارَقَ السَّيفُ كَفَّهُ   وَكانا على العِلّاتِ يصطَحِبانِ

كأَنَّ رِقابَ الناسِ قالَتْ لِسَيفِهِ   رَفيقُكَ قَيسِيٌّ وأنتَ يَمانِ[(٢)]

وخرج على الحكومة الاخشيدية فى سنة ٣٥٢ ثائر فى بادية الشراة بالشام . وهو من بنى سليم يدعى محمد بن احمد السلمى ، واجتمع اليه أنصار كثيرون فقوى أمره وأرسل كافور الى الشام جيشا لحماية البلاد ولكنه أمر قواده أن يتركوا هذا الخارجى وشأنه والا يبدأوه بالقتال . وظل الفريقان على تلك الحال إلى أن عمل رجل من بنى عقيل على أسر هذا الثائر وحمله الى مصر . وقيل إنه اركب فيلا وطيف به فى شوارع الفسطاط تشهيرا به واعتقل مدة ثم عفى عنه[(٣)] .

وحدث فى سنة ٣٥٥ أن خرج بنو سليم على الحجاج السائرين من مصر والشام فقتلوا منهم عددا كبيرا ونهبوا ما كان معهم من الأموال الطائلة لأن الحجاج فى هذا العام كانوا جمعاً غفيراً ، ولا سيما أن كثيراً من أهل الثغور والشام هربوا خوفاً من الروم وحملوا ما استطاعوا حمله من أموالهم وأرادوا أن يقصدوا مكة ليسيروا منها إلى العراق[(٤)] .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣١٣
(٢) ديوان المتنبى ص ٤٠٤ — ٤٠٦
(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ١٢١
(٤) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ٢٠٦

(٣)

السياسة المالية

كان « تضمين » الأراضى لمستغليها بمصر الاخشيدية يجرى — كما كان فى فجر الإسلام — فى المسجد الجامع كل أربع سنين فينادي على البلاد صفقات صفقات فى جامع عمرو أمام صاحب الخراج أو من يقوم مقامه ومعه المختصون من الكتاب والموظفين [١] .

ومن طريف ما وصل الينا من أخبار الاخشيد أن الحسن بن طاهر العلوى كان يتخذ أشد الحذر حين يكتب الى مصر فى الفترة التى قضاها فى الشام ليسفر فى الصلح بين الاخشيد وابن رائق — وذلك بعد أن علم أن ابن رائق يراقب ما يكتبه الى مصر [٢] — فكان اذا كتب الى الاخشيد حرص على أن يرسل كتابه بواسطة حمام الزاجل ، ولكنه لم يكن يستطيع ذلك دائما فكان فى بعض الأحيان يكتب الى أخيه الحسين بن طاهر لينوب عنه فى ابلاغ الاخشيد ما يريد . وحدث ذات مرة أن ورد الى الحسين بن طاهر كتاب من أخيه الحسن يطلب فيه أن يسأل الاخشيد « أن يعفيه من ضمان بلبيس وفاقوس فانه قد عجز عنهما لقلة فائدتهما وكثرة غشيان البوادى لهما » وتعجب الحسين ابن طاهر لأن ضمان هاتين الضيعتين لم يكن فى يد أخيه الحسن . فحمل الكتاب الى الاخشيد وقرأه عليه . فاستدعى الاخشيد كاتب ديوان الخراج ، وسأله اذا كان ضمان فاقوس وبلبيس فى يد الحسن بن طاهر فأجاب بالنفى . فاستنبط الاخشيد أن الحسن بن طاهر أراد أن ينقل اليه أن ابن رائق عزم على القيام بهجوم مفاجئ على مصر وأن الواجب الاستعداد والاستعانة بحامية قوية للدفاع عن فاقوس وبلبيس . وبادر الامير الى ارسال ثلاثة آلاف جندى الى فاقوس ومثلها الى بلبيس . وكتب الحسين ابن طاهر الى أخيه الحسن : « قد أعفاك من ضمان فاقوس وبلبيس وضمنهما من يقدر عليهما » [٣] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٢

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٨

(٣) المرجع نفسه ص ٣٧

وفى دار الكتب المصرية بالقاهرة وثيقة بردية ترجع الى سنة ٣١٢ هـ ، أى الى قبيل العصر الاخشيدى وتتضمن تقبل أراض من كورة الأشمونين لأربع سنين متواليات أولها سنة ٣١٢ وآخرها سنة ٣١٥ [١] . وتشهد وثائق أخرى بأن الخراج كان يدفع على أقساط موزعة على السنة [٢] . وكانت جباية الضرائب على الأرض الزراعية تتمشى مع حال الزراع وأوقات الغرس والحصاد أى أنه لم يكن بد من السير طبقا للسنة الشمسية. ولما كان القوم لا يستطيعون ترك السنة الهلالية بما لها من علاقات بأمور الدين من عبادات ومعاملات فقد سارت السنتان الهلالية والخراجية مع اختلافهما جنبا لجنب ، وحدث اضطراب كبير بسبب تفاضل السنين حتى صارت الجباية الخراجية فى السنة التى تنتهى اليها تنسب فى التسمية الى ما قبلها . ولما لم يكن من الجائز كبس السنة الهلالية بشهر ثالث عشر « لأنهم لو فعلوا ذلك لتزحزحت الأشهر الحرم عن مواقعها وانحرفت المناسك عن حقائقها » لذلك كله « رأى أمير المؤمنين نقل سنة ٣٥٠ الخراجية الى سنة ٣٥١ الهلالية جمعا بينهما » [٣] .

وكان خراج مصر فى عصر الاخشيد مليونين من الدنانير فى السنة [٤] . وكتب ابن زولاق أن الاخشيد استخرج من مصر فى احدى عشرة سنة اثنين وعشرين ألف ألف دينار سوى خراج الرملة وطبرية ودمشق والسواحل [٥] . ولسنا نعرف هل كان الاخشيد يرسل كل هذا الخراج الى الحكومة المركزية فى بغداد أم كان يحتفظ بقسط كبير منه . والراجح عندنا أنه كان يرسل منه الى بغداد ما يزيد على نفقات دولته ، ولا سيما حين لم يكن مشغولا بحروب دفاعية . تقتضيه النفقات الكبيرة . ولم يكن هذا عسيرا عليه فقد كانت مصر تحمل الى بيت المال فى دار الخلافة قبيل الدولة الاخشيدية

---

(١) Grohmann: Arabic Papyri in the Egyptian Library. 11. pp. 57-64.

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٣٨

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٧٥ — ٢٧٩ ، ومتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٨١ — ١٨٣

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٣٦

نحو مليونين ونصف مليون من الدنانير فى بعض الاحيان[١]. ويبدو أن زيادة الايرادات على المصروفات كان متوسطها فى عصر الاخشيد نحو مليون دينار فى السنة، حتى اعتبر ابن اياس أن هذا الرقم هو خراج مصر فى أيام الاخشيد[٢].

واذا صح ما ذكره أبو صالح الارمنى فى تاريخه (الكنائس ص ٣٠) فقد بلغ خراج مصر فى سنة من حكم كافور ثلاثة ملايين ومائتى وسبعين الفا من الدنانير. وكتب ابن زولاق أن كافورا جبى سنة ٣٥٦ من اقليم الفيوم وحده ستمائة وعشرين الف دينار[٣]. وقد ذكر ابن حوقل أن خراج مصر بلغ فى سنة ٣٥٩ — أى بعد سقوط الدولة الاخشيدية مباشرة على يد جوهر القائد — ثلاثة ملايين ومائتى الف دينار[٤].

وليس فى المراجع التاريخية ما يفصل الكلام على أنواع الضرائب بمصر فى العصر الاخشيدى[٥]. ولكن المعروف أن الضرائب كانت ثقيلة وأن نظام الاحتكار كان لا يزال سائداً بعض مرافق الحياة. وقد زار المقدسى مصر فى بداية العصر الفاطمى، ولا ريب فى أن قسطاً كبيراً من حديثه عنها ينصرف إلى العصر الاخشيدى. ومما كتبه عن المكوس: «أما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل. وأما ثياب الشطوية فلا يمكن القبطى أن ينسج شيئا منها إلا بعد ما يختم عليها بخاتم السلطان، ولا تباع إلا على يد سماسرة عقدت عليهم. وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ثم تحمل إلى من يطويها ثم إلى من يشدها بالقشر ثم إلى من يشدها فى السفط وإلى من يحزمها. وكل واحد منهم له رسم يأخذه، ثم على باب الفرضة يؤخذ

---

(١) قدامة بن جعفر: كتاب الخراج ص ٢٥١، متز: الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢١٩

(٢) ابن اياس: نشق الأزهار ص ٣٧؛ أنظر أيضاً عمر طوسون: مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن ص ٥٢

(٣) المقريزى: الخطط ج ١ ص ٢٤٩

(٤) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ١٠٧

(٥) أنظر ما كتب عن الضرائب فى فجر الاسلام فى جرومان: المحاضرة الرابعة عن الأوراق البردية العربية (دار الكتب المصرية) ص ٥ وما بعدها. وسيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ص ٣٧ — ٥٩

ومن صادرهم الاخشيد أبو بكر محمد بن على المـاذرائى [(١)] ، ومحمد بن كلا [(٢)] ، وبارشكور [(٣)] وعمران بن فارس [(٤)] . ولـكن الواقع أن معظم من كانوا يصادرون كانوا من كبار موظفى الدولة أو ممن كانت لهم معاملات معها أصابوا منها مالا وفيرا . وكما كان الناس فى دار الخلافة يتوقعون المصادرة ويعملون على إخفاء أموالهم وخداع أولى الأمر [(٥)] ، كذلك كان القوم فى مصر الاخشيدية يبتدعون الوسائل لاخفاء ثرواتهم ومن بينهم من اتخذ له فسقية دس فيها مائة ألف دينار دون أن ينتبه البنّـاء [(٦)] .

وكان الاخشيد لا يعدم الحجج ليبرر أمام الناس ما يقوم به من المصادرات من وقت الى آخر . فكان يذهب إلى أنه إنمـا يفعل ذلك لسد نفقات دولته والانفاق على جيوشه ، ولمعاقبة الموظفين الذين يرتشون أو يسيئون استعمال ما لوظائفهم من النفوذ والجاه . بل إن الاخشيد سبق ما نعرفه الآن من ضرائب التركات فكان يعمل على الاستيلاء على جزء من تركة كبار التجار والموظفين [(٧)] . ومن ذلك أن عثمان ابن سليمان البزاز توفى سنة ٣٢٣ هـ فأخذ الاخشيد من ميراثه نحو مائة ألف دينار [(٨)]

ومع ذلك كله فقد كان الاخشيد رقيقا فى معاملة الذين يصادرهم فلم يعذب أحدا ، بل كان يأبى أن يرى الذين يأمر بمصادرتهم إلا بعد أن تنتهى المصادرة [(٩)] .

ولم يؤثر عن كافور أنه مال إلى مصادرة عماله وأغنياء البلاد فى عصره . أما بعد وفاته فقد قبض الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات على كثير من وجوه القوم فى مصر ، ومنهم

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٤ — ١٦ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٧
(٣) المرجع نفسه ص ١٦
(٤) المرجع نفسه ص ٨
(٥) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٩٤ — ١٩٦ ، وما ذكره من المراجع القديمة .
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ١٧
(٧) المرجع نفسه ص ٣٦
(٨) المرجع نفسه ص ١٧
(٩) المرجع نفسه ص ١٥ و ٣٧

يعقوب بن كلس ، وصادر منهم أموالا كثيرة [١] . ولما قدم من الرملة الحسين ابن عبيد الله بن طغج قبض على جعفر بن الفرات وصادر أمواله .

* * *

وقد اشتد الغلاء بمصر فى عصر الدولة الاخشيدية مرات عدة . وكانت الحكومة تبذل كل الجهد فى تخفيف ويلاته . فقد انتشر فى سنة ٣٢٩ غلاء عظيم واختفت الاقوات من الأسواق وعز القمح وسائر الحبوب وتبعه وباء شديد [٢] . ووقع الغلاء فى سنى ٣٣٨ و ٣٤١ و ٣٤٣ [٣] . ثم وقع الغلاء الشديد فى مصر من سنة ٣٥٢ واستمر تسع سنين متتابعة وكان من الأسباب التى أضعفت الدولة الاخشيدية وعجلت سقوطها . وكان سببه الرئيسى يرجع إلى النقص فى فيضان النيل ، مما أدى إلى اختفاء القمح واضطراب الاحوال وكثرة الفتن ونهب الضياع [٤] .

« ثم مات كافور ، فكثر الاضطراب وتعددت الفتن وكانت حروب كثيرة بين الجند والامراء قتل فيها خلق كثير وانتهبت أسواق البلد وأحرقت مواضع عديدة فاشتد خوف الناس، وضاعت أموالهم وتغيرت نياتهم وارتفع السعر وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار . واختلف العسكر ، فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبيد الله بن طغج ، وهو يومئذ بالرملة ، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى ، وعظم الارجاف بمسير القرامطة إلى مصر . وتواترت الاخبار بمجيء عساكر المعز من المغرب إلى أن دخلت سنة ٣٥٨ ودخل القائد جوهر بعساكر الامام المعز لدين الله وبنى القاهرة المعزية . وكان مما نظر فيه أمر الاسعار ، فضرب جماعة من الطحانين وطيف بهم وجمع سماسرة الغلات بمكان واحد وتقدم ألا تباع الغلات إلا هناك فقط ، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحدة فكان لا يخرج قدح قمح إلا ويقف عليه سليمان بن عزة المحتسب » [٥] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ٩٧

(٣) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ص ١١ — ١٢

(٤) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص١٢٩ — ١٣٠ ، والمقريزى : إغاثة الأمة ص١٢ — ١٣

(٥) المقريزى : إغاثة الأمة ص ١٣ — ١٤

الباب الحادى عشر

العلاقات الخارجية والغزو الفاطمى



العلاقات الخارجية والغزو الفاطمى

(١)

مع الحمدانيين

عرفنا أن الخليفة المتقى غادر بغداد وأقام عند الحمدانيين سنة ٣٣٢ [١] . ثم استدعى الاخشيد لمقابلته فى مدينة الرقة لعله يجد فيه عونا على أمير الأمراء فى بغداد . وعرفنا أن اللقاء لم يسفر عن أي نتيجة إيجابية فعاد الاخشيد الى مصر . وكان سيف الدولة يرقب الحالة عن كثب ورأى أن الفرصة سانحة لمحاولة الاستيلاء على الشام التى كان الحمدانيون يتطلعون الى انتزاعها من أيدى الاخشيديين . فسار إلى حلب وقنسرين وحمص وأنطاكية والثغور الشامية وسائر الولايات والمدن الشامية فاستولى عليها وأقام الدعوة فيها للمستكفى — الذى خلف المتقى — ولأخيه ناصر الدولة ولنفسه [٢] .

وقيل فى هذا الصدد إن الإخشيد عاد من الرقة إلى حلب ثم غادرها إلى مصر بعد أن ولى عليها من قبله أبا الفتح عثمان بن سعيد بن العباس بن وليد الكلابى . ولكن عشرته من الكلابيين حسدوه على هذه الولاية وراسلوا سيف الدولة بن حمدان ليسلموا اليه حلب ، وكان سيف الدولة قد طلب من أخيه ناصر الدولة ولاية فقال له ناصر الدولة: الشام أمامك وما فيه أحد يمنعك منه . وعرف سيف الدولة اختلاف الكلابيين وضعف أبى الفتح عن مقاومته فسار إلى حلب ودخل أبو الفتح فى طاعته [٣] .

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ١٤٤

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤١

(٣) كمال الدين عمر بن العديم الحلبى : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ص ٣٦٥ — ٣٦٧ (فى Sayf al-Daula edité par Marius Canard) .

ومهما يكن من الأمر فان الاخشيد كتب إلى المستكفى يشكو إليه سيف الدولة . ولكن أمير المؤمنين لم يملك إلا أن يرسل الخلع النفيسة اليه والى ابنه اونوجور . وبلغ الاخشيد أن سيف الدولة سار الى حمص يريد دمشق [١] فأرسل إلى الشام جيشا [٢] من بدمشق وسار الى حمص فالتقى بسيف الدولة عند بلدة الرستن [٣] . وكان النصر لسيف الدولة وتقهقر الجيش الاخشيدى إلى دمشق ثم خرج منها قاصداً الرملة ليعود إلى مصر . وسار سيف الدولة في أثر الجند المصريين يريد دمشق ، وكتب إلى أهلها كتاباً قرىء على منبر المسجد الجامع فيها وحملت نسخته إلى الاخشيد ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الر ‌ ، من سيف الدولة ابى الحسن إلى جماعة الأشراف والعلماء والأعيان والمستورين بمدينة دمشق أطال الله بقاكم وأدام عزكم وسعادتكم وكفايتكم ونعمتكم ، كتابنا اليكم من المعسكر المنصور بظاهر عين الجر [٤] عن سلامة وجميل كفاية لمولاها خالص الدعاء والشكر . وقد علمتم — أسعدكم الله — تشاغلى بجهاد أعدائى وأعداء الله الكفرة وسبيلهم [٥] وقتلى فيهم وأخذى أموالهم وتخريبي ديارهم وقد بلغكم خبر القوانين فى هذه السنة وما أولانا الله وخولناه ، وأظفرنا به واستعملت فيهم السنة فى قتال أهل الله فما اتبعت مدبراً ولا دفعت إلى جريح حتى سلم من قد رأيتم [٦] . وقد تقدمنا إلى وشاح بن تمام بصيانتكم وحفظكم وحوط أموالكم وفتح الدكاكين وإقامة الأسواق والتصرف في المعاش إلى حين موافاتنا إن شاء الله » [٧]

---

(١) ولكن كمال الدين ابن العديم (المرجع السابق ص ٣٦٨) ذهب إلى أن الاخشيد هو الذى بدأ بارسال الجيش إلى الشام .

(٢) أنظر الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٥

(٣) عند المكان الذى يعبر فيه نهر العاصى الطريق من حمص إلى حماه ، أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤٩

(٤) موضع بين بعلبك ودمشق ، ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ٢٥٤

(٥) لعلها «وسبيهم» .

(٦) إشارة إلى ما فعله سيف الدولة فى الرستن حين أمر جنوده أن لا يقتلوا أحداً من الجيش الاخشيدى المنهزم وقال لجنده : الدم لى والمال لكم ! ثم أطلق سراح الأسرى وعددهم نحو أربعة آلاف ، أنظر كمال الدين ابن العديم : المرجع السابق ص ٣٦٨

(٧) ابن سعيد : المغرب ص ٤١ — ٤٢

فلما وصلت نسخة هذا الكتاب إلى الاخشيد عزم أن يسير بنفسه للقاء سيف الدولة. فاستخلف على مصر ابنه انوجور وسار على رأس جيشه إلى دمشق ، وكان سيف الدولة قد دخلها بجنده ومعه أهله[١] . ويبدو أن أحد قواد الاخشيد — واسمه عيسى كيل — كان قد انضم إلى سيف الدولة واتصل به فى دمشق ، فكتب الاخشيد من الرملة إلى عيسى كيل يعده بالأموال الطائلة والمكافأة الطيبة ويمنيه بتقليده الوظائف السامية وأرسل اليه خاتمه ليبث الدعوة له بين أهل دمشق ويحضهم على الترحيب به وطرد سيف الدولة . والطريف أن عيسى هذا « شرب وسكر ودعا الناس إلى الاخشيد »[٢] ثم أفاق من سكره وهرب ليلا إلى الاخشيد فأحسن هذا الأمير جزاءه وأفلح فى دخول دمشق بعد أن فر منها سيف الدولة[٣] . وطارد سيف الدولة الاخشيد إلى حمص فقنسرين حيث نشب القتال بينهما . وكان النصر فى البداية لسيف الدولة ولكن نصره انقلب إلى هزيمة[٤] . ومع ذلك فإنه لم ينصرف بل عسكر مواجها للاخشيد[٥] . ولم تكن هزيمته حاسمة مما دعا الاخشيد إلى أن يجنح للسلم ويعمل على الصلح ، وقد سفر الحسن بن طاهر بين الأميرين ، وتم الصلح بينهما فى ربيع الاول سنة ٣٣٤ على أن يكون لسيف الدولة من جوسية[٦] إلى حمص إلى سائر أعمالها ، وأن يكون للاخشيد من دمشق وما بين يدها

---

(١) فى بعض الروايات أنه حاصرها فقط ولم يفلح فى دخولها ، أنظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٩

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٢

(٣) قيل ان سيف الدولة كان قد غادرها فترة قصيرة للقاء الاعراب الضاربين حولها وأنه لما عاد اليها منعه أهلها من دخولها . وربما كان ذلك بتأثير عيسى بن كيل . أنظر كمال الدين ابن العديم : المرجع السابق ص ٣٦٩

(٤) أنظر وصف هذه الموقعة فى كمال الدين ابن العديم : المرجع السابق ص ٣٦٩

(٥) وفى رواية أخرى أن سيف الدولة هرب إلى الرقة : وقيل إنه أراد دخول حلب فمنعه أهلها وان الاخشيد دخل حلب وعاث أصحابه فسادا فى أرجائها ، ثم عاد إلى دمشق وانتهت المفاوضات بينه وبين سيف الدولة إلى « أن أفرج الاخشيد له عن حلب وحمص وانطاكية وقرر عن دمشق مالاً يحمله اليه فى كل سنة » أنظر كمال الدين ابن العديم : المرجع السابق ص ٣٧٠ والذهبى : تاريخ الاسلام ص ٦٥

(٦) بلدة على خمسة وثلاثين كيلو متراً إلى الجنوب الغربى من حمص : أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٧١

إلى آخر أعمالها ، وزوجه فاطمة بنت أخيه عبيد الله بن طغج [١] . وسار سيف الدولة إلى حلب واستقر الاخشيد فى دمشق إلى أن مات فى نهاية سنة ٣٣٤ ه .

والراجح أن الاخشيد سعى الى عقد الصلح مع سيف الدولة لأنه كان يعتقد أن انتصاره عليه لم يكن حاسما وأن الحرب بينهما ستدوم الى أن يتم النصر لسيف الدولة . وكان قواد الاخشيد وجنده يكرهون هذا الصلح ويودون مواصلة القتال للقضاء على سيف الدولة ، وقد طلبوا من شيخ من شيوخ دمشق كان الأخشيد يأنس به أن يلومه على ما تم بينه وبين سيف الدولة من الصلح والمصاهرة . فلما حدثه الشيخ فى ذلك أجاب بقوله : « اعلم أن على بن حمدان (سيف الدولة) كاتبناه من الرملة فبذلنا له فلم يفعل وكاتبناه من طبرية فامتنع ثم سرنا اليه ورزقنا الله تعالى النصر عليه وعلى أصحابه الظفر فلم ينصرف وخيم حذاءنا بوجه صفيق وقلة حياء فتوقفت عنه . فقال لى الغلمان : دعنا نمضى تلقاءه ففكرت فى قولهم ولم أخل من أحد وجهين : إما أن يهزمنا ويرزق علينا النصر فتكون الفضيحة وإما أن نرزق عليه النصر فنأخذه فايش أعمل به ؟ هلا هو أكثر من أن أنزله فى مضرب يشبهه وأنفق عليه ما يصلح له ثم أجهزه وأرده لأخيه وأهله لأنهم لا يتركونه ؟ وأقل ماكان يكفينا له مائتا ألف دينار . ثم لا أطيق غلمانى من ادلالهم والتسحب على بما عملوا ويطلبون منى الأعمال والولايات . فرأيت أن مسالمته ومصالحته أفضل وأصلح [٢] ، وأرسلت اليه الحسن بن طاهر أعده بالأموال والخروج عن أعماله فلما رأوا الحسن بن طاهر قد مضى ازدحموا على يسبونى ويشتمونى ويسألون الله الراحة منى » [٣] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٢ . وقد ذكر ابن سعيد أن فاطمة هذه ابنة الاخشيد نفسه ولكن الصحيح أنها ابنة أخيه عبيد الله كما ذكر كمال الدين ابن العديم (المرجع السابق ص ٣٧٠) .

(٢) كان الحمدانيون يعرفون ذلك حق المعرفة ، وحسبنا قول شاعرهم أبى فراس الحمدانى :

فلما رأى الاخشيد ما قد أظله ... تلافاه يثنى غربه ويكاشر

رأى الصهر والرسل الذى هو عاقد ... ينال به ما لا تنال العساكر

أنظر ديوان أبى فراس الحمدانى ج ٢ ص ١١٧ و ١٤١ — ١٤٢

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٣

وهكذا نرى كيف كان الاخشيد بعيد النظر لا يلقى بنفسه فى مغامرات يعرف أنها لا تؤدى الى نتائج عملية . كما نرى أنه كان يؤثر أن ينال بالمال ما يعجز عن الحصول عليه بحد السيف . ويبدو لنا فضلا عن ذلك أنه كان يعلم تمام العلم أن النزاع بينه وبين الحمدانيين على الشام كان لابد أن ينتهى بانتصارهم عليه ، لبعد الشقة بين مصر وبين هذا الاقليم ، ولأنه كان المجال الحيوى لتوسع الحمدانيين . ومن المحتمل أن الاخشيد كان لا يكره أن تظل دولة الحمدانيين دولة حاجزة بينه وبين البيزنطيين تكفيه مئونة التعرض لهجومهم من وقت الى آخر .

***

ولما مات الاخشيد وخلفه ابنه أونوجور وسار كافور بجند مولاه من الشام الى مصر خلت دمشق من حامية قوية ترد عنها الحمدانيين ، وطمع فيها سيف الدولة فاتجه اليها وسقطت فى يده بعد أن استسلم اليه حاكمها الاخشيدى . وقيل ان سيف الدولة كان يسير يوما فى الغوطة بظاهر دمشق ومعه كبير من وجوه القوم فيها ، اسمه الشريف العقيقى ، فقال له سيف الدولة : ماتصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد . فقال له الشريف العقيقى : هى لأقوام كثيرة ، فقال له سيف الدولة : لئن أخذتها القوانين ليتبرؤون منها [١] . فأسرها الشريف فى نفسه وأعلم أهل دمشق بذلك . وألح سيف الدولة فى مطالبة الدمشقيين بودائع الاخشيد فكاتبوا كافورا يستدعونه [٢] . فجاءهم ومعه سيده أونوجور ، وخرج سيف الدولة الى اللجون [٣] ، وأقام قريبا من معسكر الاخشيديين . ثم نشب القتال بين الجيشين ، وكان النصر للمصريين فتقهقر سيف الدولة الى دمشق فحمص . وهنا أعاد تنظيم صفوفه وجمع جيشا كبيرا من الأعراب وكر على المصريين شمالى دمشق وكان النصر له فى البداية ولكنه انهزم وتفرقت جيوشه .

(١) فى تاريخ المكين ص ٢١٥ : « ان أخذتها النواب واستولى عليها الدواوين لتبرز عنها أهلها » .

(٢) ابن سعيد ص ٤٥ — ٤٦ وابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ١٦٤ وكمال الدين ابن العديم : المرجع السابق ص ٣٧١ — ٣٧٢

(٣) الى الجنوب الشرقى من حيفا ، انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٣٢٣

وطارده الاخشيديون الى حلب فهرب الى الرقة ، ثم بدأت المفاوضات بين الطرفين وانتهت الى الشروط التى كانت بين الاخشيد وسيف الدولة [١] . ولكن يبدو أن الاخشيديين لم يقبلوا هذه المرة أن يدفعوا جزية سنوية لسيف الدولة عن احتلالهم دمشق [٢] . وعاد اونوجور وكافور الى مصر بعد عقد هذا الصلح وظل السلام قائما بين سيف الدولة والاخشيديين منذ سنة ٣٣٦ هـ .

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩١ و ٢٩٢
(٢) كمال الدين ابن العديم : المرجع السابق ص ٣٧٣ و ٣٧٤

(٢)
مع البيزنطيين

كان الاخشيد يعنى بما يجرى في الثغور وعلى الحدود بين أملاك المسلمين وأملاك بيزنطة فى آسيا الصغري ، وكانت أعماله الخاصة لا تشغله عن ذلك ، وكان البيزنطيون يحترمونه ويخشون بأسه ، فلا عجب إذا راسله الإمبراطور رومانوس وكتب إليه — متخطياً الخليفة — يتودد إليه[1] ويطلب تبادل الأسرى[2] وتنظيم الفداء . وبادله الإخشيد وداً بود ، فأكرم رسله وحملهم إلى مليكهم هدايا من طرائف مصر ، كما سمح لبعض أتباع الامبراطور ببيع ما قدموا به من البضائع وابتياع ما أرادوه من منتجات مصر[3] .

وقد عرفنا أن الفداء الذى وقع بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣٣٥ شرع فيه الاخشيد « أمير مصر والشام والثغور الشامية » وكان قد قدم إليه بدمشق فى ذى الحجة سنة ٣٣٤ أبو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى الأذنى ومعه رسول إمبراطور بيزنطة لتنظيم هذا الفداء . وكان أبو عمير من شيوخ الثغور وقد سبق أن أوفد فى سفارة إلى القسطنطينية ، كما رافق السفراء البيزنطيين الذين قدموا إلى بلاط المقتدر سنة ٣٠٥هـ[4] . ولكن الاخشيد كان مريضاً وما لبث أن توفى فرجع كافور بالجيش إلى مصر وصحب معه إلى فلسطين أبا عمير ورسول الإمبراطور فدفع إليهما ثلاثين ألف دينار من مال هذا الفداء . وسارا الرسولان إلى مدينة صور ثم ركبا البحر إلى طرسوس وكاتب نصر الثملى أمير الثغور الشامية

---

(١) يشهد بذلك ما جاء فى الرد الذى كتبه النجيرمى على لسان الاخشيد : « وأما ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون الخليفة فى المكاتبة لما يقتضيه عظم ملككم وأنه الملك القديم الموهوب من الله الباقى على الدهر وأنك انما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك . . . . الخ » .

(٢) يبدو من الرد الذى كتبه النجيرمى على لسان الاخشيد أن البيزنطيين كانوا حينذاك يحسنون الى أسرى المسلمين .

(٣) يبدو ذلك أيضا من الرد المشار اليه فى الحاشية السابقة .

(٤) انظر صفحة ٨٤ حاشية (١) من Canard: Sayf al.—Daula .

سيف الدولة « ودعا له على منابر الثغور الشامية [١] فجد فى إتمـام هذا الفداء فعرف به ونسب إليه » [٢] .

وكان نصر الثملى قد دخل سنة ٣٣٠ هـ من ناحية طرسوس إلى بلاد الروم فقتل وسبي وغنم وعاد سالمـاً بعد أن أسرعدداً من علية القوم بين البيزنطيين فى هذا الاقليم [٣] .

وقيل ان من الأسباب التى حملت نقفور فوكاس البيزنطى على الرحيل عن حلب سنة ٣٥١ — بعد أن فتحها وعاث فيها فسادا — أن سيف الدولة استنجد بأهل الشام فسار إليه جيش من دمشق على رأسه ظالم بن السلال العقيلى الذى كان يليها من قبل الدولة الاخشيدية [٤] . ولا عجب ان هب الاخشيديون لنجدة سيف الدولة فقد كان نقفور قد دوخ بلاد الاسلام وانتزع من أيدى المسلمين كثيرا من المدن والحصون والمعاقل .

والواقع أن المسلمين فى القرن الرابع لم يهملوا واجب الجهاد . وكان الغزاة منهم يتدفقون من كل أنحاء البلاد الإسلامية إلى إقليم الثغور ، ولا سيما مدينة طرسوس التى كتب عنها ابن حوقل : « عليها سوران من حجارة ، كانت تشتمل على خيل ورجال وعدة وعتاد وكراع . وكان بينها وبين الروم جبال متشعبة من اللـكام كالحاجز بين العملين ، ورأيت غير عاقل مميز وسـيد حصيف مبرز يشـار إليه بالدراية والفهم واليقظة والعلم يذكر أن بها مائة ألف فارس . وكان ذلك عن قريب عهد من الأيام التى أدركتها وشاهدتها . وكان السبب فى ذلك أنه ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والجبال وطبرستان والجزيرة واذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب إلا وبها (أى بطرسوس) لأهلها

---

(١) ممـا يشهد بأن الثغور الشامية كانت حتى ذلك الوقت تابعة للاخشيد وأنه هو الذى بدأ هذا الفداء وأن أمير الثغور من قبله لم يدخل فى طاعة سيف الدولة إلا بعد وفاة الاخشيد .

(٢) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٦٥

(٣) ابن الاثير : تاريخ الـكامل ج ٨ ص ١٢٧

(٤) كمال الدين ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ص ٣٩١ — ٣٩٢

دار ينزلها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة، إلى ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس إلا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق »[1] .

(١) ابن حوقل : المسالك الممالك ص ١٢٢ — ١٢٣

(٣)

مع النوبيين

من المعروف أن الحملة التى قام بها على بلاد النوبة عبد الله بن سعد والى مصر سنة ٣١ هـ انتهت إلى عقد اتفاق بين مصر وبين ملك النوبة يعرف باسم البقط . وهو بمثابة معاهدة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية ، قوامها ألا يعتدى أحدهما على الآخر وأن تؤدى النوبة إلى مصر عدداً معيناً من الرقيق كل سنة وأن تؤدى مصر إلى النوبة قدراً معينا من منتجات مصر (١) .

ولكن هذه المعاهدة كانت تنقض بين حين وآخر ، وكان ملوك النوبة يقدمون على غزو الصعيد الأعلى كلما أحسوا من أنفسهم القوة على هذا الغزو ، وظنوا أن الحكومة المصرية لن تستطيع أن تصدهم إلا بعد فترة يتاح لهم فيها أن يظفروا بما يريدون من السلب والنهب .

ومع ذلك فقد كانت تجارة الرقيق زاهرة بين مصر وبلاد النوبة . وحسبنا أن نذكر عدد الجند السودان فى جيش الطولونيين والاخشيديين .

وقد كتب المسعودى حين زار مصر فى سنة ٣٣٢ أن النوبيين كانوا لا يزالون يقدمون السبي الذى اتفق عليه فى البقط وكان يتسلمه نائب أمير مصر فى أسوان (٢) .

وحدث فى سنة ٣٣٩ أن أغار ملك النوبة على إقليم الواحات بمصر فقتل عدداً من سكانها وسبي وأحرق وخرب (٣) .

كما حدث فى ذى الحجة سنة ٣٤٤ أن أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعاً من سكانها ونهب قراها ، فخرج إليه جيش من قبل أونوجور وعلى رأسه محمد بن عبد الله

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٨٨ — ١٨٩ ، والكندى : الولاة والقضاة ص ١٢ — ١٣ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠٠ ، وسيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٥ — ١٦ ، و J. Spencer Trimingham : Islam in the Sudan, pp. 61-76.

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩ — ٤٠

(٣) تاريخ يحيي بن سعيد الانطاكى ص ١١٢

الخازن واستطاع هذا الجيش أن يصد النوبيين وأرسل بعض أسراهم إلى مصر فضربت أعناقهم . ثم طارد الجيش المصرى ملك النوبة وفلول جيشه واستطاع أن يفتح مدينة إبريم وعاد إلى مصر فى منتصف جمادى الأولى سنة ٣٤٥ ومعه مائة وخمسون أسيراً وعدد من رءوس القتلى[1] .

---

(١) تاريخ يحيي بن سعيد الانطاكى ص ١١٤ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٨ و٣٢٩ و ٣٣٠ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٦

(٤)
مع الفاطميين

عرفنا كيف استطاع الاخشيد — بعد أن ولى على مصر — أن يهزم الجند المغاربة الذين كرهوا الخضوع له واتصلوا بالفاطميين فى المغرب . ورأينا أنهم فروا من الاسكندرية إلى الرمادة فى طريقهم إلى برقة . وهناك توفى زعيمهم فى صفر سنة ٣٢٤ . وكانوا قد كتبوا إلى القائم بأمر الله الخليفة الفاطمى يسألونه أن يبعث إليهم بجيش يفتحون به مصر . وقد لبى الخليفة الفاطمى دعوتهم وأنفذ إليهم جيشاً أمره بالمسير معهم إلى الاسكندرية فبلغوها فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٢٤ ﻫ . وبعث إليهم الاخشيد جيشاً على رأسه أخوه الحسن بن طغج وقائده صالح بن نافع ، والتقى الجيشان فى قرية من قرى البحيرة وحلت الهزيمة بالمغاربة وفرت فلولهم إلى برقة[١] .

ويبدو أن الخليفة الفاطمي أدرك أن الافضل لتحقيق أهدافه وسياسته أن يأخذ الاخشيد باللين وأن يعمل على كسب صداقته ، فكتب إليه كتابا قرأه على خاصته وأرفق به رقعة كتبها بخطه ولم يقرأها على أحد من مستشاريه ، فكأنها رسالة ملكية خاصة . وهذا نصها : « قد خاطبتك أعزك الله فى كتابي المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجز لى فى عقد الدين وما جرا به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون وضمنت رقعتى ما لم يطلع عليه أحد من كتابي وذوى المكانة عندي . وأرجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه ، فقد شهد الله على ميلي إليك وايثارى لك ورغبتى فى مشاطرتك ماحوته يمينى واحتوي عليه ملكى ، وليس يتوجه لك العذر فى التخلف عن إجابتى لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يرون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك يخلفون وعدك ويخفرون ذمتك لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة . وليس ينبغى لك أن تعدل عن منهج من نصحك وايثار من آثرك إلى من يجهل موضعك ويضيع

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ — ٢٨٨

حسن سعيك . وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كرّه إليك العدول عنهم ، فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق فانى ارضى منك بالمودة والامر والطاعة حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك تسكن إليه فى أمرك وتعول عليه بمثل ذلك . وإذا تدبرت هذا الامر علمت أن الذي يحملنى على التطاطى لك وقبول الميسور منك انما هو الرغبة فيك وأنت حقيق بحسن مجازاتى على ما بذلته والله يريك حسن الاختيار فى جميع أمرك وهو حسبنا ونعم الوكيل »[١] .

ولكن الاخشيد رأى أن يترك لنفسه فرصة التفكير فى الامر فلم يكتب رد هذا الكتاب لتسليمه إلى رسول الخليفة الفاطمى بل « احتج إليه بأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يجوز له أن يبوح بما فى نفسه إلى كاتب ، إذ كان الصواب يقتضى ذلك . ثم قال : وأنا أتدبر الجواب وأجيب عنه ويصل مع من أثق به وأسالك من حسن الموالاة ما لم يكن غيرى يسلكه »[٢] .

ولاريب فى أن الاخشيد كان يفهم أن الخليفة الفاطمى يدعوه الى الدخول فى طاعته . وكان الاخشيد يخشى أن يخرج على الخلافة العباسية فقد كان ضعفها يسمح له بأن ينعم بقسط وافر من الاستقلال ، وفضلا عن ذلك فان من المحتمل أنه كان يكره أن يتخلى عن مذهبه السني ويلقى بنفسه فى أحضان الدولة الفاطمية الشيعية . ومع ذلك فاننا لا نظن أن هذا الاحتمال الأخير كان له وزن كبير عند الاخشيد . فقد عرفنا أنه لما وجد أن الحكومة المركزية فى بغداد لم تنصره على ابن رائق فكر فى الدعوة للخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة وفى قطع صلته بالخليفة العباسى[٣] . ولكن بعض أخصائه نصحوه بالعدول عن ذلك .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٦

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦

(٣) المرجع نفسه ص ٢٦ — ٢٧

وقيل ان الاخشيد بعث بكتاب الى الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله يعرض عليه زواج ابنته من ولى عهد الخليفة . وقرأ القائم بأمر الله هذا الكتاب على مستشاريه فأشاروا عليه باجابة هذا الطلب، و بعث الخليفة الى الاخشيد:[1] «وصل كتابك وقد قبلنا ما بذلت . وهى وديعة لنا عندك وقد منحناها من بيت مالنا قبلك مائة الف دينار فتوصل ذلك اليها »[2]. ولكن الاخشيد كان يظن أن القائم سيرسل اليه من الهدايا والاموال ما يفخر به فلما خاب ظنه وقف مشروع المصاهرة .

* * *

ومهما يكن من الامر فقد نظم الاخشيد علاقته بالحكومة المركزية فى بغداد ،وأدرك أن الافضل له البقاء تحت لوائها[3]. واضطر الفاطميون الى مراقبة الحالة فى مصر عن كثب على الرغم من أن مطامعهم فى فتح هذه البلاد كانت تشتد سنة بعد أخرى . فقد كان يجذبهم اليها رخاؤها وثروتها ومركزها الجغرافى فى قلب العالم الاسلامى ، فضلا عن يأسهم من استقرار الأمور فى المغرب ورغبتهم فى التقدم نحو الشرق لعلهم يستطيعون من مصر أن يسيطروا على الشرق الادنى ويسقطوا الخلافة العباسية .

وكانت سياسة كافور أن يبقى على حسن العلاقة بالخلفاء العباسيين من ناحية وبالفاطميين من ناحية أخرى . وقد عرفنا أن أبا المحاسن بن تغرى بردى كتب فى هذا الصدد أن كافورا كان « خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية . كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء »[4] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ٢٧

(٢) إذا صح ما نفهمه من هذا النص فان القائم كان يفرض ان الاخشيد دخل فى طاعته وان للقائم فى ذمته جزية أو مالا للخزانة الفاطمية وان القائم منح ابنة الاخشيد مائة ألف دينار من هذا المال المستحق للفاطميين .

(٣) ومع ذلك فانه لم يعلن أى عداوة للفاطميين . ومما يستحق الذكر أنه أثناء قتال ابن رائق كان يفكر فى الهرب إلى بلاد الروم أو المغرب إذا حلت به الهزيمة . أنظر ابن سعيد : المغرب ص ٢٨

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

وكان الفاطميون يسفرون فى بعض الأحيان عن نياتهم العدائية نحو مصر فى عصر كافور . وحدث أن أطلق الخليفة المعز جموعا من عساكره فى المغرب هجمت على الواحات المصرية فأعد كافور جيشاً أجلاهم عنها ويبدو أنه قام بشبه « تعبئة » جزئية فى هذه المناسبة « وصارت الطبول تضرب على بابه خمس مرات فى اليوم والليلة وعدتها مائة طبلة من نحاس »[١] .

ولكن الفاطميين عملوا على نشر الدعوة لأنفسهم فى مصر . بل قدم رسل المعز الفاطمى الى كافور يدعونه الى الدخول فى طاعته فلاطفهم ولم يعط أى رد حاسم . بينما استطاع دعاة الفاطميين أن يأخذوا البيعة للمعز من كثير من وجوه القوم ورؤساء الجند الاخشيديين من الطوائف المختلفة[٢] .

والحق أن الفاطميين كانوا يلمسون أن استيلاءهم على مصر كان قريب الوقوع ولم يعد إلا مسألة وقت فحسب . ولا عجب فقد كان دعاتهم يعملون فى مصر منذ سقوط الدولة الطولونية . وزاد اتصالهم بوجوه مصر منذ قيام الأخشيد . ومن الأمثلة على هذا الاتصال فى العصر الاخشيدى أن الوزير محمد بن على المـاذرائى اتهم — حين كان معزولا فى قبضة الفضل بن جعفر بالشام — بأنه كاتب الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله وزين له فتح مصر[٣] . ومن ذلك أن أبا الطاهر الذهلى الذى تولى قضاء مصر سنة ٣٤٨ ناظر رسولا قدم إلى مصر من قبل الفاطميين[٤] . ومنه أيضا ما عرفناه من أن أبا جعفر أحمد ابن نصر شيد دارا كبيرة وكانت تؤخذ فيها البيعة لصاحب المغرب[٥] .

بل قيل ان المعز لدين الله الفاطمى قدم إلى مصر فى زمن كافور وان كافورا خرج اليه هو وعبد الله بن طباطبا « فقال عبد الله : ما نسبك ما حسبك !! فرجع المعز وهذه هى المرة الأولى »[٦] . والراجح عندنا أن من المحتمل أن يكون المعز قد قدم

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧
(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٧
(٣) المرجع نفسه ص ٢٦
(٤) ابن الزيات : الـكواكب السيارة ص ٦٣
(٥) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠
(٦) ابن الزيات : الـكواكب السيارة ص ١٧٥

إلى « مكان ما » على الحدود المصرية وأن يكون كافور قد خرج للقائه ومعه ابن طباطبا للمفاوضة فى مصير البلاد . ولا ننسى فى هذه المناسبة قطعة النسيج المصرية التى كانت فى مجموعة تانو المؤرخة من سنة ٣٥٥ وعليها عبارة « بسم الملك الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معد أبى تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه سنة خمس وخمسين وثلثمائة » [١] . فمن المحتمل أنها من مجموعة صنعت لاهدائها للمعز ، وأنها تشهد بأن كافورا كان حريصا على وده وصداقته وأنه كان «يكسب الوقت» ويرى أن مصرآيلة لامحالة إلى الفاطميين . ومن المحتمل أيضا أن فى تاريخها خطأ كتابيا . ولكننا على كل حال لانميل إلى أن نستنبط منها أن مصر كانت قد دخلت فى طاعة الفاطميين فى ذلك التاريخ .

* * *

ولما مات كافور واستقل جعفر بن الفضل بن الفرات بالوزارة وتدبير المملكة لأحمد بن على بن الاخشيد اضطربت الأمور لأنه قام بشبه انقلاب سياسى ، فقبض على طائفة من كبار الموظفين وذوى الرأى وصادر أملاكهم . وكان من بينهم يعقوب ابن كلس ، ولكن أبا جعفر مسلم بن عبيد الله الشريف الحسينى شفع له عند ابن الفرات فأطلق سراحه وبقى ابن كلس مختفيا عند مسلم الحسينى ثم هرب إلى بلاط المعز فى المغرب [٢] .

وقد أخفق ابن الفرات فى القبض على زمام الأمر ، فقد كانت الحالة المالية فى البلاد سيئة إلى أبعد حد وكانت المجاعة والأوبئة واضطراب الأمن قد أفقدت الحكومة كل هيبة واستقرار ، ولا سيما حين عجزت عن دفع رواتب الجند وعن جمع الضرائب [٣] . وزاد الطين بلة أن « طمع أهل القرى فى الجند » [٤] . ثم هزم القرامطة

---

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 5 p. 11 No. 1622

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٧ و ج ٢ ص ٤٤٠

(٣) المرجع نفسه ج ١ ص ١٣٨

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٤

الحسن بن عبيد الله بن طغج فى الشام وسقطت فى يدهم الرملة وانسحب الحسن بن عبيد الله إلى مصر وقبض على ابن الفرات وأراد أن يتولى تدبير الأمور . ولكنه ما لبث أن أطلق سراحه وفوض اليه الحكم وعاد إلى الشام .

وصفوة القول أن سوء الحالة الاقتصادية والاضطراب السياسى الذى حل بالبلاد والدعوة الفاطمية التى انتشر أمرها كل ذلك حمل كثيرا من أولى الرأى فى البلاد على الكتابة إلى المعز لدين الله يطلبون اليه القدوم إلى مصر لإنقاذها من الفوضى التى دبت اليها منذ اختفت شخصية كافور .

والواقع أن وجود كافور كان السبب الأساسى فى تأخير الغزو الفاطمى . ومن الطريف فى هذا الصدد أن فى بعض المراجع روايات خيالية عن تحنيط جثته بعد وفاته وايهام الناس أنه لا يزال حيا ودوام الحال على هذا المنوال الى ان كشفت الحقيقة بعد ثلاث سنين فكتب الناس الى المعز [١] . كما أن دعاة المعز فى مصر كانوا يقولون : « اذا زال الحجر الاسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها ، وبيننا وبينكم الحجر الأسود — يعنون كافورا الاخشيد » [٢] .

***

أما الفاطميون فكانوا يستعدون لغزو مصر قبيل وفاة كافور . ففى سنة ٣٥٥ أمر المعز بحفر الآبار فى طريق مصر وفى نهاية جمادى الآخرة من سنة ٣٥٧ هـ وردت الأخبار من مصر الى المغرب بموت كافور [٣] . فبدأ المعز فى إعداد المال اللازم للحملة التى سيرها لفتح مصر سنة ٣٥٨ [٤] .

---

(١) ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المجلد الثانى الجزء الثانى ص ٨٧

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٦ — ١٤٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٢

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٨

(٤) المرجع نفسه ص ١٣٩

ومن الوسائل التى استعملها المعز فى حث شيوخ دولته على استنهاض الهمم لهذا الفتح أن اسمعهم قصة قال إنها تشهد بترف المصريين وضعف نفوسهم وذهاب الغيرة منهم ، وقوام هذه القصة أن ابنة الاخشيد خرجت الى السوق لتشترى جارية تتمتع بها [١] .

ومما يذكر بوسائل الدعاية والفتح فى أيامنا هذه أنه لما مات كافور أرسل المعز الى دعاته فى مصر أعلاما أمرهم أن يفرقوها على من يبايع من الجند لينشروها عند وصول جنوده الى مصر [٢] .

ولما قرب الجيش الفاطمى من الاسكندرية كان للوزير جعفر بن الفرات شأن ظاهر فى مشاورة أهل الرأى واستقر رأيهم فى النهاية على مفاوضة جوهر القائد فى شروط التسليم واتفق القوم على تأليف وفد للمفاوضة كان على رأسه الشريف أبو جعفر مسلم الحسينى وابو اسماعيل الرسى والقاضى ابو طاهر الذهلى . والتقى الوفد بالقائد الفاطمى عند تروجة وانتهت المفاوضات بعهد الأمان الذى كتبه واعلنه للمصريين وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من جوهر الكاتب ، عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله ، صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها ، من أهلها ومن غيرهم ، انه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى ، وهم : أبو جعفر مسلم الشريف — أطال الله بقاه — وأبو اسماعيل الرسى — أيده الله — وأبو الطيب الهاشمى — أيده الله — وأبو جعفر احمد بن نصر — أعزه الله — والقاضى — أعزه الله وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم و بلادكم وجميع أحوالكم — فعرفتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — وحسن نظره لكم ، فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حماكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا الى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم ، وهو أنه — صلوات الله عليه — لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ١٤٣ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٦٦

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٧

إلا لما فيه اعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، إذ قد تخطفتكم الأيدى، واستطال عليكم المستذل وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة والتغلب عليه وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان المشرق ، وتأكد عزمه ، واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — باخراج العساكر المنصورة ، وبادر بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق ، الذين عمهم الخزى ، وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغثهم إلا من أرمضه أمرهم ومضه حالهم ، وأبكى عينه ما نالهم وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، فرجا ، بفضل الله عليه، واحسانه لديه ! وماعوده وأجراه عليه ، استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم ، وعذاب أليم ، وأن يؤمن من استولى عليه المهل[1] ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل ، وآثر اقامة الحج الذى تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه للخوف المستولى عليهم ، وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى فسفكت دماؤهم ، وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات ، وقطع عبث العابثين فيها ، ليتطرق الناس آمنين ، ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه — صلوات الله عليه — انقطاع طرقاتها ، لخوف مادتها إذ لا زاجر للمعتدين ، ولا دافع للظالمين .

ثم تجويد السكة ، وصرفها إلى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة ، وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال هى التى لا يتسع لمن ينظر فى أمور المسلمين إلا اصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها .

وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — إلى عبده من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام فى الحق ، وإعانة المظلوم مع الشفقة والاحسان وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف

---

(١) لعلها الوهل بمعنى الفزع .

العشرة ، وافتقاد الاحوال وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم ، وحين تصرفهم فى أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لَمَّ شعثهم ، وأقام أودهم ، وأصلح بالهم وجمع قلوبهم وألف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — وما أمر به مولانا من إسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرتضى — صلوات الله عليه — باثباتها عليكم .

وأن أجريكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه — صلى الله عليه — وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال .

وأن أتقدم فى رم مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ، ولا أقطعها عنهم ، ولا أدفعها إلا من بيت المال ، لا باحالة على من يُقبض منهم .

وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — مما ضمنه كتابه هذا ما ذكره من ترسل عنكم ، أيدهم الله ، وحباكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من أنكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم ، وتطمينا لأنفسكم ، وإلا فلم يكن لذكرها معنى ، ولا فى نشرها فائدة ، إذ كان الاسلام سنة واحدة ، وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم ، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة — رضى الله عنهم — والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان ، والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة ، والحج ، والجهاد على أمر الله فى كتابه ، ونصه نبيه — صلى الله عليه وسلم — فى سنته ، واجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه .

ولكم على أمان الله التام العام ، الدائم المتصل ، الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ، وفى أنفسكم وأموالكم وأهاليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم ، وعلى أن لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن ، ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ، ويمنع منكم ، فلا يتعرض الى أذاكم ، ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ، ولا فى الاستطالة على قويكم — فضلا عن ضعيفكم — وعلى أن لا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ، ويشملكم نفعه ، ويصل اليكم خيره ، وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه .

ولكم علىّ الوفاء بما التزمته ، وأعطيتكم إياه ، عهد الله ، وغليظ ميثاقه وذمته ، وذمة أنبيائه ، ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين — قدس الله أرواحهم — وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله — صلوات الله عليه — فتصرحون بها ، وتعلنون بالانصراف اليها ، وتخرجون إلىّ ، وتسلمون علىّ ، وتكونون بين يدىّ ، إلى أن أعبر الجسر ، وأنزل فى المناخ المبارك ، وتحفظون وتحافظون — من بعد — على الطاعة ، وتثابرون عليها ، وتسارعون إلى فرضها ، ولاتخذلون وليا لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — وتلزمون ما أمرتم به ، وفقكم الله وأرشدكم أجمعين » .

وكتب جوهر القائد الأمان بخطه في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وصلى الله على محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار .

وكتب بخطه فى هذا الكتاب .

« قال جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين — صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين — « كتبت هذا الأمان على ماتقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — وعلى الوفاء بجميعه لمن أجاب من أهل البلد وغيرهم على ماشرطت فيه ، والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل ، صلى الله على محمد وعلى آله الطيبين » [1] .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٨ — ١٥٣

وهكذا نرى أن هذا الأمان هدف إلى إيهام المصريين أن جيوش الفاطميين قدمت لحمايتهم ، وعرض ، فضلا عن ذلك ، لبرنامج من الاصلاح كاقامة شعائر الحج وإصلاح الطرقات والعمل على استتباب الأمن وتوفير الأقوات وإصلاح العملة وقطع الغش منها ونشر العدل . ونلاحظ أنه قد نص على العدول عما كان متبعا فى العصر الاخشيدى من أخذ جزء لبيت المال من تركات الموتى من غير وصية من المتوفى . كما وعد بترميم المساجد وتأثيثها وأن تدفع للمؤذنين فيها والقومة والأئمة رواتبهم من بيت المال لا بإحالة على من يقبض منهم . كما نص العهد على إقامة أهل مصر على مذهبهم فى العبادة أى أنهم لا يلزمون بالتحول إلى المذهب الشيعى . ونص كذلك على تأمينهم على أنفسهم وأموالهم وضياعهم . وصفوة القول أن هذا الكتاب لم يكن أمانا ومعاهدة فحسب بل كان أشبه شىء بخطاب عرش يرسم الخطوط الرئيسية لسياسة الحكومة الجديدة .

ورجع الوفد بهذا الأمان إلى الوزير ابن الفرات وتبين فى الوقت نفسه أن طائفة كبيرة من الجند غير راضين عن عقد الصلح كما رفضه بعض وجوه القوم[(١)] . وقال الجند : « ما بيننا وبين جوهر إلا السيف » وأقروا عليهم قائداً من بينهم اسمه نحرير شويزان ، وبقى أحمد بن على بن الاخشيد لا يُفكر فيه .

ووصل جوهر بجيشه إلى الجيزة وأفلحت بعد ذلك فرقة من جيشه فى عبور النيل عند منية شلقان شرقى القناطر الخيرية الآن . ووقع القتال بينها وبين الجند المصريين فقتل منهم عدد كبير ثم استقر رأى المصريين على مطالبة الشريف مسلم الحسينى بالكتابة إلى جوهر فى إعادة الأمان ، ولبى القائد دعوة الشريف فأعاد الأمان . وخرج أبو جعفر مسلم وجعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء ووجوه التجار والأعيان إلى الجيزة لاستقبال القائد الفاطمى ، ودخل جوهر عاصمة البلاد فى شعبان من سنة ٣٥٨[(٢)] . وهكذا بدأ حكم الفاطميين فى مصر وانقضى عهد الدولة الاخشيدية . وقامت بعض المقاومة للحكم الجديد ، لاسيما بين البشامرة — على ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد — ولكن الفاطميين أفلحوا فى القضاء عليها[(٣)] .

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٥٤

(٢) المرجع نفسه ص ١٥٧ — ١٥٨

(٣) ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المجلد ٢ الجزء ٢ ص ٨٨

خاتمة

خاتمـــة

عرضنا فى الأبواب السابقة لشتى النواحى السياسية والاجتماعية والفنية من تاريخ مصر فى العصر الاخشيدى ، وهو فترة من تاريخها فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وذيل لتاريخها قبل الاخشيديين ومدخل لتاريخها فى العصر الفاطمى ، بل إنه من بعض النواحى وثيق الصلة بتاريخ العالم الإسلامى كله فى الفترة التى زاد فيها ضعف الخلافة العباسية حتى بلغ أشده .

ورأينا أن استقلال مصر عن الخلافة فى العصر الاخشيدى كان استقلالا ملموسا لاشك فيه ، وإن ظلت الروابط الروحية ومقتضيات الأحوال السياسية تربطها بالحكومة المركزية فى بغداد من غير أن تصل بها الى التبعية المطلقة . وكان مثلها فى ذلك مثل الدولة الطولونية ، وإن كان استقلال الطولونيين يبدو لبعض الباحثين أوضح وأظهر أثرا . ولعل بعض السبب فى هذا أن الاخشيديين لم يحاربوا الحكومة المركزية صراحة كما فعل ابن طولون وخمارويه ، وأن الاخشيديين خلفهم الدولة الفاطمية التى استقلت مصر على يدها استقلالا لا شك فيه فأنست القوم ما كان للاخشيديين من مجد واستقلال .

وقد بدأنا بدراسة تاريخ مصر قبيل قيام الاخشيد لأننا لانستطيع أن نفهم تاريخ الاخشيديين حق الفهم بغير امعان النظر فى الفترة الواقعة بين سقوط الطولونيين وتولية محمد بن طغج ، فهى الفترة التى بدأت فيها الغزوات الفاطمية على مصر ، ثم ساد الاضطراب وظهر ضعف الحكومة المركزية فى إقرار الأمن وفرض إرادتها على البلاد ، ولا سيما حين ظهر على مسرح السياسة المصرية محمد بن طغج بعد وفاة الوالى تكين .

وتحدثنا عن أسرة الماذرائيين التى نزح كثير من أفرادها الى مصر منذ بداية العصر الطولونى واستطاع بعضهم أن يصلوا الى الاشراف على تدبير الشئون المالية فى مصر ، وأن ينفذوا من تدبير هذه الشئون الى السيطرة على معظم مرافق الحياة فى البلاد . وقد رأينا أن الماذرائيين كان لهم الشأن الأول فى حكم البلاد وتدبير

أمورها فى عصر الاخشيديين وشرحنا المكانة الخطيرة التى كانت لهذه الأسرة فى الادارة المصرية بين عامى ٢٦٦ و ٣٤٥ ﻫ .

وتبين لنا أن تاريخ العصر الاخشيدى هو تاريخ محمد بن طغج مؤسس الدولة الاخشيدية ثم تاريخ كافور تابعه وتلميذه فى ميدان السياسة . ولم يكن ابن طغج إلا جنديا نابهاً من أولئك الجند الترك الذين حفل بذكرهم تاريخ الدولة العباسية منذ عصر الخليفة المعتصم ، والذين استطاع نفر منهم أن يشق لنفسه الطريق وأن يتحكم فى مصير بعض الأقاليم الإسلامية وأن يظهر إلى أى حد يمكن لحاكم قوى بشخصيته وعبقريته أن يفيد من الجيوش المؤلفة من العناصر المختلفة الجنس وأن يصل إلى السلطان السياسى والحربى فى إمبراطورية اتسعت أرجاؤها حتى أصبح من العسير على الخلفاء الضعفاء أن يحتفظوا بنفوذهم فيها .

وعرفنا أن محمد بن طغج نجح فى الاستيلاء على زمام الأمور بجهوده الشخصية لأن تقليد الخليفة لم يعد يكفى فى ذلك الوقت لتثبيت الوالى . وتحدثنا عن اتساع سلطانه وعن النزاع بينه وبين ابن رائق وعن محاولته جذب الخليفة للإقامة فى مصر لينتقل إليها مركز الخلافة العباسية وليتخلص الخليفة من وصاية أمير الأمراء والجند الترك فى بغداد .

وتبين لنا من المراجع التاريخية والسكة والطراز ، أن العلاقة بين الإخشيد والحكومة المركزية ظلت علاقة طيبة وأن الاخشيد لم يخرج على الخلافة كما خرج ابن طولون على الموفق صاحب الأمر فى حكومة المعتمد العباسى .

وهكذا تقلد الاخشيد أمر مصر والشام والثغور الشامية . أما تقليده الحجاز واليمن فقد انتهينا إلى أنه كان أمراً صوريا ورمزيا ، إذ أن حكم هذه البلاد كان بيد أسرات محلية ربما خضع أمراؤها خضوعا اسمياً للخلفاء العباسيين أو لمن يقلدهم أولئك الخلفاء حكم تلك البلاد .

وقد لاحظنا أن قتل ابن رائق واستقرار الحكم فى الشام للاخشيد ونجاحه فى تدعيم حكمه فى مصر ، كل ذلك يعتبر حداً فاصلا فى علاقته بالخلافة ، فقد أصبح

من القوة بحيث استطاع سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) أن يأخذ البيعة من قواده لابنه أونوجور . ثم أتيح له لقاء الخليفة فى الرقة وحصل منه على تقليد بحكم مصر ثلاثين سنة وإذن باستخلاف أونوجور .

وكان من أهم ما عرضنا له فى الكلام على خلفاء الاخشيد موضوع التكييف القانونى للفترة التى استقل فيها كافور بحكم مصر بعد وفاة على بن الاخشيد سنة ٣٥٥ هـ . ورجحنا أن كافوراً لم يسمح بذكر أحمد بن على بن الاخشيد فى الخطبة ، وأنه استقل بمصر ، ولكنه كان يشعر أنه غريب عن أسرة الاخشيد . ولعله كان يشعر بما نكاد نصل إليه من النصوص ، وهو أنه وسط بين الأمير الحاكم والوصى على العرش . فآثر أن يحتفظ بلقب « الأستاذ » حتى لا يصدم أهل الرأى فى البلد باغتصاب لقب الامارة إلى جانب اغتصابه السلطان ، فضلا عن أن مسألة وصول تقليد من الخليفة إليه ليست ثابتة تماماً .

وقد فصلنا الكلام على أمراء البيت الاخشيدى وعلى البلاط وكبار الموظفين فيه ، كما درسنا نظام الادارة فى مصر ممثلا فى الوظائف الرئيسية ، فتحدثنا عن الوزير والكاتب وولاة الأقاليم وصاحب الشرطة والعامل على الخراج وممثل الأمير فى بغداد وصاحب الطراز ومتولى دار الضرب وعن سائر الوظائف . وقد أفدنا فى هذا الميدان فائدة جليلة من المراجع المادية كأوراق البردى والسكة والطراز والكتابات الأثرية .

وتحدثنا عن القضاء والمظالم والحسبة ، وانتهينا إلى ملاحظات هامة بشأن منصب القاضى : أخطرها شأنا أن الرشوة كانت تدفع فى سبيل الوصول إليه أسوة بما كان يحدث حينذاك فى منصب القضاء فى مقر الخلافة نفسها ، حتى بطلت القاعدة التى تقول بأن طالب القضاء لا يولى ، وفقد منصب القضاء استقلاله ، وكان لا بد للقاضى من مداراة الأمير وطاعته ليستطيع الاحتفاظ بمنصبه .

وكان للمجتمع المصرى نصيب وافر من دراستنا فى هذا الكتاب ، فقد كتبنا عن طبقات المجتمع من الاشراف وعلية القوم وأهل الذمة وسواد الشعب والرقيق

وعن رجال الجيش والبحرية ، وعن الأعياد والحفلات ، وعن الأخلاق والعادات ، ومستوى المعيشة ، والسجون ، وعن مجالس الغناء والطرب والملابس والحمامات والزواج والرياضة . كما كتبنا عن استخراج الكنوز من الآثار المصرية القديمة ، وعن الزراعة والصناعة والتجارة والملاحة . واستطعنا أن نصل إلى بحوث جديدة وطريفة فى هذا الميدان الذى لا يزال يحتاج إلى عناية المؤرخين وجهودهم فى البحث . ولا شك أن الفضل فيما أصبنا من التوفيق يرجع إلى المراجع المادية ، ولا سيما أوراق البردى ، وإلى قراءة كثير من كتب الأدب وتقويم البلدان والرحلات ، فضلا عن الانتباه إلى كل دقيقة وصغيرة فى النصوص التاريخية التى وصلت إلينا .

ورأينا أن مصر فى عصر الاخشيديين كان لها نصيب وافر فى الحياة العقلية والفنية التى ازدهرت فى ديار الإسلام حينذاك . وإن يكن من العسير أن ننسب اليها طابعا خاصا فى هذا الميدان . ولا غرابة فى هذا اذا تذكرنا أن القومية فى العالم الإسلامى لم تكن قد وضحت معالمها فى العصور الوسطى .

وكان أهم ما وقفنا عنده فى الكلام على السياسة الداخلية فى العصر الاخشيدى السياسة المالية . واعتمدنا فى هذا الصدد على الوثائق البردية وعلى ما جاء فى المراجع التاريخية ، وقد رأينا أن الاخشيد أقبل على مصادرة ما كان يجمعه كبار الموظفين والأغنياء من الأموال ، ولعله كان يبرر ذلك بالرغبة فى سد نفقات الدولة والانفاق على الجيش ، ومعاقبة الموظفين الذين يرتشون أو يسيئون استعمال ما لوظائفهم من النفوذ والجاه .

وفى اعتقادنا أن الاخشيد وكافورا استطاعا القضاء على الفوضى واضطراب الأمن وما الى ذلك من القلاقل التى سادت فى مصر بعد سقوط الطولونيين ، كما أتيح لمصر أن تنعم على يدهما بقسط من الاستقرار والهدوء لم تنله أقاليم أخرى من ديار الإسلام فى القرن الرابع .

أما الشعب المصرى خلال هذا العصر فكان شعبا هادئا خاضعا ، يغلب على أفراده طابع الانصراف الى شئونهم الخاصة والعيش على هامش الحياة السياسية فى البلاد .

ولا عجب فإننا لا نكاد نجد بمصر فى ذلك العصر شعورا قوميا أو وطنيا ، إذ كان الشعب قد اعتاد أن يراقب عن كثب حكاما من خارج البلاد يفدون عليها بين حين وآخر ، ويجمعون للدفاع عنها جيوشا لم يكن للعنصر المصرى فيها الغلبة أو الشأن الأول . ولم يكن المصريون فى ذلك العصر يستطيعون أن يجمعوا أمرهم على شىء يفرضونه على حكومة البلاد ، ولم يكن أمام الحكومة رأى عام تحسب له أى حساب . وطبيعى أن قيام الدولة الطولونية والدولة الاخشيدية فى القرن الرابع لم يكن له صلة بشعور قومى أو وطنى ، كما كان لقيام الدويلات التى نزعت الى الاستقلال بإيران فى القرنين الثالث والرابع الهجرى .

المراجع العربية

الأبشيهى (محمد بن أحمد أبو الفتح)، توفى ٨٥٠ هـ — ١٤٤٦ م: «المستطرف فى كل فن مستظرف»، القاهرة ١٣٥٢هـ.

ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم)، ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٨ م: «الكامل فى التاريخ»، ١٢ جزءاً، بولاق ١٢٩٠ هـ.

أحمد أمين بك (الدكتور): «ظهر الاسلام» الجزء الأول، القاهرة ١٣٦٤ هـ/ ١٩٤٥ م.

أحمد تيمور باشا: «التصوير عند العرب» أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن، القاهرة ١٩٤٢ م.

أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات فى الاسلام، القاهرة ١٩٣٩ م.

الادريسى (محمد بن محمد بن عبد الله الشريف)، ت ٥٦٠ هـ/١١٦٤ — ١١٦٥ م «صفة المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» ليدن ١٨٦٤ — ١٨٦٦

الأدفوى (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على)، ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م: «الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد» مصر ١٣٣٢ هـ/١٩١٤ م.

ابن آدم القرشى (يحيى)، ت فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى: «كتاب الخراج» ليدن ١٨٩٥ — ١٨٩٦ م.

الأصطخرى (ابراهيم بن محمد)، ت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى: «كتاب مسالك الممالك» ليدن ١٩٢٧ م.

ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم)، ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م: «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» جزءان، القاهرة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ هـ.

ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد)، ت ٩٣٠ هـ/١٥٢٣ م:
١ — «كتاب تاريخ مصر» المعروف باسم «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ٣ أجزاء، بولاق ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٤ م.
٢ — «نشق الأزهار فى عجائب الأمصار» طبع قسما من الكتاب الاستاذ Langlès باريس ١٨٠٧ م.

البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبدالعزيز البكرى)، ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م: «المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب» طبع دى سلان، الجزائر ١٨٥٧ م.

البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المدينى)، ت بعد نيف وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة/ القرن العاشر الميلادى: «سيرة أحمد بن طولون» حققها وعلق عليها محمد كرد على، دمشق ١٣٥٨ هـ.

التنوخي (أبو علي المحسن بن أبي القاسم) ، ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م :
١ — « الفرج بعد الشدة » مصر ١٣٥٧ هـ .
٢ — « جامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » ، الجزء الأول ، طبع مصر سنة ١٩٢١ م . والجزء الثامن ، دمشق سنة ١٩٣٠ م .

الثعالبي (أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري) ، ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م :
١ — « يتيمة الدهر » ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٤ هـ .
٢ — « لطائف المعارف » ، طبع دي يونج ، ليدن ١٨٦٧ م .

جرومان (آدولف) : « أربع محاضرات عن الأوراق البردية العربيــة » تعريب الأستاذ توفيق اسكاروس ، القاهرة ١٩٣٠ م .

الجهشياري (أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي) ، ت ٣٣١ هـ / ٩٤٢م : « كتاب الوزراء والكتاب » حققه ووضع فهارسه الأساتذة مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣٨ م .

جورجي زيدان : « تاريخ آداب اللغة العربية » ٤ أجزاء ، الطبعة الثانية سنة ١٩٢٤ م .

ابن الجيعان (شرف الدين يحيي) ، ت ٨٨٥ هـ / ١٤٥١ م : « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » القاهرة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨ م .

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين بن علي) ، ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م : « رفع الاصر عن قضاة مصر» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٥

حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :
١ — « الفاطميون في مصر » القاهرة ١٩٣٢ م .
٢ — « كافور الاخشيدي » : مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول المجلد السادس . القاهرة مايو ١٩٤٢
٣ — « تاريخ الاسلام السياسي » : الجزء الثالث ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٤٩ م .

حسن ابراهيم حسن (الدكتور) والدكتور علي ابراهيم حسن : « النظم الأسلامية » القاهرة ١٩٣٩ م .

الحصري القيرواني (أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري) ، ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م : « زهر الاداب وثمر الالباب » طبعة الدكتور زكي مبارك ، القاهرة ١٩٢٥

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي) ، ت أواخر القرن ٤ هـ / أواخر القرن ١٠ م : « المسالك والممالك » ليدن ١٨٧٣ م .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربي) ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م :
١ — « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ٧ أجزاء ، القاهرة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٥
٢ — « المقدمة » القاهرة ١٢٤٨ هـ / ١٩٣٠ م .

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم) ، ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م : « وفيات الأعيان » جزءان ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .

خليل الظاهرى (غرس الدين بن شاهين) ، ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م : « زبدة كشف الممالك فى بيان الطرق والمسالك » طبعة Paul Ravaisse باريس ١٨٩٤ م .

ابن الداية (أبو جعفر أحمد بن يوسف) ، ت ٣٣٠ هـ أو ٣٤٠ هـ / ٩٤١ م أو ٩٥١ م :
١ — « سيرة أحمد بن طولون » نشرها فولرز فى فيمار سنة ١٨٩٥
٢ — « المكافأة » القاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م .

ابن دقماق (ابراهيم بن محمد المصرى) ، ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م : « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » الجزء الرابع والخامس ، بولاق ١٣٠٩ نشرة المستشرق فولرز Vollers .

الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد) ، ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ — ١٣٤٨ م مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ ، المجلد ١٦ حوادث من سنة ٣٠١ هـ إلى سنة ٥٠٠ هـ .

زكى مبارك (الدكتور) : « النثر الفنى فى القرن الرابع » جزءان ، القاهرة ١٩٣٤

زكى محمد حسن (الدكتور) :
١ — الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ، القاهرة ١٩٣٥ م .
٢ — كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ م .
٣ — مصر والحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٤٢ م .
٤ — الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٥ م .
٥ — فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ م .
٦ — دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى ، مجلة كلية الآداب ، المجلد ١٢ ج ١ مايو ١٩٥٠

ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن ابراهيم) ، ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م : « أخبار سيبويه المصرى » . نشره الأساتذة محمد ابراهيم سعد وحسين الديب ، الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .

ابن الزيات (شمس الدين أبو عبد الله) ، ٨١٤ هـ / ١٤١١ م : « الكواكب السيارة » ، المطبعة الأميرية بمصر (١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م) .

ساويرس (أسقف الاشمونين) . انظر ابن المقفع .

السبكى (تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب) ، ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م : « طبقات الشافعية الكبرى » ٦ أجزاء ، المطبعة الحسينية ١٣٢٤ هـ .

ابن سعيد (على بن موسى المغربى) ، ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م : « السفر الرابع من كتاب المغرب فى حلى المغرب » ليدن ١٨٩٩ م .

سعيد بن بطريق (أفتيشيوس) ، ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م : « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » جزءان ، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين فى بيروت ١٩٠٥ م .

السمعانى (أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعانى المروزى) ، ت ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م : « أنساب العرب » ليدن ١٩١٢ م .

السيوطى (جلال الدين) . ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م :
١ — « تاريخ الخلفاء » القاهرة ١٣٠٥ م .
٢ — « بغية الوعاه فى طبقات اللغويين والنحاه » القاهرة ، مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ .
٣ — « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » جزءان ، القاهرة ١٣٢١ هـ .

سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة) : « مصر فى فجر الاسلام » القاهرة ١٩٤٧ م .

ابن شاكر الكتبى (محمد بن احمد) ، ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م : « فوات الوفيات » جزءان ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .

ابن الشحنة (أبو الفضل محمد) ، ت ٨٩٠ / ١٤٨٥ م : « الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب » بيروت ١٩٠٩ م .

الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر) ، ت حوالى ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م : « كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » قام على نشره السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٤٦ م .

أبو صالح الأرمنى (أبو المكارم جرجس بن مسعود) ، ت أوائل القرن السابع الهجرى / أوائل الثالث عشر الميلادى : « تاريخ » المعروف بكنائس وأديرة مصر . طبعة Evetts اكسفورد ١٨٩٥ م .

الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك) ، ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م : « الوافى بالوفيات » الجزء الأول ، الآستانة ١٩٣١ م .

الصولى الشطرنجى (أبو بكر محمد بن يحيى) ، ت ٣٣٥ أو ٣٣٦ هـ/٩٤٦ أو ٩٤٧ م : « أخبار الراضى بالله والمتقى لله من كتاب الأوراق » نشره هيورث دن Heyworth Dunne . القاهرة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م .

ابن الصيرفى (أمين الدين أبو القاسم على بن منجب) ، ت ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م أو بعد سنة ٥٥٠ هـ/١١٥٥ م : « الاشارة إلى من نال الوزارة » طبع مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية سنة ١٩٢٤ م .

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) ، ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م : « تاريخ الأمم والملوك » ١١ جزءا ، الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية بمصر .

ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا) ، أتم كتابه فى سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠١ م : «الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٧ م

طه حسين بك (الدكتور) : « مع المتنبى » جزءان ، القاهرة ١٩٣٦ م .

ابن ظافر الأزدى المصرى (جمال الدين على) ، ت ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٥ م : « كتاب الدول المنقطعة » صورة شمسية محفوظة فى دار الكتب المصرية لجزء من مخطوطة المتحف البريطانى (دار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ) ونقل وستنفلد جزءا من مخطوطة غوطا (رقم ٢٤٥) وطبعه فى كتاب Die Statthalter von Ägypten Zur Zeit der Chalifen .

ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله)، ت ٢٥٧ هـ/ ٨٧٠ — ٨٧١ م : « فتوح مصر وأخبارها » طبعة تورى Torrey نيوهافن ١٩٢٢ م .

عبد اللطيف البغدادى (الشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف المعروف بابن اللباد)، ت ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١ م : « عبد اللطيف البغدادى فى مصر » وهو الكتاب المعروف باسم « الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » طبعة المجلة الجديدة (سلامه موسى) .

ابن العبرى (أبو الفرج بن هرون الملطى)، ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م : « تاريخ مختصر الدول » مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٨٩٠ م .

ابن العديم الحلبي (كمال الدين أبو حفص أو أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله والمعروف بابن أبى جرادة)، ت ٦٦٠ هـ/ ١٣٦١ — ١٢٦٢ م : « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » نشر جزء منه الاستاذ Canard فى الفصل الخامس من كتابه Sayf al-Daula .

ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد)، ت فى أواخر القرن السابع الهجرى / أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادى : « البيان المغرب فى أخبار المغرب » طبعة الاستاذ Dozy ليدن، الجزء الاول ١٨٤٨ والجزء الثانى ١٨٤٩ — ١٨٥١ م .

عريب بن سعد القرطبى . ت ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م : «صلة تاريخ الطبرى» الجزء الثانى عشر من كتاب تاريخ الأمم والملوك « للطبرى » الطبعة الأولى بمطبعة الحسينية بمصر .

ابن عساكر (أبو القاسم على بن أبى محمد الحسن بن هبة الله بن عساكر الشافعى الدمشقى الملقب ثقة الدين)، ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م : « التاريخ الكبير » ٥ أجزاء، دمشق ١٣٢٩ — ١٣٣٢ هـ .

على ابراهيم حسن (الدكتور) : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٤٤ م .

على بك بهجت والبير جبرييل : حفريات الفسطاط، القاهرة ١٩٢٨ م .

على مبارك باشا : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة » ٢٠ جزءا بولاق ١٣٠٦ هـ .

ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى بن احمد بن محمد الصالحى)، ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٩ م : « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ٨ أجزاء، القاهرة ١٣٥٠ — ١٣٥١ هـ .

الأمير عمر طوسون : « مالية مصر من عهد الفراعنة الى الآن » الاسكندرية سنة ١٩٣١ م .

العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله)، ت ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م : «التعريف بالمصطلح الشريف» القاهرة ١٣١٢ هـ .

ابن العميد (الشيخ المكين جرجس بن العميد بن الياس)، ت ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م : « تاريخ المسلمين » ليدن ١٦٢٥ م .

العينى (بدر الدين محمود)، ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م : « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » الجزء الثالث عشر من سنة ٢٧٩ هـ إلى آخر سنة ٣٣٠ هـ، والجزء الرابع عشر من سنة ٣٣١ هـ إلى آخر سنة ٤٣٠ هـ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٧٥٨٤ تاريخ) .

الغزولى (علاء الدين على بن عبد الله البهائى الغزولى الدمشقى) ، ت ٨١٥ هـ/ ١٤١٢ م : « مطالع البدور فى منازل السرور » جزءان ، الطبعة الأولى ، مصر ١٢٩٩ — ١٣٠٠ م .

أبو الفدا (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماة) ، ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ — ١٣٣٢ م : « المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

أبو فراس الحمدانى (الحارث بن سعيد بن حمدان) ، ت ٣٥٧ هـ/ ٩٦٨ م : « ديوان أبى فراس الحمدانى » عنى بجمعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع فهارسه الدكتور سامى الدهان . بيروت ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م .

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى) ، ت أواخر القرن الثالث الهجرى/ أوائل العاشر الميلادى : « مختصر كتاب البلدان » ليدن ١٨٨٥ م .

قدامة بن جعفر ، ت ٣١٠ هـ أو ٣٢٠ هـ أو ٣٣٧ هـ/ ٩٢٢ م أو ٩٣٢ م أو ٩٤٩ م : « نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة » الجزء السادس من المكتبة الجغرافية ١٨٨٩ م .

القلقشندى (شهاب الدين أبو العباس احمد بن على) ، ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م : « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ١٤ جزءا ، المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩ م .

الكاسانى أو الكاشانى (علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الملقب بملك العلماء) ، ت ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م : « بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع » ٧ أجزاء ، الجزء الاول والثانى مطبعة شركة المطبوعات العلمية ١٣٢٧ هـ والجزء الثالث الى السابع مطبعة الجمالية ١٣٢٨ هـ .

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى) ، ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م : « البداية والنهاية » ١٤ جزءاً ، مطبعة السعادة بالقاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢ م .

الكرملى (الأب أنستاس) : « النقود العربية وعلم النميات » القاهرة ١٩٣٩ م .

كشاجم (أبو الفتح محمود بن الحسين بن شاهق أو شاهك) ، ت ٣٥٠ أو ٣٦٠ هـ/ ٩٦١ أو ٩٧٠ م : « ديوان كشاجم » بيروت ١٣١٣ هـ .

الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف) ، ت ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م : « كتاب الولاة وكتاب القضاة » ليدن وبيروت ١٩٠٨ — ١٩١٢ م .

الأب لويس شيخو اليسوعى : « هلال الصابى وتآليفه » ، (مجلة الشرق ، السنة السادسة . بيروت سنة ١٩٠٣ م) .

الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب) ، ت ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م :

١ — « الاحكام السلطانية » القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٢ — « أدب الوزير » المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك ، القاهرة ١٣٤٨ هـ/ ١٩٢٩ م

المتنبى (ابو الطيب) ، ت ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م :

١ — « ديوان » بيروت ١٩٠٠ م .

٢ — القصائد المصريات الكافوريات ، فى ديوانه طبعة ديتريش فى برلين سنة ١٨٦١

أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩ — ١٤٧٠ م : « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ١٠ أجزاء ، طبعـــة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م — ١٩٤٩ م .

محمد جمال الدين سرور (الدكتور) : « الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره » القاهرة ١٩٣٨

محمد كامل حسين (الدكتور) : « فى الأدب المصرى الاسلامى من الفتح الاسلامى الى دخول الفاطميين » القاهرة ١٩٣٩ م .

محمد كامل مرسى باشا (الدكتور) : « الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن » ، القاهرة ١٩٣٦ م .

محمد كرد على : « خطط الشام » ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٥ — ١٩٢٨

محمد مصطفى زيادة (الدكتور) : « بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر » مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول المجلد الرابع ، الجزء الأول ، القاهرة سنة ١٩٣٨

المراكشى (أبو محمد عبد الواحد بن على ، محيى الدين) ، ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ — ١٢٧١ م : « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » طبعة دوزى . ليدن ١٨٨١

مسكويه (أبو على احمد بن محمد بن يعقوب) ، ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م : « تجارب الأمم وتعاقب الهمم » الجزء الأول ، ليدن ١٩٠٩ م ، والجزء الخامس والسادس مطبعة شركة التمدن بمصر ، ١٣٣٢ و ١٣٣٣ هـ — ١٩١٤ و ١٩١٥ م .

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) ، ت ٣٤٥ أو ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ أو ٩٥٧ م :

١ — « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ٩ أجزاء ، باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧ م .

٢ — « كتاب التنبيه والاشراف » القاهرة ١٩٣٨ م .

المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله) ، من علماء النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، أو النصف الأخير من القرن العاشر الميلادى : « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ليدن ١٨٨٧م .

المقريزى (تقى الدين) ، ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ — ١٤٤٢ م :

١ — « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » جزءان ، بولاق ١٢٧٠ هـ نشر الأستاذ جاستون ڤييت جانبا من الجزء الأول (طبعة بولاق) فى أربعة مجلدات فى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة ، (القاهرة ١٩١١ — ١٩٢٤ م) .

٢ — « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » نشره الدكتور جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٤٨ م .

٣ — « التاريخ الكبير المقفى (نقل جزءا منه جوتشلك فى رسالته عن الماذرائيين ، برلين — ليبزج ١٩٣١ م) .

٤ — « كتاب النقود القديمة الاسلامية (نشره الأب أنستاس مارى الكرملى فى كتابه النقود العربية وعلم النميّات) .

٥ — « اغاثة الامة بكشف الغمة » نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٤٠ م .

ابن المقفع (ساويرس أسقف الاشمونين) ، ت أواخر القرن ٤ هـ/ أواخر القرن ١٠ م :
« سير الآباء البطاركة » الجزء الاول والخامس والعاشر من مجموعة Patrologia Orientalis ،
باريس ١٩٠٧و١٩١٠و١٩١٥، والمجلد الثانى (مطبوعات جمعية الآثار القبطية ، القاهرة ١٩٤٨ م

المسكين : انظر ابن العميد .

ابن مماتى (أبو المكارم أسعد بن مهذب بن مينا) ، ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م : « كتاب قوانين الدواوين» نشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ م .

ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف بن جامب) ، ت ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م : « أخبار مصر » الجزء الثانى فقط ، طبع فى المعهد العلمى الفرنسى وصححه الاستاذ هنرى ماسيه . القاهرة ١٩١٩ م .

ابن النديم (محمد بن اسحاق) ، ت نحو ٣٨٥ هـ/ نحو ٩٩٥م : « الفهرست » ليبزج ١٨٧١
النواجى (شمس الدين محمد بن الحسن) ، ت٨٥٩ هـ/ ١٤٥٥ م : « حلبة الكميت » القاهرة١٢٩٩ هـ .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ، ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م : « نهاية الأرب فى فنون الأدب » المطبوع منه ١٥ جزءاً ، الطبعة الأولى بدار الكتب المصرية .

هلال الصابى (أبو الحسن أو أبو الحسين هلال بن المحسن بن أبى إسحق إبراهيم) ، ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦م:
« تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » نشرة Amedroz بيروت ليدن ١٩٠٤ م .

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى) ، ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م :

١ — « معجم الأدباء » أو « ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب » أو « ارشاد الألباء إلى معرفة الادباء » ٢٠ جزءاً ، القاهرة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م .
٢ — « معجم البلدان » ٨ أجزاء . القاهرة ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٦ م .

يحيى بن سعيد الانطاكى ، ت ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٦ م : « تاريخ » أو صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» بيروت . مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٥ م .

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) ، ت ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م : «كتاب البلدان » (الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) ليدن ١٧٩٢ م .

أبو يوسف (يعقوب صاحب أبى حنيفة) ، ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م : « كتاب الخراج » بولاق ١٣٠٢ م .

المراجع الأفرنجية

ALI BEY BAHGAT . . . . . . Les Manufactures d'Etoffe en Egypte au Moyen Age. (Bulletin de l'Institut Egyptien. Quatrième Série, Avril 1903, Le Caire 1903).

ALI MOHAMED FAHMY . . . . Muslim Sea-Power in the East Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century A.D. (Alexandria 1950).

AMEDROZ (H.F.) . . . . . . The Office of Kadi (Journal of the Royal Asiatic Society, 1910, p. 779 & seq.).

ARBERRY (A. J.) . . . . An Introduction to the History of Sufism. London 1943.

ARNOLD (Th.) . . . . The Caliphate. Oxford 1924.

ARNOLD (Th.) and GROHMANN (A.) The Islamic Book. London 1929.

BAYNES (Norman H.) and MOSS . Byzantium. Oxford 1949.

BECKER (C. H.) . . . . Islamstudien, Vom Werden und Wesen der islamischen Welt, 1 Band (Leipzig 1924).

— . . . . Beiträge Zur Geschichte Ägyptens unter dem Islam (Strassburg 1902-1903).

— . . . . Art. Egypt (The Encyclopædia of Islam) vol. II. Leyden-London 1927.

BERCHEM (Max Van) . . . . . Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum : première partie, Egypte, Paris 1903.

BERG (Van den) . . . . Principes du Droit Musulman. Alger 1896.

BOWEN (H.) . . . . The Life and Times of Ali ibn Isa, "the Good Vizier". Cambridge 1928.

BROCKELMANN (Carl) . . . . . Geschichte der Arabischer Litteratur, 2 vols. Weimar, Berlin 1898-1902, & Supplementband, Leiden 1937-1938.

BROCKELMANN (C.) . . . . . History of the Islamic Peoples. London 1949.

نقله الى العربية بعنوان « تاريخ الشعوب الاسلامية » الدكتور نبيه أمين فارس والاستاذ منير البعلبكي . بيروت . دار العلم للملايين ١٩٤٨ — ١٩٤٩ م

BROWNE (E. G.) . . . . A Volume of Oriental Studies presented to Edward Browne on his 60th Birthday. Ed. by T.W. Arnold and R.A. Nicholson. Cambridge 1922.

CANARD (Marius) . . . . Sayf al Daula. Alger 1934.

CARRA DE VAUX . . . . Les Penseurs de l'Islam. Paris 1921-1926.

CODRINGTON (O.) . . . . A Manual of Musulman Numismatics (London 1904).

COMBE (Et.), SAUVAGET (J.) et WIET (G.). Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. Tome Cinquième, Le Caire 1934.

Comité de Conservation des Monuments de l'Art Arabe, Exercice 1904.

CRESWELL (K. A. C.) . . . . . . Early Muslim Architecture (Umayyads, Abbassids and Tulunids). 2 vols. Oxford 1932-1940.

DEFRÊMERY . . . . Mémoire sur les Emirs-el-Oumara (dans Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. 1re série. 1. 11. Paris 1852).

DE SACY (Silvestre) . . . . . . Bibliothèque des Arabisants Français. Tome premier, Le Caire 1905.

DOZY (R.) . . . . Supplément aux Dictionnaires Arabes. 2 vols. Leyden 1881.

— . . . . Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes. Amsterdam 1845.

DRIOTON (Etienne) et VANDIER (Jacques) L'Egypte (dans Les Peuples de l'Orient Méditerranéen, t.11). Paris 1938.

FARIS (N. A.) . . . . The Arab Heritage. Princeton 1944.

FRANZ (J.) . . . . Kairo 1903.

FLURY (S.) . . . . Ein Stuckmihrab des IV. (X) Jahrhunderts. (Jahrbuch der Asiatischen Kunst, II, 1925).

GAUDEFROY-DEMOMBYNES (M.) . Le Monde Musulman (Histoire du Monde, VII, 1). Paris 1931.

GOTTSCHALK, (HANS) . . . . Die Madaraijjun. (Berlin und Leipzig 1931).

GROHMANN (Adolf) . . . . . Arabic Papyri in the Egyptian Library vols. I, II, III. Cairo 1934, 1936, 1938.

الجزء الأول نقله الأستاذ ادواف جرومان إلى العربية بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن بعنوان « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » القاهرة ١٩٣٤ م .

GROHMANN (A.) . . . . Art. Tiraz (in Encyclopædia of Islam).

GRUNEBAUM (G. E. Von) . . . . Medieval Islam. Chicago, Illinois, 1947.

HASSAN IBRAHIM HASSAN . . Relations between Egypt and the Caliphate. Cairo 1940.

HEFFENING (W.) . . . . Art. Shāhid (Encyclopædia of Islam).

HERZ BEY (MAX) . . . . : Catalogue Raisonné des monuments exposés dans le Musée National de l'Art Arabe. Le Caire 1906.

ترجمه على بك بهجت بعنوان : فهرس مقتنيات دار الآثار العربية ، المطبعة الأميرية بمصر ١٣٢٧ هـ .

HEYD . . . . Histoire du commerce du Levant au Moyen Age 2 vols. Leipzig 1885-1886.

HITTI (Ph.) . . . . History of the Arabs. London 1946.

HUART (Cl.) . . . . Histoire des Arabes, 2 vols. Paris 1912.

IBN SAID-VOLLERS . . . . . Fragments aus dem Mughrib. Weimar 1895.

ظهرت له ترجمتان باللغة العربية .

KREMER (A.V.) . . . . Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen. 2 Bände (Wien 1875-77).

KÜHNEL (E) . . . . Islamische Schriftkunst. Berlin.

LANE-POOLE (Stanley) . . . . . Catalogue of Oriental Coins in the British Museum. London 1875-1890.

— . . . . . History of Egypt in the Middle Ages. London 1900.

— . . . . . The Mohammadan Dynasties. London 1925.

LEVY (R.) . . . . An Introduction to the Sociology of Islam, 2 vols. London 1931-1933.

LAVOIX (Henri) . . . . Catalogue des Monnaies Musulmanes. Paris 1896.

LÉVI-PROVENÇAL (E.) . . . . . Le Traité d'Ibn Abdun. (Journal Asiatique. Avril-Juin 1934).

MACDONALD (D. B.) . . . . . . : Muslim Theory, Jurisprudence and Constitutional Theory. London 1903.

MARCEL . . . . : Egypte, depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination Française. Paris 1848.

MASSIGNON (L.) . . . . : Article Karmates (Encyclopædia of Islam).

— . . . . : Annuaire du Monde Musulman. Paris 1925.

MAYER (L. A) . . . . : Bibliography of Moslem Numismatics, India Excepted. London 1939.

MERCIER (Louis) . . . . : La Chasse et les Sports chez les Arabes. Paris 1927.

MEZ (Adam) . . . . : Die Renaissance des Islams. Heidelberg 1922.

نقله إلى العربية فى جزأين . الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٠ م .

MINORSKY (V.) . . . . Tadkkirat al-Mulûk. A Manual of Safavid Administration. London 1943.

MUIR (William) . . . . : The Caliphate: Its Rise, Decline, and Fall. Edinburgh 1915.

NICHOLSON (R. L.) . . . . : Studies in Islamic Mysticism. Cambridge 1921.

نقل الأستاذ الدكتور على أبو العلا عفيفى إلى العربية طائفة من الدراسات التى قام بها نيكولسون ونشرت فى القاهرة سنة ١٩٤٧ بعنوان : « فى التصوف الاسلامى وتاريخه » .

NUTZEL (H). . . . . Königlische Museen Zu Berlin: Katalog der Orientalischen Münzen. Berlin 1898.

OMAR TOUSSON (Le Prince) . . Mémoire sur l'histoire du Nil (Mémoires de l'Institut d'Egypte, tomes VIII, IX, X). Le Caire 1925.

— . . La Géographie de l'Egypte Arabe, Tome Premier. Le Caire 1926.

Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung. Wien 1894.

PAUTY (Edmond) . . . . Bois sculptés d'Eglises Coptes. Le Caire 1930.

— . . . . Les bois sculptés jusqu' à l'époque Ayyoubide. Catalogue du Musée Arabe. Le Caire 1931.

PEDERSEN (J.) . . . . Art. Masdjid (Encyclopaedia of Islam, vol. III). Leiden. London 1936.

Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe T. V. Le Caire 1934. Voir Combe.

RABINO DI BORGOMALE (H.L.) . Coins and seals of Shahs of Iran. Hertford 1945.

ROSS (E. Denison) . . . . The Art of Egypt through the Ages. London 1931.

SNOUCK HURGRONJE (C.) . . . Mekka 2 Bd. Haag 1888-1889.

STRZYGOWSKI (J.) . . . . Asiens bildende Kunst. Wien 1930.

TORNBERG (C. J.) . . . . . . Mémoires sur les Monnaies des Ikhschidites (dans Nova Acta Regiae Societatis scientiarum Upsaliensis, 3ème Série, vol. II).

TRIMINGHAM (J. SPENCER) : . Islam in the Sudan. Oxford 1949.

TRITTON (A. S.) . . . . The Caliphs and their non-Muslim subjects. Oxford 1930.

ترجمه وعلق عليه الأستاذ حسن حبشى بعنوان « أهل الذمة فى الاسلام » القاهرة ١٩٤٩ م .

TYAN (E.) . . . . Histoire de l'organisation judiciaire en pays de l'Islam. Paris 1938.

WEILL (J. D.) . . . . Les Bois à Epigraphes jusqu'à l'Epoque Mamlouke. Catalogue du Musée Arabe. Le Caire 1931.

WIET (G.) . . . . The Governors and Judges of Egypt (Journal of the Royal Asiatic Society), July 1914.

— . . . . L'Historien Abul-Mahssin. Bulletin de l'Institut d'Egypte. T. XII. 1929-1930.

— . . . . Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicrum, T. II Egypte. Le Caire 1930.

— . . . . Catalogue général du Musée Arabe du Caire. Stèles Funéraires, T. V. Le Caire 1937.

— . . . . Les Mosquées du Caire. 2 vols. Paris 1932.

— . . . . Notes d'Epigraphie Syro-Musulmane, (dans Syria). T. VII.

— . . . . L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV).

— . . . . L'Egypte Musulmane (Précis de l'histoire d'Egypte, T. II). Le Caire 1932.

— . . . . Trois Formules d'Indépendance dans l'Egypte Médiévale. Le Caire 1942.

— . . . . Les Communications en Egypte du Moyen Age.

نقلها إلى العربية محمد وهي بعنوان « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » ونشرت فى كتاب « فى مصر الاسلامية » أخرجه الدكتور زكى محمد حسن والقائمقام عبد الرحمن زكى .

WUSTENFELD (F.) . . . . . . Die Statthalter von Agypten Zur Zeit der Chalifen. Gottingen 1875.

VONDERHEYDEN (M.) . . . . La Berbérie Orientale sous la dynastie des Benoû'L-Aṛlabe. Paris 1927.

ZAKY MUBARAK . . . . . La Prose Arabe au IVe siècle. Paris 1931.

ZAKY MOHAMED HASSAN . . . Les Tulunides. Paris 1933.

— . . . Hunting as practised in Arab Countries of the Middle Ages. Cairo 1937.

— . . . Moslim Egypt and its Contribution to Islamic Civilisation (Bulletin of the Faculty of Arts, Fouad I University, vol. XI, Part II,Dec. 1949. Cairo).

— . . . Moslem Arts in the Fouad I University Museum, vol. I, Cairo 1950.

ZAMBAUR (E. de) . . . . Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'histoire de l'Islam. Hannover 1927.

تنشر جامعة فؤاد الأول ترجمة عربية لهذا الكتاب ، أخرجها (الدكتور زكى محمد حسن والأستاذ حسن أحمد محمود) .

ZETTERSTEEN (K.V.) . . . . . Article Shurta (Encyclopædia of Islam).

فهرس الأشكال واللوحات

اللوحة رقم ١١ : قطعة نسيج من الصوف والكتان ، من صناعة مصر فى القرن الرابع الهجرى ومحفوظة بدار الآثار العربية [عن ڤييت : معرض المنسوجات فى جوبلان بالفرنسية]

اللوحة رقم ١٢ : قطعة من النسيج المصنوع فى مصر سنة ٣٥٧ ه

اللوحة رقم ١٣ : قطعة نسيج من الكتان والصوف من صناعة الفيوم فى القرن الثالث أو الرابع بعد الهجرة [عن زكى محمد حسن : فنون الاسلام]

اللوحة رقم ١٤ : قطعة نسيج من صناعة اليمن فى القرن الثالث أو الرابع الهجرى .

اللوحة رقم ١٥ : قطعتان من الخشب ذى الزخارف والكتابات المحفورة ، من مصر فى القرن الثالث أو الرابع بعد الهجرة [عن زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر]

اللوحة رقم ١٦ : قطعة من الخشب ذى الزخارف المحفورة ، من مصر فى القرن الرابع الهجرى [عن زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر]

الكشاف

(ت)

(خ)

(د)

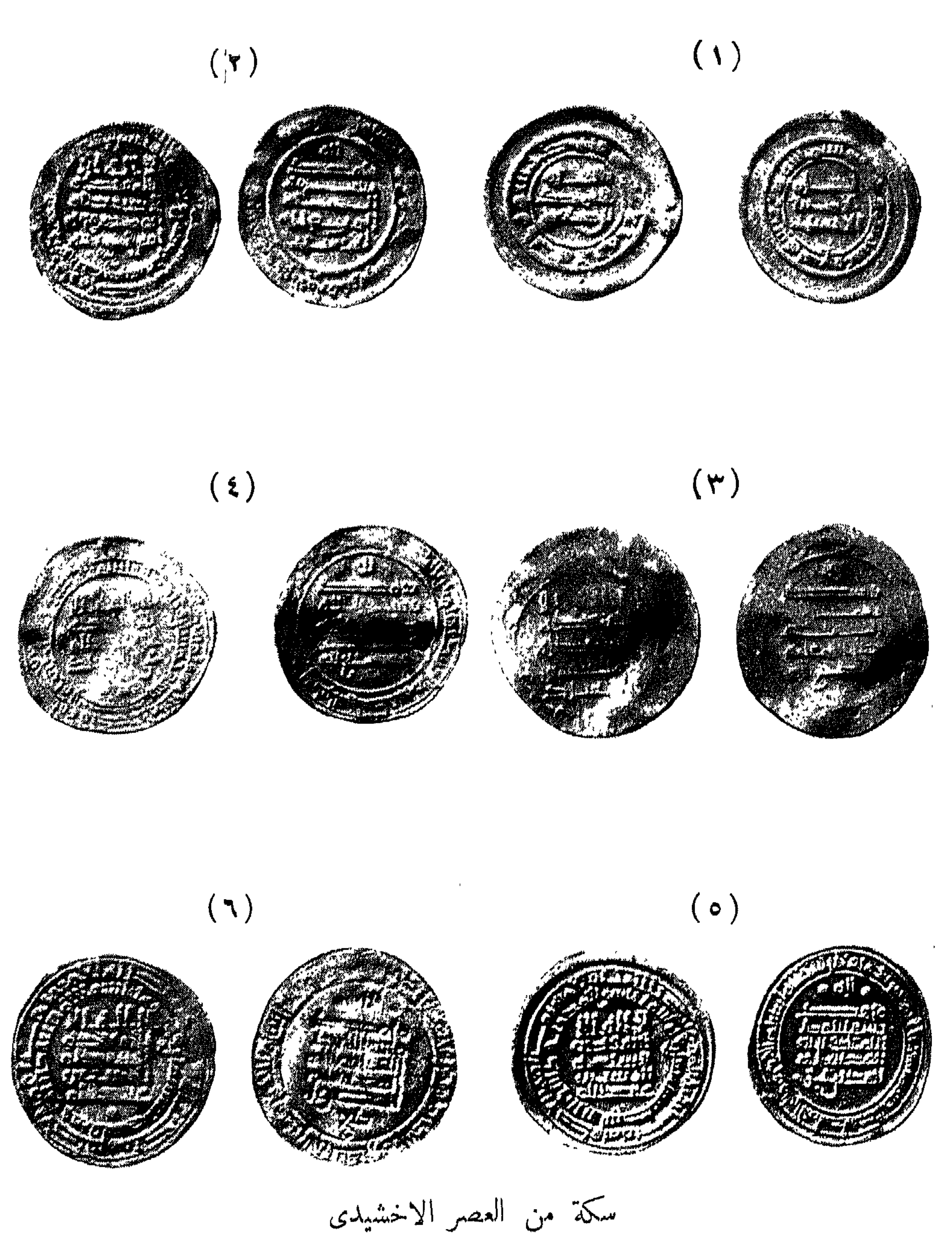
(ذ)

(س)

(ش)

(ص)

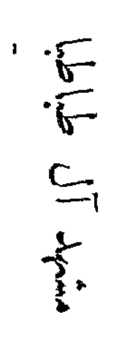
اللوحة رقم ١



سكة من العصر الاخشيدى

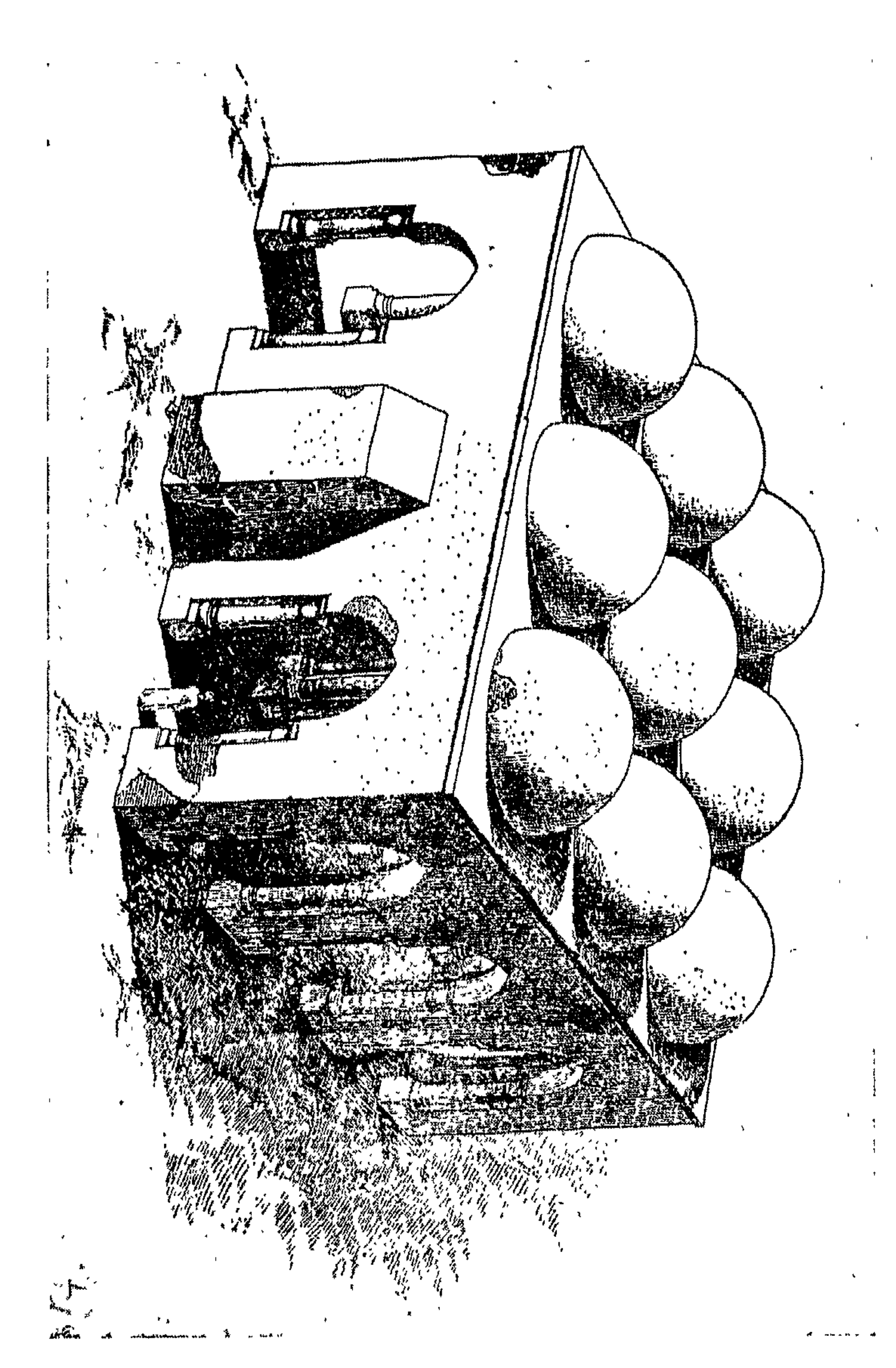
[عن لاڤوا]

اللوحة رقم ٢



مشهد آل طباطبا

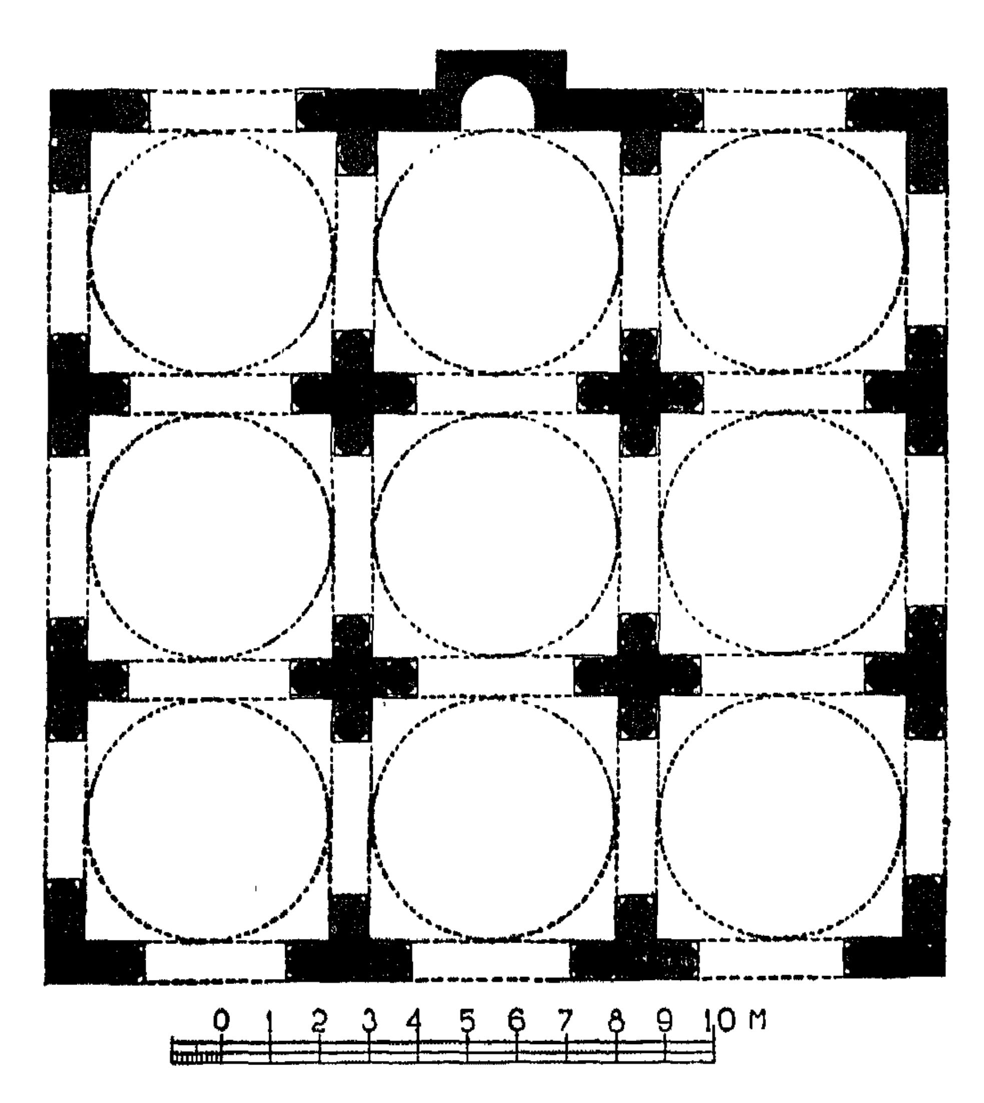
اللوحة رقم ٣



رسم هيكل لمشهد آل طباطبا

[عن كريزويل : العمارة الاسلامية فى مصر ، تحت الطبع]

اللوحة رقم ٤



مسقط أفقي لمشهد آل طباطبا

[عن كريزويل : العمارة الاسلامية ، تحت الطبع]

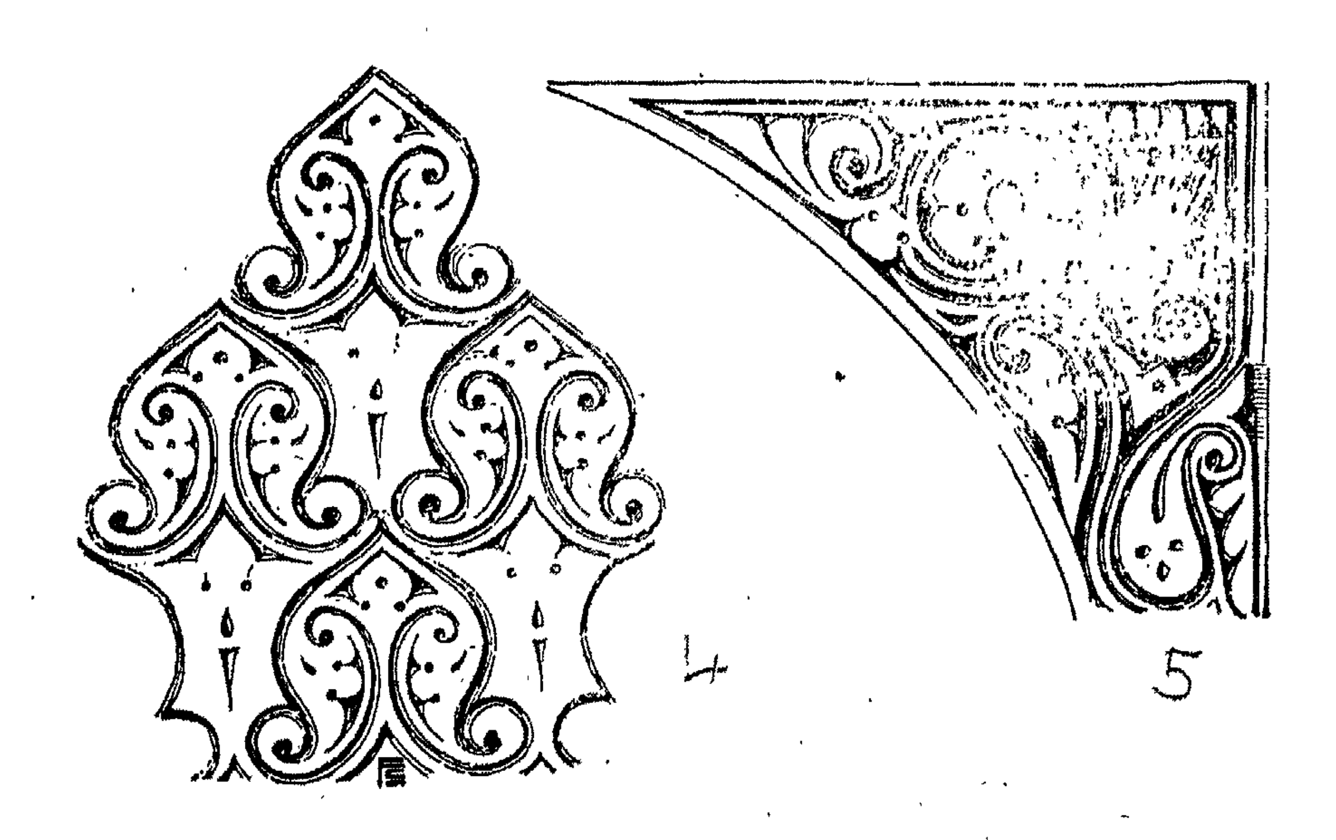
اللوحة رقم ٥



محراب قديم ينسب إلى العصر الاخشيدى

[عن كريزويل : العمارة الاسلامية فى مصر ، تحت الطبع]

اللوحة رقم ٦





زخارف من الجص فى محراب قديم ينسب إلى العصر الاخشيدى

[عن كريزويل ، العمارة الاسلامية فى مصر ، تحت الطبع]

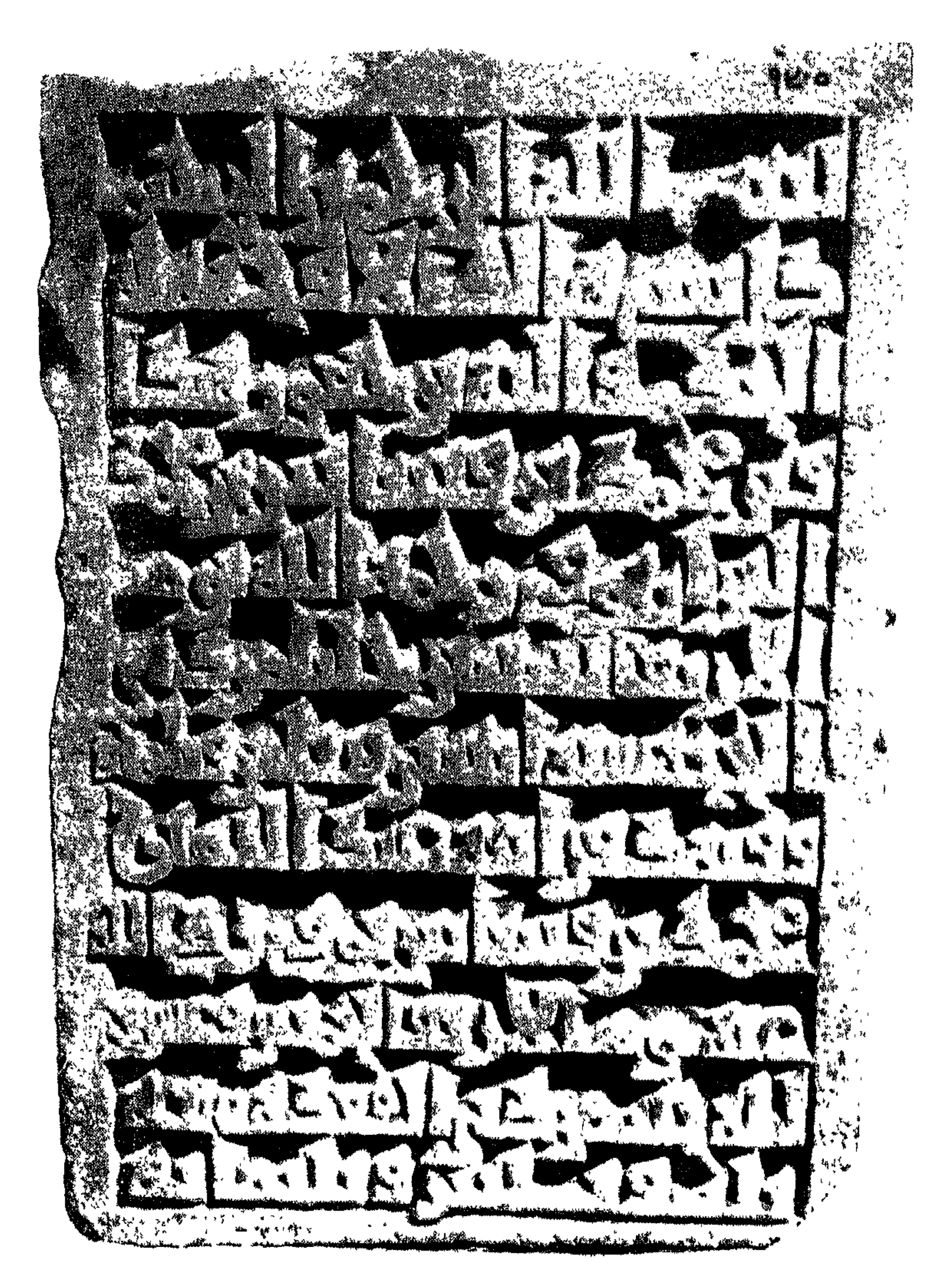
اللوحة رقم ٧



شاهد قبر من سنة ٣٣٢ هـ . محفوظ بدار الآثار العربية

[عن ڤييت]

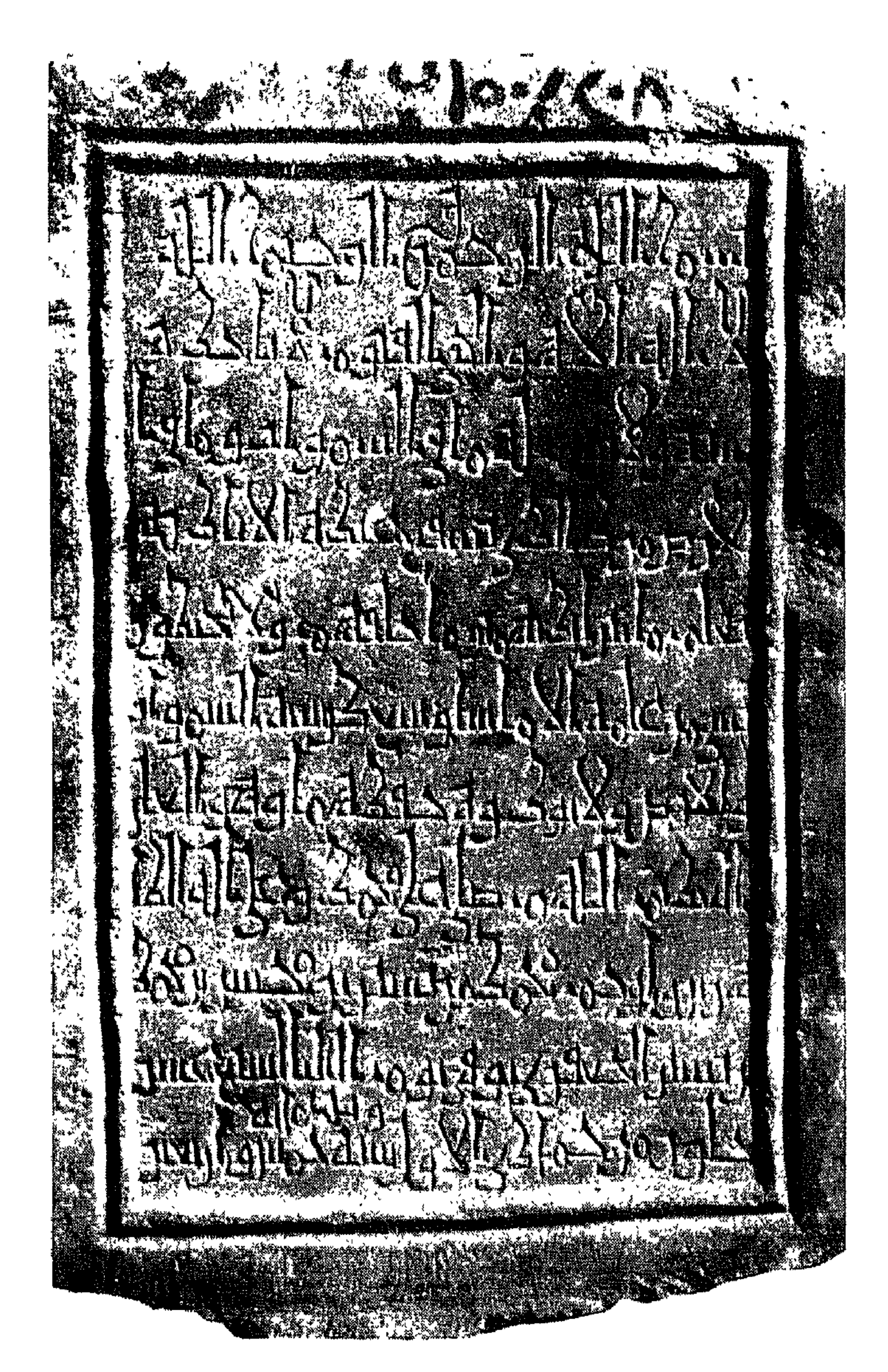
اللوحة رقم ٨



شاهد قبر من سنة ٣٣٣ هـ . محفوظ بدار الآثار العربية

[عن ڤييت]

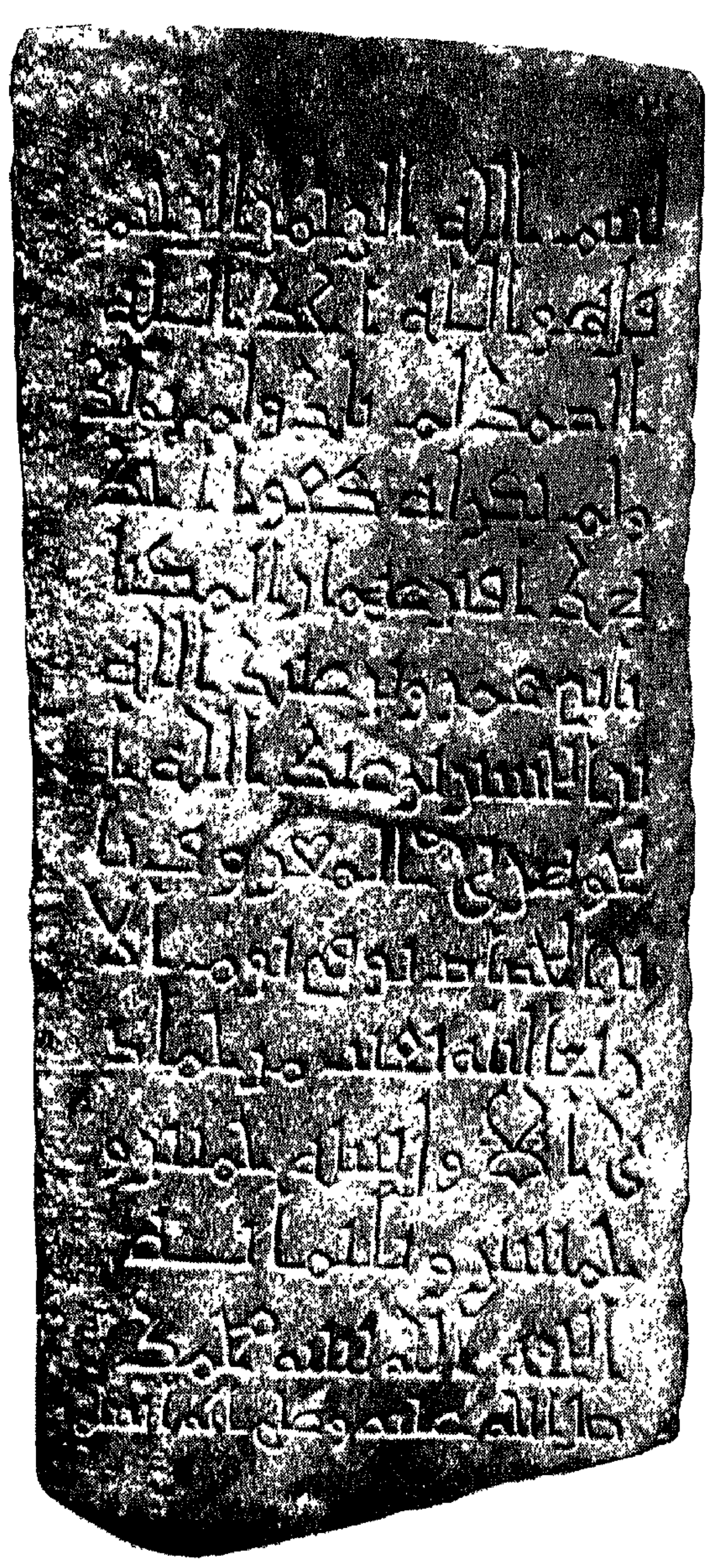
اللوحة رقم ٩



شاهد قبر من سنة ٣٤٥ هـ . محفوظ بدار الآثار العربية

[عن ڤييت]

اللوحة رقم ١٠



شاهد قبر من سنة ٣٥٥ هـ . محفوظ بدار الآثار العربية

[عن ڤييت]

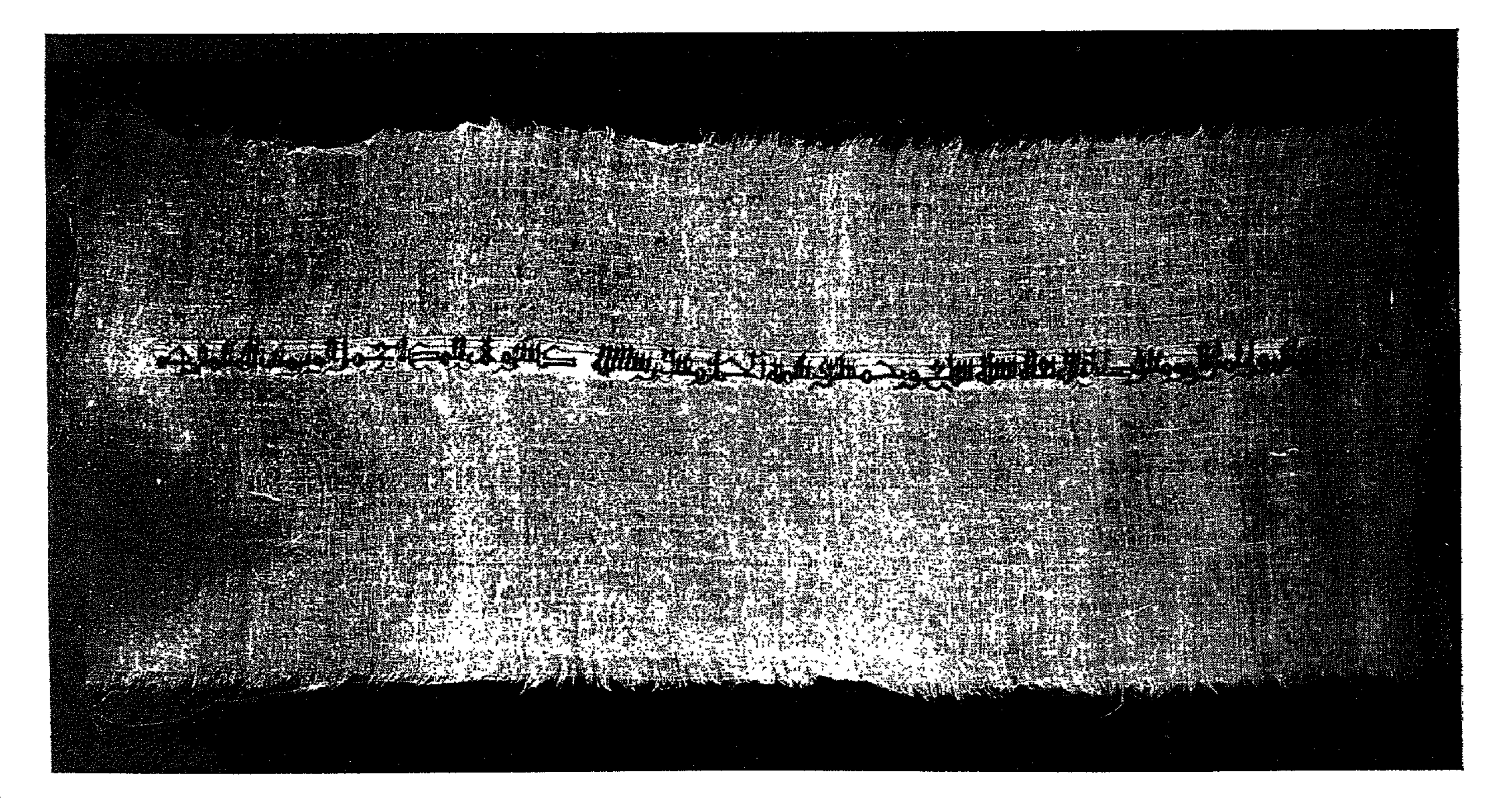
اللوحة رقم ١١



قطعة نسيج من الصوف والكتان ، من صناعة مصر في القرن الرابع الهجري ومحفوظة بدار الآثار العربية

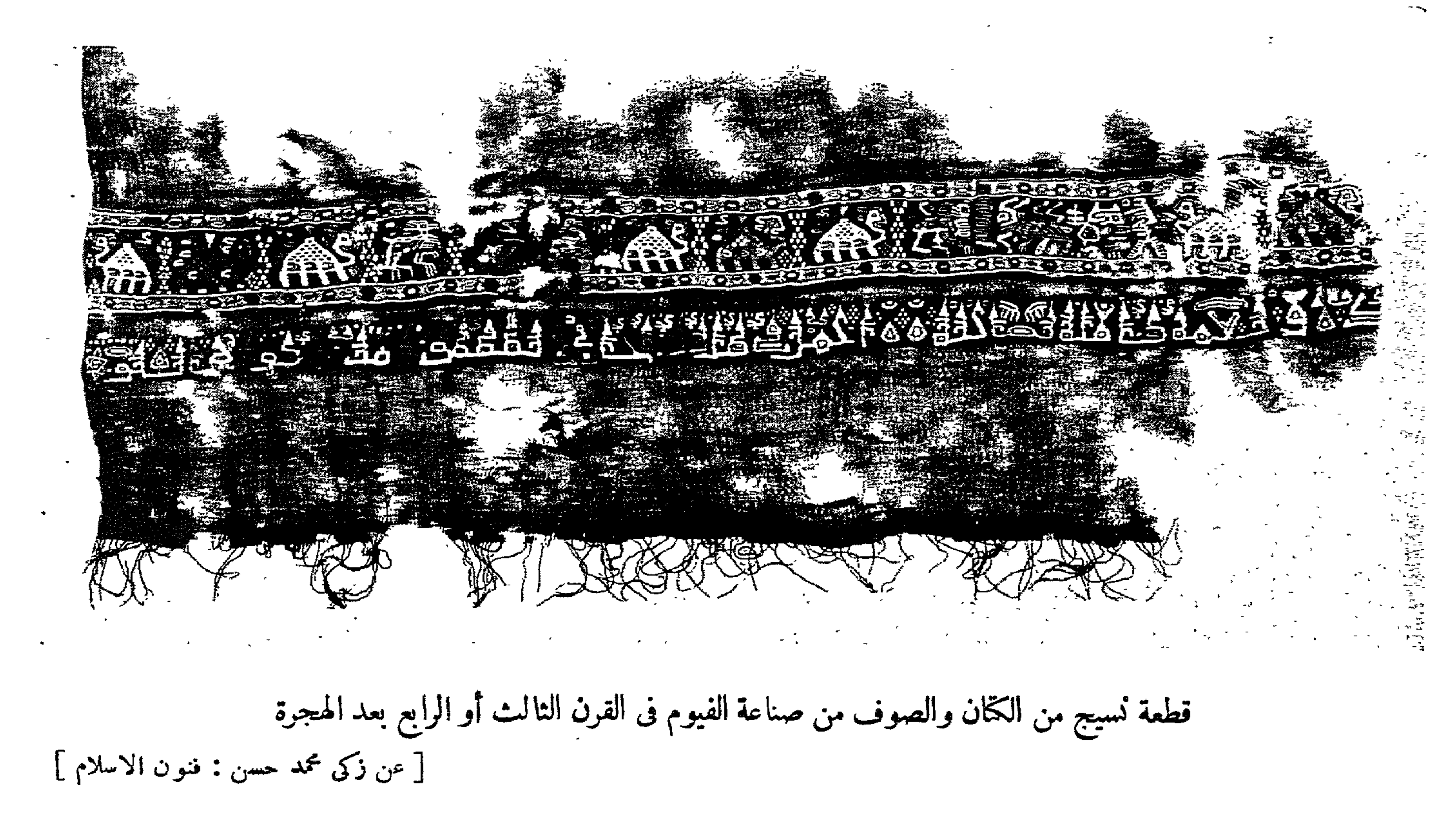
[عن فييت : معرض المنسوجات في جوبلان ، بالفرنسية]

اللوحة رقم ١٢



قطعة من النسيج المصنوع فى مصر سنة ٣٥٧ هـ

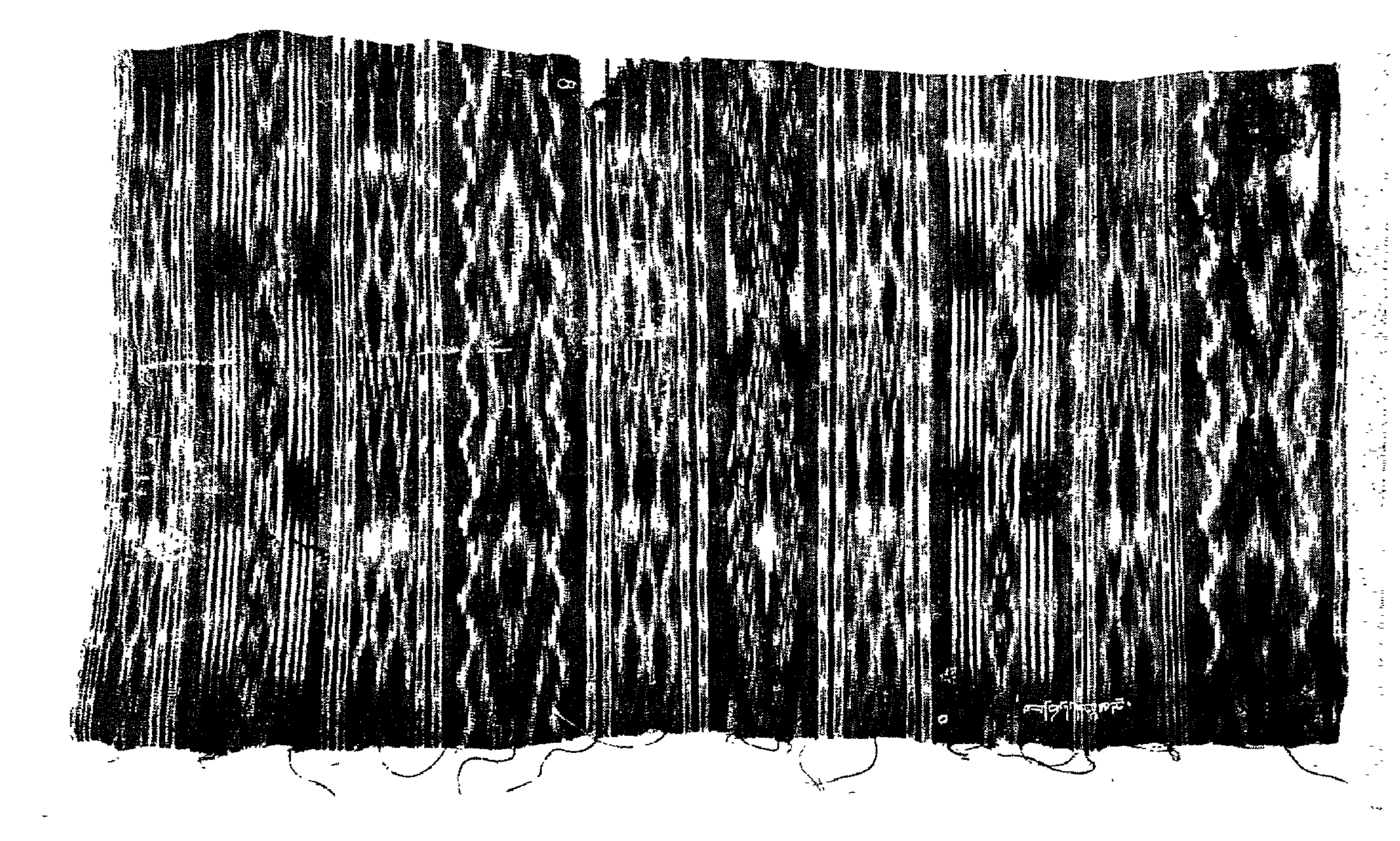
اللوحة رقم ١٣



قطعة نسيج من الكتان والصوف من صناعة الفيوم فى القرن الثالث أو الرابع بعد الهجرة

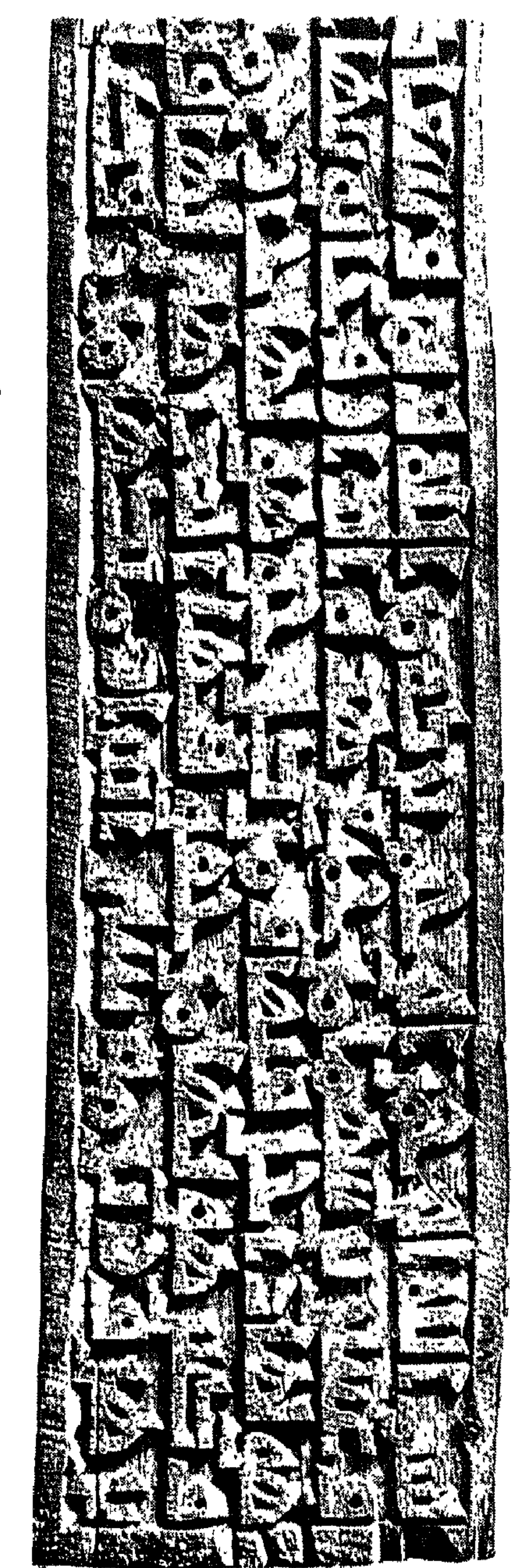
[عن زكى محمد حسن : فنون الاسلام]

اللوحة رقم ١٤



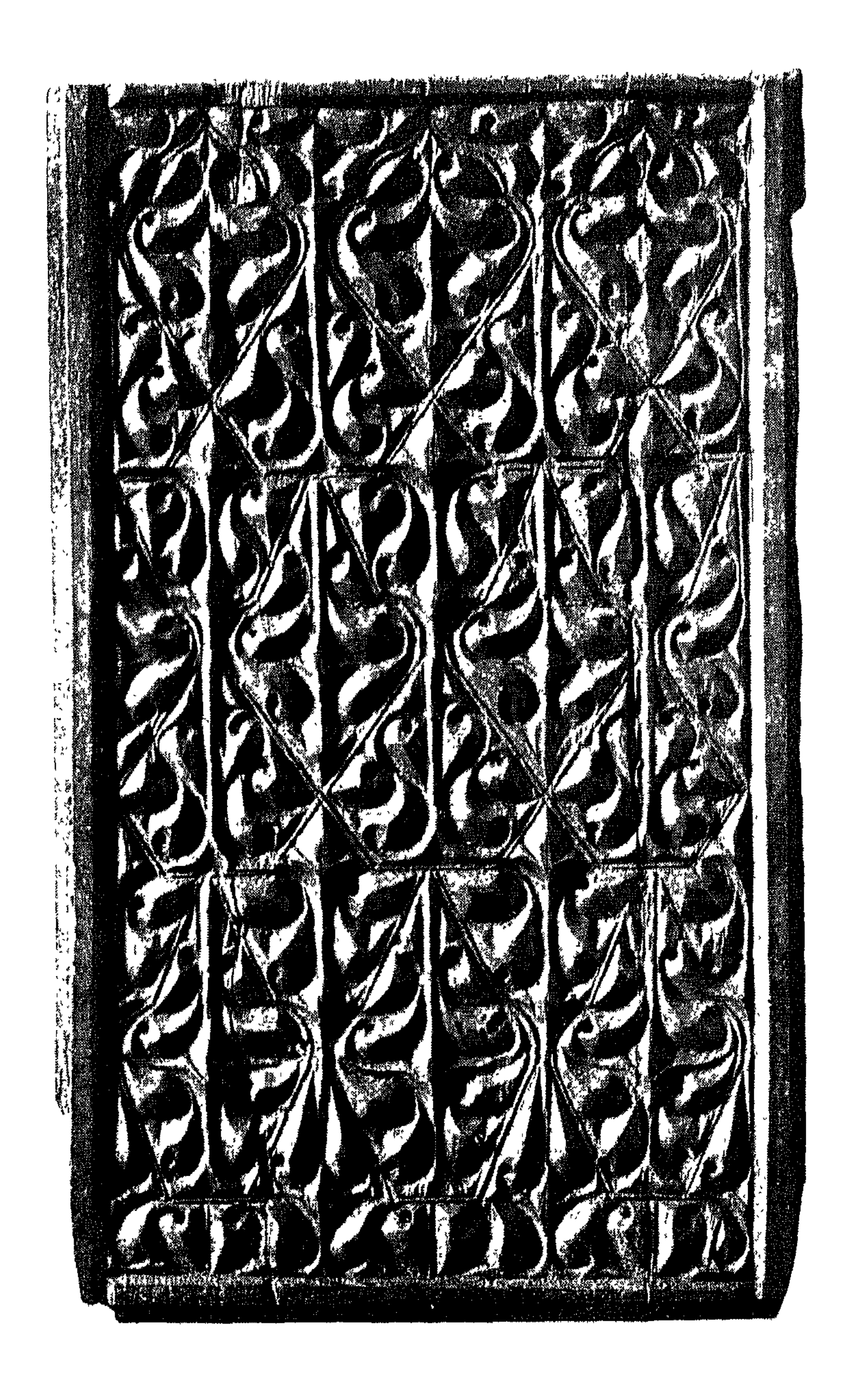
قطعة نسيج من صناعة اليمن فى القرن الثالث أو الرابع الهجرى

اللوحة رقم ١٥



قطعتان من الخشب ذى الزخارف والكتابات المحفورة . من مصر فى القرن الثالث أو الرابع بعد الهجرة

اللوحة رقم ١٦



قطعة من الخشب ذى الزخارف المحفورة . من مصر فى القرن الرابع الهجرى

[عن زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر]

مصر السفلى

(أو أسفل الأرض)

في القرن الرابع الهجري أو العاشر الميلادي

أميال ١٠ ٥ ٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠

* الموقع التقريبي للبلاد التي لا يعرف موقعها بالضبط

بحر الروم

الجفار

الحوف

الشرقية

الشرق

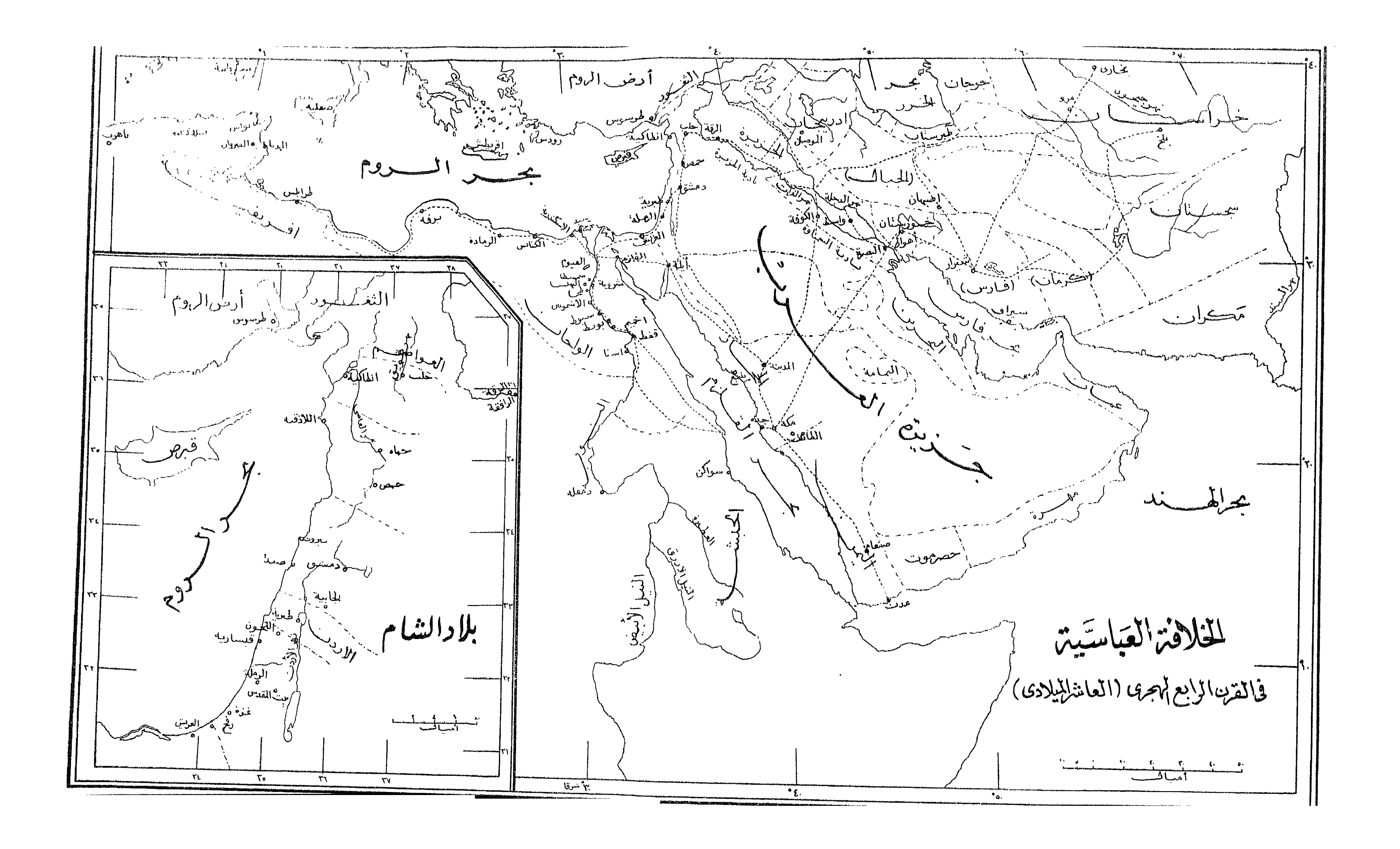
البحيرة

الحوف

الفيوم ومصر الوسطى

نقلا عن الأستاذ جست Guest في كتاب الولاة والقضاة للكندي

عمل محمد صبحي عبد الحكيم

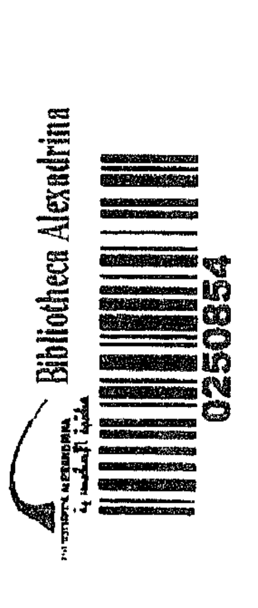

الخلافة العباسية
في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)
بحر الروم
أرض الروم
بحر الخزر
خراسان
سجستان
مكران
بحر الهند
جزيرة العرب
الجبال
فارس
كرمان
الحبشة
النيل الأبيض
حضرموت
اليمامة
بلاد الشام
قبرص
الثغور
أرض الروم
بغداد
البصرة
الكوفة
واسط
الموصل
الرقة
حلب
أنطاكية
طرسوس
دمشق
حمص
حماه
اللاذقية
بيروت
صيدا
طبرية
الجابية
قيسارية
الرملة
بيت المقدس
غزة
رفح
العريش
المدينة
مكة
صنعاء
عدن
سواكن
دنقلة
أسوان
برقة
طرابلس
أفريقية
سيراف
شيراز
أصفهان
بلخ
مرو
بخارى
جرجان
طبرستان
أذربيجان
الجزيرة
خوزستان
رودس
أقريطش
صقلية
أميال

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	١	الجواهر	الجوهر
١٢	١٨	البوير	البربر
٢٦	٢و٧	أن تكينا	أن تكين
٢٦	١٨	أن القاسم	أن أبا القاسم
٢٩	١	كانت جمادى الآخرة	كانت فى جمادى الآخرة
٣١	١٢	الحسن	الحسين
٥٧	٤	كلامة	كلامه
١٠٦	٢٠	مثله	مثله »
١٢٢	١٤	تصل	يصل
١٥٧	٨	محمد بن كلا	على بن محمد بن كلا
١٩٤	١٠	الحسين بن عبيد الله	الحسن بن عبيد الله
١٩٥	٥	الرومان	الروم
١٩٩	١٣	إدارة	أداة
٢٠٦	١١	وية	ولاية
٢٢٢	٢٠	Omedroz	Amderoz
٢٢٩	١٠	ولايه	ولاية
٢٦٠	٦	من قبل محمد بن تكين	من قبل تكين
٢٩٨	٣	على يد فائز أمير المؤمنين	على يدى فائز مولي أمير المؤمنين
٣٠٧	١٠	فقهاه	فقهاء
٣١٩	٢	ابن سيبويه	سيبويه
٣٢٤	١٠	عبد الله بن محمد	عبيد الله بن محمد
٣٤٥	١	محمد بن كلا	على بن محمد بن كلا
٣٤٦	١	الحسين	الحسن
٣٥١	٩	وطارد سيف الدولة الاخشيد	وطارد الاخشيد سيف الدولة

تم طبع هذا الكتاب فى عهد حضرة صاحب الجلالة
الملك "فاروق الأول" بمطبعة جامعة فؤاد الأول
فى ٢ من صفر سنة ١٣٧٠ هـ

محمد زكى خليل
مدير مطبعة جامعة فؤاد الأول


Bibliotheca Alexandrina
0250854